روايات الهلال

بريد بيروت

حنان الشيخ



روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

العدد ٥٢٥

سبتمبر ١٩٩٢ ● ربيع أول ١٤١٣ هـ
NO. 525 SE. L992

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢٥ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٥ دولارا ـ امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤
الادارة القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات ص . ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس . TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

إهـــــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني
جمهورية مصر العربية

بريد بيروت

حنـــــان الشيـخ

●

دار الهـــلال

طبعـــة منقحـــة





الغـلاف مهـداة من
الفنانة : نجاح طاهر

عزيزتي حياة

أفكر بك الآن، بدلا من أن أحذو حذو زمزم وأدُبّ على أطرافي الأربعة وأتحرك ببطء شديد خوفا من أن يراني المدفعجي. وبدلا من أن أمسك المسبحة كما تمسكها الآن جدتي وأسبّح لله وأنبيائه وأستشهد وأستغفر، وانا أمسك بالمصباح الجديد « إنرجايزر » الذي يوزع مجانا كلما اشترينا من الماركة نفسها أربع بطاريات، أصوبه الى الغرفة، وإذا بنوره يتدفق على لوحة رسام كنت قد قدمتها لي في إحدى زياراتك الى بيروت، لأن المرأة التي في اللوحة كانت تشبهني، تشبهني؟ وقسمات وجهها ليست واضحة؟ لعل جلوسها وحيدة في الغرفة، إلا من نور يَتسرب من كوة النافذة، قد ذكرك بي.

أمرّ بالمصباح على الخزانة، لأرى المسامير التي دقت خلف الباب حيث علقت ثوبي. «المغسلة»، وقطعة الأثاث التي لها مرآة وأدراج ورخامة بيضاء.أتذكر السلك بدل المفتاح فأصوب اليه النور وأراه. على رخامتها أيضا أرى الكيس وداخله العباءة التي تنتظر أن أرسلها لك، بحركة تلقائية أهبط بالمصباح الى الجهة الأخرى وأرى الفسيفساء ساكنة كسكون أشكالها الهندسية الملونة. أجدني أفكر بما تكبدته لجلب الفسيفساء وهذه العباءة، وأهز رأسي غير مصدقة. فاسترجاع المشهد وأنا أحملها لك لا يطابق ما يحدث الآن في الخارج، أجواء المشهد كانت المال والشراء ومحاولة تخفيض السعر والبيوت الآمنة والوقت الذي لا حسبان له ثم نقلها الى السيارة والعزم على شحنها. لكن المطار، الطائرات، الجمارك: كل هذا يليق بالأوقات الآمنة، لا بما أسمعه من صخب الذي يبدو وكأنه لن يبقي حتى على جدار واحد.

أفكر بك وأحادثك وكأنك لست بعيدة، رغم أني لم أشعر بهذا القرب أثناء زيارتك الأخيرة الى لبنان، يبدو لي أن الأفكار والأحاسيس التي تولد أثناء العنف هي الحقيقة، إذ تلمع في عين المرء « فلاشات » أخيرة تريه الأحب إلى قلبه، تماما كمـــا لو أني في حالة حب، أذكر أني عنـــدما كنت أفتح عيني في الصباح، كنت أفتحها على ناصر، وأعْرف أنه بقي بين أجفاني طوال الليل، لحظة إطفائي للنور.

أثناء علاقتي به، بل في بدء علاقتي به، كنت أذكرك طوال الوقت، فأنت بطانية الاطمئنان، كلما شعرت ببروده تجاهي، قلت له فجأة بأني سأسافر اليك، أو أنك ستزورينني، أو أننا سنلتقي في بلد ما. أفرش أمامه ما ترسلينه لي، لأكتشف أنك فعلا كنت في حياتي كجدتي وكإسعاف، رغم أن حبي له عوضّني عن الاشتياق لك كما في السابق، وجعلني أعتاد على الحوار مع آخر غير نفسي، إذ بحواري وقربي منك كنت كمن يحاور ذاته.

أعرف أنك تحاولين الاتصال بي الآن بينما آلة هاتفنا صامتة منذ شهر أنت البادية دائما بالاتصال أثناء المعارك أو بعدها. يليك مباشرة أمي وصوتها المضحك المبكي. كنت أعرف أنك على الطرف الآخر ما أن يرنّ الهاتف. كنت لا أصدق صوتك الذي كان يأتي وكأنه لا في شريط التليفون بل في أرجاء البيت كله. فأجدني أتنبه إلى الحياة من جديد وأرى أصص الزرع، وألاحظ سطح الطاولة وعروق يدي.

تحاولين الإتصال بي، فصدى المعارك لابد أنه على الصفحات الأولى في بلجيكا وفي النشرات الإخبارية. لا أخفي عليك أني ، بدلا من الشعور بأني لا أريدك أن تحملي بين أضلاعك القلق والخوف عليّ من هذه المعارك ككل مرّة، أشعر بالإرتياح لحدوثها هذه المرة، فوخز الضمير المتواصل الذي حلّ عليّ منذ مكالمتنا الأخيرة لم يفارقني سوى الآن، إذ تركت وقتها فتوري الذي لا يُصدق يتغلب على حديثنا، رغم معرفتي بجلوسك الساعة تلو الأخرى تحاولين عبثا التقاط

خط بيروت التي وكأنها أصبحت بيت إبليس. حتى الخطوط الهاتفية تتّقي شرها ولا تؤدي مهمتها، وكان بالإمكان أن يظهر فتوري قبل الآن، لكني كنت أدّعي وأمثل اللهفة وانا اتحدث معك حتى وإذا زفرت تأففا إذا كنت على موعد أو في حضرة أحد كنت أحوّل زفرتي بسرعة إلى زفرة اشتياق وأنا لا أفهم ردّة فعلي تلك.

فأنت تودين معرفة رأيي بما يحدث والاطمئنان علي، بينما أكون أنا منغمسة بتفاصيل أخرى ، الحب، الجنس، وأحيانا الجرذ. كيف أتلو عليك ما يحدث في بيروت وفيْ لبنان كله، وما يقلق بالي لم يكن المتفجرات والمصابين بل الجرذ الذي احتل مطبخنا، والذي أصبحنا نستأذنه كلما أردنا الدخول الى المطبخ أثناء الليل، لنقوم بدفش باب المطبخ مرات عديدة، ولنتحدث بصوت مرتفع طوال مكوثنا في المطبخ ونغني له: « ميّل يا غزّيل، يا غّزيل ميّل ». ولنكتشف أنه أشد ذكاء وقوة منّا. فهو قد استطاع أن يخطىء الكمائن ويحذرها، فيرمي بلوح خشب على السائل الدبق الذي مسحنا به الأرض حتى لا يقع في الفخ..

أتأفّف من حياة التي اقترن اسمها باسمي حتى بات اسمانا واحدًا: حياة واسمهان، اسمهان وحياة، أيكون هذا نتيجة عدم إرتياحي للتحدث في التلفون بينما خلقت وأنت تعشقين التلفون، تتكلمين عبره براحة. حتى الطريقة التي تمسكين بها السماعة، كانت تنم عن ذلك، بينما أصاب بارتباك وأنا أتحدث عبره، ولا يعود هذا فقط الى كوني لا أعرف ما هي حالة الشخص الذي أتحدث معه، بل لأنه كان آلة غامضة مجهولة منذ الصغر، لدرجة أني كنت أظن أن باستطاعتها أن تنقل أشياء أخرى غير الضوت، ربما الصورة، ربما الماء كما حدث في فيلم لاسماعيل يس، بينما كنت تتجلّين وأنت تتحدثين عبره، وتنتظرين المكالمة من الكثيرين الذين أحببتهم، وكأنك ستلتقين بهم وجها لوجه. لا أصدّق الآن هذه الخرافة التي أحاول إقناع نفسي بها إذ كان فتوري يتحول الى نوع من الشراسة

التي طالما حاولت طمرها أمام أخبارك المضجرة ولهفتك:

- « يا أسمى.. شو خبريني.. كيف الحالة؟ »

أليس من السخافة أن ألخص ما يجرى بجملة: الحرب هيك وهيك.. ناس بترقص، وناس بتموت، أو: «اني غير مهتمة... رغم اني كنت في اشد الاهتمام البارحة ». ثم نصمت وأحاول أن أسأل بدوري بلهفة.. لكن عمّ سوف أسألك؟ ماذا سوف أسمع عنك؟ ما هي أخبارك؟ لقد وجدت طباخة لبنانية تطبخ لك كبة الصينية والملوخية؟ وابنك يلعب التنس وسيصبح « شامبيون « وانك مشتاقة.. ويا لطيف، مشتاقة ».

بينما الحياة التي كوّنتها في بيروت لم تعد تحاكي سوى لبّ الروح، أصل بها عميقا حتى العظم، لم أعد أطفو على سطحها ولا حتى في أحاديثي مع زمزم وأم فضيلة، وهما كأنهما بدورهما قد أخذتا تدخلان جوّ نفسيهما، لتقول لي زمزم منذ أن سكت المحرك الكهربائي: « والله أنا فاقدة لها الموتور كأنه بني آدم، ساعة يطلب أكل ساعة بيهدر ساعة بيوقف، ساعة يطلب من يراضيه، ساعة بيطمئن » ، وفضيلة أخذت تحفظ أقوال زياد الرحباني فتبادرني قائلة: « كان عندنا بيت شعر لكن المهجرين صادروه » ...

لم يعد من الممكن للسنوات التي مرت والحرب بين أضلاعها أن تحتفظ بصداقتنا كما كانت، فحتى اللغة قد تبدلت. الحرب طمرت ناسا وأبرزت آخرين. ووجدت نفسي آلف أشخاصا ازدحموا بالقصص والأخبار كما لو كنت في سن المراهقة أو في سنتي الجامعية الأولى، ولأن الحرب ألغت الظروف الطبيعية اليومية إزداد الناس غرابة. أخذت أستمتع بهذه الغرابة، وهي تشدني اليها بعد ان فتحت نفسي للآتي وللغادي كخان طومين الذي كانت تصف جدتي به بيت والدي، وأخذ البشر يدخلون حياتي زرافات. ولأن لكل منهم حركته وصخبه، كان عقلي وساعاتي

تضيق بهم من وقت الى آخر، لكني لم أكن أقوى إلا على معاشرتهم.

ربما لأنه ما عاد من الممكن أن توطدي في بلجيكا سوى علاقات هامشية، فقد فضلت أنت البقاء في الماضي الذي عشناه معا، والذي منه أخذنا معا نستمد الوقود لتبقى صداقتنا على ما هي ، حاولنا لصقْهِ بالحاضر ونجحنا الى حد ما في الفترة الأولى. لأن فضول كل منا لمعرفة حياة الأخرى كان كبيرا . ولان كل منا حاولت ان تعيش تجربة الأخرى وأفلحنا ذلك لمدة قصيرة. يساعدنا تدفق الشعور، لكن المسافة البعيدة منعت كلينا أن ندخل فعلا في حياة الأخرى الجديدة. ورحت أشعر بأن الماضي أخذ يطمر نفسه بنفسه لفرط ما تساقط عليه من ركام الحاضر، حتى لم تعودي أقرب إنسانة اليّ، والى الآن لا أعرف إن كنت قد لاحظت هذا في زيارتك الأخيرة أم أنك عللّت هذا الفتور بتبدل مرضي في شخصيتي، وشعرت بالحزن لأن صديقتك لم تعد على عهدك بها، وربما غفرت لها وفكرت بمساعدتها. فأنت لم تستوعبي كيف أتركك وأترك السهرة في منتصف الليل وأخرج يداً بيد مع صديق أخيك الذي كان يصغرني بأعوام الى دير الراهبات للسؤال عن أم فضيلة، بينما لابد أنك رأيتني أميل عليه تارة وعلى الحصى تارة أخرى ، سعيدة بأنفاسه، لأعود الى بيت أهلك عند الفجر وكلّي رغبة لأنام فقط. عندما سألتني عن أم فضيلة ضحكت وقلت: « مبسوطة بين نساء أهل البيت ».. وأوضحت لك: « يعني أهل بيت النبي » .

منذ أن عرفت أنك ستزورين لبنان، لحضور عرس أخيك ركبني الهمْ، عليَّ أن أستعد، عليّ أن أجد علي وأذهب لاستقبالك إذا كنت ستأتين عبر المطار. عبر المطار؟ وزفرت عند هذه الفكرة، معني ذلك انك ستبقين الليلة الأولى عندي، وأنه عليّ أن أحضّر لك غرفتي ، وأتناول أشيائي من هنا وهناك وأعتذر عن موعدي مع سيمون وأحاول أن أقنع جمانة على ان تذهب معي لحضور عرس أخيك، و أن أقربكما من بعضكما، كأني مسؤولة عن الفيزياء بينك وبينها... كل هذا والنشاط

الذي يقتضيه ذلك غادرني من زمان.

ثم أخذت أفكر بما سوف أرتديه في ليلة العرس، أذكر أني وقفت طويلا أمام المرآة، أتخيل ما سوف ترى عيناك، متمنية أن تكون الدهشة ردة فعلك، ورغم بقائي في لبنان فإحساسي بالذوق مازال ينبض، وبأنني لم ازل ألمّ بما يحدث في الخارج، وبأني أتطور، وبأنه لم يسدل عليّ الستار بعد.

وأخذت أختار وأبدّل، وأرتدي وأبدّل، ولم أفلح في تخيل ابتسامة أو دهشة أو استحسان في عينيك أو على وجهك.

لابد أنك ترتدين أجمل الملابس وأن التلميذة الفنّانة التي أخبرتني عنها قد صممت لك الفستان لأنها أصبحت تصمم لك كل شيء، تقوم بنسج القماش لك وصبغه وإيجاد من يصمّم لك *الحذاء والحلق*. (أذكر أنك أخبرتني بهذا وأنا أنتظر مكالمة من علي لأخبره بأن المحرّك قد تعطل) ووجدتني اقف أمام الخزانة المفتوحة امامي، كأني أمام ثلاجة تطفح بالمأكولات، ومع ذلك لا أجد لقمة واحدة أضعها في فمي . لم أعد أؤمن بشراء الملابس الثمينة، ولم أعد أعترف بأن هناك حفلات وأعراسا، عدا ان التقاليع التي كنت ابتكرها لم تعد تليق بسني، ثم وجدتني فجأة أحزر كيف أجعلك تشهقين.. أتيت بفساتين جدتي، التي تكاد تكون مهترئة تحت الإبطين لكني أحبها وهي لم تزل معلقة في خزانتي منذ دهر. كانت من المخمل المطبوع على الحرير بلون الصدأ والأخضر، الأزرق والبنفسجي، بينها فستان من الدانتيل الأسود، لم أر في مثل نعومة تخريمه.

أمام المرآة رفعت شعري بيد وابتسمت، ثم رفعت صدري بيدي الأخرى وابتسمت وكأني أمام عدسة تصوير أو عين رجل، لكني كنت وحيدة أمام المرآة المكسورة، ودعاء جدتي الذي كان يصلني عبر الباب المفتوح. إنها تدعو الله أن يحميني وأنا أجتاز المعبر الى الشق الآخر، إنها خائفة عليّ وأنا قلقة البال، لا من

أجل العبور الى الجهة الشرقية فقط، بل لأني سألقاك، وجدتني أطوّق نفسي بيدي، وأتمني لو أنهما يدا غيري ، يدان طويلتان تحيطان بكامل جسمي ، ولم تتبدّد حيرتي في اليوم التالي ، فأنا كلّي تمنٍ لو أجرؤ على إرتداء الفستان وأعبر به الى الشق الآخر، غير مهتمة للسير بين الرمال وأوراق الشجر الميتة ومع ذلك فقد وضعته في الحقيبة الصغيرة.

اول ما انتقدته كان الطريقة التي كنت تتحركين بها وتجلسين وتتكلمين، إنما عبرت عن عدم حساسيتك أو عدم ذكائك، وعندما حاولت أن تكوني معنا، خيّمت على وجهك الشفقة تجاه كل من بقي هنا. تتحدثين وأنت تضمين الأشخاص الى صدرك ثم تتحسسين الوجوه، تضمين الشخص الى صدرك من جديد، كأنك تقولين: « أنا أعرف عذابكم »، لماذا أيقنت أن من بقي فقط هو الذي يتعذب، ثم بدوت لي وكأنك حمامة سلام بين أهلك، تتنقلين من شخص الى آخر، حتى عندما وجهت أمك اللوم لك لسبب ما ابتسمت لها وقبلتها على خدّها وعندما استعوق الحضور أهالي العروس، إكتفيت بالإبتسام، بإختصار، أنت لم تعودي معنا، ابتسامتك وعطفك يغطيان عجزك لأن تكوني معنا.

إنتهي العرس وتمني لنا الجميع الزواج، قلت أنا ضاحكة من جديد بأن عليّ وجمانة أن نتزوج بعضنا.. علقت إمرأة: « مضبوط، وين، في رجّال مثل العالم؟ غير الزعران والمسلحين، والأوادم ما عندهم قرش، والباقي هاجر » .

وبدلاً من أن ننتحي معًا، نتبادل ما حدث طيلة غيابنا عن بعضنا وجدت نفسي أتسمر على مقعدي فرحة، لأني لم أعد الى بيروت ضمن قافلة السيارات التي قفلت راجعة الى الغربية، والتي لابد أن ركابها شاركوا بفرحة العرس نصف مشاركة إذ التفكير بالعودة أثناء الليل كان ملحًا بلا شك.

فرحة لأني أجلس على الشرفة أسمع صرصار الغابات يغني، وهو الذي

فكرت أني لن أسمعه طيلة حياتي وسراج الليل الذي كان يلعب لعبة «الغمّيضة » بين الأشجار، أتنهد فتفهم جمانة معني تنهيدتي وتجيبني بأخرى، ومن غير أن نتحدث، فكرنا معا بأن شقّهم هو المحظوظ، لأنه نال الجبال أيضا، ويبدو أنك كنت تنبشين عن موضوعات للحديث. لابد أنها كانت تلغى نفسها بنفسها وهي تمر بخاطرك، فتكبتينها وكلك ثقة بأنها لن تهمني، فهي بعيدة عن الحياة هنا. وربما بدت بعيدة حتى عنك.

قلقي كان في محله، إذ رغم قبلاتنا وعناقنا شعرت بأن بعد المسافة لا يزال يهيمن علينا، فيبعدك عني تارة ويبعدني عنك تارة أخرى. حاولت أن أحدثك بعفوية، بلهفة، أن أقترب منك، بينما بدوت أنت مترددة غير واثقة واكتفينا بترديد هذه الجملة: « مشتاقة كثير، مشتاقة كثير » وضعت اللوم على زحمة العرس والضجيج الذي يلفّك ويلفني وتدخّل الآخرين:... « كيف قطعنا؟ كيف نستطيع العيش في الغربية؟ تتذكرني قريبة لك، وتسألني: « لماذا لم أتزوج حتى الآن؟ ولدهشتي وجدتك تشاطرينها الرأى فتعلّقين: «بانه عليّ زيارتك في بلجيكا حتى اكش عني الرجال اللبنانيين من كثرتهم » .

أتراك تكذبين أم أنك غافلة عن أن الذين يعودون لزيارة لبنان هم إما الأموات في التوابيت وإما الذين يريدون الزواج.. على أية حال كان عليَّ أن أبتسم لك وأجيبك ساخرة بانه لربما عليّ ان اتزوج بجمانة. تحاولين التقرب مني وأنا لا أشعر بالدفء تجاهك هذه المرة، وإذا أمعنت النظر في وجهك أيقنت أني لم أشتق لك، هل هو حذاؤك الذي يشبه حذاء راقصات الباليه المزيّن بزهور زرقاء، أم فستانك الأزرق الذي كان يشبه ما ترتديه فتيات « غوغان » ؟ لا يمكن لنا أن نتقارب وكل منا تحيا حياة تختلف كل هذا الاختلاف عن حياة الأخرى، ابتداء من حذائك الذي لا يمكن أن تخطي به خطوة واحدة على الأرصفة المحفرة، فهو لا يماشي المستنقعات، ولا الأصوات المنبعثة من الجوامع أو الكنائس المصلّية على

روح الأموات، هذا حذاؤك ! فكيف إذن تعابير وجهك التي تفصح بأن رحيلك يعني أن الحرب لم تعد موجودة، وأذا ألصقناها بوجهك لاعترفت بأنها موجودة، لكن «لا بأس، إذا بعض الناس عاشوها وتضرروا من جرائها ». مع كأس العرق الثانية ألاحظ أني سعيدة بنظرات أقربائك وأصدقاء أخيك خاصة.. هذا الذي هو أكثر جاذبية من الآخرين والذي لم يرفع بصره عني، كلما صدح بقريدة زجل، ابتعد عني، ليعود يبتسم لي وهو ينهيها، كانت عيناه تقولان لي بانه يغازلني وبأن اسطر هذا الزجل كله من اجلي.

بدلا من أن نلتف معا لنغازل الشاب ونضحك التفّت جمانة حولي: باتت أفكاري تلتقي معها من غير أن نتحدث، تماما كما كنا، أنت وأنا معا، فأنت لم تتبدلي حتى في العام الذي عدت به متزوجة، بل كأن الزواج فتح قابليتك للغزل وأردت المزيد من المعجبين، كأنك لم تشائي أن يطوي الزواج صفحة عليك، وها أنت الآن تجلسين وكأنك تراقبين بامتعاض هرجي مع جمانة.

تتدخل أمك ضاحكة قائلة للشاب الجذاب:

- « حاج عيونك عالبنات يا ملعون، والله فاهمتك ».

يرد وهو ينظر في عيني أو يقبلني ويضمني اليه رغم الطاولة بيننا وما عليها من كؤوس وصحون وزهور.. « لا والله أنا عم غازل الست ايفيت » ضحك الجميع، ست ايفيت صاحبة الدكان التي منذ الصغر كانت تعدنا كلما رأتني معك بأنها سوف تعد لنا قالبا من الكاتو. ضحكت الست ايفيت ومدت كأسها وقد علقت ورقة بقدونس بين أسنانها: « كاسك وكاس الشباب » قال لها: « أكرعيه يا ست ايفيت والك بوسه ». كرعته الست ايفيت بسرعة ثم غطت وجهها بكفيها، فكرت أن هناك فعلا شقين، لا أتصور هذا الجو المرتاح يخيم في شقنا، لا في بيروت ولا في القرى، لا قبل الحرب ولا بعدها، بل أن الأمل في توفر جو كهذا ولو بعد سنوات

طويلة بات غير وارد. ربما لو لم تحدث الحرب لكنا على هذه الدرب. .

عدت الى الطاولة، أعادتني حرارته، عيناه تقولان لي : « خلليني آخذك تحت هالشجرة وبوسك ». لذلك وجدتني لا أعود أنظر اليه اخذت اشعر بالخجل كلما فتح فمه ليتلو بيت زجل، رغم أن الأنثى كانت في ابياته بصيغة الجمع......

» من لما.. العرسان راحوا الليله وتركوني مع حبات اللولو..

... وقلـبي بيوقف ويدق وأنا بقـــــللو

... اسكت أنت وقت اللولو ما هللو... «

تمنيّت لو ألتصق به تحت الشجرة، أريح وجهي على صدره أقول له: « قلبي عم يدق، إذا مسكت ايدي غبت عن الوعي، صار لي زمان؟ أي زمان كثير ما حدا تأملّنَي، وغازلني هيك، مظبوط من زمان، ما حدا دعاني على السينما أو على مطعم عالبحر حتى نمشي ونحكي ونتغازل وأرضى شوي وأتدلع شوي، هون في سينمايات وفي مطاعم عالبحر، بس بكره لازم أقطع عالغربية إذا مش بكره، بعد بكره، إذا مش بعد بكره بعد أسبوع، بصراحة أنا حاسة مش ببلدي، أنا سايحة، راحت علي، بس أنا مش دايما بفكر هيك.. أوقات من قبل كنت قول أنه الحرب عطت معنى لحياتي، الان فهمت انه، راحت علي مش ممكن أفتح قلبي إلك.. الليلة واحدة؟ مش لأنك مسيحي .. بس لأنه في قطعة بكره، وانت مش راح تسترجي تقطع عالغربية، يمكن أنت تعوّدت على الفكرة أنا من هونيك لأنك شربان ولأني صاحبة حياة، وأنت يا ترى مثلي ومثل حياة لا شرقي ولا غربي؟ بس أنا صايرة كلي ظنون.. الناس عم تتبدل عندي ...ناس كنت أعرفهم وهني تلاميذ وصاروا أساتذة ورجعوا وصاروا للخلف مية سنة، انحازوا لجهة، يمكن يجي دوري وأنحاز أنا!! مين بيعرف؟ يمكن وقتها برتاح، الإنتماء حتى للشياطين الصفر يمكن افضل.. القرار مهما كانت نتيجته صعبة بخللي الواحد يرتاح، والمتعصب بصير

يلاقي كثار مثله. ياخذ ويعطي معهم، يللي منتمي لشقّي. بيكره الكل حتى اللي على الحاجز من شقكّم، وأنا بالعكس دايما بشعر انه بدى أحكي وطق حنك مع اللي عالحاجز، كانه بدّي يضحك لي ويغازلني، بشعر دايما بدي تأكيد منكم بدّي عاطفة منكم، بدي الأمور تكون مثل زمان.. زمان.. بس هلق أنا شربانة، ما بدّي شي الا ريح راسي على صدرك».

نظراته تخترقني ، لكن تفكيري بما أريد أن أقوله للنظرات، زادني تعاسة، للحظات، ثم عاد الدفء من جديد يمتد اليّ عبر صوته، عبر أسنانه التي تظهر كلما ضحك عاليا، وهو يغازل ايفيت: « ببيع حياتي كلها لأمسك إيدك.. لبوسك على تمك.. لا غيرت فكري ما عندك أسنان، طيب على خدك».

تجيبه: «اذا جاي عبالك تشم ريحة الهبرة، يللا، انا من الصبح عم دق كبة الجرن».

يضج الجميع في الضحك على ردها هذا، فيزداد شعور الشاب بإكمال هذا الغزل الضاحك، فيسألها أن تشرب معه كأسا أخرى وهو يقترب من فمها بكأس مليئة وهي تبعده عنها: « هلق أضراسي بيوجعوني وحلقي بيلتهب » . وعندما انتشل قطعة الثلج من الكأس، أبعدت وجهها وهي لم تزل تضحك: « وحياة مار مارون، حلقي بيلتهب ».

فأجابها: « شوفي هلق مار مارون نايم، شوفي، هو مغمض عيونو، بس شو بيعمل هو تمثال ومجبور يبقى واقف » .

مار مارون؟ عرفت أن النقطة المضيئة هناك، التمثال الأبيض هناك، الذي كنت أظنه المسيح هو مار مارون.. « مار مارون » وصمت أنت تتذكرين، مار مارون « يى شو كنت خاف منه.. ستي ام جورج كانت تخوفني فيه إذا ما شربت كباية الحليب كلها » .

شعرت فجأة بالحنين الى حياة الماضية رغم أني كنت تحت تأثير هذا البناء

الذي بدا تحت قدمي التمثال وكأنه دودة قز بيضاء امتدت عرضا، وسألت بلهفة: اذا كان هذا مستشفى دير مار مارون؟ وعندما قيل لي بأن هذا هو، هبط قلبي وهمست: « حرام فضيلة !» لابدّ أن صوتي جاء عاليا إذ سألتني أم حياة: « مين حرام؟ » أجبت وكأني أخيرا أتتني الفرصة للتعبير عن صمتي: « أم فضيلة، بمستشفى مار مارون»، وكنت قد عرفت ما يدور في عقل الآخرين ».. فضيلة.. ما هذا الإسم العتيق، الفلاحي، المسلم » .. وسألت ايفيت مستغربة: « وأهلها هونيك عندكم ».. قلت: « أهلها دايمًا بيقطعوا ويزوروها هون »، ولم تستطع فضيلة إلا أن تشق الصخب ونظرات الشاب الجذاب وتصل اليّ.

تتراءى لي فضيلة وهي تستحلفني بصندالها الذهبي العالي وبسحنتها البيضاء وعباءتها السوداء المطروحة فوق كتفيها، تستحلفني بيديها السمينتين والعلكة بين أسنانها لأن ترافقني إلى الجهة الشرقية، لا أعرف من أين تطلع. فضيلة في وجهي كلما هممت او فكرت بزيارة اصدقائي في الشق الاخر. يلح علي ان اصطحبها معي فتزور أمها في مستشفى المجانين هناك، أتمنع، فيزيدها ذلك إلحاحا، آتيها بالحجج فلا تسمع، بل تشهق وتضرب صدرها، لائمة نفسها لأنها لم تكن تعاود زيارة أمها بالقدر الكافي وهي لا تستطيع السفر وحدها، لأنها لم تعد تسيطر على خوفها وعصبيتها كلما وجدت نفسها وحيدة في سيارة في الشق الآخر باتجاه مستشفى مار مارون. أخبرتنا عن زيارتها الأخيرة كيف فتحت علبة البقلاوة تقدمها للسائق كي يتناول منها قطعة، فربما زال خوفها منه لكنه رفض قائلا: « مرسي » ووجدت نفسها تبحث عن علبة سكائر اشترتها خصيصا لهذه الرحلة حتى تبدو إمرأة قوية الشخصية وأخذت تنفث دخان السيكارة وتسعل، فهي عادة لا تدخن، وبدلا من أن تلعن الشيطان على جاري عادتها عند السعال، راحت تلعن حزبي أمل وحزب الله، مقحمة السائق في القضية:

– « بشرفك، سمعت حدا بيعمل حزب لربّه غيرنا؟ ».

واذا لم يجبها السائق، تشاغلت بفتح كيس النايلون لتتأكد أن العباءة السوداء لاتزال محشورة في القعر، تُخرج علبة شوكولا وتقدمها الى السائق الذي يمتنع هذه المرة أيضا. تؤكد فضيلة لنفسها أنه يظن بأن العلبة مسمومة، لديه الحق، فشطرا المدينة التي ينتميان اليها عدوان متحاربان. وقصص الجواسيس بين الشقين في انتشار. تخاف وتحار في أمرها. تعود فتقرب منه علبة السكائر وعندما يمد يده متناولا سيكارة ترتاح قليلاً لكن الخوف يعود اليها من جديد حين تدرك فجأة أنها لم تعد تسمع أبواق السيارات بل ولا ترى سيارة واحدة على هذه الطريق الوعرة، ولهذا راحت تخبره عن العذاب الذي يلاقيه أهل الغربية في معيشتهم وهي تكاد تبكي من الخوف، ولأن السائق اكتفى بهز رأسه أخذت تخبره من جديد عن ولائها للمسيحيين وكيف أنها لم ترض أن تودع أمها إلا في مستشفى مار مارون، غير مبالية بالتكاليف التي بلغت ثلاثين ليرة يوميا، ولا يبعد المسافة أو مشقة العبور من الغربيـة الى الشرقية.. « مستشفيات الغربيـة فوضى، المجنون عندهم مجنون ! ».

عندما زاد السائق من سرعته أيقنت فضيلة أنه سيذبحها، سيقطعها إربا إربا ويرمي بأشلائها في تلك الساقية أو عند منعطف الجبل ذاك، الإغتصاب أهون إذا أراد اغتصابها، ستتركه يفعل ما يشاء بها إلا التخلص منها بقتلها. قطعت الصمت وتحدّت الخوف قائلة له بتوسل: « لو بعيش هون، معزّزة مكرّمة.. هون الحياة ! مش عندنا ».

لهولها، ضرب السائق فجأة بكل عزمه عجلة القيادة، رمى السيكارة من الشباك وزفر زفرة عالية وكاد ينحرف جانبا بالسيارة وهو يصيح بها: « ولك خلصيني من هالحكي.. هونيك أجلك حياة خرا.. وهون أجلك حياة خرا.. » ومع ذلك لم تشعر فضيلة بالارتياح تماما إلا عندما تعرفت على الفندق الذي أنزلن به ملكات الجمال سابقا والذي كان على مقربة من المستشفى، فأخذت تشكر لطفه

ومروءته قبل أن تترجل من السيارة، وهي تقدم له من جديد قطع البقلاوة والشوكولا والسكائر، وعندما قال لها: « بالقليلة بعد في عندكم محلات الصمدي..» أجابته بكل ود: « والله تعطيني عنوان بيتك، المرة القادمة اسلم مدامتك اكبر علبة بقلاوة، ولو بحر بقلاوة ما بيكفي مروءتك وحسن أخلاقك، حاملين أمي وحاطينها وحاضنينها برموش عيونكم.... ».

وإذا تهم فضيلة بدخول المستشفى لم تستطع إلا أن تستشهد بالخالق وهي ترى الجبال والوديان المنحدرة حتى البحر، تنبهت الى شهادتها، فضربت على فمها. التفتت حولها بغتة خوفاً من أن يكون أحد قد سمع شهادتها، لم تر سوى المرضات يمشين هنا وهناك. ضحكت وهي تتذكر اليوم الذي أدخلت فيه أمها المستشفى. كانت مكسورة القلب تتوددّ إلى أمها طوال الطريق وهي تمسح لها شعرها طالبة منها الغفران لأنها ستودعها هذا المستشفى البعيد: « كنت خدمتك بعيوني يا أمي.. بس مش قادره. أنت من جهة والقنابل من جهة » ثم أخذت تلقّنها أن تقول يا عذراء بدلا من النبي محمد والإمام علي، وباسم الصليب بدلاً من بسم الله الرحمن الرحيم، حتى يحبّها الجميع خاصة المرضات. والأم تردّد خلفها يا عذراء وباسم الصليب بصوت طبيعي مطيع لم تعهده فضيلة بأمها من قبل. لدرجة أنها شكّت بأن تكون أمها مجنونة فعلاً، وفكرت: « لعلها الحرب ».

ولكن ما أن داستا عتبة المستشفى حتى رفضت الأم أن تخطو خطوة أخرى قائلة إن الدجاجات تضربها بأجنحتها وأنها خائفة من أن تدوس على أعين الأطفال إذا هي مشت. ولما أجبرتها فضيلة على السير ووجدت نفسها في رحاب المستشفى شهقت أم فضيلة صائحة:

« اللهم صلي على النبي محمد وآل النبي، وعلى نساء أهل البيت الطاهرات » وهي تشير إلى الراهبات بثيابهن البيضاء.

لم أخبرك بكلّ هذا والذي مرّ عليّ بلمح البصر والذي غاب حتى قبل أن أسمع الشابّ الجذاب يقول لي: « يللا حتى أخذك عندهالماسورات كلهن بيعرفوني. غيرنّا كل الكهرباء بالدير من مدة، يللا قومي تأخذك. شو ناطره؟.» إنه يريد الإختلاء بي، يريد أن ينفرد بي تحت الشجرة، أريد أن أريح رأسي عند صدره . لا يهمنّى أن أتلو عليه قصّة أمّ فضيلة. أريد أن أمسك بيديه وأمرّ بهما على شعري. أجيبيه بلهفة: «يللا» فتتدخلّين أنت قائلة: « بأن الدير لا بدّ ان يكون مغلقا». وجدتني أسرع في النهوض وأنا شبه مترنحة من جراء كأس العرق الثالثة التي رست عند ركبتيّ وقدميّ ، لا يمكنني البقاء والنوم من غير الحرارة التي سوف تمتد بيني وبينه.. وشعرت رغم كأسي الثالثة أنك ضد هذه الفكرة، لكني نهضت غير مبالية بنظرتك المستغربة تصرفي هذا، بينما عرفت من غير أن أنظر الى جمانة بأنها تتمنى لو أن يسحبها آخر الى حيث سحبني الشاب، الى أشجار الزيتون عند الدير، وكانت البرودة قد امتدت الى زجاج السيارة. رغم عناقنا إلا أني لم أستطع أن أبعد صورة أم فضيلة، وهي تستند بكلتا يديها الى حديد الشباك، بينما وقفت الراهبات بأجنحة فراشات رؤوسهن المنشاة، يلحسن شواربهن بصمت وهن يتأملنني وأنا بين ذراعي الشاب، أتمنى لو تزول من السيارة جميع المعدات الميكانيكية التي تعوق من تمددنا بارتياح معا، لكن الكأس الثالثة تجعلني أنسى وأصبح كلي في مكان واحد. كلما أسرعت، كلما دخلتني أجنحة فراشات رؤوس الراهبات ثم وكأني أدخل باب الدير، أدخله وأدخله لأجدني في غرفة أحد الأسرة أرتعش وكأنه فارغا من المرضى ومن المجانين.

عندما عدت إلى بيتك، تراءى لي أن الأضواء لم تزل في الغرف لكني كنت واهمة، فالفجر قد أطل والجنيناتي كان ينشل رؤوس البطاطا ويكوّمها على حدة، والباب مفتوحا، إسرعت الى غرفتك ولم أجدك بها بل وجدت جمانة.

وبدلا من أن يعيدنا غيابي الى أسرارنا كالماضي، زاد من الهوة التي أخذت أراها بيني وبينك، والتي كانت تمحى أثناء إقامتك عندي، خاصة عندما نذهب الى البحر، وعندما ندخل الجامعة الأمريكية لتعود الهوة تكبر بيني وبينك، وأنا أسمعك تنتقدين ذهابي مع الشاب الذي يصغرني وتسرين اليّ بأن تصرفي ذاك لم يكن طبيعيا وإني ربما كنت بحاجة الى استشارة نفسية، هكذا من غير أن يرمش لك جفن، أو أن تحاولي فهم كيف أصبح نمط الحياة في بيروت. لم أهتم وقتها إذ كنت أبتهل ألا تبدأ مناوشات المعارك التي كانت كالرذاذ طائرة في الجو، فأنا المسؤولة عن سلامتك، وسلامة متاعك وسلامة الطائرة حتى تصلي بروكسل، وما أن سافرت حتى تنفست الصعداء وعدت الى روتيني اليومي.

غريب، كم أنت معي الآن، أشعر بصوتك وبوجودك وبلهفتك. أستطيع أن أتصور إصبعك وهو يدير رقمي. لابد أن قلقك عليّ عظيم إذ أنا قلقة على نفسي من هذه المعارك هذه المرة أشعر بالخوف حتى من صوت الأسلحة الجديدة.

شارعنا أخذ يهتز من القذائف. عشرون قذيفة في الدقيقة الواحدة. وكنت قد مسحت شعري بزيت الزيتون عندما دخلت زمزم الى غرفتي، لاحظت أن كلامها قد اكتسب نبضا وقوة، ربما لأنها كانت تسترق الأخبار من الجيران ومن الملجأ، بينما لم أفارق سريري وغرفتي كذلك جدّتي لم تفارق غرفتها.اقتحمت زمزم شرودي وصاحت كمن تولول: « بدهن يطلعوا بمظاهرة، بدهن يحملوا مصاحف ويلبسوا عبايات » أجيبها بسرعة: « حدا من الاثنين دافعهم حتى يكسبوا من الهدنة ».

تصيح بصوتها الناشز: « أنت كل عمرك هيك، إذا إصبعك مش عم يحركش بالطبخة يعني مش طيبة، سبحان الله كأن جدّتك بزرتك من بطنها، أنت صنم.. أي والله العظيم وهي حجر ».

تُظهر زمزم كلِ غلها وكبتها، منذ أن بدأت المعارك وهي تحاول أن تشركنا

بذعرها بينما نجد أنفسنا تغوص أكثر في استسلامنا وهدوئنا، ولم تندم زمزم على صراخها بل أضافت: « ليش مدفوعين ! مالشباب عم تقتل بعضها، الاثنين من جب الإمام علي يللا قومي بينبسطوا لو بتمشي معهم.. يللا البسي.. قفطانك الليكي.. يللا ».

تريدني أن أرتدي قفطاني الليلكي لأنه طويل. هل تذكرينه؟ الذي كنت تستعيريه منى وتعيدينه إليّ أكثر نظافة وأناقة. أجدني اعتذر منها بعذر أقبح من ذنب: «معلهش، ناقعة شعري بالزيت ».

أعود إلى حرب ٦٧ والكليّة تضج بالقهر وبالمظاهرات. تسأليننى أنت إذا كنت أحب لون بودرة الجفون الجديد، وأنت تمدين إليّ وجهك وتغمضين عينيك حتى أراها. فأصعق وقتها لسؤالك، أما الآن فأعترف بأنك كنت نبيّة من غير أن ندري. نبيّة « مودرن »، تنظر إلى ما وراء الأيام..بعينيّ أشعّة، تتكهن بما يجب عمله، مستمدة هذا الشعور من الواقع. كنت جريئة وأعترف جهراً بأنك مهتمّة بالفرد لا بالأوطان. وبالذهاب إلى البحر عوضاً عن الإنخراط في مظاهرة. لأنك كنت ترطنين باللغات الكثيرة وتحافظين دائما على مظهرك. حتى في فرشاة الأسنان، اعتبرناك على الهامش رغم تفوقّك الباهر في الكليّة.

والآن أجدني أرفع لك قبّعتي. وأعترف بأن سفرك عن هذه البلاد كان نبوءة. كأنك تكهنت بأن الحرب لن تنتهي بأيام أو بأشهر كما اعتقدنا. وأن الحياة أهم من أن نقضيها في الإنتظار، فجميعنا نسي لماذا أبتدأت الحرب. كذلك تاه عن سببها حتى الذين أشعلوها. فهم يحاربون وينالون الهدنة ويتصالحون ويحاربون دون أن تجدي حربهم أو حتى سلامهم.

لولا هذه الفسيفساء أمام ناظري، لما كنت صدّقت أني ذهبت إلى حيث أشارت لي أمك أن أذهب، إلى صديق عائلتكم المهندس حتى يساعدني بالإتيان لك بواحدة ثم الى بائع الفسيفاء. لولا هذا الكيس لما صدّقت بأنى توغلت قبلها في ازقة الضاحية وأتيت لك بالعباءة. كأن هذه الروحات أنما هي من اختراع العقل

حتى يبث الأمل في الجسم من جديد، فيجعله يمارس نفسه الماضية.

قصدت أولاً الآرتيزانا لأشتري لك عباءة، لكني لم أر اللون الذي يليق بك. أعرف أنك تودّين أية عباءة تبدو « أوريجنال » في اوروبا مهما كان لونها. لكنك تعرفينني كم أحب الألوان، وإذا بالبائعة تهمس بأذني بلهجة جنوبية بأن في الضاحية يبيعون عباءات في جميع الألوان كهذه طبق الأصل أنما بنصف الثمن. لاحظت أنها تحاول أن تتخلّص من لهجتها الجنوبيه وأن يكون شعرها على آخر موضة. كذلك فستانها، لكنها لم تفلح بإخفاء لهجتها او اخفاء السن الذهبية بوضع كفها على فمها كلما ابتسمت.

ذهبت إلى عنوان العباءات الذي أعطتني إياه. لطالما ظننت أني أعرف الضاحية جيداً إذ نحن على أبوابها، لكني تهت إلى درجة أني لم أعد أتحمّل تيهاني واستعلامي المتواصل. ربما كان عدم تركيزي ينبع من الهاجس بأني لست في الضاحية ولا في بيروت، بل في ضجيج أزقة هونغ كونغ. من طرطقة الحديد إلى دروزة المكنات. الرمل الزاحف إلى داخل حذائي. الذبائح، الذباب، باعة الخضر. باعة فرش النوم. مستنقعات، اغان تصدح، ناس تتدفق، الأبنية عجيبة تنبت كأغصان في كل الاتجاهات. حتى السطوح أصبحت غرفاً بعد أن أضيفت لها السقوف فقط. سراديب، أغنام، سكائر، ملبوسات، دكاكين تعرض فيها المصوغات الذهبية، الطرق هي الأسواق. الشاحنات تقف عند فتحة الزواريب، تسدّها لدرجة أن المارّ يزحم نفسه بينها وبين الجدران حتى يتسنى له المرور، الحمالون يعبئّون ظهرها بما تنتجه المعامل الصغيرة والكبيرة تحت الأرض وفوق السطوح وبين الغرف. ملبوسات وأدوات ميكانيكية والعاب تبدو أنها جاهزة للتصدير. أقرأ على الصناديق الخشبية أو الكرتونية « صنع في المانيا » بدلاً من صنع في لبنان وعلى ثالثة «صنع في إيطاليا ».

لم تكن هذه المرة الأولى التي آتي بها إلى الضاحية، بل في كل مرة أقصدها رغم أني ترددت عليها مدة أثناء مساعدتي لصديقة طبيبة نفسانية كانت تعدّ دراسة عن أطفال لبنان في الحرب. في إحدى مدارس الضاحية، التي كانت أسطبلاً للخيول كنت كلما دخلتها رفعت قدمي أو حافري كأني حصان حتى أتخطّى عتبتها المنخفضة. تداهمني رائحة الخيول التي سرقت والتي كانت تخيم على كل شيء من الجدران الى رسوم الاطفال.

وفعلاً وجدت عباءة باللون الذي أريده. وبنصف الثمن. أنها كماخبرتك فوق المغسلة تنتظر من ينقلها اليك. بعد الضاحية مباشرة قصدت منزل المهندس خوفاً من أن يجعلني كسلي أؤجل ما عليّ أن أفعله، وكان دخولي إلى بيته تجربة. فأنا ما أن رأيت بلكونه الفسيح، حتى عرفت سر بقائه في هذه البناية في قلب الغربية فهو كان بعيداً عن الحرب. لم تكن تصل إليه معارك صواريخ السماء ولا متفجرات الأرض. كان المهندس يرى كل الأمان على الأرض، عبر أشكال الناس التي تبدو من هذا الإرتفاع الشاهق قصيرة، صغيرة. والدبابات والمدافع كأنها دمى وأسلحة الرجال كأنها أعواد تخينه. تبدو الحرب في هذا الارتفاع وهماً، كذلك الوصول إلى هذا الطابق في البناية التي لم تزل تحمل سمات جمالها من الماضي سواء بهندستها أم باختلاف حجرها. ومن غير أن يسألني البواب إلى أين كنت ذاهبة صحبني في المصعد بعد أن أومأ لزوجته الجالسة في مدخل غرفتهما بأنه صاعد إلى فوق، حتى إذا انقطعت الكهرباء وتوقف المصعد أدارت هي المحرك.

وكان المصعد وجوانبه عبارة عن مكان من حديد. الأزرار فقط هي التي تدلّ على أنه مصعد. ما أن توقف حتى خرج البواب قبلي ولحقت به، أصعد خلفه عدة درجات لم تزل من الأسمنت وكذلك جدرانها التي كانت كجدران الأنفاق. لا ترى النور أبداً. وصلنا إلى ردهة واسعة ثم باب حديدي كأنّ وراءه مختبراً لتركيب

قنبلة ذرية أو مخزن للأسلحة أو لسبائك ذهب. ما أن فتح الباب حتى شعرت بأن غطاء سميكاً كان يضغط على نفسي قد زال فجأة. المكان واسع، كأنه شرفة فيها النور واللون الأزرق. إنه يقرب السماء لا الأرض وما أن رفعت نظري حتى التقيت ببحر آخر وبانت الدنيا في أحسن حال الأشجار الخضراء المغروسة على الشرفة كأنها تكملة للبحر. من يعش هنا عاليا، يعش هانئا بعيداً عن الطرق وما تخبيء عند منعطفاتها. رحّب الرجل المهندس بي، وكأنه يعرف وقع بيته على الزائرين، إذ تركني أنظر إلى الكنبة الجلدية الكبيرة في وسط المساحة الى جانب البيانو والسرير ثم طاولة الفليبرز. والأرض كانت من الحجارة الكبيرة التي لم يزل فيها حسك الأسماك. ثم الفسيفساء. إمرأة عارية تفتح منشفتها بينما يحوّم فوقها صقر في حجمها، ويسحب بمنقاره المنشفة عنها وحولها أشجار البلح والطيور وأربع أوان بينها الزهور وداليات العنب.

أعتذر لي بأنه لن يستطع أخذي إلى البائع لكنه شرح لى أين أجده لأذهب مباشرة إلى حيث دلني. ولدهشتي كان في بيت. فتحت لي زوجته الباب وتأهلت بي كأنها تعرفني من زمن. ونادت ابنتها التي دخلت بأكواب الليمون. كانت رائحة الغاردينيا قد انتشرت في بيتهم الذي اختلط اثاثه الذهبي من طراز لويس الرابع عشر بتيجان العواميد الرخامية والتماثيل. يطل الزوج بعد لحظات ويمدّ يده لمصافحتي وكأنه يدلق قنينة الكولونيا على يدي ثم ليقودني إلى المرآب. لولا صوته العالي ودراجة إبنه النارية لظننت أني في غرفة بيزنطية أو كنعانية. رغم أن الرطوبة والبرودة كانتا تجثمان على الغرفة، ألا أن التماثيل مدتني بدفء غريب. حدس البائع بأني هاوية إذ كلما سألته عن التماثيل التي راقت لي أشار إليّ بأنها ورّة. لمس قدما من رخام وخبط عليها بيده وكأنه يداعبها، وكأنها قدمه أو قدم أحد أولاد ال: «مثلاً هيدي حقيقية، بس منباعة». ثم كان صريحاً لدرجة أنه أخذ يدلنّي عى المزوّر والحقيقي، المهم وغير المهم. لم نغادر هذه الغرفة إلا بعد أن

سألته عن الفسيفساء، خرجنا إلى مدخل البناية ثم إلى حديقة، وهناك نهض رجل يتبعنا، تعالت طلقات في الفضاء، لم نهتمّ لها لكنها جعلتني أفكر ماذا سيحل بالفسيفساء إذا وقع عليها صاروخ، بعدها شعرت بكراهية تجاه الرجل، لكن ابتسامته وصدقه جعلاني أبدل رأيي بسرعة. عند باب الحديقة كانت فسيفساء ملقاة، ما أن تلكأت في السير وأنا أنظر اليها، حتّى علق قائلاً: « غشوّنا فيها الله يغشّهم ». وحين فتح باب الغرفة ورأيت ما عنده من قطع الفسيفساء، عاد الشعور بالكراهية تجاهه يشتعل بي من جديد، وانا اراه يتخطى فسيفساء متناثرة على الارض ويسأل مساعده: « شو قضية ها النسوان » اجاب مساعده: « والله ما بعرف ! جرّبنا تركيبها بس كثير صعبة. لان خصايل العنب بيناتهن، » « ثم ليحدثني عن جمال هذه الفسيفساء الباهر قبل ان تتلف »..انحنيت عليها، بدا وجه إمرأة في الوسط.. عنقها ويدها وكأسها وقسم من ثديها، ثم لتضيع اجزاؤها وتصبح حجارة صغيرة ملونّة متفرقة هنا وهناك، فيتخذها النمل والحشرات بيوتاً لها. قلت بالحاح « لازم حدا يرجع يركبّها. لازم تجيب حدا من سوريا »، أجاب المساعد: » الغلطة على اللزيق اللي بحطوه على الوجه حتى تطلع الصورة مثل ما هي بس الظاهر استرخصوا وما حطوا لزيق كفاية أو جنس منيح».

ضاق البائع ذرعاً بقرفصتي التي لابد أنها طالت. وخفت على النساء الثلاث من أن تضيع كؤوسهن ووجوهن وصدورهن المتفتتة تحت الأقدام هنا بعد أن عاشت قروناً، وها هي الآن تموت على هـــذه الأرض الوســخة تحت دعسات حــذاء « تنس الشوز »، بين جدران حفظت أصوات المتفجرات. تنام على الأرض، إلى قربها قنينة بيبسي كولا حشر صرصور فضولي نفسه في عمقها. وصورة لمطربة شعبية تبدو كأنها فزاعة ليل. ووجدتني اقترح علي الرجل فكرة ترميمها بنفسي. «صعبة... مثل تنقاية الملح برموش العين ». لكنى لم أبه لجوابه بل سألته بلهفة: «اذا كان يملك صورة لها، ويبدو أن صدره لم يعد يحملني خاصة بعد أن

بان الشك الذي أخذ يساوره بأني لن اشتري شيئاً. اعتذر له عن طلبي وأنا لم أزل منكبّة فوق هذه الفسيفساء أوهمه قائلة بأني أعرف من يعيدها إلى ما كانت عليه من غير مقابل. ويبدو أن موضوع المال لم يكن يشغل باله مطلقاً، إذ علّق: « حتى بمصاري أنا مستعدّ، بس مستحيلة إلا إذا كان الواحد عنده صبر أيوب، وأنت بتعرفي مدام هلق كيف صار الواحد. » ثم تقدم من الطاولة وفتح درجاً وأخرج منه رزمة صور قلبها بسرعة ومدّ لي صورة النساء الثلاث كما تخيلتهن. كانت شعورهن متطايره، أثيريه ونهودهن صغيرة جميلة وعناقيد العنب بينهن أشهى من حبيبات العنب في الفم الجاف. ولا أخفي عليك اني كنت قد عزمت على عدم شراء أية فسيفساء لك عندما رأيتها مكدّسة، وفكرت أنه من الإجرام أن تعتلي هذه الفسيفساء جدراناً غريبة أجنبية، فأنا بين حين وآخر اجدني انتقد كل ما يفعله المقيمون خارج لبنان وأنت واحدة منهن ووجدتني اشحن نفسي بحادثة عنيت لكلينا الكثير حتى أخرج من بين عشرات الفسيفساء من غير أن اشتري لك واحدة ومن غير أن أندم:

هل تذكرين الأم الجميلة التي ترجلت هي وأولادها وزوجها من السيارة تختار حجارة أثرية من قلعة بيت مري، بينما أولادها يدلّون ويصيحون: «هيدي ماما..لا.. هيدي ماما»، كأنهم يكتشفون أين خُبىء بيض الفصح. وزوجها يقف سعيداً لفرح أولاده، منتظرا أن تحسم المرأة أمرها ليجييء بساعديه الفتيتين ويمسك بالحجر، كأنه ينقل جرنا لدق الكبّة من مكان إلى آخر.

أجدني أشحن نفسي بصوتك الصائح لأن يتركا هذه الأحجار وإلاّ،... لكن المرأة لم ترفع نظرها الينا حتى عندما دحرجنا عليهم حجراً صغيراً. بينما أكمل الزوج نقله للأحجار ساداً أذنيه أمام صياحك وأنت تهددين وتأخذين نمرة سيارته التي ركبوها بعد أن صفقوا أيديهم من غبار الحجارة، وقد أخذوا بعض القرن الخامس في صندوق السيارة قرب تنكة زيت. ودولاب السيارة الإضافي.

لكن وجدتني أدافع عنك أمام نفسي، وأسترجع وجهك بحنان، وأفكر بأحجار مغارة قاديشا المثلجة، التي أخذت تباع «كالترمس» وأفكر إذا اشتريت لك قطعة فسيفساء كأنها ستسلم من الجحيم عندك وسأسدي خدمة لجمالها وللتاريخ.

وأخذت الفسيفساء وعباءتك تلعب معي لعبة « الاستغماية ». كلما توقّفت المعارك فترة، عدت أنظر اليهما بشكل طبيعي وأرى « علي » يخرج بها من الباب بعد أن يخط قلمي أسمك وعنوانك، لكن ما أن تعود المعارك حتى لا أعود أعرف ما هــــذا الشيء ولماذا هو مســـندا على الجــدار. هكذا طوال ثلاثة أيام وأنا لا أفارق سريري وأرفض حتى الإختباء في الممر أو في غرفة المؤونة المحايدة.

رغم الهدوء الذي غلب علي الا إنى لا أخفي عليك أن الإنفجارات قد اقتلعت من رأسي جذوره، وأني داومت على الإستلقاء وأخذت أؤجل كل شيء حتى الذهاب إلى المرحاض وانا أفكر بأن آتي بمرحاض متنقل تماما كخال فضيلة، بائع الأزهار المتجول، الذي كان كسولاً لدرجة أنه وضع اللوم على البرودة حتى لا يفارق زاويته في الليل بل ينهض ويتسلل عند الفجر مخبئاً وراء ظهره وعاء بوله، ليهرع إلى وروده التي تركها عنـــد المدخل، يضعهـــا في الخـــارج رغم الصخب متمتماً. « الورد بدو شمس ولازم يتنفس » فتلحقـــه فضيلة بلســـانها، وتدل على وعاء بول قائلة: « وعاء شخاخك كمان بدو شمس ولازم يتنفس ».

أكتشف أن الاستلقاء يريح طنين الأذنين، وتحمّل جدّتي وزمزم، ويخلط الليل بالنهار والزمان. لكنه لا يعود يستفز العقل لأن يلاحق ويستوعب المتحاربين ويضعهم في خانة. لذلك فمن الصعب علي وأنا في هذه الحالة أو بالأحرى وبيروت في هذه الحالة أن أفكر بما أشعر به بوضوح تام. أنا الآن لا أستطيع أن أسمع رنة صوت زمزم فكيف كلامها؟: « يا شحاري السورية عم يفوتوا عالضاحية ». رأسها كان «كأم سكوكع»، هل تذكرين تلك الزهرة. كم شعرت بالخجل وأنا أدعوها هذا الأسم مشيرة اليها قبل أن انتشلها من تربتها وأمعسها على باطن

كفي، ولأهتف ما أن فرزت اللون الأصفر، « عندها إسهال »، بينما بدوت أنت أمام أوصافي كأنه اصابتك نوبة ذهول. فبالنسبة لك اسمها «عصاة الراعى»، وكلمة إسهال وكلمات أخرى نسيتها كانت تفاجئك في البداية إلى أن اعتدت على أن هناك بشراً يختلفون عن الطريقة التي نشأت بها. أستطيع الآن أن أتذكر كلمات كثيرة، مواقف كثيرة أدهشتك بي، لكن زمزم لم تزل تطرق رأسي بمطرقة. أتمنى لو أن حبة تنبت في لسانها كذلك في قدمها حتى لا أعود أسمع كلامها العصبي ولا خطواتها المتعثرة. إني أبدل رأيي الآن «فأم سكوكم» زهرة جميلة، وزمزم ليست جميلة، حاجباها رفيعان، ملتويان دائماً يعكسان التعجب والخوف. تصيح بي: « يللا نروح عملجأ البنأية قبالتنا يللا ».

وأجدني أجيبها: « ناقعة شعري بالزيت ».

عزيزتي جيل موريل

سيرة المخطوفين أو الرهائن لم تعد على سطح الأخبار ولا على سطح الفكر إلا في هذين اليومين. بعد أن كانت قد ردمتها تفاصيل الأيام.

ما يجري الآن من عنف في الثواني وقبل الثواني هي التي تحث الإذاعات المحلية والعالمية لتأتي على ذكرهم بتواصل، لأن منطقة الضاحية حيث هم مخبأون، تشتعل، لأن حزبا الله وأمل يشيران إلى بعضهما، حزب الله يردد أن أمل خائنة لأنها تدعوهم بالمشاغبين وأمل تردد أن حزب الله قد حول المنطقة إلى منطقة إجرام وخطف، وبيتنا يقع قرب حرج بيروت، عند مشارف الضاحية، دائماً أصر على أنه مشارفها، رغم أنه أصبح منسوباً لها.

ما يخيفني هو النسيان والتراكم والتأقلم، فأنا قد فكرت بك قبلاً بصورة ملحة كلما ورد اسمه، كلما رأيت صورتك، كلما سمعتك عبر الإذاعات، تنتظرين لو بصيص نور عن حالته. تمنيت لو أساعدك. فكرت بك كلما مررت بأزقة الضاحية ورأيت زاروباً كالمتاهة وزاروباً آخر كحكاية أبريق الزيت وزاروباً كأنه فم حوت، كلما لحقت بالإشاعات بأن المخطوفين في هذا البناء، لا في ذلك المرآب. لكن ماذا أفعل بالنسيان والتراكم والتأقلم؟ وبالفكر الذي يقفز وكأنه حصان فوق الحواجز. ليعود به السائس إلى نقطة البداية. وهكذا نعود إلى أنفسنا.

لا أخفي عليك بأني عندما سمعت أول مرة نبأ حبيبك المخطوف مكارثي خطر ببالي بول مكارتني والبيتلز رغم فارق التاء والثاء بين الاسمين. وتساءلت ترى ماذا حل باسطواناتهم، وأخذت استرجع في ذاكرتي غلاف الاسطوانة الواحدة تلو

الأخرى خاصة الذين يقفون بها مستندين إلى الباب ومن على جانبهم تمثال وسطي لأمرأة على رأسها قبعة سوداء. لطالما فكرت من هو صاحب القبعة جون أو رينغو؟ ومن فكر بطرحها على التمثال؟ أسترجع ظلمة التتخيتة حيث تتكدس الأشياء خاصتي والتي لم تكن تجرؤ زمزم على رميها مع أن الفعل هو واحد. فنحن كأننا نرميها في «التتخيته» وننساها. وجدتني أشتاق إلى تتخيتة بيتنا الذي ولدت به وبقيت به إلى أن توفي والدي وحرقت أمي مخلفاته وكادت تحرق البيت. لحظة ما أُدير مواجها «القبلة» وابتدأت ولولة من حوله اسرعت أمي تكوم أغراضه التي اعتاد أن يجمعها وتطعمها للنار التي امتدت ألسنتها تلطم الجدران والسقف وتطقطق الخشب. ارتفع الصياح وسعال الجميع بين الولولة، وهم يحالون إطفاءها بدلق الماء عليها، فاختلط الصخب مع طرطقة الأواني وعلب الحليب « النيدو » الفـارغة، عندما اخذت النســاء يتراشقن بالمـاء لا عن قصد ثم ليجهشن بالضحك عندما قالت أمي: «لو الحاج بقوم من الموت وبشوف هالمنظر وأغراضه عم تحترق حتى يرجع ويموت من جديد..» تتخيتة بيتنا لم تكن مهجورة فهي كانت كالكنز، فيها خوابي الزيت والسمن والزيتون. كانت تطمح أمي إليها وتحبها لغاية خفية في نفسها، رغم أنها لم تكن تطبخ، وإذا طبخت فلتحرق الطعام والقدر. كانت تبيعها بالخفاء عن والدي إلى صديقاتها. لتشتري بثمنها كل ما هو موضة، خاصة مادة البلاستيك، إذ كانت هذه المادة محرّمة من دخول البيت، كما كانت تبيع مصاغها، وتقسم بالله أنها قد اضاعتها أم سرقت منها. كانت تعيش في حوارات الأفلام والأغاني وفي دنيا اسمهان وأنور وجدي. كان من الممكن أن أبقى في البيت الذي ولدت فيه، لكن وعندما رضيت أمي بالزواج والانتقال إلى أمريكا لم أخطر ببالها، ولم تتشاور وجدتي ماذا سيحل بي، بل عرف الجميع بالحدس أني سأعيشُ مع جدتي وزمزم أو اسعاف لا فرق أين، في البيوت الكثيرة، بين أولاد الحي وأهاليه. إذ لم تكن تؤخذ القرارات في عائلتنا، بل كانت الأمور تترك كما هي تُسيّرها الظروف.

أعرف أن ما أتحدث عنه لا يهمك. ولا يهمك حتى بول مكارتني رغم أنه من إنكلترا، ربما لم يسمع بنبأ اختطاف حبيبك وإذا سمع فهو لن يهتم، لكني لاأستطيع إبعاد غلاف الاسطوانة عن مخيلتي ولاوقع أغانى البيتلز. كنت أفكر أنى سأجمع المال وآتي إلى لندن وأتعرف بجون لينون وأتزوجه.

هل ترين كيف يعود المرء إلى نفسه، دائماً كما الحصان إلى نقطة البداية، حتى في مرورك على بالي الآن فإنما ينبع من التفافي حول نفسي. أشعر الآن وكأنني لا أملك سوى هذا الجسم وهذا الفراش. فعقلي لم يعد لي، وإذا شحنت نفسي واستعرت عقلي اللحظة أو فكرت عنوة عنه عرفت أني أملك جسمي، لكن لا أملك ولو مؤقتاً أرضاً لأخطو فوقها. أية أرض، لا أملك حتى مسافة ما بين حلقي ونفسي، باختصار أنا رهينة تماماً كصديقك، حبيبك، خطيبك، من هو المخطوف؟ هو المبعد قصراً عن محيطه، أهله أحباؤه، بيته، سريره، إذن أنا مخطوفة أكثر من المخطوفين وأعاني أكثر منهم. هم ركبوا عربة مريحة أنزلتهم خطأ في مدينة الأهوال، أما أنا فقد خطفت إلى مدينة تشبه مدينتي الأولى، بصفو سمائها وتبدل سحابها وبتفاصيلها الصغيرة: كالكعك بالصعتر، والشحتار الأسود الذي لم يزل يغطي الجدار الخارجي للفرن، فأنا مازلت مكاني، لكني أبعدت عنها بطريقة مفجعة، هذه مدينتي ولا أتعرف عليها.

أنا غريبة عنها وفيها، لا لأن معالم الشوارع قد تبدلت ولا لأنه لم تعد هناك إشارات ضوئية ولم يعد يأتي لنا زر الكهرباء بالنور ولا لأن الماء لم تعد تنساب من الحنفية كما في قديم الذاكرة. لا لأن السيارات قشرت ألوانها وبانت احشاؤها ولا لأن الفصول قد اختلفت في مدينتي من شارع إلى آخر. غابة من الأشجار نبتت مكان الأسمنت بينما في الجنائن والفسحات ارتفعت أشجار من قناني البلاستيك، لا لأن المستنقعات فلشت مياهها الآسنة وسط الطرقات ولا لأن الأبنية أصبحت منهارة، ونصف منهارة، حتى المشيدة حديثاً هي منهارة سلفاً. لا لأني لم أعد

أتعرف على هذا الدكان من واجهته، بل لأن واجهته تنقلني إلى بلد آخر. أعلام إيرانية على زجاجة على الجدران بين البنايات، أفيشات لرجال دين، لزعماء لا أعرفهم. لم أعد أفهم اللغة، أعرف أنها عربية لكنها أصبحت ألغازاً وكأن أحرفها سرية، رمزية، كأنها ليست اللغة التي تعلمناها في الطفولة ومارسناها في الشباب، إنها تحمل معاني مجهولة لدي، حاولت أن أفتح القاموس لكنى لم أجد كلمات مرادفة للتي أسمعها رغم أني حاولت أن انتبه جيداً لوقع الكلام وإلى أين يؤدي حتى أفهم ولو القليل منه، لكن كان يتعذر عليّ فهم المنطق.

حاولت الاستعانة بخريطة، إذ أصبحت أسماء الشوارع ومعالمها تتبدلّ بين ساعة وأخرى وأحياناً بين دقيقة وأخرى.

كأن الدنيا ترتعد وتنشق وتنقلب وتستبدل الناس، فبدلاً من أن يطل وجه صديقتي الجميل، يطل وجه خروف من بين حديد بلكونها، مهجرون جاءوا إلى بيروت التي كانت حلماً، تفجرت عاطفتهم بالموسيقى والأغاني فرفعوا المكبرات في قلوب الشوارع السكنية والتجارية. أصبحت أسير وكأني داخل فقاعة صابون كبيرة أتدحرج ولايمسني شيء ولا ألمس شيئاً إلى أن ألتقي بفقاعات أخرى ويخرج منها أصدقائي. كيف أتعرف على مدينة رضيت بالوجوه العصبية التي تبحث عن الشعر الأشقر والأعين الملونة لتخطفها كما في قصص الأطفال ورضيت أن تقلُع شجرة البلح التي يعود عمرها إلى مئة عام والتي كانت تكاد تصل إلى باب السماء ليثبت مكانها صاروخ يذوّب حتى حشوة الأسنان الرصاصية.

كيف أتعرف على مدينة تسمعني صدى ما تفكر به، فهي ترقص وتقاتل، تقاتل وترقص. أسمع أنفاسها المختلطة بالموسيقى العربية والغربية عبر الملاهي وشاشات التليفزيون والانفجارات وسيارات الإسعاف ورائحة الموتى. كخطيبك اعتدت أنا على العتمة، لم أعد أرى الظلال ولا الخيال، هم يعصبون عينيه كلما انتقلوا به من مكان إلى آخر، من القاووش إلى المرحاض، وأنا صادقت العتمة

التي لا مفر لي منها، أني أضيىء الشموع أحياناً وأحياناً أخرى أوهم نفسي بأني استمد النور من العتمة، التي أخذت تخفي تجاعيد وجهي الخفيفة. وبعض الشعيرات البيضاء التي حزرت طريقها إلى رأسي.

فروتين يومي هو روتين يومهم غير المريح: التريض وغسل الوجه والأسنان التحليل والوشوشة ، الطعام القليل، توقف الرهائن عن التلذذ بالأكل وأنا توقفت شهيتي. الأكل بحاجة إلى أيدي مستسلمة للقمة، لأسنان تمضغ وللسان يتذوق، لابد أني أعاني من فقر الدم، إذ ما أن أمد يدي حتى أجد أن العضل قد غاب عن زندي، أفكر بالرياضة؟ تبدو بعيدة، تليق بالجبال والطرقات الآمنة الواسعة وبالغرف التي تدخلها الشمس.

ومن الروتين اليومي ايضا التريّض وغسل الوجه والاسنان، التحليل والوشوشة. الشعور بأن الزمن قد توقف، فالدقيقة تمر طويلة، إنها تتمطىّ قبل أن تولي فاسحة المجال للدقيقة التالية، لذلك أتراجع من أني سأتخلص من خاطفي وتحبط عزائمي، فأجدني أطابق وأماثل الخاطفين كحلٍ أخير لربما أتى أمر إطلاق سراحي على أيديهم وعادت مدينتي إليّ رغم أني كالرهائن لم أكن أماثل من حولي، ولم أتعلق بخاطفي كعادة المخطوفين بعد مدةّ بل علاقتي معهم لا تتوطد سوى بزيادة الكراهية والبغض لهم والتأكد من أن شخصيات الحراس مهلهلة، غير ناضجة. وجدت نفسها فجأة في موقف قوة لانها استعانت بالشعر الهائج، بالشوارب الغليظة، بلحى الذقون التي تركت لتحتل مسافة واسعة حول الوجه، يلفون السلاسل الذهبية حول رقابهم والرصاص الفارغ، أصواتهم تصيح بقوة، وأنا أعرف أنه صوت صبي الدكان الذي كان يبيع البطيخ قبل الحرب ويرش الماء على الرصيف عند العصر حتى تبرد الأرض وتنتعش، حتى يجلس صاحب الدكان مع آخرين يرشقون معاً أحجار النرد، والصبي يقفز بينهم كالجندب، يلبي طلباتهم، يزيد نراجيلهم ببصة نار ويغلي لهم القهوة.

وأجدني كالمخطوفين لاأجد الأعذار للسجاّنين، للحراس، اذا هم عرفوا

التشرد أم لا، بل اتساءل: ترى هل عرفوا حب الأب والأم والمرأة؟

لكن يتبدل الخاطفون باستمرار، كأنهم دخلوا آلة في مصنع تفرز شكلا جديدا مع كل حركة ميكانيكية، أو كأنهم أسماء وأفعال بلا قاعدة، ممنوعة من الصرف مسائل متشابكة الأرقام والمنطق، كلما فكّر بحلّها التلميذ والأستاذ معاً ارتطمت خلايا عقليهما بدبش من الباطون فيئسا وتركاها بلا حلول إذ أعداء اليوم هم حلفاء الغد، حلفاء الغد هم أعداء اليوم.

رغم أني لا أجد حلا سوى الحقد على الجميع، إلا أنى كالرهائن لا أجد بدا من إكمال روتين الأيام غير المريح فأقرأ وألعب الورق ويصيبني الملل من القراءة والهم من الشطرنج. أجدني ألعب مع ورق اللعب وحدي، أبصر بين أرقامه صورة، أصدقها ولا أصدقها.

من جديد. أهزّ رأسي كما يهزّون رؤوسهم. الطاسة ضايعة. من خطفهم ومن يخطفني. هل نحن في حرب أهلية أم دولية أم رأسمالية. أم..... مستغربة. مستغربين كيف أعتاد، واعتادوا على هذا الروتين. وكيف لايغيب الأمل بأن هذه الأيام ستتبدّل وستعود الحياة من جديد.

رغم أن التفكير في الموت لا يغيب عني. إنه موجود إنه يقترب مني أحيانا. فأفتح عيني تارة وأغمضها تارة أخرى أتأرجح بين الاهتمام بأني أرى وآكل وأعيش وبين عدم الاهتمام واليأس. أرى في لعبتي هذه مع الرؤية وعدمها جدران غرفتي المتداعية، وزجاج النافذة الجديدة الذي هو عبارة عن كيس نايلون سميك. وآثار المرآة التي تصدعت وهرّت على الأرض في جولة المعارك الماضية. لم أفكر. حتى الآن بطلاء أثرها على الحائط بلون طلاء باقي الغرفة... فالمنازل لم تعد تجدد وجوهها. أترك كل شيء على ما هو. كالمخطوفين لا أفكر في أنجاز شيء وإذا أردت أن استرجع كيف خُطفِت، عليَّ أنا أعود إلى سنوات الحرب. منذ أن اعتلتني

الصدمة وأنا أقبع في الملجأ أو القاووش الذي رضيت دخوله مرة واحدة، بناء على رغبة صديقتي حياة التي ما أن زارت بيروت وزارتني حتى ابتدأ برق العنف. خوفها كان كركاب طائرة أذاع ربانها بأنها ستنفجر في الفضاء بعد ثوان. خفضت رأسها في حضني كما يُقال للمخطوفين: «اخفضوا رؤوسكم» بينما أغمضت عيني حتى لاتتسرب رائحة الملجأ الآسنة إلى شرايينها. وعرفت وأنا قابعة هكذا بلا حراك أمام الرائحة والجدران بأني لست حرّة. أقسمت بيني وبين نفسي أني لن أرضي بهذا الشعور أن يتملكني وبأن علي مجابهته والآن يبدو لي أني كنت مخطوفة ثم عدت وخطفت مرة أخرى. كنت بين الطرقات المتعرجة وشبه المقطوعة من جراء وجود سفارة أم مستشفى أم مركز حزب. كنت سيدة الطرقات بين السيارات التي فقدت لونها ومصابيحها وانخسفت حسب الكدمات ازاحم وأزعق بالزمور حتى أصل إلى بناية سيمون. بينما ارتجافي يتدحرج أمامي وأنا أركض وألحق به. كنت سعيدة، فلقائي مع سيمون كان يضفي عليّ شعوراً بالدفء والهيجان وينتشلني تماماً من صخب المدينة وأحياناً من هدوئها العابق. فسيمون هو صخب المدينة داخل الأحداث، وبالوقت نفسه هو مثلي خارجها. أعيننا كانت تلمع، ويزداد تنفسنا كلما اقترب أحدنا من الآخر. أنتظر حتى نتمدد عراة فوق الصوفا. لتأتيني حالة الخدر والحب والشعور بأنى أريد أن آتي بلذتي مهما كان. فقط عندما كنا ننهض ونرتدي ملابسنا كنت أعرف أني لا أحبه.

كنت لم أزل ألحق بتصوراتي وتوقي إليه عندما توقف السير من شدة الإزدحام. ولعلع الرصاص واختفى الناس من الطرقات وأصبح الشارع مرآباً صاخباً خائفاً. أخذت أتأرجح بين فكرة العودة إلى البيت أو المضي إليه. عندما هجم عليَّ شلة من الشباب وأنزلوني من السيارة وتركوني وحيدة، مصعوقة خاصة وأنا أرى سيارتي الحميمة تنصاع ليدين غير يدي وتغادرني. لم ألجأ إلى بناية مجاورة إلا عندما رأيت قذيفة بعيدة تسقط وأصوات عديدة تناديني. دلفت إلى

البناية لتتلقفنى عائلة اجتمع أفرادها في غرفة من أسمنت. ما أن نظرت إليهم حتى فكرت أنهم سجناء. خاصة الأولاد الذين تكوموا في زاوية من زوايا الجدران ثم فكرت أنهم قد خطفوا هؤلاء من ملاعبهم التي تحولت إلى ملاعب للجن. وقد أكل الخوف وجوههم.

لابد أني كالمخطوفين، لم أعد أفكر بالحياة خارج مكاني بل ألتف حول بقية المخطوفين. رغم الرتابة لاأستطيع التركيزعلى التفكير فصدمة خطفي تتكرر وأنا لن أتخطّاها حتى ولو أطلق سراحي. أعرف أني سأبقى مخطوفة وستلاحقني الذكريات المرّة. لم أعد أفكر بالحياة خارج مكاني. حتى وجود البلاد الأخرى تبدو وهماً. نسيت السير في الليل ورؤية النجوم وطيران الشعر وشال الموسلين المتهدل على الكتف وتارة على الأرض. لا عالم يحيا سوى في غرفتي هذه. وفي بيتي هذا. لذلك لايحمّسني أي طموح ولا حتى خيال الإنجازات، بل إني أزداد ألفة مع الكسل وعدم المسؤولية حتى تجاه عيني، فأنا لم أعد استطيع حتى قراءة الجرائد.

واستسلمت إلى فكرة بأني لست مسؤولة عن مصيري وتركت الشك يغالب الأقربين إليّ من حياة وأمي وأصدقائي خارج لبنان بأني في عداد الأحياء أو الأموات كلما اشتعلت المعارك تماماً، كشعورك الآن.

ولا أخفي عليك جيل موريل أنى فكرت أكثر من مرة أن أخطف نفسي بنفسي بعد أن أوحيت للآخرين بخطفي وكان هذا منذ سنوات وأنا خارج بيروت. ولابد أن قوة ما تقتص مني حتى الآن على شعوري آنذاك.

في المرة الأولى كنت متأكدة أنه حالما أشم رائحة ناصر وحالما يعانقني، وحالما نجلس معاً دقائق، سيقرر الدفء الذي بيننا أن لا يعيدني إلى بيروت بل انه سيخطفني. وشممت رائحته كالعادة كلما استرجعتها في خيالي وعانقني. وقرر الدفء بيننا لكني لم أره.انتظرته فوق رمال شواطئ تونس، حتى أصبحت

كالجمرة أغلي من الشمس ومن الاشتياق. كان توقي إليه يلاعبني، يجعلني أبقى متمددة موهماً إياي بأنه يراقبني من بعيد، وبأنه يتلذذ وهو يراني أنتظره وبأنه سيفاجئني في أية دقيقة وبأنه سوف يرمي عليّ حفنة من الرمل. أو أنه سوف يرش عليّ نقاط ماء باردة. فأبتسم لهذه الخاطرة وأنا نائمة. وأشد عضلات جسمي، وأفرح لأني برونزية ولأن شعري أصبح فاتحاً من الشمس ومن الحامض ومن شامبو البابونج. وبقيت أهدس به هكذا أياماً. كما هدست وأنا انتظره على شواطيء بور سعيد والاسكندرية، دائما عند الشواطيء، عند المد والجزر من يسمعني الآن يظن أني امرأة حالمة تعيش في الوهم.

وفي المرة الثانية التي وددت بها لو أخطف كنت على صهوة جواد أبيض.. بين عشرات الأحصنة والسائسين في طريقنا إلى بتراء. نتدفق في ممر ضيق بين جبلين ثم بين سلسلة جبال تمسك أيدي بعضها. بينما أمسك السائسون العجائز بألجمة الأحصنة بيد، وساروا فوق الحجارة وكأنهم فوق أرض ملساء. أرى سائسي يعد في اليد الأخرى المال الذى حصل عليه من بيعه للكوفيات الصفرآء، التي هي على رأسه ورؤوس الآخرين. كان قد حثني على شرائها في لهجة آمرة مصرّة. بينما اكتفيت بهز رأسي نفياً وأنا أتأمل لجام الحصان الملّون المشكوك بحبيبات الفيروز.تركته يسدي لي نصيحة الاتقاء من الشمس مشيراً إلى الحصان الذي كان قد ركزّ على رأسه قبعة خاصة: «الشمس تضرب وواحد مات».. كنت لم أزل منكمشة قليلاً تحت وطأة الأصوات التي تلقفتنا والنداءات من جميع السائسين وهم يعرضون أحصنتهم. فأنا لم أعد أجد مبرراً للازدحام أو للأصوات سوى في حالة الذعر، عدا أني لم اعد بتلك الحيوية لأطوف أي مكان. فكيف الأماكن السياحية؟ لكني كنت قد شعرت بالخجل من قريبي الذي كان قد ترك عمله هذا النهار في عمان ليريني بتراء، رغم أني تمنعت طويلاً إلا أن إصراره جعلني أتاكد من أنه وزوجته يريدان رؤية بتراء أيضاً. ليكتشفا أنى فعلاً كنت جادة في

رفضي وعدم اهتمامي عندما وصلنا إلى الفسحة حيث الخزينة والمعبد بعد الدروب الضيقة. ولم أشهق شهقة خلف أخرى كما فعل الجميع وهم يترجلون عن الأحصنة. كانت الشهقات تتعالى من كل مترجل رأى نفسه وجهاً لوجه أمام الآثار الرملية الحمراء التي تكاد تتفتت، والتي هي بوجودها هنا وكأنها هبطت على الأرض ذات ليلة من كوكب آخر وبقيت تنتظر ومع ذلك لم ألق عليها نظرة أخرى، بل سرت فوق الحجارة الزهرية، يداي خلف ظهري. كقاض عليه أن يصدر قراراً حكيماً. فالكهوف التي تركناها خلفنا لم تزل أمام عيني وصورتي وأنا داخل احدها تزداد وضوحا. أرى نفسي بعيدة عن بيروت، عن غير إرادتي إذا استطعت أن انجز خطتي التي لمعت في خاطري عندما كنت على الحصان وسائسي يجرني إما راكضاً أو متمهلاً أحياناً متعثراً حسب الطريق الوعرة. محاولاً أن يبعد حصانه عن هذه العثرات. بعدما اعتدت على سير الموكب وأصوات السائسين ووقع حوافر الأحصنة في ذلك السكوت، وصهيل الأحصنة من وقت إلى آخر انتبهت إلى الألوان. ألوان الموكب وألوان الجبال وحتى ألوان الشهقات التي كانت تصدر عن الراكبين كلما أغلقت الجبال قممها علينا، أو كلما خرجنا منها لنرى الشمس في انتظارنا تسترق من بين الصخور العظيمة الهابطة حتى الأرض والتي هي تارة موحشة، وتارة متساوية، تكاد تكون زلقة، ملساء.كان الموكب يمضي كأنه في طريقه إلى أحد المعابد ليقدم قرباناً للآلهة أو كأنه سيصل إلى بيت الشمس أو سيأتي بالعروس السحرية أو سيأخذ بالثأر. ثم لتبدو من بعيد فتحات واسعة كأنها مناقير نسور فتحت أشداقها. ما أن اقتربنا حتى تراءت الكهوف. لم أسأل إذا كانت من صنع الطبيعة أم الإنسان. إنها تبدو بديهية لدرجة، ومع ذلك أنا حائرة. صياح ديك ينبعث من إحداها يجعل رأس كل من في الموكب يلتفت إلى ذلك الصياح، إلى ديك كبير ملون، يقف على صخرة ملاصقة لأحد فتحات الكهوف وإلى جانبه نُصبَ شريط حبل، بين كهف وآخر نشرت عليه الملابس. كان الديك ينتقل من حجر إلى آخر ولا يتوقف عن الصياح. أسأل السائس عما نراه، و

لايفهم سؤالي إلا بعد أن كررته، ليجيبني بلا اكتراث: «بيوت» ثم كأني أوحيت له لأن يتوقف ثم لينادي بأعلى صوته: « «إسماعيل. ياإسماعيل» ولدهشتي أطلّ من فوهة الكهف رجل وخلفه امرأة أجنبية، شقراء الشعر تحمل طفلاً، ثم أشارا بدورهما إلى سائسي الذي لم يتوقف عن الكلام والتحية والضحك.. ليتمتم ما أن عدنا نلحق بالموكب: «هو كان سايس». لابد أنها كانت سائحة وكان إسماعيل يمسك لجام حصانها وفتنت هي بلونه الأسمر كما فتنت بسحر هذه الجبال.

نباشر السير بعد أن يشعل السائس سيكارة. ويعتاد الحصان على وقع حوافره من جديد. هزهزتي الرتيبة فوق الحصان جعلت سيل أفكاري واضحاً. أفكر بالمرأة الأجنبية، كيف قطعت روتين حياتها السابقة التي ربما اختيرت لها منذ الصغر لتحط في هذا الكهف، ويصبح صخب مواكب السائحين ذروة أحداث أيامها.. انتابني الشوق لأن أزور هذه العائلة السعيدة التي يكملها الديك. وقد وصلت إلى قناعة بأن اختيار المرأة لهذه الحياة الجديدة: لكي تبتعد عن العالم الخارجي وتستمد الحياة من نفسها حتى تصبح هي الحياة، بعالميها الخارجي والداخلي. وأنا كذلك أردت أن أبدأ حياة جديدة منذ أن ركبت الهليكويتر التي انزلتني في قبرص. لأستقل الطائرة إلى القاهرة ثم القطار إلى الاسكندرية ثم السيارة إلى بورسعيد. أرتمي على الشاطيء انتظر بواخر الفلسطينيين لعلني ألمح ناصر على متن أحدها، وبعدها لانتقل إلى شواطيء تونس وأسبانيا. وها أنا الآن في الأردن وعليّ أن أقرر جديا ما عليّ أن أفعله وإذا كنت سأعود إلى بيروت أم لا. فسوسة العودة ما انفكت تسير في دمي ببطء وتنخر شراييني. والحنين لكل شيء في لبنان قد فاق الوصف. هل هو فعلاً الحنين؟ أم ضيقي لعدم بقائي في تونس أو اسبانيا، أم أنها الحيرة إزاء أين أعيش.

لا أريد العودة إلى بيروت، لذلك أود لو أن هذا السائس العجوز يخطفني كما

تمنيت لو أخطف نفسي وأنا في اسبانيا ! لماذا أريد أن أخطف؟ هل وصل جبني إلى هذا الحد، أم أنه نفاقي. لماذا لا أعلن أني سآخذ هدنة واردد كحياة: «لا، لا ما فيني عيش بعد في بيروت»: هل لأني أريد أن أتباهى أمام ناصر بأني لم أزل في بيروت، أم لأني انتقدت علناً وسرا كل من ترك بيروت حتى الذين لا أعرفهم.

أسأل السائس عن هذه الكهوف، وعن المرأة الأجنبية وأتنهد. أحسدها على عيشها في هذه الكهوف.أخذت أبالغ في اطرائها. وإطراء الوجوه السمراء، والأصوات الضخمة وركض الجياد والجبال الملوّنة ورغبتي في رؤية هذه الكهوف.. والعيش فيها، ليسألني العجوز وهو ضائع بما اقوله: عن اهلي واذا كنت من الشام أو لبنان؟» أجبته كاذبة لدهشتي: «باني وحيدة بلا عائلة». اقترح أن يأخذني في العودة إلى «فوق» وهو يغمز بعينه إلى الجبال «فوق، قريب من السماء أي والله. من السما ومن الله» عرفت أن رسالتي قد وصلت إليه وبأنه قد تأكد من أني امرأة غير رصينة، أحب المغامرة، تماماً كالسائحات الشقراوات أو أني فعلاً بحاجة إلى مأوى، وأخذ يتباطأ في لكز الحصان. يدير وجهه إليّ ويضحك. لتظهر أسنانه الذهبية. يرفع يده يصلح من كوفيته الصفراء التي بدت كأنها أصيبت بداء البرص من كثرة ما لسعتها الشمس. ثم ينتشل الكوفية عن رأسه ولدهشتي لم يكن شعره أبيض. يطلب مني الانحناء برأسي ليثبتها عليّ. رفضت بتهذيب ولمت نفسي للحظة وقد بقيت منتصبة في جلستي وأنا أحاول جاهدة ألا أضحك. وقد صممت على عدم التراجع. عليَّ أن أخطف منه وأعيش في هذا الكهف، انه مأوى، بالتالى بيت مكّون من سقف وجدران وإن كانت الطبيعية قد شيدته. لم أعد آخذ البيوت كواقع أبدي كما في السابق. إنها تنهار في لحظة. يتفتت باطونها. ويصبح المرء بلا مأوى كما في القصص. لم أنفر في وجه العجوز. كنت غائصة في أفكاري التي ارتني واقعية ما أفكر به وإمكانية حدوثه، احتمي في الكهف وآكل ما يأتى لي به، ممتنة له وللجدران، وفي الليل عندما يضمنا السكون وبرودة الجوانب اكشف له

عن سرّي الكاذب بأن أيامي معدودة. لم يشأ الحصان الذي كان يعرف طريقه جيداً، التباطؤ عن الموكب كما رغب السائس، الذي لم يجد بدا من الإذعان أخيراً له وهو يتصنع تعديل السرج أكثر من مرة دون أن يجرؤ على لمس فخذي مكتفياً بايصالها قربي. ترجلت عن الحصان بمعونته لأترك كفّيْه تشدان على كتفي ثم ليحثني على شراء الكوفية الصفراء وزجاجة فيها الرمل الملون. وجدتني أسأله عن هذه الكهوف وإذا كان باستطاعته أخذي لزيارة إسماعيل وعيناه مستغربتان تدوران في وجهي وكأنهما طاولتا روليت. أيقنت أنه نسي وعده لي بأخذي إلى هناك لكنه أخذ يستفهم مني إذا كنت أود النوم هناك وعن عدد الليالي. وهو يخرج من سترته بطاقة سياحية تشير إلى أن الإقامة في هذه الكهوف ممكنة لقاء أجر. ثم ما ان لمح قريبي وزوجته يقتربان مني حتى رفع يده إلى رأسه بالتحية ثم وضعها على صدره. عرفت من حركته هذه أنه لن يخطفني وبأني غير متوازنة ووقف ينتظر جوابي وهو يساوم على سعر أخـــذي إلى الكهوف. تراجعت عن كل شيء ومددت يدي أصــــافحه شاكرة وسرت مع قريبي إلى المقهى الوحيد من غير أن أنبس بكلمة. بين يدي زجاجة الرمل المضغوط التي بدت بألوانها كنقوش تمت إلى عصب الجبال لا إلى أصابع البشر. استوينا على الكراسي باجسامنا المتعبة من الأحصنة واسرجتها القديمة التي كانت تحف على لحمنا من خشونتها. لم اسمع ما كان يتحدث قريبي وزوجته. كنت ناقمة خائفة من الذي حدث بيني وبين نفسي وأنا على صهوة الحصان. أمتعض منها ولا أجعلها ترتكز بلومها على الحرب ككل مرة. بل ألومها، أوجه لها الاحتقار، إذ هذه المرة لم أفهم لماذا أردت أن أُخْطَف من هذا العجوز، ولماذا قمت بتشجيعه غير مبالية بيده المتسللة بل ليخطر ببالي الضحك فقط وأنا أراها تقرب اصابعها مني. استطيع أن أفهم خطتي لأستوطن البيت الاسباني الجميل في اسبانيا وأشارك به الرجل الذى لم أكن أعرف منه سوى بيته هو لايعرف عني سوى ملابسي. أما تفكيرى المريض بالكهف وبالعجوز، فأنا لا استطيع استيعابه. أحاول أن أبعد الصورة بإلغائها

وتناسيها. لكنها تدفع كل ما على الطاولة من حديث قريبي وأصوات السائحين وتسكن بي.عندما لم أستطع أن أفهم تصرفي أمسكت رأسي بين يدي وهمست «أنا مريضة» موجهة اللوم لنفسي لأني لم أمسك برأسي بعد أن رفض الرجل الاسباني خطتي ولم أهمس لها آنذاك: «أنا مريضة».

فأنا قد سبق وفكرت في خطف نفسي والإقامة في تلك الربوع الاسبانية وأنا في صحبة صديق ناصر وزوجته على حفافي الطريق. بين أشجار اللوز المزهرة التي كانت تحمل ندف الثلج الأبيض كثمار لها، والأراضي والسهول منبسطة أمامي، لا تعطي سوى الشعور بالطمأنينة وبالسلم. عندما وصلنا البيت الكبير حيث أصيص من فخار على كل من جانبي مدخله الطويل، فيه نبات الكاكتوس وكأنه مرجان البحر بأزهاره حتى حسدت من يعيش هنا. بل ابتدأ حسدي ونحن في طريقنا إلى هذا البيت مروراً بالبلدة الصغيرة ورؤيتي للمقهى والمخبز والمكتبة والمصبغة والجزّار والكنيسة ودار السينما الوحيدة ونادي اليوغا والكوافور والصيدلية والبنك. كل العادات اليومية التي تجرفنا اليها والتي يبدو أننا نعيش من أجلها موجودة وقريبة من المتناول تماما كما كانت بيروت.

دخلت السيارة الممر الطويل وتوقفت عند فسحة أشبه بفسحة خان، أمام أبواب الدار المفتوحة على مصراعيها. لابد أن السيارة أوصلت ضجيج فراملها إلى الداخل، إذ خرج رجل ممتليء البنية، أجلح الشعر يستقبلنا. رغم اهتمامه بنا فقد كان مهتما أيضاً بكلب ضخم ظهر فجأة.

همست الزوجة بأن فيلما أسبانيا صُوّر في هذا البيت القلعة، حيث الجدران كانت مطليّة بالكلس والصور الداكنة معلقة فوقها، والأثاث التاريخي يلتصق بها تاركاً فراغاً فسيحاً في الغرف. أدخلنا الرجل غرفة جانبية فيها الأثاث الحديث والطاولات الزجاجية والكنبات الجلدية. انتبه الرجل إلى أنظار صديق ناصر وزوجته على السقف وهما يلفتان انتباهي إلى الفريسكو المنمنم، الملّون الجميل،

الواضح وغير الواضح، وقال إن الرطوبة تتسرب إليه وهو يخشى أن تؤثر على هذه الرسوم مع مرور الأيام. فكرت بأن كل من يزور هذا البيت إنما ليرى الماضي ثم وجدتني أشفق على سيده الذي قادنا من هذه الغرفة إلى الشرفة. لاتنفس الصعداء واتمنى لو أن سيده يشفق عليّ.

كانت السهول الصفراء والجلال حتى النسمات تخرج من الشمس الحمراء. وهي مغلفة بغطاء وردي، بنفسجي، او يُسمع هرولة قطعان البقر والأغنام التي لم تزل بعيدة. أقف على حافة الشرفة أراقبها، أتذكر قريتي، أراقب الراعي غير المهتم بنباح الكلب، كأنه يلف سيكارة من بعيد أو كأنه يأكل ثمرته. يقترب الرجل الأسباني مني مادا لي يده بكأس من النبيذ، ثم يقف مثلي يده على الشرفة، أنظر إليه وأفكر أنه السيد هنا. كان من الممكن أن يقف جدّي مثله، في مثل قميصه المودرن الملّون وبنطلون الجينز.. هذا. والسيكار في اليد. من الممكن جدا أن يتخيل جدّي وجدتي وقوفي مع رجل كهذا، أراقب معه عودة القطيع، رغم أنه لم يكن هناك قطعان على أراضينا، بل أشجار وثمار وفاكهة.

لماذا لم أشعر هكذا من قبل وأنا في قريتي؟ هل لانه لم يكن لدينا شرفة ننظر منها إلى أراضينا الشاسعة وبيتنا لم يكن كهذه القلعة أو البيت الكبير؟ أم لأنها لم تعد تحت سطوة أيدينا؟ لذلك أتعرف الآن على ما كان عندنا.

تسقط العتمة شيئاً فشيئاً، يبتعد الصخب، والهدوء يعم المكان، كأن الطبيعة كلها تخرج من جديد إنما من فم الليل، السواد يغلف كل شيء ويحولها إلى أشباح لا تتكلم. حتى صرصار الغابات فاجأته العتمة فربض ساكتا لا يحرك جناحيه.

وقع خطوات خلفنا، تمنعني من أن أقول للرجل الاسباني إني أيضاً ابنة أرض وتراب.. خاصة أن الخطوات كانت لرجل عجوز، متجهم الوجه تمتم بعجلة واستدار عائداً. يبتسم الاسباني ويدعونا إلى العشاء. دخلنا غرفة كبيرة، كلسية

الحائط وأنا أحاول أن أحزرْ لماذا يرينا هذه الغرفة التي لابد أنها كانت للتعذيب، إذ الأوائل الحديدية كانت معلقة على الحائط، واتّون كبير أسود استوى في الوسط من حوله قدور من فخار ومن المعدن سوداء. ثم سلاسل أو جنازير حديدية تتدلى من جهة البئر. سألني صديق ناصر عن رأيي بهذا المطبخ؟ أجلس حيث أشار لي الرجل، وكانت الكرسي من على يمينه، ثم لينهض مستفسراً ويسأل خادمه عن: ڤيرا»؟؟ يهّز الخادم العجوز كتفيه ثم يخرج من باب آخر ويعود ببطء يتجه إلى الأتون ويفتحه، ويأتي لنا بصحن من الفخار كبير يضعه أمامنا دون أن ينظر إلينا. يسأله الرجل من جديد عن ڤيرا. فيشير العجوز بيده ويتمتم. أطلت ڤيرا. ممتلئة أيضاً. جاحظة العينين الزرقاوين، لكن ما أن ابتسمت حتى بدت قريبة إلى القلب. سألت وهي تنظر إليّ وإلى الزوجة «من منكما جاءت من بيروت؟» اكتفيت بالابتسام و زوجة صديق ناصر تشير إلي.

تهالكت على الكرسي، عادت بيروت تسكنني وتسكن يدي الهابطتين، أتناسى انشراحي لهذا الجو. جو البلدان التي لم تزل قائمة، والتي لم تزل تعيش حياتها من غير بلبلة وحروب. رغم اعتيادي على هذه الفكرة التي كلفتني أياماً وليالي قلقة، يعززها الشعور بالحيرة وبالحسد إزاء وجود حياة آمنة، إلا أنها كانت تلغي ما عانيته وما رأيته وما سمعته وما لمسته في بيروت أيام العنف والحصار. وها أنا أريد أن تخشع أنظارهم ّ وينصتون إليّ، وكلي طموح لأن تتوقف التفاصيل عن اكمال دورتها. فلا يعود الخادم العجوز يجد مبرراً لأن يحضّر عشاء الليلة. وجدتني ألوذ بالصمت انتظر اسئلتهم. لم تكن أسئلة بل كانت جملاً فيها التأثر الحقيقي إنما السريع لتعود تفاصيلهم تلف هذا الليل. نهضنا لنطوف البيت. غرف واسعة. مساحات واسعة. ماض واسع، ثم كنيسة ضيقة. مريم العذراء واسعة العينين، مسرح ضيق وصالة سينما ضيقة ولكنها كبيرة الشاشة.

ثم في غرفة تمتد على مد النظر، فارغة إلا من سرير كبير، غريب توقفنا،

ودنا الرجل الاسباني من كتاب وضع على صندوق خشبي عند قدمي السرير يفتحه ويشير إلى صورة السرير. هززت رأسي أثني عليه غير مبالية بما يقصده، أفكر كيف كان سيكون وقع هذا السرير عليّ وعلى ناصر. هل كنا سنضحك؟ هل سنرتمي فوقه، أم نأتي بفراشه ونضعه على الارض كما كنا نفعل عندما لم يكن يعجبنا أحد الأسرة التي كنا نتنقل بينها حسب الظروف.

وجدتني أتحسس بيدي نقوش السرير الفضية والذهبية وأعمدته الأربعة التي تذكر بالأطلال، لا... لا أعتقد أننا كنا أحببنا هذا السرير الموحش وفراشه الذي لابد أن الرطوبة تعشعش به، لكنا هربنا من هذه الغرفة الفارغة التي لا تذكر سوى بأن هناك من يعد له كميناً.

أطير من بين هؤلاء جميعاً إلى الغرف التي التقينا بها. واحدة، واحدة كنت ألقاه في غرف عديدة دائماً في ازدياد غرف في بيوت جميلة، على شرفاته الياسمين. في بنايات تعج بالسكان. في بيوت ممقوتة لا تدخلها الشمس ولا حتى الذباب. الغرفة الأخيرة كانت بلا كهرباء.. والغرفة التي قبلها كانت في فندق حيث ارتمى في السرير الآخر، صديق له يعاني من حمى جعلته ينادي بهلوسات أضحكتنا. غرفة اخرى عبارة عن صالة للجلوس فخمة، خشبية الأرض، طرحت فوقها السجادات العجمية هنا وهناك بين الكنبات المشربية والطاولات المصدّفة، النراجيل الملونة الخضراء والفيروزية والبيضاء والنبيذية. لوحات مائية لفروخ وللأنسي، ووسائد بالعشرات بغرزة الصليب والتي هي من التراث الفلسطيني، انتشرت كأنها حقول ربيع، صور فوتوغرافية لرجال في قلب قماش مطرز بالذهبي والفضي. وقع نقاط ماء يأتي من بركة شرقية، أذكر عندما طلب مني موافاته إلى هذا العنوان. كنت قد ظننت أني أخطأت، إذ مدخل البناية كان فخماً لدرجة. ولم أتأكد من أني لست مخطئة إلا عندما سمعت صوته.

ثم غرف في بيوت اصدقائه المتزوجين التي كانت تجعلني اصاب بخيبة امل لاني لن اكون وحيدة معه. حالما أسمع الضجيج وانا أكبس الجرس وأرى الزوجات وأطفالهن أو أولادهن ليعود يتوهج الشعور من جديد أنه يشدني إليه في كل الظروف، وأنا أراه يلاعب الأطفال بسبقه لأكل طعامهم من يد الأم ومضغه فعلاً للقمة وبلعها أمام حيرة الطفل، وشعوري عندها بأني أود لو أمد أصابعي كما يمدها الطفل إلى ذقنه. كيف استطيع أن أدخل عقله لأرى كيف يضج بأكثر من حياة، وأتمنى لو أجلس على ركبتيه بدل الطفل أحيط ذراعي بكتفه يعلمني المواء وهو يشير إلى البقرة والخوار وهو يشير إلى القطة لأتعجب كالطفل المتعجب الذي سمع وحفظ في الماضي أصواتاً مختلفة ترافق كل صورة.

شقق شاحبة، باهرة. أحاول أن اتكهن كيف هي ما ان يتصل بي ويعطيني العنوان الجديد. هل هي شقة، مكتب، بيت، هل سنكون وحيدين؟ أبدأ في تخيل المكان. الكرسي المجهول الذي ينتظرني لأجلس عليه. غرفة في فندق تنقلني إلى أجواء مدينة بحرية لا تعاني من الحرب.. أجدني رغم التوتر ابارك مصباح علاء الدين السحري الذي يخطفني من دنيا إلى أخرى من اليابسة إلى البحار، في سرير من الماء المتموج، انطرح عليه كممثلات السينما سعيدة لأنه سرير من ماء. ولأن غطاءه من القماش الناعم النبيذي اللون لاشعر بالغثيان فيه رغم دفئه. علق ناصر متصنعاً الأسف والجدّية: « يعني ما فينا نسافر بالبحر؟ » نسافر بالبحر؟ نسافر؟ ونحن نلتقي كالمد والجزر في الموجة.

لكني كنت أعرف أنه كان يفكر في الزواج أكثر من الذين ينهجون حياة طبيعية، عادية. كان بحاجة إليه، حتى إذا مشى على الأرض وعى أنه يمشي على الأرض وأن قدميه فعلاً تخبطان على الأسفلت. فكرة الزواج تبعد الشك والحيرة إزاء التزامه. عندما لا يجد أحيانا أملاً في عمله الثوري. تزيده حماسة بأن كفاحه

هو أيضاً من أجل الحفاظ على عائلته والبحث لها عن مستقبل أفضل فــيه استقرار.

« عقبالك ناصر » تقول له زوجة صديقه. الذي أهداها قطة لأنها لم تنجب بنتاً كما تمنت ثم التفتت إليّ وأعقبت: « قصدي عقبالكم » فرحت لأنها تنظر إلى علاقتنا وكأنها جدّية، وتعتبر لقاءاتنا في بيتها أثناء غيابها جميلة، لكنه أجابها مازحاً: « شو أنا مجنون مثلكم بدى جرجر أولادي كل يوم من بيت إلى بيت؟» يخبرها عن أبنة نديم التي كتبت في دفتر الإنشاء: « هناك جنية تحملني كل ليلة تطوف بي بيروت. «نهض في صباح اليوم التالي في أماكن مختلفة، في رواق أو في بيت في الجبل، أو في كابين بحر » ثم يبلع حبة الأسبرو من غير ماء وهو يقول:« دواءً لعدم التناقض، لوقف انفصام الشخصية. عم نشتغل حتى يصير عنا وطن واستقرار. مع هيك عم نشرد أولادنا ما منخلليهم يكفّوا مناماتهم بمحل واحد».

يبدو أن الرجل الاسباني لم يكن متحمساً قدر حماسة زوجة صديق ناصر التي همست: « يا أسمى... لح تجني فيها ».

لو تعرف أين أنا وبماذا أفكر، لا أريد أن اسمع صوتاً غير صوته ولا أريد أن أجلس سوى إلى جانبه. كل ما أراه لا يهمني. بل إني أكاد لا أرى شيئاً ولا استذوق ما آكله. أسير معهم حتى بوابة الحديد،أدفش الحصى وكأني طفلة نزقة اتساءل: « كيف سأتحمل هذه الليلة؟ » لكن اختفاء مفتاح الحديقة واللغط من أجله عاد وأدخلني الأجواء من جديد.

أين أختفى المفتاح؟ الذي يبدو أنه يُترك دائما تحت الحجر الأول من الحائط الذي يتكون من حجارة متراصة فوق بعضها. قالت ڤيرا بتأنيب بأنه لا داعي لأن تقفل البوابة. أتلفت حولي أوافقها وأنا لا أرى سوى الأشجار والسكون. من سوف

يدخل هذه البقعة الخضراء. غير الطيور؟ يشتم الاسباني أحداً ربما الحارس العجوز، لكن ڤيرا الممتلئة تتسلق الحجارة. رغم صياح رجلها وبرشاقة تقفز من على سطح لتصبح أمام البوابة من الداخل، وتفتح لنا وابتسامة ساخرة منتصرة على وجهها لابد أننا بدونا ضعفاء، لا في همتنا فقط. بل في تفكيرنا. لم يفرح الاسباني بما فعلته بل أنَّبها قائلاً بأن هذه الحجارة هى سقف قن الدجاج غير الثابت. عندما وجدتني أتمنى لو تسلقت بدلاً منها هذه الحجارة وهبطت مع الأحجار في جوف الحظيرة، لربما عجّل ناصر وأتى ليراني. سرت بضع خطوات في ممر ضيق، الأشجار كثيرة، في وسطها بحيرة. أفكر كم أن زوجة صديق ناصر تبالغ.. وقبل أن استرسل في لومها وجدت نفسي أشهق: حديقة أو الجنة؟ هي الجنة كما توصف في كتب الله. كما يسرح الخيال، جنة تجري من تحتها الأنهار من فوقها الشلالات وأشجار الصفصاف وأشجار أخرى لم أرها من قبل سواء في الحقيقة أو مصوّرة في الكتب. امتدت أغصانها حتى تشابكت، لا تظهر إلا قرصاً من القمر أو انها الشمس.

« سبحان الله » عندما تنحنح صديق ناصر قائلاً، رفرفت الطيور النائمة. حامت قليلاً ثم عادت إلى اعشاشها، جذور الأشجار تركت باطن الأرض. أرادت أن ترى كيف نمت جذوع ابنتها الشجرة وكيف هو شكل أغصانها وما هو لون اوراقهـــا. جذور كأنها حبـــال طرزان يهبط بعضـهـــا في المياه المنسابة من بين الصخور. فسحة مستديرة في الفضاء تركها علو الأشجار فهي التي كانت تربط اللسان وتهتز لها الحواس. هرول الاسباني إلى صخرة يعبث بها، وإذا بالموسيقى تنساب والطيور ترفرف من جديد ولا تهدأ إلا عندما تعتاد على الموسيقى، فتعود تسكن أعشاشها والأشجار. عندما أصبحنا نرى بعضنا بعضاً عرفنا أن جزءاً من القمر قد أطل عبر فسحة الفضاء المستديرة لينير هذه الجنة.

جلست على بنك حجري، أمامي طاولة تحمل أكواب زجاجية فارغة، ربما

ُتركت الليلة البارحة من اناس مثلنا بهرتهم هذه الجنة واحتسوا المشروب الوهمي ونهضوا وهم سكارى ! هذه الأغصان المتدلية؟ الموسيقى، كانت وحدها قادرة على أن تجعلني أعود إلى خيالي بأني أريد أن أسكن هنا.أرى الرجل الجبار يكسر كثافة الأشجار بأسنانه والرسام الفنان يسجلها بأنامله وألوانه بينما وإلى اليمين نامت صخرة فوق الأخرى كأنها سلالم إلى جنة أخرى.

تقدمت منها وصعدت درجات الحجارة لتأخذني في درب ضيقة مفكرة بأن آتي إلى هنا في النهار لأكتشف إذا كانت رهبة الليل هي التي كانت تضفي على هذا المكان ما أشعر به. وقع كلمة الليل يطابق هذه الأكمة التي هي خلقت لطيران الأرواح والأطياف. سمعت جلبة خلفي.يسألني الرجل الاسبانى: « إلى أين؟ » أجبته بارتباك: « إلى السماء »، عرفت بجوابي هذا أني أريد أن أبدو له امرأة أخرى كأني أريد مغازلته. يسير إلى جانبي، يخبرني بأن الطريق مسدودة وهو يبتسم لي. أسنانه الطويلة جعلتني أفكر إذا كان سيتحول إلى خفاش، إلى مصاص دماء وها أنا أكشف سر هذه الطريق التي يقول لي عنها انها مسدودة. لكن الاسباني كان فعلاً خائفاً عليّ. فالمر ضاق حتى أصبحنا على شوار نطل منه على الجنة السوداء المغطاة بالأشجار. أمسك بيدي كأنه يحميني من الخطر ولدهشتي وجدتني أستأنس لهذه اليد السمينة الدافئة. ناسية أنها جزء من وجه نسيت كيف هي ملامحه. ونفس لا أعرفها. وجدتني أسير معه. مع كل خطوة وأفكر في هذا البيت القلعة، في هذه الجنّة وفي بيروت وحياتي عامة.أنى فعلاً مضطربة؟ إزاء اين أعيش وإزاء العودة. لم يكن ملمس يده هو الذي أيقظ بي هذه الأفكار. بل هذا السكون وكوني غريبة عن كل شيء. هذا المكان هو حيادي فأنا غريبــة عن اللغة والأشخاص ومكنونات أفكارهم وقلوبهم. كأنهـــا بالنسبة لي بداية العالم وما علي سوى أن أتناول الكأس الفارغة وأنعم بالمخدر الوهمي.. كانت فكرة البقاء هنا اخذت تتضخم في رأسي مع كل درجة أنزلها.

في مكان كهذا المكان، لا ينتظر مني، بل لا انتظر من نفسي أن أمسك بطرف خيط الماضي الذي يكونني وأواظب على غزله. إنه سينقطع تلقائيا ما ان أفرد نفسي هنا. بلا أشيائي. لمعان واحد يريني نفسي وأنا أمسك برسائل يضعها أمامي الرجل العجوز المتجهم الوجه، على صينية من ذهب. أو في فم جمجمة وأنا فوق السرير الأثري الذي ما انفككت اتزحلق من على شراشفه الحريرية. ثم والرسائل تمس قلبي، أجدني أرى لمعاناً آخـــر. أطـــلع أصـــدقائي على هذه الجنة وأعانق فيها ناصـــر. عند هذه الصورة أتوقف. انها لا تتماشى مع كوني في هذا البيت ولا مع الحياة المفروض أني تركتها.

عدت أسير إلى جانب الاسباني امرأة أخرى. كساحرة تمد خيطانها الحريرية، ابتسامتها التي تكشف عن أسنان ستقضم ولسان سيلسع، ويدان ستشبكان الضحية وأرداف تبلع. لكني أواجه ساحرة أخرى: فيرا التي ربما حدست أن تبديلاً طرأ عليّ منذ أن دخلت الأكمة وسمعت الطيور. والموسيقى تنساب من أوردة الأشجار، وترتاح عند مفاصل الجسم، لابد أنها شعرت بأنني بدخولي هذا قد طردتها من الجنة وبأني حواء المستحقة. إذ قمت بفرد شعري من شريطته حتى بدا كشعر حواء طويلاً. فيه نداء وعهر تساعده عينان تدعوان. وجسم يستميل.

تتشابك خيوط فيرا بخيوطي، ولكني لا آبه.خرجت من بين الخيوط وسرت باتجاهه، تمنيت لو تأتيني كل الجرأة لأقول له: « أريد أن أعيش هنا » وإذا تركت نفسي تنعم بشعور الحرية لكنت التفت إلى صديقيّ ناصر وقلت لهما وبالفصحى: اذهبا وأخبرا ناصر إذا كلمكما بعد يوم، بعد عام، أو مئة عام أني قبعت في هذا البيت القلعة إلى إن تحين لحظة موتي، من غير أن أسأل أو أن أفكر ماذا سوف يحدث في لبنان وفلسطين واسكندرون ».

سأحوله إلى بيت نصفه عربي. أعود إلى الزمان الغابر. انجب أطفالاً

وأدعوهم، بلقيس وطارق وليلى وزياد... أخذت أحدق في الرجل الاسباني، ومن ابتسامته حدست أنه يعرف بأن بيته هو الطعم، لا للسمك، بل للحوريات، لكني لا أرى في ابتسامته أو عينيه أي تكهن بما تطمح إليه هذه الجنيّة، الآتية من بلاد العرب، التي عاشت سنوات الحرب وهي سعيدة والتي لم تتوقف عن التفكير بأن الحرب تعطي الإنسان وبالتالي المدن أبعاداً أخرى. .

هذه الجنيّة من بلاد العرب عاشت أيام الحصار وأيام الهروب وأيام التقهقر النفسي ونسيان السنوات الطويلة التي اندلعت بها الحرب، ونسيان ما يراد أن ينتج عنها. نسيان المكاتب التي انشئت والمكتبات والبحوث لتعمل كلها من أجل الانتصار. نسيان حتى المستوصفات والسراديب والأقبية لحفظ السلاح والتفوق على العدّو إذ قرّر أن يدخل. هذه الجنيّة العربية. رضيت أن تنسى كل ما حصل وما يحصل لتبقى في مدينتها حرّة. مجرد أن يبقى أصدقاؤها حولها. ولم يبقوا. ولحقت بهم تمددت مشحونة بالانتظار والتخيلات والمونولوجات. كأن شيئاً لم يحدث. قيل لي أن ناصر خارج تونس في مهمة. أخذ الشك يؤرجحني من يوم إلى آخر وأنا انتظره. لعل الذي اجابني وأخذ اسمي ونمرة هاتف الفندق الذي نزلت فيه، نسي أمري، وبقيت انتظره، أياما على الشاطيء الساخن أراقب النخيل والأشجار التي اعتلاها الغبار وهي تميل من بعيد. أمسك بيدي الرمل، انه غير رمل شواطيء لبنان. لا أعرف لماذا كنت أفكر من قبل أن شواطيء تونس هي شبيهة بشواطيء لبنان فقط. ربما من كتب تاريخ الفينيقيين. وهاليسا، أجلس وأخلط صورة هاليسا بالرمل وبلون أظافري وأنا أتناول البيرة خلف الأخرى وأجد أن البحر واسع جداً. لم أغطس في المياه الساخنة، بل كنت أتمنى لو تضربني الشمس وانقل إلى المستشفي وأهذي باسمه وتسمعه الممرضات ويأتينني به. أنهض عن الشيزلونج كالملسوعة. وكلي يقين بأنه يداعبني، بأنه لمس الشيزلونج.

لكنه بائع الياسمين ينادي « ياسمينة ياسمينة... قليبات، فل... »، وفي يده

سلة مسطحة من القصب. لابد أن كلمة « مشاميم » تعني ضمم. أحن إلى هذه الأصوات كأنها تحدثني، تعرف أني انتظر أو فقدت حافز الأنتظار. الياسمين على عصا رفيعة وقد ذبلت وأصفرت أطراف زهرتها من جراء الحرّ الخانق. الرمل الأبيض الذي يشبه الطحين يجعل المرء لا يحتمل أن يكون بعيداً عن الماء ومع ذلك انطرحت فوقه هنا وهناك، قرب الحشائش التي قذفها البحر، ولا يزال يقذفها حشائش غامقة بنية أو سوداء ! الشمس حادة، تجعل الرمل يشع علّي ويعكس علّي البحرالباهت. ما هو لونه؟ لا أعرف. لا هو فيروزي ولا هو ليلكي. يبدو لي من بعيد وكأنه التصق بالسماء وأسفر لقاؤهما هذا عن بخار ورطوبة مغبشة.

« قليبات ».. أريد قلباً واحداً إنما غير هذه المعروضة بتأن فوق هذه الصينية، لا قلوب لوز أو فستق أو بزر ميال الشمس الأسود. أنهض الحق ببائع الياسمين وبائع القليبات. أعرف أني أتحجج بيني وبين نفسي وأني لا أتمنى سوى عدم الحراك، اتحاشى علبة بلاستيك لابد أنها كانت صلصة البندورة وأتحاشى الرمل. أقفـز عليـــه حتى أعود إلى خيمـــة القصب، أجلس على الكرسي وأطلب زجاجة كولا. يتمدد المستحمون من السائحين الأجانب على الشيزلونج أينما كان، وعند البيسين أو على الرمل، تظللهم خيمة قصب النخيل المستديرة.

لا ينظر إليّ أحد. لا أحد يهمه أمري. في بيروت تهمنا الجنسيات والبلدان. كنا نتساءل وننظر في فضول. استمع إلى رجل أمريكي يقرأ في كتاب سياحي لامرأة تستمع إليه في أهتمام. وهي تنظر إلى الجبل البعيد والذي يدعي بوكرنين. كنت انتقدهما في سري وهما يقرآن في الكتاب. قبل أن اتعرف بواسطتهما إلى اسم الجبل.ولماذا دعي بهذا الاسم.. وأفكر إذا سألني ناصر: « لماذا جئت؟ » لأجبته، دعاني جبل « البوكرنين ».

تحججت بالسكر الشديد. بآلام في الرأس. ولأول مرة أجدني أفكر إذا اتصل ناصر ولم يجبه أحد في البيت ليس بكارثة.اقترح عليّ الرجل الاسباني أن

أتمدد في غرفة ما بعد أن جاء لي « بالالكاسلسرز » حاولت فيرا أن تهتم بي لكنها لم تفلح في إخفاء ضيقها مني، فأنا استحوذت على اهتمام صديقها طوال السهرة، سواء في حديثي عن بيروت والحصار والاحتلال وكيف غادرتها وعن بيروت قبل الحرب، بينما كانت زوجة صديق ناصر تتأملني غير مصدقة أنني المرأة الشاردة الحزينة التي استضافتها في بيتها حتى تنتظر حبيبها، وها هي تحاول الآن استمالة الرجل الاسباني. حدجتني بنظـرات مستغربة وهي تخلع حذائها وتقهقه قائلة: « سكرانه ».

شربت « الالكاسلزر » وكأني أشرب منوما. إذ ملت برأسي على الكنبة وأغمضت عيني، لأسمع الرجل الاسباني يقترح بأنه لربما عليّ أن أتمدد في إحدى الغرف. فتحت عيني لبرهة أتمنع ثم لأعود أغمضهما. اسمعهم يتحدثون عن الألم الذي لابد أني قاسيته في بيروت والعذاب الذي لابد أني تكبدته لمغادرتها.اسمع صديق ناصر وزوجته يهمان بالنهوض وهما يتباحثان في أمر ايقاظي. وأنا أحاول أن أبدو غارقة في النوم. عندها اقترح الرجل الاسباني أن يتركانني نائمة مؤكدا أنه سوف يأخذني إليهما حالما استيقظ وإلا إلى اليوم التالي. سمعت الأصوات المودعة من بعيد، سمعت عواء كلب، ثم جلبة الرجل الاسباني وفيرا. ثم جلبة خفيفة ثم ملمسا خشنا علّي. لقد غطتني يدان ببطانية. ثم أطفئت الأنوار. وتركت في العتمة بين الجدران العالية و رائحة الرطوبة تعبق من الكنبة التي تمددت عليها ومن الحرام الصوفي. أعد تكتكة الساعة وانتظر تكتكتها إيضاً وفكرة احتلالي لهذا البيت تكبر أيضاً بمرور كل لحظة لتختفي بعد لحظة. أرى نفسي بين جدرانه عاماً تلو آخر.واعرف في داخلي أني لن أحاول أن أرى ناصر بعد اليوم .

في وقت، استسلمت به للنوم، شعرت بيد فوق جبهتي ثم فوق شعري. نهضت أتصنع الذعر. ما ان تبينت الرجل الاسباني حتى عدت أتصنع الأطمئنان أغمض

عيني، وما كان منه إلا أن أحكم أحاطتي بالحرام الصوفي، ثم انحنى فوقي بكل أنفاسه، مادا يده يتحسس وجهي، عندها فتحت عيني ابتسم له وأدعه يطبق بشفتيه فوق شفتي، ولا أشعر سوى بحاسة شمي تحرز رائحة النبيذ والسيكار، لكني استسلمت لشفتيه وبادلته القبلة ولم أرفض لسانه،رغم أني قررت سوف أرفض أشياء أخرى. لكنه أكتفى بوضع يده فوق البطانية حيث صدري، ثم تنهد تنهيدة عميقة قبل أن يتحسس شعري ويتمنى لي : « ليلة سعيدة ».

كان الصباح في هذا البيت القلعة، أجمل من المساء. أصوات الديكة، أجراس القطيع، وصدى الأصوات الاسبانية كانت كلها تأتي من بعيد، تماماً كأنه الصباح في قريتنا، عندما ينهض المزارعون عند الفجر. النهار يحضر نفسه وهو يخفي رائحة المساء الرطبة. فكرت إذا كانت شجيرة ملكة الليل قد أغلقت نوافذها التي كانت تبث عطرها الذي خدر شرايين حاسة الشم ليلة البارحة. الأصوات تدلف إليّ من جديد. وأنا أرى نفسي أنهض في الصباح وقد أصبحت سيدة هذه البقعة، اسير في زي عربي كأزياء الحريم في صور المستشرقين والتي هي من قماش الحرير أو الشاش المضموم تنتهي باللؤلؤ وبالحبوب الملونة، وعلى الخصر أحزمة من خصائل وخيطان حريرية. إصراري هذا النهار على احتلال هذا البيت يفوق البارحة. نهضت أتجول في البيت الواسع العالي، والاحظ ان أرجاؤه الواسعة لم تبتلعني بل كأنها تضمني اليها، بل كأني أضمه كله إلي. تمنيت لو أعرف الاسبانية حتى أسأل الطريق إلى الحديقة الجنة. الأصوات تداعب بعضها كأني بين أهلي وبين المزارعين الذين أراهم يحيونني الآن. لو يعرفون أنني سأصبح سيدتهم. بدلا من ان يضحكوا ويتهامسوا علي. لابد أنهم اعتادوا على رؤية النساء في هذا البيت من مختلف الأعمار والأجناس في الصباح والمساء. لكنهم لا يدرون أني أخرى. لا أريد أقامة الحفلات ولا أريد المال ولا المجوهرات. بل أن أعيش فقط وسط هذا الجمال وأبتدىء حياة جديدة.

الرجل الاسباني يقبل يدي على مرأى منهم ومع ذلك لم يبدلوا طريقة نظرتهم إليّ. لابد أنهم اعتادوا على رؤيته وهو يقبل أيادي النساء في الصباح. لابد أنهم يتكهنون ما يجري في الليل وما وراء هذه القبلة. لم أر ڤيرا بعد، ولدهشتي لم يعرض علي الرجل سوى كوب العصير. رغم أنه تناول جزءاً من الفطيرة التي أتى بها العجوز على الصينية إلى جانب أكواب العصير، كنت قد منّيت نفسي بالجلوس على الشرفة أو الدخول إلى عالم الأكمة. لكن الاسباني كان على عجلة من أمره، يحمل شنطة جلدية كرب عمل عادي لا كسيد هذه البقعة. إنه محام. إنه يخسف الصورة بأن من يدخل هذا البيت – القصر – القلعة لا تعود له صلة بالعالم الخارجي. لكن لا بأس. هذا من حظي. سأبقى وحيدة معظم الوقت في هذه الجنة.

وأنا في السيارة عرفت أني لن أكون وحيدة معظم الوقت في البيت الجميل فقط، بل أني لن أزوره مرة أخرى.الرجل يعرض علي تناول الغذاء في شقة له وسط البلد. لأن ڤيرا أصابها الشك. عرفت أني طردت من الجنة، وأن خيوط فيرا قد تغلغلت في مسامه. ولم أجد نفسي حزينة كهذا اليوم، كان يفوق الحزن الذي عانيت منه وأنا انتظر تلفون ناصر يوماً بعد آخر. فأنا رضيت المساومة مع شعوري وجسدي من أجل ذلك البيت وتلك الحياة الجديدة ومع ذلك رُفضت .

أشعر بنفاذ صبرك، جيل موريل، لكن هكذا هو الرهين. يعيش ويحاور الماضي. عليّ أن أعود بك إلى قضية المخطوفين، وكلمة الرهينة والخطف والخاطفين، انك تودين العزاء والإفادة السريعة فربما فتحت عينيك على أمر لم يكن في الحسبان من قبل. وهأنا أتلو عليك كيف أن اللامعقولية في الخطف أصبح عادة من عادات الحرب، لم يعد هناك قاعدة. الحرب تتبدل بتبدل اللهجات وأزياء الحرب، جعلت المضحك مبكياً والمبكى مضحكاً واصبح الخطف حقا.

قريب حياة الذي خُطف لمدة أشهر نهض يوما، بعد أن قيل له:

«مبروك، اليوم راح نفلتك ».أصابه الهلع من جملة حارسه هذه « لربما نووا قتله ». نُقل معصوب العينين إلى السيارة ثم إلىٰ مكان ليترك فيه وحيداً بعد أن أزيلت العصبة عن عينيه وقبل أن تعتادا على الضوء وعلى ضجة أصوات وزعيق سيارات وأذان وطرطقة، ظن أن من في وضعه يركز على نفسه، وعلى حواسه الخمس، لتصبح هي كل جسده وفكره، ثم ليدفع الباب ويسمع الجمله الأولى: « الحمد لله على سلامتك يا خواجا يللا العايلة ناطرتك »ومدّ الشاب يده يصافحه بلباس الميدان والمخطوف لم يزل تحت وقع الدهشة. غصت الغرفة بشباب كلهم بثياب الميدان، تناول أحدهم إبريق الماء ولزقزق منه. بينما بقي هو فاغر الفم ثم ليأخذ بالبكاء وهو يتناول بنطلونه ويلبسه فوق البيجاما المخططة في الفانيلا التي أعطوه إياها في اليوم التالي لخطفه، بيجاما من الفانللا رغم أنه لم يكن يلبس سوى الحرير.

أين خاطفوه؟ هل دفعت زوجته الفدية؟

ينزل الدرجات والضجيج يزداد ثم يخرج المرافقون إلى البوابة الحديدية، التصفيق يعلو وهو يهز رأسه ويرفع يده محيياً، صعد في الجيب، من غير أن يتنبه لما كان يقوله الشباب حوله. لكنه انتبه إلى هذه الأحياء التي من زحمتها كادت تحجب الشمس عنها والضجيج الذي لم يزل يطن في أذنه والذي كان هو الوحيد الذي يربطه بالعالم. لأنه كان معصوب العينين عندما خطفوه لم ير هذه الزواريب ولا هذا الجزّار في الفلاء ولا كثرة الجوامع والنساء بعباءات سوداء، شعر كأنه في زيارة إلى بلد في الخليج. حلاّق يقص الشعر في وسط الشارع، ودكاكين يلمع فيها الذهب، وناس وأصوات وأولاد تلعب حفاة في ملابس مهترئة، القذارة أينما كان، كذلك شرائط كهربائية ام هاتفية كانت تتدلى من هنا وهناك.

ارتفعت أسهم الحزب عند عائلة المخطوف. بينما هبطت في أحياء وقلوب

الكثيرين الذين لهم علاقة بالخاطفين. إذا كانوا على معرفة بأن الحزب لم يكن يهمه سمعته الطيبة، بل المبلغ الذي سيدفعه لهم المخطوف أو أهله ولو على شكل تبرع لذلك لم تنته القضية بعودة المخطوف إلى بيته إذ اتصل به الخاطفون بعد أيام على إطلاق سراحه وأصروا على مقابلته.

دخلوا وسلموا عليه كأنهم أصحاب العمر وقالوا: « اشتقنا » ولحوا أنه صار بينه وبينهم رابطة خبـز وملح، ثم قال أحدهم لزوجته: « والله يا مدام كل الوقت فكرنا معك، لانه جوزك مدّلع: هيدي الأكلة مالحة. هيدي ما بحبّها. هيدي مش مستوية. صرنا نقول كيف المدام مستحملة الخواجة الله يكون معها ».

ثم دخلوا في لب الموضوع. اشتكوا بأنهم تكبدوا خسارة لم يحسبوا لها حساباً عندما قاموا بخطفه. فهم أسرفوا في مصاريف طعامه. شراء «الجلوسيل» وبعض الأدوية لمعدته. دفع رشوات لبعض المقربين في الحي حتى لا يفش سرهم. حتى الحاجّة التي كانت تطبخ له كانت تطلب أكثر مما كانوا يستطيعون. وما أن فرغوا من شكواهم وشربوا القهوة، حتى اختفى منير وعاد يسلمهم ظرفاً فيه المال وأوصى أن لا ينسوا الحاجة. كان يسمع صوتها وهي تسأل الخاطف إذا أحب الخواجة أكلها. والتي كانت تطبخ له كل ما يشتهيه. وكان أكلها طيباً رغم إضافتها الكثير من الثوم والكزبرة التي كانت تمدّه بالنعاس.كان يتعجب لاهتمامها بما يأكله وبالتالي اهتمامها لان يتذوق كل ما يأكله رغم حالته هذه. ثم سألهم لماذا هم خارج سجن الحزب التأديبي كما قيل له فأجابوه أن الحزب أجبر على إطلاق سراحهم لأن هناك فتوى مسبقة باسمه وعندما استفهمهم ما يقصدون بالفتوى وشرحوا له، حتى تصنع عدم المبالاة إلا أنه ارتجف غضباً وخوفاً. بينما تمنت زوجته لو تدلق ما بقي من القهوة الساخنة على رؤوسهم وأن تنتشل من بين أيديهم المال وتصيح بهم بأنهم ليسوا من بلد واحد. وفي الليلة ذاتها نووا الهجرة.

لا بأس، جيل موريل. لا تخافي على حبيبك من هذه المعارك. ستتبدل الأمور،

سيتوقف هذا القصف المجنون الذي أصبح في الدقيقة. سيجمعون القتلى وسينقل الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر الجرحى ويصرحون عن هدنة مؤقتة أو طويلة.

هذه هي المشكلة أن يعود كل شئ على حاله. بهذا يكونون قد رشوا ملح البحار كلها على الجروح وزادوا من التهاب هذه الجروح. ما يحدث الآن لا علاقة لأحد به سوى المتحاربين. من سوف يفكر جدياً في حرب الزواريب والأزمة هذه وينتظر نتيجتها؟

لا أعتقد أني سأفكر خارج حدود غرفتي. لكن أجد نفسي استرجع نفسي وأنا استرق النظر من ثغرة في جدار الحديقة إلى بيت قيل أن عناصر حزبية قد احتلته وتنام فيه. كان الليل ساكناً، هادئاً والكل ينام. رأيت المسلحين نياماً في الأسرة. كأني سمعت شخيرهم عندها اخفضت رأسي وتساءلت ربما أنا لست مخطوفة. ربما لم أزل في حلم مزعج. فالناس النائمة بسلام لا يمكن أن تكون خاطفة، وجدتني اتراجع مذكرة نفسي بأن الشر ينام أيضاً .

عزيـزي نـاصـر

أهذي بك من جديد، لولا الصمت، ولولا المصفّحة، لكنت ظننت أنك ستمرض أو تموت. إذ لا بد أن يحدث شيء للذين أهدس بهم سواء في الأحلام أو في اليقظة، اسمع منهم أو عنهم بعد وقت. أعرف أن النساء حولي قد حفرن بي هذه الأفكار منذ الطفولة. وأعرف أني إذا آمنت بخرافاتهن هذه لما تركت أحداً حيًّا يرزق. لطالما أقنعت نفسي أن أكفّ عن هذه الهواجس، أذكّرها بأنه إلى جانب سماعي اخباراً سارة تحدث لمن أهدس بهم، فإن امي لم تقلع فقط عن هذه المعتقدات بل اخذت تجعلهامادة للضحك عبر الكاسيت التي دأبت على إرسالها إلى فضيلة، والتي تبتديء بصوتها الحنون يغني بيت العتابا ثم شهقات ضاحكة ثم: " يقطع هالعيشة هون، كل شي عالأصول بطلنا حتى نفوّل على حدا"، لنروي قصة أخي زوجها صاحب المغسلة المتخصّصة بغسل بياضات الفنادق الذي يغسل شراشف النزلاء المسافرين لحظة سفرهم، ومع ذلك لا يقعون من الطائرات ولا يلاقون حتفهم تحت دواليب السيارات، ولا يتهالكون امواتا وهم يسيرون. قلت وأنا أبعد الشر عنك لانك تعودُ الى افكاري مجددا بأن الظروف هي التي تعيدك الى سطح أفكاري. كأنني كتاب يسكن فصوله وجمله أشخاص على شكل أوراق تبوخ الوانها وتختفي من فصل إلى آخر، لتعود تتسلق هذه الفصول بوضوحها وبسكنها لغرفها من جديد..عدا أني في أصعب الاحوال وخوفا على سلامة عقلي، أجد نفسي أفكر بعيدا عما يحدث حولي. إذ والمعارك جارية وابنة الجيران جاءت تستمد ولو القليل من الشجاعة، سألتها لماذا لا تحوك لي شالاً مادامت تعرف شغل الصنارتين، ثم جئت بالهاون النحاسي حتى ندق حبوب القضامي ونحضر

"نعومة ". رغم دهشتها لاقتراحاتي هذه وذعرها كلما سمعت متفجرة، فقد استأنست هي بعدما اقتنعت أن الملجأ يقطع الروح وأن البقاء في البيوت نعمة. رغم ان زمزم لم تتوقف عن الصياح:" مجانين، موت، دماء، زعران، وحوش، جهنم،.." ولأني لم أعد استطيع أن احتمل حتى خطواتها في البيت وجدتني أحرقصها، أعاندها قائلة " جهنم كلمة حلوة، فيك تتصوري شياطين أو ملائكة الشر ماسكين شوك كبيرة، وعم يغزّوها بالناس، والوهج بعيونهم ووجوههم صفراء رفيعة".

اعتدت على زمزم وضياعها، لكن لم اعتد على ولولتها وضربها على صدرها وصراخها ودورانها حول نفسها كأنها كلب خمن أن ذنبه هو عظم شهيّ يودّ اللحاق والنيل منه.وهي لم تكفّ منذ أن ابتدأت المعارك عن التوسّل تارة وحثّنا بالصراخ تارة أخرى لنترك بيروت، لا إلى الضيعة، بل الى مصر، الشام. وجدتي تعلّق: " بدك الناس تشفق علينا ويقولوا يا حرام الشوم تركوا ديارهم وتشردوا هون وهون".

" اسمعوا شوفو هالحكي. الناس بتشفق عليك إذا سافرت ؟ بتحسدك فقط بل تدعو لك بالمرض ايضا".

المدافع تهزّ البيت. كل منا في غرفته. نسمع ولولة زمزم تسبقها قبل أن تدخل غرفتي وعندما ترى الكتاب بين يدي تتراجع وكأني أصوب عليها سلاح الموت: "بسم الله الرحمن الرحيم " ثم تهرع إلى جدتي التي يبدو أنها كانت تقرأ في كتاب الأدعية على ضوء الشمعة، سائلة اذا كان هناك دعاء خاص لوقف المعارك؟، يلحق جدتي الضيق من زمزم فتخيرها لان تجد عائلة تأخذها معها خارج لبنان.

ارتعدت زمزم وكأنها وضعت اصبعها في إبريز كهرباء. فأخذت جملها تتعثر: "يعني هلق فيك تستغني عني. لما مصّيت كل عافيتي، لما جيت بيتكم كنت مثل

طربون الحبق". ووجدتني أشفق عليها وأتدخل: " ستي عم تحكي هيك لأنها مقهورة، خيفانة تروحي وتتركيها"، لأرى زمزم فجأة كالسمكة التي جفت مياه نهرها وحاولت أن تمص الماء من الحصى والأعشاب لكن عامود فقرها أصيب بالالتواء وهي تنادي طلباً للأوكسجين.

زمزم، من غير جدتي وحياتنا، كهذه السمكة. لكن، ربما كنت مخطئة. فحتى جدتي لم تعد مكانتها في القرية كما في السابق. لقد ولت الأيام التي كانت بها زمزم تستمد الفخر والثقة من جلوسها إلى جوار جدتي سواء في السيارة أو في الدار.

نسمع الباب يرتج من عنف إغلاقها له بقوة. " لو علمناها أن تصرخ: لا أمل ولا حزب اللهّ.. علي حبيب الله ". ثم ولنفسها أخذت جدتي تردد: " لا أمل ولا حزب الله.. عليّ حبيب الله ". مظاهرة ! هل معقول ؟ حتى كلمة مظاهرة أصبحت بعيدة بعد الأمازون عن بيروت. فهي تذكر بالأيام العادية. زمزم تسير في مظاهرة ؟ وهي تنتعل شحاطة البيت والقفطان، اسمع جدتي تتنحنح في غرفتها. كم أصبحت ضعيفة وكم لم تعد هي جنيّة. وكم لم أعد أنا جنيّة أيضاً. ربما لأنها ليست كعادتها بفساتينها البيضاء الواسعة الفضفاضة ومنديلها الحريري الأبيض كأنها عادت لتوها من مراسم الحج. هي الآن من غير بودرة وجهها الابيض، وكأنها تعد نفسها لخشبة المسرح، وأنا لست في تنانيري الواسعة ذات اللون الباذنجاني التي تصل حتى أخمص قدمي، وبلوزاتي التي كانت تكمل شعري أو كان شعري يكملها بلونه.

ولم نتحرك من غرفتنا طوال الأيام الثلاثة هذه إلى ان سمعنا انفجاراً هائلاً فصحنا جميعا، وهرعت كل منا إلى غرفة الأخرى. وعندما سمعنا تبادل أصواتنا وأسمائنا وكدنا نتصادم، ضحكنا، كنت أسرع من جدتي الى غرفة المؤونة. حيث ينبعث اللهب، وحيث ارتمى شيء حديدي على الأرض، وكأن لا علاقة له بهذا

الخراب الذي أحدثه في الحائط وعلى الجوانب وفي الأرض. كان يشبه غصن شجرة تخيناً ويابساً. قلت لجدّتي وأنا أتأمله " يللا نطبخه.".. ضحكنا معاً من جملتي هذه. وعندما شبهت جدتي ردّة فعلي المضحكة بأمي وبجدّي، وجدتني أقرّ لها بأني قد استعرتها من كتاب شعر كنت أقرأ فيه.

قررت أمي أخيراً إذا دخل الصاروخ مطبخنا

ستنقره وتسقطه في طنجرة الكوسى

تطبخه مع أرز الشظايا

وكمشة من صنوبر أصابعنا

وستدعو المحاربين إلى أشهى وليمة

وحين عدت أنظر حولي، وكلي حيرة. شعرت فجأة بكراهية لبيتنا وبنفور منه. كيف لبّى رغبة القذيفة وجعلها تخرق باطونه وتسقط في مكان مستحيل. بين الصواني الحديدية وأكياس البرغل. كنت قد ظننت أن العنف لم يعد يلمسني، إذ زودتني النفس بدرع سحرية، كما زوّدت بها الآخرين حتى الذين خلف المتراس والمدافع، توهمنا بأننا لن نصاب. لا يمكن أن نخر على الأرض بينما نحن نغلي بالحركة وبالأفكار. لا يمكن أن تُحبطِ هذه كلها من جراء شيء جامد، كهذا المعدن لأنه يدخل الجسم صدفة.

وعادت زمزم تنقل لنا الأخبار بأن الدبابات ستدخل هذه الشوارع، وأنهـــا سمعت بأن فضيلة أقفلت الباب على ابن أخيها ريكاردو، وحبسته في البيت وبأنها تظاهرت هي ايضا وأخذت تهتف للسوريين وتضرب صدرها وتلفت انتباههم حتى يتذكروا وجهها، حين يبحثون عن مقاتلي حزب الله. وبدت زمزم كالقرد الذي دخل مخمراً للموز وتاه من أين يبدأ. تكرر جملتها الوحيدة وهي أن الحي بأجمعه يستعد للهرب. في الأيام التي تلت، اكتشفنا كم كانت زمزم مصيبة. فقد امتدّت

وحشية القتال إلى اهدابنا وأصبح صخب القصف كأنه جزء من الآذان.

ويبدو أن تفكيري الملح بالهرب من هذه الأصوات ومن احلام جدتي بأنها في بساتين خضراء تقطف الكرز وبأنها فوق جبل عرفات وبأنها في بحر مرمرة، وصراخ زمزم لأنها خائفة ولأنها تتوسل: " دخيل أجرين الله. حدا ياخذني من هون، حتى لو عزرائيل يهزّ ورقتي الصفراء ويخطف لي روحي ربما في دنيا ثانية وبرتاح" جعلتني أسمع خبطات على الباب وصعقنا من التساؤل. وكأن كل هذا الضجيج المجنون في الخارج لم يحرّك بنا شيئا كهذه الخبطات رغم أن قلبي رحب بالطارق، متمنية لو أنه كاظم أو اخوه أو أنه فارس الأحلام سمع عن الأميرة التي لا تنام وجاء بسيفه يقتلع الأشواك التي كانت تنتهي بالرصاص. أركض إلى الباب. أطير كأني فراشة، رغم أني قبل لحظات كنت اتخبط بين الوهم والحقيقة بأنه ربما لم تعد لدي القدرة للنهوض والسير على قدمي. صوت علي: " عجلوا افتحوا الباب ". ابتسم وأنا أفتح له بحماس وهو يصيح: " أن شاء الله افتكرتو إنه علي نساكم خلص؟ " اجبته بكل سعادة:" وده معقول يا سي علي ".

لابد أنه استأنس لهذه العاطفة وبالوقت نفسه اخجلته إذ قال بسرعة وبكل فخر " ياللا.. جاي آخذكم عالضيعة. بسرعة، حضّروا حالكم". نادته جدتي وكعادتها أرادت أن تتمسك بشخصيتها حتى في هذا الظرف. فسألته وكأنها وزيرة حرب تسأل جنود الجبهة: " شو الأخبار ؟ " مين الغالب ؟ شو راح يصـير؟ "

أجابها علي بنفاد صبر «حضروا حالكم بكم دقيقة. المسألة مطولة. راح يوصل الدم عالركب". تجيبه جدتي: " بسيطة لو عالركب ؟ ما وصل عالتم ".

أشعر بالفرح الحقيقي. أسمعه يصيح من الصالة: " ماحدا سالني كيف بدي قطّعكم؟ جايبلكم مصفحة، أي والله مصفحة".لا فرق عندي مصفحة أم بُراق

مذهب الجناحين. ما همّني هو أن افلت طليقة من بين ذبذبات صوت زمزم وثقل انفاس جدتي. وناديت منافقة: " مصفحة يا علي والله انك ". وقاطعني وهو يشعر بالقوة والزهو: " أي والله ست اسمهان مصفحة طويلة عريضة".

قمت بجمع اسطوانات بيلي هوليدي في كيس نايلون، اضيفها الى ملابسي الداخلية والى تنورتين وعدة قمصان ولم انس علبة الكوتكس، أعرف أن دكان الضيعة لا ينقصه بين حين وآخر سوى الكوتكس. عندما كنت أتأفف لعدم توفرها لديه عندما كنت احتاجها كانت زمزم تعلق: بانه اهالي الضيعة حكماء عكس اهل بيروت الذين ينفقون ليراتهم على قذارة الجسم ".

اسمع صياح جدتي يعقبه صياح زمزم. زمزم هي في الحالة التي تصفها جدتي الآن. " مزلغطلك بـ... شى نوري اندبوري " بقدر ما هي كانت تتمنى مغادرة البيت واللجوء الى أي مكان يبعد عن عنف المعارك، بقدر ما هي لا تستطيع فراقه الآن، تدور حول نفسها ولا تعرف ماذا تأخذ معها وماذا تترك. لا بد أنها خائفة على البيت ولا تستطيع مفارقة أشيائه.

رغم سعادتي، أجدني أتردد في الخروج خلف علي والركوب في المصفحة، كأني هاربة وأنا أخاف من هذه الصفة حتى ولو مرّت في خيالي. خائفة منك ؟ من سكان الحي، لكنهم في الملاجىء، طمأنت نفسي وأنا أتباطأ، تهكمت على نفسي. لا بد أني خائفة من القطط التي أصبحت تعرف ما هي الحرب. أو تراني خائفة من اعمدة الكهرباء الملتوية ؟

يستعجلنا عليّ. يتناثر ريقه في الفضاء. اصبحت نبرته أكثر سلطة وحزماً في هذه السنوات الأخيرة، منذ أن ترك خدمتنا. فقد كان السائق ومدبر العائلة وكل ما نحتاجه في بيروت إلى أن أتت الحرب.

أردت أن أكون الأخيرة. لكن صياح علي بزمزم لأنها تحمل مع الحقيبة التي

سمح لها بها قفص الحجلة جعلني أسرع في الخروج، صياحه ر شوفي ". تتوقف يختلطان معاً: " خلصوني. هلق بينزل شي صاروخ على هالمصفحة"، وشر بشرفك زمزم تركض الى بيت الجيران حتى تودع عندهم الحجلة. يقسم بانه لن يأخذها معنا ويأنها لا تستأهل الشفقة. نصعد إلى المصفحة وجدتي مستغربة لان زمزم اصبحت في نظرها من بني آدم.لانها تركب مكنة المولينكس وانت بطير الحجل».

صوت زمزم يلعلع من جديد بانها قادمة، تصعد المصفحة وهي تجيب علي الذي لامها على عدم ايداعها الحجلة لديه. " ليش بدى أعطيك الحجلة ما أنا بعرفك. بتذبحها وانت مبسوط وبتنتفها ويمكن تاكلها نيّة". وتسألها جدتي اذا كانت اودعتها لدى ذكية، لكن زمزم لا تجيبها بل تقول نادمة:" الله يسامحكم " ثم تسألها جدتي: اذا كانت قد ادارت المفتاح في القفل وكانت قد سألتها السؤال نفسه ونحن ننزل الدرجات القليلة حتى الحديقة وسبق ان أجابتها زمزم بأنها وضعت قفلين. رغم صخب الجميع إلا أني لم استطع إلا أن اشم رائحة الفتنة وكانت شجرتها لم تزل تمتد في حديقتنا ليصل بعض أغصانها إلى الشارع. لكنها هذه المرة كانت تختلط برائحة البارود الذي حوّل الجهنمية الليلكية الى جهنمية سوداء. العمارات أم نمور عالية بجلودها المرقطة ؟ غرفة جيراننا بلا جدار. لم تزل زرقاء اللون في وسطها طاولة الطعام وحولها كراسي. بدت جميلة، كأنها معلقة بين السماء والأرض، تتساءل جدتي: يا كافر البلا، يا علي مدري شو صار بجيراننا الأوادم؟". " ما بعـرف يصرخ علي " يللا اطلعوا، دخيل اجرين الله اطلعو ؟ " وهو يرفع يديه وينزلهما على شكل قدمين. الحي ساكن. كأنه يرتاح من حفلة الأمس الصاخبة، حيث الألعاب النارية شعشعت في السماء، وبقيت فترة طويلة. بناية مالت رقبتها من التعب. مواسير مياه كأنها أفاع سوداء ملتوية. عامود الكهرباء انحنى كأنه يلامس الأرض. دخان ما زال يتصاعد كأنه غيوم سوداء في الربيع. قرميد أحمر بدا كأنه لعبة للأطفال بانتظار البلاط المفقود. باب

الدكان المعدني الجرار، كأنه مراوح صينية أفلتت طياتها. أحجار البلاكين قطعت ارجلها. المصفحة تقف بانتظارها، وأغنية تنبعث منها. ندخل من الباب الخلفي، آخر ما وقع نظري عليه قبل أن اصبح في عالم سري هو الملصقات وما عليها من وجوه شهداء ورجال دين وزعماء، كأنها خافت من المعارك فقشرت نفسها عن الحيطان.

تبادر جدتي الشاب الذي احكم باب المصفحة دون أن يحيينا: " شكراً يااستاذ، متشكرين همتكم ومساعدتكم ". كأن زمزم لم يعجبها جديّة جدتي في تقديم الشكر إذ أردفت: " الله يخليكم لاهاليكم، الله يردّ عنكم، ويبعد عنكم الشر كيف ما درتو وكيف ما مشيتو ". عندها فقط ينظر الينا الشاب بسرعة ويقول قبل أن يختفي في فتحة الباب، بلا مبالاة: " أهلاً وسهلاً ".

لابد أني فقدت جاذبيتني، فهو لم يرد على ابتسامتي. بل إنه تجاهلني. بررت هذا بالتوتر الذي لابد أنه يعاني منه الآن، أردت أن انظر في المرآة. لابد أني أخسر جاذبيتي وبالتالي حيوتي، ولم يمت هذا الموضوع تماما في ذهني إلا عندما سارت المصفحة، وعندما اعتدت على هديرها، تلفت حولي ورفعت رأسي أتأملها. كانت أشبه بسيارة إسعاف. مقاعدها كأنها أسرة حديدية قليلة الطول والعرض، انتبهت الى سقفها الذي كان يشبه شكل القنفذ ولكن من حديد. ينهض علي وهو ينظر إلى السائق الذي لم نره بعد، وإن كنا نرى قدميه حتى خصره، يدق على سقف المصفحة، كأنها فرس نالت الجائزة الأولى في السباق ثم يدق على قدمي السائق الواقف الذي لا بد أن رأسه يناظر الشارع وعيناه على بندقية أو مدفع. لا أعرف تماما ما اسم السلاح، رغم أن الجميع حتى الصغار في لبنان باتوا يعرفون السلاح من دويه وما يتركه من آثار يفرقون بين الرصاص الجدي ورصاص الإشارة، ينزل الشاب رأسه وهو يبتسم لنا ابتسامة عريضة يوجه الحديث إلى علي: يللا شو بدك تشوف ؟ يرفع علي نفسه حتى اختفي رأسه.

لحظات ويعود به من الفوهة ويهتف: " تعي ست اسمهان. تعي شوفي ". تتوقف المصفحة وهو ينحني بجسمه، ويمد برأسه قائلاً بحماس: " ست اسمهان، بشرفك تعي. شوفي الصليب الأحمر عم يحفـــر... عم يشيلو ناس من تحت ". و يمد يده لي. تحت اصراره نهضت رغم أني كنت مستأنسة بدفء مكاني، ومن فوهة المصفحة رأيت الدنيا بما فيها من سماء وأرض وقد دلقت كل ما في داخلها إلى الخارج. ورأيت نفسي أيضا بين الخراب، رأيت تلك البناية التي.... ثم دوى صوت انفجار، ورأيت رأسي داخل المصفحة. يحاول الشابان غلق فوهتها ولا يستطيعان. يزيحهما علي ويجرب كل الأزرار يخبطها. رغم محاولة احدهما ردّه عن هذا العنف. تسقط العتمة داخل المصفحة. وهنا زاد أحدهما من تأنيب علي. بينما أفكر بأننا ربما تسرعنا في الموافقة على الركوب في هذه المصفحة. يبدأ القلق ينهشنا لا سيما زمزم. أعرف قصصا كثيرة عن الذين أرادوا الهرب من القصف فخرجوا إلى البحر وعانوا من التيهان به بينما في البر وقعوا تحت القذائف. وكأنه تبين لي الآن فقط أن شغف هؤلاء الشباب بقيادة المصفحة والسيطرة عليها كانت وراء قبولهم لطلب علي لا حبًا في سلامتنا. ثم أشعر بالوحشة والأولاد الثلاثة يحاولون السيطرة على هذه اللعبة الجديدة واشتاق فجأة إلى البيت الذي تراءى لي هذه المرة كأنه اختصر نفسه، اختصر اشياءه الجامدة التي كانت تتحدث والتي لازمتني بتدرج والتي كانت شاهدة على خلجات افكاري ومشاعري واصبح كله في علاقة مفاتيح في جيب علي مع الوصيّة، بسقي الحديقة وتنكات الحبق. أشعر فجأة بالتعب أريد الاستلقاء في سريري بالذات. فأنا كلما ابتعدت عنه، اتصوره ينتظرني. مؤكدا لى أن الخطر سرعان ما يزول، يستفسر سر هربي منه، ويفتح الواقع أمام عيني بأن الخطر هو في كل مكان حتى في هذه المصفحة. وكأن جدتي أرادت أن تبعد عنها التوتر فقالت استجابة لأفكاري : " يا ريت قلنا لذكيّة تسقي المردكوش والحبق، وتناظر الأولاد حتى لا يرشقوا شجرة البوسفيرة ".

تتبرم بها زمزم قائلة: " هلق لح نموت وانت عم تفكري بالمردكوش والبوسفيرة!".

لابد أن الشباب قد نسوا وجودنا، إذ حينما نزل علي، لم يعلق بانهم واخيرا سيطروا على اللعبة الجديدة التي هي اكبرمن طموحهم، بل أخذ يحدث السائق ويسأله إذا كانت هذه الدبابة درجة اولى، وإذا كانت تستطيع دخول ازقة الضاحية وإذا...

عندها فقط، تنفرج اسارير زمزم وتتمتم إلى الكيس الذي بجانبها: " «كنت عارفة أنك خير على وجهي ". كانت قد اخفت الحجلة معها في الكيس. نضحك كثيراً وتعلق جدتي: بانها سمعت صوت يشبه صوت امعاء البطن. يضحك علي ويخبر الشباب، ثم وكأن جدتي تضايقت من هذا الموضوع، فبدلته موصيّة علي بالبيت. ليجيبها: " لح وصّي على باب حديد. على كل حال بيتكم فاضي لا ثروات ولا كنوز بس الواحد سبحان الله ما بحب حدا غريب يفوت على بيته ولو كان فاضي ". وعندما غمزني عرفت ما كان يقصده، كان يحاول إبعاد الأفكار السيئة عن رؤوس شباب المصفحة. وظل الجميع يتبادلون القفشات والمزاح. علي يتمني لو يجد كاميرا حتى تؤخذ له صوره وهو على فوهة هـذه المصفحة. بينما أخذت جدتي تردد آية الكرسي وأدعية السفر.

أنت الآن في ذهني، لأني داخل مصفحة، وفي جسمي لاني كنت بين الشراشف دافئة، العرق الخفيف ينمو على مسام جسمي كالعرق الخفيف الذي كان يضخ على جسمينا ونحن معاً رغم المعارك التي كانت في الأجواء.

هدير المصفحة، كأنه همهمة عالية. من أين يأتي هذا الصوت؟ من خبطها على الأرض أو من المحرّك نفسه. المصفحة تشبه إسورة أمي التي كان اسمها دبابة. سلسالها الذهبي السميك يشبه جنزير الدبابة. افهم الآن لماذا هي الدبابه أهم ما في السلاح الأرضي في الحروب. اسمها يكفي، هديرها يكفي حتى يبث

الرعب أينما كان. كأنه عملاق يزأر قبل أن يمسك المدينة التي تبدو كصحن فاكهة. أفهم الآن لماذا يشعر الجنود وهم بداخلها بأنهم يستطيعون هرس السيارات والأشجار. وكأنها أشواك. لأن صلتهم بكل شيء، بالروح، بالجسد، تنقطع، وتبقى هذه الآلة الحديدية تتدحرج بكل ثقة رغم بطئها. أشعر كأني اختفيت عن الوجود. لا دمار. ولا شوارع ولا ناس ولا سنوات حرب طويلة مرت كأني كنت طوال الوقت في غواصة. لا نافذة ولا كوة، النور الضئيل يأتي من لمبة، ومن النوافذ الصغيرة في منطقة السائق.

كأنك بدخولك المصفحة قد غطست جسمك بماء الوقاية التي تتزحلق عليها الأخطار من غير أن تصل إليك. أعرف أنك أردت ترك بيروت. قبل خمس سنوات في مصفحة كهذه، لا نافذة، لا كوة، فقط وحيداً مع خيبة أملك التي كانت كاسلاك شائكة فالتة في كل اتجاه. كلما حاولت الاحتيال عليها وناقشتها كلما تجاهلتها. كلما لسعتك هي وجرتك إلى تشابكها، جعلتك تشعر بوطء ثقلها مع كل نفس كنت تأخذه وذهبت أبعد منها. حاولت أن تستغل خطرها، تحاول أن تنتقم منها بأن تحافظ على نفسك. جسدك هو الحرية الآن. إذا بقى حراً. بقى عقلك حراً. لن تجعل نفسك فريسة بين يدي من يدخل بيروت سواء أكانت اسرائيل أم غيرها. إسرائيل ستدخل بيروت. ما يحدث هو الحقيقة. لن تدخل المطارات والمرافيء وتتمركز في المواقع فقط، بل ستدخل البيوت والمكاتب والملاهي والدهاليز وشقوق الأوراق والفكر وبياض العيون. هل معقول ؟ أن يصبح الجنود الإسرائيليون في الأحياء، أن يروا الغسيل المنشور، عناقيد البصل والتوم معلقة على حائط الشرفات، وتلتقي عينهم بالأشياء التي اصبحت تتمم بيروت، من تنكات الورد والحبق الذي مات من قلة الماء، الى الزبالة المتكومة التي اصبحت مألوفه للعين، يجلسوا على الكراسي التي كنا نجلس عليها في المقاهي والأماكن، حول الطاولات نفسها، اقدامهم فوق الأرض التي اعتادت على وقع خطواتنا. أن يلمحوا أبواب

الجامعات ترف اعينهم على رحابها، حيث كنا نندّد بهم في حرب ٦٧.

لذلك كان تقهقرك يجب أن يتم إما عبر هذه المصفحة إذ هي الجليد الذي يغلق النفس، يحميها ويحافظ على انتعاشها، واما في طائرة حربية أو في هليكوبتر أو في سيارة جيب. بينما النزوح في السفن المدنية وسفن المشحونات، والوقوف على اليابسة أمام العسكري الذى ينادي: " اسمك، بلدك، عمرك ".كان ينتشل الخلايا الوحيدة المتبقية في النفس. شبهت نفسك كالثور الهائج الذي لم يستطع مصارعي الثيران غرز سكاكينهم به، ولهذا فهم يقومون بترحيله. لكن، لم تر نفسك سوى نعجة صغيرة. أو عنزة تثغو. وهي ترى الدمغة في يد الجزار تنقش عليها رقمها. تقهقرك بدأ منذ سنوات طويلة، منذ ذهابك إلى المخيمات والبحث بين الأشجار والأسماء والملابس المرقطة عن سليم ولد الجيران، الذي اختفي وقيل انه التحق بالمقاومة، لا تعرف لماذا تبرعت بالذهاب الى سوريا والأردن والسؤال عنه لكنك فاجأت نفسك متحمساً لترك مكتبك الهندسي وطاولتك، ولأول مرة تنسى الطنين الذي يون بأذنك والذي اصبح رنينا متأصلا متواصلا غير مرغوب به، من جراء تعرض أذنك لسماع كسارة. مخرط الحجارة لسفلتة طرق الكويت.

لماذا كان هذا الحماس ؟ هل لأن اهل سليم في قلق أم لأنهم ينسبون اختفاء ابنهم الى عصابة تخطف الأولاد والشباب باللين وبالقسوة والوعود والأحلام، تُدعى المقاومة الفلسطينية. ووجدت نفسك تستقبل استقبالا كريما في كل مخيمات التدريب التي زرتها، لتجد أن هناك فعلا مخيمات تدريب منظمة وهناك مدربون وهناك الشباب الفدائيون المتحمسون. لا تعرف لماذا فكرت وأنت تمسك قدح العصير في غرفة مكتب المسؤول بينما جلس سليم الذي كان مفقوداً حتى هذه اللحظات مزهواً لأن عائلته تسأل عنه ولأن جارهم المهندس صاحب السيارة الفخمة والطابق الفخم اهتم به شخصيا. وها أنت تود إعادته محاولاً إقناعه بالعودة الى المدرسة ثم الالتحاق بالمقاومة إذا شاء بعد اتمام دراسته الثانوية.

كانت أم سليم قد ماتت قبل يومين، وضاق بيتهم بالمعزّين والمعزّيات، واختلطت الأصوات بفناجين القهوة وبتراتيل الشيخ الأعمى للآيات القرآنية. ووجد سليم نفسه ضجراً، حراً، وكان قد سمع عن المخيمات من جارهم الفلسطيني، وليد الذي يطابق عمره. وكان قد أبعد الفكرة عندما تحمس لها قبلا، بأن أهله لن يدعوه يلتحق بها.

أفكارك وأنت تكرع العصير في تلك الغرفة الصغيرة التي لم تزل فيها رائحة الأسمنت، والتي كأنها شيدت بين ليلة وضحاها، إذ فتات الأسمنت كانت لم تزل تتناثر على الطاولة وعلى الأوراق أخذتك بعيداً عن الرجل المسؤول الذي لم يزل يردد القصة بأنه كان يحاول استدراج سليم وصديقه للإفصاح عن عنوانهما حتى يعلم أهلهما بالتحاقها.

تفكر بأنك تريد أن تعمل للمقاومة ولكن على شكل آخر، على أن يكون هؤلاء الشباب كسليم، ووليد محور اهتمامك. لن تحمل بندقية ولا مسدساً ولن تجتمع بالآخرين بل ستعمل وحيداً من خارج الدائرة. إذا حافظت على خصوصية أفكارك استطعت ان تفتح لها ابوابا لم تطرق بعد في المقاومة. لعلها تكون ابواباً خطرة جهنمية، وماذا عن عملك كمهندس ؟ مكتبك، عائلتك، تتراجع فأنت تكتشف أن الأمر ليس بهذه السهولة لكن وانت ترى أصيص زهور عند العتبة، عدت تفكر بأن التناقض لا يجب ان يؤثر عليك بل عليك ان تستخدمه لصالحك. ستعمل في الهندسة وفي المقاومة. ثم من غير أن تسأل ايضاً أخبرت المسؤول أن معظم أفراد عائلتك بقوا في فلسطين، والاشتياق هو الذي جعل أمك وأبوك يلحقان بك عام ٤٨. يرن في أذنك صوت ابنة عمك الملهف عبر الهاتف: " ناصر، حبيبي ناصر " ثم تتوقف برهة عن النداء ثم: " يلا ادلقي، ادلقي المي ". " حبيبي ناصر. عم بقول للبنت تدلق المي، هب ونار تشتعل". على البلاط الأبيض ذي المربعات السوداء في

الدار التي يتوسطها ستار من قماش يفصل بين غرفة الجلوس والزاروية والمطبخ والصوفا التي كانت تظهر رجلاها الحديديتان من تحت الغطاء. الأشتياق بدأ لحظة وقوع الضفة في أيدي الإسرائيليين، لحظة ما فار الكبت في صدرك في ثوان لأنك لن تتمكن من الدخول الى بيت ابنة عمك في بيت لحم. حث النفس على التفاؤل، معناه محاولة الإمساك بحبال من الهواء. المصيبة كبيرة لأن العقل لا يقتنع بان بيت ابنة عمك اصبح كبيت الأساطير بعيدا عن اللمس حتى عن الذكرى، حيث نمت واشتهيت صديقتك الأجنبية التي أخذتها لتزور القدس العربية وندمت وقتها لأنك لم تقم معها في الفندق.

هل معقول ما تسمعه من إبنة عمك انهم صفقوا وهم على السطوح والشرفات، وكادوا يقفزون عبر حديدها لظنهم ان الجيوش العربية قد حررت كل فلسطين، قبل انقشاع غبار الطريق والقلب ورؤيتهم للنجمة تتوسط العلم الأزرق ؟. هل من المعقول أن تصبح الضفة الغربية بحراً، من يطأه بقدميه يقع ويغرق وان هناك من يضع سورا حولها ويقفل بابها ويخبئ مفتاحها في جيبه ويكبسها ويضمها حتى تصبح منديلاً ويضعها في جيبه، أو يمسك بقلبها يقفل عليه ويرمي بالمفتاح ؟

غريب كيف تسلسلت هذه الافكار وكيف اخذت تتبعها، تقودها، تغذيها وهي كالنار تتوق إلى بلان ناشف. كأنك كنت بحاجة إلى غرفة هذا المسؤول، بحاجة إلى أن تلمس بيدك خيام التدريب هذه. لتؤمن بوجودها. وقفت وأنت تمد يدك للمسؤول مصافحا والتفت الى سليم قائلاً: ". سلّم على الشباب". مد سليم يده للمسؤول الذي قال: " نحن هون ياسليم». لكنك ضحكت والتفت الى سليم مازحاً: " الشباب هون بس أنت ما ترجع بكره".

لم أكن أتوقع أن يأخذ حديثي معك هذه الوجهة عندما أوقفت سيارتي في زقاق وسألت عن البناية حيث مكتبك وأشير إليها. إستغرب وجود اكياس رمل

تخبيء المدخل من الشارع حيث جلس البواب الذي كان يدقق بالأسماء ويسأل عن الهويات ويسأل ما في الأكياس وشنط اليد، اعطيه اسمك قبل أن يشير اليّ قائلاً : "الطابق الأول عاليمين ". ولم اكن أتوقع أن أراك خلف طاولة صغيرة، في غرفة فارغة، يتدلى منها شريط كهربائي، ينتهي بلمبة عارية خفيفة النور وصوفا كأنها لحارس محطة قطار نائية، بحرامها الصوفي الباهت المطروح فوقها والبلاط الذي يبدو وكأنه لم تمر عليه مكنسة أو قطرة ماء منذ أن بُلط. بينما أسندت عند الحائط صندوق من خشب كان للخضار ذات مسامير صدئة، وضع عليه ترموس وسخان كهربائي ومرطبان للقهوة وكيس من السكر، ثم الكتب والكتب والأوراق والملفات جمعت فوق بنك خشبي وفي زاوية على الأرض.

أين أعيش ومن أين أتيت وماذا أفكر. حتى سيارتي لا تمت إلى هذا المكان. فكيف شريطة شعري؟ التفت حولي مداراة لارتباكي، وإذا بي أرى بذرة مشمش في منفضة ولم استطع إلا أن اعود وأتأملها إذ بدت مهمة. فهي الوحيدة التي كانت تذكر بالحياة في هذا الجفاف. لابد أنك قد تقلبت وقشرت عنك كل شيء ما عدا هذا القميص وهذا البنطلون. حتى أصبحت صافيا كاستكانة هذا الشاي الذي بين يدي. ومع ذلك ومن مكاني رأيت شجرة البانسيتا، عبر النافذة، ذات الزهور الحمراء والتي كأنها نقلتني إلى ضوضاء بيروت، ومن بينها شقتك الواسعة في حرب ٦٧ حيث الألوان، والنباتات الخضراء وأحواض السمك، وقميصك المخطط. والبيك آب، والاسطوانات. لابد أنك تركت كل شيء خلفك لتكمل خاطراً يبعد عنك الشعور باليأس الذي داهمنا جميعنا أيام الـ ٦٧، تعود إليّ تلك الأيام بسرعة لدرجة أني شعرت بهواء ساخن يلفحني وأنا قبالتك فوق كرسي القش غير المريحة هذه انظر إلى التنس شوز الذي بان من تحت الطاولة وكأنه لا علاقة له بالقدم التي عبثت بقدمي في تلك الأيام. بينما جلست أنت تسألني عن احوالي. بينما كنت مرتبكة أشعر وكأني حشرت رأسي بين قضبان حديدية حاولت أن

اشرح لك ما يدور في رأسي لكني تلعثمت، أردت أن اقول إني نشاز في هذا المكتب. كلي نشاز من معطفي الأبيض الذي كاد يصل الأرض الى جزمتي البيضاء الجلدية. لكنك تنهض كأنك ترفض ما أقوله وتسألني: " قهوة أم شاي ؟"

تقف أمام السخان تراقب الماء حتى يغلي في الركوة وأنا أحاول أن يصدر عني شيء عدا ارتباكي. ولا استطيع. لكن ما ان ابتعدت بسيارتي عن مكتبك حتى شعرت بأن هناك هوة تركتها خلفي سرعان ما اختفت.

لكن وبيروت تخوض حربها حتى وجدتني أنتمي الى تلك الهوة، لحظة ما رأيتك في المطعم الذي افتتح اثناء الحرب في شارع سكني. كأن هذا المطعم لا يطابق في مكانه أية مطاعم انتشرت قبل الحرب ولا حتى في أجوائه، لم يكن يطابق حالة بيروت، إذ كان هاجس الحرب يختفي عن الذهن ما ان نصبح داخله، نتزاحم على الجلوس قرب النافذة نراقب المارة وكلنا يقين أن نافذة المطعم آمنة معصومة حتى والدنيا ترعد بالرصاص والمتفجرات. ظروف الحرب لونت شخصيات الوافدين الى هذا المطعم سواء كانوا من المثقفين الذين بقوا في لبنان من الذين شاركوا في الحرب وتركوها، أو الذين لم يزالوا يشاركون بها، أو من رجال الأعمال الذين كانوا يزورون بيروت من وقت إلى آخر. ولأن العلاقات كانت تتوطد في الحرب بسرعة كان طوقها ينكسر بالسرعة نفسها، لكن الفضول اخذ يشتد لمعرفة ما خلف هذه الوجوه والأسماء الجديدة.لأن بيروت اصبحت حلقة ضيقة. نهضت ما ان رأيتني ومددت يديك تحتضنني كأنك الأب الذي اهتدى إلى ابنته بعد بحث طويل، رغم اني ظننت أن معمعة الحرب هذه قد بدلتك. ووجدتني أميز تلك الرائحة الخاصة التي لابد أني حفظتها منذ حرب ٦٧ والتي رافقت تلك القبلة التي قررت أنا أن تحدث بيننا. فأنا لم افهمها عندما حدثت ولا عندما اختفت لذلك فسّرتها لنفسي بأن القبل تخاف على حياتهــا من الزوال لهــذا تطير من مكان إلى آخــر وتحط على الشفاه. وهذا ما حدث لها في حرب ٦٧

خافت على موتها والكل ضائع هائج ميت، في جو دخان السكائر والترانزستورات والأخبار، ومنع التجول ومصابيح السيارات المدهونة باللون الأسود. هذه القبلة لم تترك أثرا إلا في حينها إذ طارت منذ أن ابتعدنا برأسينا عن بعضنا الآخر. ولم تعد تجد طريقها الينا مرة أخرى.

وأنا أشم رائحتك في المطعم عرفت بسرعة أني أترقب عاطفة متأججة أن تحدث بيننا. أردت بسرعة أن أهرب من الذين كنت في صحبتهم، والذين كنت قد اعتدت على الجلوس معهم،، من الذي خسر وظيفته في الحرب أو أحد أفراد عائلته ولم يعد لديه سوى هذا المقعد في هذا المطعم، إلى رجل الأعمال الذي يحط رحاله بين بيروت والبلاد العربية والذي يود الدخول في الجو السياسي وكأنه لم يفارق هناإلى الممثلة التي تعتزم الانتاج للتلفزيون أو السفر والمرأة التي تشكو من عدم جودة صبغة شعرها المعينة رغم أن مزين الشعر ذكّرها: " مدام نحنا بحرب أم انت نسيانه؟ ". الفنـــان الذي لمع اسمه فقط في الحــرب، الشـــاعر الذي فقد سحر كلمته، المثقفون الذين خاضوا الحرب وعادوا يصورون مشاعرهم.عرفت ان مواء قطة والصمت المميت هو الذي قرر عاطفتنا.صوت قنـــابل بعيدة، ايقظت حماس الحواس الخمس خاصة العين. لم أر نفسي معك، بل رأيت امرأة ورجلاً يقتربان من بعضهما يعيشان، ينبضان وهما يعرفان في قرارة نفسيهما أنهما في قلب الذي يتهدم، بأنهما شاهدان على الذي لم يخر على الأرض بعد.

أولى كلماتك لي أنك وقعت في حب بيروت من جديد، إذ أصبحت الحياة فيها عادلة. الناس ذوو مصير واحد في هذا الدمار. كانت نفسي ترتوي من كلامك فأتساءل هل كل ما تقوله ممتع مهم، كما أشعر به أم أنه يتراءى لي هكذا لأن شخصيتك تروق لي؟

وبقيت مستغربة ضائعة في شخصيتك هذه الى أن حزرت ما هي ذات مساء عندما ذهبت الى مكتبك على غير موعد ومن غير أن يوقفني الحارس الذي اعتاد

على رؤيتي. اكتشفت أثناءها أن الأمور ليست كما اتصورها، ليس هناك من قوانين يفرضها الإنسان على نفسه وعلى الآخرين. لقد كنت تستمع الى الموسيقى الغربية ويصحبتك صبية اجنبية تصغرني يكاد شعرها الأشقر يبلغ أعلى فخذيها. بدت وكأنها صورة بعينيها المدفونتين وفستانها الأسود وفمها الجميل. لم أرد الجلوس ولا الوقوف بل أردت البكاء وأنا أرى الصبية تلم شعرها إلى جهة واحدة بينما دأبت على سجن شعري كلما دخلت هذه الحجرة لأبدو أكثر جدّية حتى اني لم أعد أرتدي ملابسي الجميلة ولا اصبغ شفتي بحمرة الشفاه كما في الماضي. ووجدتني أرشق كلمات الاعتذار والكذبة تلو الأخرى واختفي من حجرة الليل. وقد كمشت سر ضياعي، ولم يكن شعرها الأشقر فقط بل لأن مكتبك يستطيع أن يحتوى تفاصيل الحياة أيضاً في قنينة النبيذ والجزر والخيارالمقصوص.

عندما قصدت ظهر اليوم التالي المكتب ورأيت قنينة النبيذ الفارغة تستند الى الجداركذلك وصحون الخيار والجزر المقصوص تنبهت إلى أن الليل والنهار هما متعادلان لديك، كل ما حولك الآن ينسجم مع ليلة البارحة ليتركني هذا الشعور حرّة، خفيفة، أعود الي نفسي فأقول ما يخطر على بالي من تفاهات وعواطف تليق بزمزم وأسعاف. وأرتدى ما اشتهيه من الوان فاقعة غير مبالية إذا لم تكن تنسجم مع الغرفة القاحلة.

تكرع الويسكي وأنا أجلس امامك وأنت في حالة التوتر هذه وعدم التوازن. متمنية لو تعود ناصر الماضى ولا أقصد مليئا بالتفاؤل وباقناع نفسك أن الطرق التي تتبعها الحرب متناقضة وبأن هذه المدافع ما هي إلا أصوات والنيران ما هي إلا ألوان واللون الأسود ما هو إلا لون أحمر والقتلى هم ارقام في الجرائد بل ان تعود ناصر الماضي.

أجلس أمامك وأنا أعرف أني الجريدة والأخبار المؤلمة. فأنا اصبحت صلتك الوحيدة بالخارج، كنت كطير البوم أنعق ولا أستطيع أن ألتفت بعينى فقط بل

بكامل وجهي. أخبرك عن الناس الذين احتموا بمساحة شاطيء الكورنيش بين السفارتين البريطانية والأمريكية وعن البنادق المستسلمة للرمال عند ركبة الأم أو الزوجة ريثما يعود المقاتل من مياه البحر، وعن طاولات لعب الزهر وعن تهافت الناس على الأكل واللحوم والماء ومولدات الكهرباء ومصابيح الغاز. وعندما كنت أمضي في اخبارك عن مباراة الفوتبول الدولي، كنت تنفجر صائحا: " بعرف، بعرف شو أنا أطرش؟ ولك راديوهات الحي كلها ايش بتسوي؟ ".

اضيف بأن البحر الذي كان لقوارب صيادي السمك اصبح لبوارج وغواصات تضرب. ربما لم تكن بحاجة إلى معلوماتي هذه فأصوات الغارات أخذت تسمع ليلا نهارا، من السماء ومن البحر ومن اليابسة فنلحق بصداها ولا نعرف مصدرها.

بتّ أكره وظيفتي هذه. لذلك لم آت على موضوع تشكيل اللجان والجبهات للتموين وللأفران وللمستوصفات وإصدار النشرات، إذ ان هذه كلها أدلة على أن كل مجهودك ومعتقداتك كانت وهماً. لذلك توقفت عن اخبارك تفاصيل ما كنت أراه أو ما كنت أشعر به. كأنك أصبحت عبئا ثقيلا عليّ كلما تمنيت أن أبقى معك صدمتني برغبتك في الانفراد بنفسك. كلما بقيت في منزلي فكرت بأنك تتشبث بي ولو عن بعد حتى أبث فيك حرارتي. أريد الاقتراب منك، إذ كان شوقي يصب بي، ويتوقف عند أصابعي. لكن صمتك كان يبعدني عن الاقتراب منك. فأجلس صامته، بعيدة، ألومك بينى وبين نفسي لانك لا تقبلني ولأنك لا تلصق بي. وأنا أراك كالجندب تهرب من مكان إلى آخر. كنت أعرّيك من قميصك الذي لم تبدله منذ أسبوع، من بنطلونك ومن سروالك التحتي. أشعر بأنفاسك عند رقبتي. كلما كنت تروح وتجيء كالفهد المحبوس في قفص عصفور، كلما شعرت بثقل جسمك فوقي بينما كنت استمع الى كلماتك تفور كالزبد.. وأهز رأسي وأغمض عيني.

كنت ساذجة وأنا أفكر بأني غدوت المسؤولة عنك. أتكتّم أمامك عما أسمعه

وأراه عن الازدحام في الشوارع الذي أخذ يذكّر بالأعياد وبلعبة القرعة: هل أنت باق ام راحل؟ هل ستعيش أم ستموت؟ من هو صاحب الحظ السيئ هذه المرة؟ أم ان القرعة ستشمل الجميع؟ لكن يبدو أنك كنت مجهزاً بالأشعة، فلقد أتيت مرة وجلست على الكنبة ألهث وانا أغمض عيني متصنّعة التعب. فلم تسأل ماذا جرى، بل وجدتك تدلق الكاز على أوراقك في وسط الغرفة ثم تقف تتأمل النار وهي تشتعل بها. لم تتحرك حتى عندما امتدت النار قليلاً. أردت أن أخبرك عن الحريق الذي أحدثته أمي لحظة توفي والدي. أردت أن أستميلك حتى تسامحني على ما كنت قد فكرت به في طريقي اليك وأنا أهرع بسيارتي مارّة بحرج بيروت، وقد انتصبت امامي أنصاف الأشجار وبدلا من أغصان الصنوبر التي كانت كمظلة منمنمة من اللون الأخضر انتشر الجمر الأسود. أشهق وأنا أكمل شق طريقي عبر اللون الأسود، وأفكر بأنه ربما يجب أن ينصرف الفلسطينيون، بدلا من أن تمتليء السماء بالطائرات الإسرائيلية، وتترك آثارها فوق كل شيء، أعرف. أعرف أنهم إذا مضوا، مضيت أنت، لكنى لم أكن أريد أن تتبدل بيروت بحيث لا نعود نعرفها. سماؤها تتبدل بهذه المناشير الملونة تتلاعب في الجوّ حين تقذفها الطائرات الإسرائيلية بدلاً من طائرات الورق الملونة وبدلا من السحاب. كان الهواء قد توقف عن دخول حنجرتي، وأنا أعدو خلف المنشور أقرأه، يحثنا على مغادرة بيوتنا خوفا على سلامتنا. هل هذه المناشير من السماء أم أنها «أبابيل وحجارة من سجيل؟».

الرصيف احتلته الحفر الصغيرة والكبيرة، إلا أنه بقي رصيف بيروت. لا يزال المرء يسير في شوارع بيروت ويقول بعينيه، لا بد أن انفجاراً هدم هذه البناية أو حطم هذا الزجاج أو حرق هذه الأشجار. هذا محل الألعاب اصبح محلاً للفراريج المشوية، صالون الحلاقة أغلق إلى الأبد مستعينا بألواح حديدية. لكن أن تذوب بيروت كلها، أن تذوب بيروت كلها؟ عند هذه الأفكار توقفت، وأنا لم أزل أراقب معك النار وهي تخمد في الأوراق التي اصبحت رمادا متجمعا ضمنها الأماني

التي اصطحبت تلك الحروف والأيام والليالي التي لم يعد ينفع أن يشيع بينها المنطق أو الحوار الداخلي أو الإيمان. الشرايين التي سدّت أيّ محاولة لأن تندفع بها الحياة من جديد، أو حتى أن تعود كما كانت في الماضي. فأنت ترى صديقك وهو يسد عليك باب بيته، معتذرا لعدم إمكانه منحك سقفه الليلة خوفا من أن تصبح البناية هدفاً للقصف إذا عُرف أنك لجأت اليها، يصدمك هكذا لان صداقتكما لم تتوطد حول تبادل الحديث وارتياد السينما معا والمناقشة انما ارتباطكما كان من أجل تحقيق المستقبل معاً. ومع هذا لا بد أنك لمحت في عيني ثقل وطأتك ان بقيت ببيروت. هل معقول؟ أن تصبح عبئا علي وعلى بيروت وكأنك لست ناصر الذي اصبح ولا يزال لمدة طويلة هوسي.أتعلق بنبضك وكأنه نبض الحياة. وأطلب الالتصاق والالتصاق حتى تتشابك الأجزاء والأنفاس وتصبح درعاً واحدة في وجه شيء مجهول ومخيف. كانت، رغبتي بك المتواصلة هذه تخيفني رغم أن هناك كثيرين كانوا يشاركونني مشاعري هذه، لابد أنك تذكر تلك الليلة، قبل رحيلك بثلاثة أيام أو أربعة؟ عندما تنهدت وقلت لي: " اشتهي ثلج كثير مع كاس الويسكي» وكنا قد خرجنا من فندق الكومودور، نسير في ترنح من كثرة ما دلقنا في جوفنا من ويسكي ونبيذ أبيض وأحمر ونحن نحاول أن نحزر أيّ شقة من الشقق وعدت بها في تلك الليلة. وجدتك تطلب مني الصعود من جديد إلى سيارتي لنتوجه إلى المستوصف. قدت السيارة وكأني في حلم. أوقفتها ونزلت منها وكأني مازلت في حلم، فبيروت مظلمة، هادئة رغم انها تكاد تضج بالقصف. ندخل حيث كانت المرضات يلعبن في ورق اللعب مع الأطباء وبعض الجرحى. بعد أن تمازحنا معهم، طلبت ثلجا لكأس الويسكي. رغم ان الثلج كان مقصورا لتبريد بعض الأدوية ومع ذلك فقد اعطيت قطعة من اللوح. ولم نبحث عن الشقة التي وعدت بها بل توجهنا لزيارة صديق رسام. كان باب بيته مفتوحا كأنه على معرفة بأن كثيرين سيزورونه. دخلنا غرفة الجلوس الطافحة بالشباب، خاصة بالفتيات

اللواتي افترشن الأرض كأنهن في مدرسة داخلية. أشياؤ هن مطروحة هنا وهناك. جلست أنت تحتسي الويسكي المثلج الذي اخذته معك تتحدث إلى الرسام وأنا اتحدث لواحدٍ قال لي ان الجو خانق فلماذا لا نخرج الى الشرفة. كأننا في قدومنا قد أشعلنا الجمرة التي كانت قد خمدت، إذ لعلعت الموسيقى من جديد ونهضن يرقصن طرباً عليها وبعضهن رقصن وهن جالسات على الأرض. في الدقيقة التي امتدت يد الشاب تتحسس صدري من فتحة قميصي، التفت عبر الباب الى الداخل لأرى ابنة صديقك تتكئ على صدرك وأنت تتحسس شعرها بحنان. هل كانت تبكي؟ لا بد أنها كانت خائفة. وكانت يد الشاب تعبث بحلمة صدري، بينما بيروت محاصرة وهناك أعين ساهرة تكب على التلسكوب لتعاين الأسلحة البرية والبحرية والجوية. ما ان همدت الموسيقى حتى همد كل شيء، عدا يد الشاب التي كانت لا تزال تعصر صدري وأنا لا أشعر إلا بالسواد يلف بيروت. وعادت غرفة الجلوس وكأنها غرفة مدرسة داخلية. عندما دخلت وانا اراك تربت على كتف ابنة صديقك وتتنفس الصعداء ما أن رأيتني. ولم تنس أن تشدها الى صدرك وأنت تمسك وجهها بحنان جامعا شعرها من الناحيتين، لتقول لي هامسا ونحن ننزل الدرج: " البنت خائفة " واخبرتنى أن يدها امتدت الى وسطك وأنت أوقفتها وطلبت منها أن تريح رأسها على كتفك ووجدتني اصمت، لم اخبرك عن الشاب الذي تحسس صدري. لم نكن نتحدث في أمور كهذه. كانت المدافع الإسرائيلية تدوي آتية من البوارج ونحن نصعد الدرجات الى غرفة على سطح إحدى البنايات وفي الظلمة التي اشتدت ربما من كثافة السكان الذين تناثروا على الدرج بينما انعدمت أصوات الأطفال من التعب والنوم وبقيت أصوات الكبار تهمهم داخل نفوسهم فقط، تكفر وتسامح، تصاب باليأس وبالتفاؤل. تعلقت امرأة بقدمك وظننت أنك تعثرت بها فانحنيت تعتذر منها. لكنها أعطتك وجهها وعلقت يدها الرطبة برقبتك وما ان ضمتنا الغرفة من جديد حتى أخذت تتكلم وتتكلم ولا تسكت ولا تنصت ولا

تسأل ولا تجيب. قدر ما كنت سعيده، لأنك كنت تؤكد أنك تخصني بهذا الكلام بجملتك: " سامعه حُبيبتي ". قدر ما شككت بأني فعلاً حبيبتك وبأني لست متممّة لديكور بيروت. شعرت بأنك تتحدث الى بيروت لأنك ستنزح عنها بين ليلة وأخرى. ومع ذلك تركتك تتحدث وأنا استمع لك كأننا تعرفنا ببعض لتونا، وكأنه امامنا أفقا واسعا من أيام وليالٍ وهمسات وكلام. وضعت يدي على الجرح. بأن بيروت كانت تأخذنا بضجيجها ولم تترك لنا وقتاً حتى نتحدث كما نتحدث الآن. أمد يدي لأخذ يدك. لكني أعرف أنها كاليد المستعارة. كنت أنظر في ساعتي، وأنت تتضايق متسائلاً: " عندك موعد ". وأنا انظر في ساعتي غير مصدقة أن الوقت يسرع كأنه يلبس في قدميه كراجتين. كنت تعرف وأنا أعرف أن نزوحك عن لبنان سيطل قريباً.. وبانك ستفارق الدفء الذي شعرت به. منذ ليلتك الأولى وأنت تنام في خان القرية اللبنانيه مستمداً الحرارة من الحيوانات النائمة...

تقول أنك تذكرت شجرة واحده، فقط من الحقول والبساتين التي كنت تركض فيها " بساتين فول وعدس وحمص " كما دعاها عمك، وكنت تظن أن الشجيرات والأخضرار هو للبرتقال والحمضيات لا للحبوب في المراطبين الزجاجية. حانت التفاته منك الى إمرأة عمك التي كانت فوق الفرس. وكنت تحاول الا تفارق عيناك الفراشة الطائرة. فكرت لماذا تمتطي زوجة عمك الفرس بطريقة تختلف عن عمك. وكان عمك يسير أمام الفرس واحيانا يتمهل حتى يواكب الحمار الذي كان يحمل في خرج واحد ابني عمك الصغيرين وفي الخرج الأخر صررا من القماش من بينها صرتك التي عقدتها أمك بطريقة يصعب عليك فكها عندما غافلت أمرأة عمك وأردت أن تستطلع ما بها: طعام أم ملابس؟ كأن هذه الصرة أمدّتك بالثبات حتى تتوقف وتفكر بهذا المشوار. لفظة المشوار كانت كافيه لتبعث الفرح في قلبك وأطرافك. تعني ذهابك الى بستان آخر. إلى حي آخر. فكيف إلى بلد آخر؟ لبنان كأي بلد يقع على الخريطة يحيط به اللون الأزرق، كنت تظنه السماء إلى أن عرفت أن الخرائط لا تضم السماء، واللون الأزرق ما هو إلا البحار والمحيطات. ولم تعبر

الفراغ الذي ظننت انه يميّز البلاد عن بعضها قبل أن تطأ قدماك لبنان، بل أصبحت به بعد عشر ساعات. لم ترتح خلال هذا المشوار سوى مرة واحدة ، عندما نزلت إمرأة عمك عن الفرس وانتشلت طفليها من خرج الحمار وصرخت بهما حتى يبولا خلف شجرة وهي تسمح مؤخرتهما بحجر. ولم تفكر بأن المشوار قد طال إلا وأنت متمدد فوق التبن الأصفر.. وأمامك في الغرفة المقابلة الجمال راكعة تصدر صوتا، لا تعرف إذا كانت تجترّ طعامك أم أنها ترى الأحلام. تحديق البقرات المفتوحة العيون في الظلام وبك، جعلك تلتفت بعيداً عنها إلى الجدران العاليه، الملطخة والحجر الذي يظهر رغم الطلاء الأبيض في سقفه العالى كالقبة تفكر بالدرجات الثلاث عند المصطبه قبل دخولك هذا البناء والرجل الذي استقبل عمك والذي ظننت أن اسمه زبيب لكنه في الواقع كان يبيع العنب المجفف والذي سأل عمك عن بيته اكثر من مرة وعلقت في ذهنك جملة عمك للرجل:"أفيش بنزين ياخوي وهذه الجمله قد ترددت في انحاء حارات القرية. قبل هذا المشوار بأيام." مافيش بنزين يا خوي " ثم " آه اليهود يا خوي، كشفوا عن وجههم ياخوي".

كان الأولاد يرددون في الفترة الأخيرة " أغنية " فلسطين بلادنا واليهود كلابنا " لكن ظننت أنها لعبة من الألعاب، كما الأغنية: " سني اسنانك يا غولة ".

" وين السلاح يا خوي. بارودة، بارودتين ". هذه الجمله جعلتك تسترجع صورة جاركم الطويل، السمين، الذي لم يعد يفارق بيتكم سواء في الليل أم في النهار يتحدث ويهمس وعندما رأيته خلف الحجارة ينوضر من بندقية صيد ظننت أنه ينوضر على عصافير التين وحين ركبت على كتفه حتى رأيت ما يراه وكانوا كومة من رجال غرباء يركضون. انزلك عن كتفه ومن عدم صبره مد يده يبعدك عنه وهو يكاد يوقعك أرضاً.

رؤية الكبار في المخيلة ذكرتك بدرج بيتكم العالي كالإهرامات وبفراشك، وبأمك التي علا صوتها الى أن وافق والدك على أن تذهب في هذا المشوار ومعك

الصرة التي نامت تحت رأسك والتي لم نستطع حل عقدتها في الليلة الأولى، رائحة الحيوانات قوية، دافئة تختلط برائحة الزبيب التي كانت تصدر عن الخوابي،والتي غرف الرجل منها بمغرفة وقدمها من عمك الذي أدارها عليكم. في الليل استعدت هذا النهار. وقف الحمار والفرس صامتين كأنهما غير اللذين كانا يلهثان وهما يشقان طريقهما بين الحقول والحصى تارة بسرعة وتارة بتلكؤ ومرّ في خيالك شجرة زهر الموز. ذات الأوتاد الخضراء، التي تنتهي بالزنبق الزهري اللون وأوراقها كناية عن أصابع الأطفال أنما مخططه بالأسود. تفكر: " هل أرسلت في هذا المشوار من أجل الجنديين الإنكليزيين؟ " قالت جدتك لوالدك: " ما تخليش ناصر يعدي عتبة الدار، عقولهم صغيرة يمكن يبهدلوه أو يضربوه؟ " هل أبعدت " من أجل قفزي بالحفرة التي نامت بها وحول الطريق والماء؟

من اجل جنديين إنكليزيين المرتديين الزي العسكري الأبيض الناصع كأنهما قاما بغطس كل ما عليها في النشاء. حتى أحذيتهما.

رأيتهما يتمشيان يُنظران حولهما ثم الى أعلى ثم إلى أسفل، يتأملان كل شيء حتى حجر الشوارع المقصوص، يشير أحدهما الى الكنيسة. لقد اعتدت على نظرات وطواف زائري الكنيسة رغم اني عرفت أنني أكره هذين الإنكليزيين وأني أريد اغضابهما. وركضت الى قرب الحفرة انتظر ما إن مرا بموازاتها حتى وقفت وسطها وقفزت فيها مرة وثانية تماما كما كان الماء والوحل يتطاير برذاذها علينا ونحن نحاول أن ندعس قشرة البرتقالة حتى نرى من جراء دعسنا قوس القزح، أو الزيت الملون في وسط الماء. تناثر الوحل على زيهما الأبيض. لحق أحدهم بي وأمسكني ورفع يده عاليا ولكنه لم يصفعني. لا بد أنه اشفق علي عندما رأى خوفي.

هرع الأولاد يحكون لوالدي ما حصل بينما اختبأت في حضن جدتي التي مرت بيدها على شعري بينما فمها لم يكن يفارق وجنتي وهي تهمس في أذني:

"ولا يهمك. مش راح اخليه يلمس إصبع اجرك بس ليش يا نصوره خبطت بالوحلات؟"

لم أعرف بم اجيبها. فقد طالما أعجبت بالأجانب وراقبتهم وتمنيت لو أن شعرى اشقر مثل شعرهم وقامتي طويلة كقاماتهم.لطالما اثارت بي قبعات نسائهم اهتمامي لتأملها. لطالما تمنيت لو أملك زيّا عسكريا وأعتلي الجيبات والسيارات واكتشف سر فهمهم لبعضهم البعض وهم لا يتكلمون لغتنا.

حلمت في الليل بكل ما فعلته هذا الصباح وأنا أركض وأركض في هذه البساتين، لا مدرسة ولا بيت ولا صوت أمي: " يللا يا ناصر تعال عالنوم "، " يللا يا ناصر قوم عالمدرسة ". " كان يجب أن آحزر كيف ستكون حياتي منذ ذلك المشوار. لكني لم أحزر ".

والان احزر، لابد من الانتحار.. الانتحار؟ لا. لابد من الاستمرار..اذ الاثنان غير مهمان لانهما يؤديان الى النتيجة نفسها: «الاستسلام» لان الاستمرار ليس معناه اني اشهر على الاسرائيليين سيفي ام مسدسي، الاستمرار هنا معناه ان ارحل وارمي خلفي كل الامال وانسى كل ما جرى، والانتحار معناه اني البس بذلة مباهاة وفخر انا لست اهلا لها.

مونولوجك هذا طال رغم أني ظننت أحيانا أنك كنت تشركني به، لكن ما ان افتح فمي حتى كنت تكمل الحديث وكأن حركة فمي ما هي الا محط استراحة للكلمات. بينما أخذت أصل الى حقيقة جديدة وهي ان الكلام مات. لا بيني وبينك فقط. بل ان الكلام نفسه مات. شعرت أنك فعلا قد اقلعت عني بصحن طائر خفي. وبأني اجلس مع آخر يشبهك وينتحل اسمك ويقلد صوتك وهو يفكر أن يهاجر إلى بلاد بعيدة لا يسمع بها كلمة عربية واحدة وأن يبدل اسمه أو أن يحط في بلد خليجي وسط اكوام الثرو.... الثروات: تخطىء في لفظ الثروة والثورة. وأقول لك

انها ليست زلة لسان بل زلة نفس، وأنت لا تضحك بل تنظر في سماء بيروت وكأنك تودع نفسك بعد أن استسلمت الى نصفك الآخر. فأنت اصبحت شقين، شق يود أن يعرف ما يجري في الخارج والأخر استسلم لروتين هذا الانفراد الذي يحاكي بالكاد أفكارك فانقطعت عن الاتصال بقيادتك ولم تعد تفتح المذياع لتسمع التعليمات، ولم تعد تستطلع ماذا جرى للآخرين، عندما تحول وجهك الى شرايين ظاهرة فكرت انها تحاول بنبضها اللحاق بشرايين عقلي، تفكر بصوت مسموع " اللبنانية خايفين تبديهم اسرائيل ام كفروا فينا؟"

رغم أن بيروت بدت من الشرفة مظلمة متشابكة الأحياء والأزقة فقد كان كل ما فيها مسطحا وكأنه تحت المجهر. كأنها انقلبت بين ليلة وضحاها من الصديقة الجميلة المتحررة التي حدودها السماء والبحر والأشجار الى كماشة مغناطيسية تجذب الدبابيس اليها من كل مكان حتى من الأماكن اللاطية بين الثقوب. كأنها اصبحت بلا روح، أماكن وأبنية وأزقة وعواميد كهربائية وبعض الأشجار. ساكنة امام الكلمات العاطفية حتى أمام ضربات البشر لها.

هل هي بيروت نفسها التي كانت ولا تزال وكأنها كرة الوان تتدحرج بالوجوه البرونزية بالمايوهات بالسيارات ذات الأسماء الباهرة. بالمسرحيات ودور السينما. بالمقاهي. بالنوادي الرياضية بالأعين المكحلة والمساحيق لاطالة رموش العين بالمغنيين العالميين بالفنانين بالدراجات الكهربائية ذات الضجيج تمتطيها البنات، بالشقق العصرية في بنايات عالية مقفلة أو مشرعة النوافذ كأنها كبسولة لا علاقة لها بشيء لأن من كان يسكنها لا يرى سوى البحر الأزرق، ومع ذلك كانت الأحياء القديمة هي بيروت ايضا. مع الصعود الى بناياتها القديمة، وأدراجها كان يشم الصاعد رائحة الطعام المألوفة ومن على شرفاتها كان يسمع ضربات السجاد. كان هذا التناقض يجعل من سكان بيروت كأنهم أزليون.

كل هذا وأنا الهث، أراقب ما يجرى من بعيد ولا أجرؤ على الاقتراب. أعي

جيدا عدم الانسجام بيني وبين ما يجري. فأنا اتمنى أن الحق بما انتقده رغم شعوري بالجاذبية الى هذه الأجواء. فأنا انتقد بيوت بيروت الغنية وفي الوقت نفسه أتمنى لو أملك ذلك القماش الذي يذكر بقصور مدينة البندقية، اتمنى لو أضع هذا الشمعدان الزمردى اللون على طاولة زينتي. كان ما يعوقني لأقترب من بيروت البراقة هو الحشد الذي يحيط بها سواء من النساء أو الشابات اللواتي كن كأنهن امبراطورات أو أميرات بتساريح شعورهن وبملابسهن وبهدوئهن أو بحركتهن التي تنم عن ثقة بالنفس وبالمعرفة أو من الرجال الذين مارسوا الثقافة الأجنبية سواء عاشوا في الخارج أم بقوا في لبنان. كنت أسأل نفسي لماذا أقف حائرة لا أتقدم لأكون كالآخرين من اللبنانيين الذين يكادون ينقضون على كل ما هو جديد يفد اليهم من غير حتى أن يعوا ما يقدمه وإذا كان يتماشى مع اذواقهم أم لا. أذكر سماعي في أمسية موسيقية لشتوكهاوزن، امرأة تقول لرجل كان معها: " دخيلك طلعني من هون، كأن حكيم اسنان عم يبرّد لي اسناني."اجابها " ضيعانه الميه ليرة ».

ومع ذلك لم اكن اتأخر حتى اماشي من اختاروا عدم التملك والابتعاد عن البريق والبساطة. أذكر كم كنت ارتاح وأنا جالسة فوق كنباتهم المهلهلة لمدة ثم لاعود اشعر بأنهم يدورون في اجواء مغلقة منزوية. كانوا يبدون خارج الحياة لا عن سابق اختيار، بل كان بيروت موجة كبيرة لفظتهم عند شاطئها.

هل هي بيروت نفسها والتي اكتشفتها وأنا في الحرب وعبرك. كأنها اعلنت بالحرب عن اقامة مهرجان دولي، فما ان ابتدأ المهرجان حتى تدفق عليه المثاليون والمقاتلون والصحافيون. تدفقت افكارهم وسواعدهم في البلد ذي الجوانب المفتوحة، فابتدأت العلاقة به في الفكر وفي القلب ثم امتدت احيانا الى الجيب. وكل من فكر بلبنان امرأة تزحف على عانتها من بريق المال والذهب والفنادق الفخمة قبل الحرب وبأنها يجب أن تزول، جاء يرى المرأة التي اطلقوا عليها

العاهرة لأنها كانت فالتة وهم اعتادوا على قادة انظمتهم. بينما بيروت كانت سائبة. لا زنزانات فيها بل سجن صغير. واختلطوا بنا وهذا الاختلاط قولب بيروت لتكون مسرحا للتناقض.وإذا بها بلّورة تمتص انظار الزائرين والقادمين فيضيفون اليها ما يشاءون من الألوان. أصبحت بيروت أكثر انسانية، لم تعد تلمع كجوهرة بأضواء ملاهيها ، بل كأنهاأخذت تليق بجدتي وبزمزم.

كأن والدي عليه ان يعود الى الحياة الآن. فهي سوف تفهمه اكثر. تفهم لماذا كان يدور على المطاعم ويأتى ببقايا الخبز. وأخذت مقاهيها الشعبية التي تلصق بفم البحر، تصبح كمقاهي المدن ذات الروح، حتى قططها الزقاقية اصبحت قططا حقيقية وهي تلتقط الذباب بعين واحدة أو بثلاث أرجل. أنت اصطحبتني وعرفتني بمدينتي التي اصبحت تنبض كمدن الماضي العريقة، كالقاهرة مثلاً. اصبح هناك شخصيات وكأنها أبدية تناسب هذا الحائط الخائر نصفه، كأن هذه الشقق التي ما حلمت من قبل سوى برائحة الطعام وصدى حفيف الفساتين الناعمة اصبحت بيوتاً للعقائد والأفكار والأنفاس. اجلستني أمام من يدخنون النرجيلة بهدوء. أمام من يختارون الأسماك و يمضغون الهواء وكان هذا الصفاء الواسع يمتد بينهم وبين الموج. ووجدتنى كالنحلة. أكتشف معك ان بيروت هي قرص الشهد. احاول ان ازيد هذا القرص استدارة فاجلس وأمامي البحر. والنراجيل تقرقع وأجدني لا التفت كما في السابق الى صور الحطام والجثث. بل أقارن بيروت الماضية التي بهرت الضرير بأضوائها، وأفقدت المبصر نظره، انتقل من غرفة مكتبك حيث شريط اللمبة الحزين المتدلي من السقف الى ركوة القهوة الوحيده . غرفتك، حيث الأوراق المهمة التي تحمل افكارك وخططك في هذه الحرب وقبلها وأنت تنزل الدرجات بحماس، تعرفني على البواب، تسأله عن الكلب المصاب. تدخل دكان حلوى، تلفت نظري الى لون حبة الفستق فوق البقلاوة السكريه اللون. وتنادي آه مع أم كلثوم.تحتسي عصير قصب السكر. تتحدث مع صاحب الدكان بحرارة ثم

تنتقل بي الى المطعم الأرستقراطي فتدخله بالتنس شوز وبسترتك القديمة، وتصف للغرسون كيف تحب أن تأكل السمك. وتخرج من جيبك الكمون والصعتر وتضعها في يده.اخبرك اني كنت على شرفة هذا المطعم بالذات. قبل سنوات الحرب اتناول العشاء مع زميلة امريكية ووالدها.ورؤيتي لصبيٍّ يدرس تحت ضوء مصباح الشارع قدّ هزّني لدرجة البكاء. لكنك ضحكت قائلا بأن الولد كان مبسوطاً. كان يشعر أنه لا يملك المصباح الكهربائي الطويل، بل يملك الشارع كله.

تأخذني إلى ملهى في منطقة الزيتونة، حيث المغنيات تعبات، والراقصات سكارى والفرقة الموسيقية التي تتحمس فجأة ثم يفتر حماسها فجأة. كل عازف منها يختار امرأة ساهرة يغمزها أو يلحس شفتيه يغريها أو يمر بيده على شعره كمن يحييها. أحببت هذا الملهى الذي يكاد يكون مقفراً. تقول لي انه حقيقي. أكثر حقيقة من أي ملهي آخر. وفي هذا الملهى، حيث يختلط فتح قناني الشمبانيا الرخيصة، برمي الأرتيستات لما تحويه كؤوسهن تحت الطاولة وفي اصاصي الزرع الميتة من كثرة ما سكرت. تراقصني التانغو وانت تواجه البحر. وفي جيب سترتك أوراق سرية مهمة. تتفقدها بين حين وآخر. بينما عيني على الساهرين وعلى الموسيقيين، أشعر بالارتباك لأن منظرنا ونحن نرقص لم يكن يوحي إلا بأننا نهزأ بهم. أنت ترقص وعينك على البحر رغم أن الظلمة في الخارج والنور في الداخل لم تكن لتريك البحر، بل الزجاج الملطخ بالبقع وبالبخار. تغمض عينيك منتشياً. كنت تقربني منك لدرجة أنك تكاد تبلعني بانفاسك قبل أن يبلعني جسمك ورغم العناق وأشياء أخرى كانت تحدث على البيست أو خلف الطاولات إلا أني كنت اشعر بالخجل منك. وقد تحولت من امرأة ذات فم يضحك ويكشف عن كل اسنانه، إلى امرأة التمت على جسمها وأطرافها واصبحت كمكب الصوف. لأني مرتبكة أعرف أن كل ما سوف افصح عنه لن يكون مهما. لن يكون ذكيا إذا قارنته بالذبذبات التي أراها تشع وتضيء في بؤبؤ عينك وفي حركة يديك. لا أعرف إذا

كان علي أن اكون جادة أو مهرجة في حضورك. لا أعرف إذا كان علي أن اضحك لجملتك هذه أو أن اصمت ولم استطع اللحاق بالفكرة تلو الأخرى. بل وجدتني احسدك على هذا العقل وعلى سرعة الخاطر، وأتمنى أن اختفي قبل أن يكتشف حسدي أو لومي نفسي بأني لست مثلك.

" وفي الملهي تهمس في أذني وفي رقبتي، تود أكلي.: " انتم اللبنانية بتريدو تأكلونا اكل انتو اللبنانية،ستطردونا.. طردا". كنت تبالغ؟ إذ تراءى لي وقتها أن بحر لبنان الذي كان بلا افق هو لمراكب الورق فقط. والسماء للسحاب وللشمس، والثلوج والطيور هي الرقيبة الوحيدة من على قمم الجبال. والمراقبون هم الصيادون يراقبون فقط العصافير وهي تغط على السواقي وعلى الزرع ليعلنوا الحرب عليها بالخردق.

البحر نفسه هذا، هو الذي اصبح هاجسك في الأيام الأخيرة إذ ما يحدث في شارع الحمراء امتد اخيراً اليك. المقاتلون يعدون أنفسهم للسفر. وقد تحولت الأحياء الى باحة مطار واسعة. حيث الحقائب جديدة، قديمة. في كل الألوان والأشكال. والدكاكين تحولت الى دكاكين حقائب سفر. بينما انتشر كتاب العدل ينقلون ملكية سيارات وشقق المقاتلين النازحين الذين عليهم تركها خلفهم الى الذين بقوا. بدا الجميع وكأنهم تلامذة وقفوا في اليوم الأخير للمدرسة في باحتها. يودعون بعضهم بعد توزيع الجوائز واعلان العطلة الصيفية، يكتبون على الأوتوغرافات جملاً كهذه الجملة " كل شيء يمر إلا الذكرى الخالدة مع مر الزمن " هل قلت لك انى كتبتها مرة لشاب في القرية احببته وأحبني. وكنت فخورة بخطي أولا ثم بمعرفتي لهذه الجمله التي حفظتها من كتاب ما. وكيف ان الصبي دق رأسه في الحائط قائلا أني لا احبه رغم بكائي غير مصدقة اتهامه لي. كان جميع من في الباحة يتبادلون العناوين أو حكاية ابريق الزيت أو التلفون المقطوع، خاصة عناوين الذاهبين:. اتصل بفلان الفلاني وأنا اتصل به حالما اعرف اين سيأخذني البحر. أو اني سأكتب الى عنوانك في لبنان. لابد أن يعاود البريد اللبناني عمله.

على كل ساكتب، الكل في لغط في حر بيروت الرطب في باحة المدرسة هذه وباحة المطار أو في ميدان الأزهار حيث غطت الأزهار المسافرين. زهور مغروزة اينما كان على افواه البنادق، في عري الأزرار على سيارات الجيب والسيارات المدنية، عندما صعدت انت الى السفينة. كنت أنا في سريري أفكر بطريقة اهربك بها، عبر الجبال والقرميد الأحمر والشبابيك الخضراء والصنوبر وشجر الغار وكلي إيمان أن هذه كلها سوف تقف معك ومعي ضد من يسحبك من خروم سيارتي حيث سأخبئك، كنت مؤمنة حتى البارحة أنك لن تهرب بحراً. ستظل تؤمن ببيروت وبدهاليزها وبحبها وبسيارتي. فكرت لربما آتي لك بجواز سفر مزور، أو اتوسط لك لدى هيئة الأمم؟ أم نصعد في سيارتي حبيب وحبيبة؟ تهز رأسك وتنفي لعلك ترى حقيقة أخرى. بأن هذا البلد لم يعد مفتوحا يحط عليه البشر من أقاصي العالم. رجل الجمارك يطبع على الجوازات من غير أن يدقق في صفحاته. كأن بيروت ترعرعت على هذه العادات. كل من يأتيها ويسكن بها يسلك مسلكها يعرف ان البلد ينغل في التناقض. كل ما كانت تقدمه البلاد العربية كان عليه أن يمر بطريقة الى لبنان حتى يسجله وينشره، من فكرة ساسية الى أغنية الى كتاب الى شركات. ومع ذلك لم يعد بوسعنا الآن الصعود في السيارة كحبيب وحبيبة. وكان حدسك أكثر حقيقة من حدسي رغم اعتكافك في الغرفة. بدت سيارتي ونحن نتوجه بها الى الأمان كعلبة كرتون والشوارع هي ابواب الجحيم، ونحن كالأطياف لا قوة لنا. فكرت بأن الكفاح من أجل تعلمي القيادة رغم حلم زمزم الذي فسرته جدتي بأنه إنذار لاقلع عن الفكرة، لا نفع له. فأنا، عندما احتجت لأركبها وأطير بها لاحط على طرقات آمنة، خارت هي أمام الشوارع المحاصرة على طوال الشاطيء حتى صيدا. التي قلت لي عنها أن الاسكندر المقدوني لم يرف قلبه لوداع مدينة مثل مدينة صيدا، ولا للون بحر ولا رائحة زهر، بينما فكرت أن ما اسمعه لم يعد يعني شيئا وأسفلتها يتلقى ضربات احذية الجيوش الضخمة الإسرائيلية، وصيدا الشرنقة قد تفككت خيوطها، بينما بيروت لم تزل شرنقة انما بخدشات وهي تنتظر تفكك خيوطها بين لحظة وأخرى.

وعندما لم تفتح لي الباب، توقف نظري على لونه. توقف سمعي على دقات يدي. بلعت لســاني حتى وصل امعـــائي. حدست أنك في عرض البحر. على احدى السفن، مع المئات من الفدائيين. ثم غصصت وأنا ابلع مياه البحر المالحة. اسرعت الى أي بحر رأيته، ووصلت اليه. وكانت المياه بلا لون. امعنت بها وبأفقها ولم تكن تحمل سوى الحر واللامبالاة. هذا مايضايقني في الحرب، الطبيعة تؤدي واجبها ولا تنساه. ولو مرة واحدة.لم تزل الموجة ترشق هذه الأحجار. لم يزل الزبد يفور ويهدأ، فقط السماء، كانت على غير لونها من كثرة ما زرعت بالرصاص وتحملت رائحة النيران التي اطلقت من أجلكم. لابد أنك شتمت هذه الزخات واستهزأت بها. بينما حط نظرك على الأولاد الذين شغفهم جمع الرصاص الفارغ. وعلى الولد الذي كان يصطاد فرخ السمك بقنينة صحة. الصبي الآخر الذي يمسك بباقة ذابلة يحاول أن يبيعها للمسافرين والمودعين. لكن، لماذا تبدو الأمور في كتب التاريخ أكثر جدية، عندما نقرأ "وحوصروا حتى لم يعد لهم منفذاً سوى البحر ". هرعت الى الملعب البلدي، مركز التجمع. وكانت الزغاريد قد توقفت بينما تناثرت حبيبات الأرز وفتات الزهور على الأرض. وعدت الى البيت منهارة، تطل صورتك وأنت تعبث بالأوراق طويلا قبل حرقها. وكنت اجلس على الكرسي المجاور اتصنع قراءة الجريدة وأنت تقول لي: "أنا أبله "، ولو ما تعلمت درسي بعد؟ ما تعلمت أن الدنيا بتتغير، شوفي ما في حدا محله. من الأرض للشمس، الأمور تتغير بس بدها صبر. اللى ماسكين بالكماشة، غيرهم بدن يمسكوها ويكمشوهم...". ينتهي النهار في بيروت وفق من يهيمن على روحها. كثيرون هم الذين جلسوا فوق قلبها وعصروا أوردتها ثم ليجدوا خناقهم في قبضة آخرين. ربما من شدة ثقتك فجأة في المستقبل لم تشأ ان تسمع مني وتتركني أحاول حمايتك، عازفاً عن التفكير بأن وراء حماسي لمرافقتك شوقي ايضا لأكون معك وحيدين الصق بك وأكون قريبة من رائحتك. من يفكر بهذا المنطق غير إمرأة؟ أن أجد ثقبا في عقلك هذا الذي يضج وهو على كف عفريت لاستخرج منه حبات عاطفة واشتياق.

عندما لم يفتح الباب عدت من شقتك منهارة، لا أفكر سوى باللحاق بك وأنا أدرك استحالة هذا الهاجس. فقد كانت كل الطرق مسدودة أمامي ما عدا البحر الواسع. عدت لا أرى إلا البحر الأزرق، الا اللون الأزرق، لم تودعني. ووجدتني أراك تطفو فوق سطح الحياة بالقاء نكتة، بالافراج عن ضحكة عن ابتسامة وعن غزل في وجه امرأة رغم أنك مغمور باليأس والقهر. رأيتك تهّرب رجلاً آخر من مغطس الياس هذا. الى الحانة أو الى بيت جدرانه من المخمل الأحمر تشتري امرأة لليلة. يبدو أني مريضة. فالسفن ذاهبة الى اليمن والى تونس. الى معسكرات رغم انك ستمنح منزلا على ما اعتقد.

ودرت حول نفسي نادمة. لماذا لم اخبئك غصبا عنك؟ كثيرات فعلن هذا قبلي، حتى في العصور القديمة حيث السلطانة خبأت حبيبها وضاح في الصندوق البني التخين. كانت تترك الصندوق لوصيفاتها في النهار حتى يتحسسن خشبه يفركنه بالزيت، يلمعن نحاسه، يضعن فوقه الوسائد الحريرية الدمشقية، يتمنين لو يأتين بمفتاح القفل حتى يفتحنه ويرين الكنوز التي تحرص السلطانة عليها والتي لابد أنها كنوز عجيبة ذات انفاس دافقة يسمعنها بين حين وآخر.

تخيلتك تصعد السفينة من غير متاع وأنت تتعجب كيف تستطيع السير. إذ قلت لي البارحة انك تشعر بأنك ستصاب بداء الشلل بين ليلة وأخرى. سترتدي زي الميدان الذي ارسلوه لك ورميته جانبا، تحاول أن لا تلتقي عيناك بأعين المتفرجين على اليابسة ولا أعين المراكب الإستكشافية الإسرائيلية والدولية.

وجدتني ادور على نفسي كالبلبل الخشبي الذي يدور ويدور وفي دورانه يتخطى الطرق ثم يخر مرمياً على الأرض. استجمعت نفسي وقلت أذهب الى بناية والدي المحتلة واستطلع ماذا حدث لها لكني بعد التفكير ذهبت الى جمانه اخفي عندها الكتب التي كنت تطلب مني قراءتها والتي تتحدث عن ثورات العالم، فالشعور بأن الإسرائيليين سيدخلون كل البيوت قد انتشر. لكن اردت أن اكون

قريبة منك ولا أعرف كيف. استرجع رائحتك، أنفاسك، صوتك وجهك ولا اكتفي. افتح قنينة بيبسي كولا وأكرعها كما تكرعها أنت، آتى بقنينة العطر التي اتيت لي بها من اليمن وافتحها واستنشق رائحتها التي لم احبها قط. أنبش صورك، من تحت السرير، آتي بصندوق الأوراق الخاصة الذي طلبت مني الاحتفاظ به، أقرأ العناوين واتحسسها. أنبش أوراقك، أقرأ الرسائل الموجهة لك، الأوراق الصغيرة في الكتب. اقربها كلها من فمي، ومن صدري، ثم اقرأ كل البطاقات المكتوبة بالعربية وبالإنكليزية. آتي برزمة صور. لا أتبين الا وجهك في بعضها. افلش صفحات مطوية بين رزمة الصور هذه. اجد نيغاتيف صور سوداء. أرفع النيغاتيف. ولا اتبين شيئا. كأن عتمة الليل لم تعد تفارق البيت حتى في النهار. أمسك بغليون. بنظارات طبية أفتح الصفحات المطوية. وإذا بخطك الذي يتحدث عن الاشتياق يكمشني فوق صفحات باهتة اللون.

لم أفكر بالاشتياق عندما توقفت عن الركض في الحقول بل فكرت ان المشوار قد طال. إذ تركنا رجل " الزبيب" وصعدنا البوسطة في طريقنا الى الدير. فكرت ان المشوار قد طال ونظري يختفي عند الفرس والحمار الذي سار بهما عمي خلف البوسطة. ولم احسب ان طول المشوار كان اشتياقاً لأمي ولأبي ولاخوتى الصغار وللرفاق في المدرسة. كنت احب المشاوير لكن ليست الطويلة كهذه حتى الفرس والحمار اللذان معنا شعرا بطول المشوار وميالات أرجلهما حفت، فتوقفا عن السير. والمشوار الآخر بعد رجل الزبيب كان لدير الراهبات. لا لنصلي بل لننام ونساعد الراهبات في هرس العنب، بينما امرأة عمي تخبز لهن كمية كبيرة من الخبز على التنور. " هالست خبزت الف رغيف من غير أن تصــدر عنها كلــمة آخ ". قالت الراهبة. وامراة عمي اجابتها: " لأني مشتاقة لدياري عم بتونس بالعجن والخبز". ولم أحزر أني ايضا كنت اعاني من الاشتياق الا عندما رأيت امي وأبي واخوتي الصغار حولي وظننت بمجيئهم إليّ ان المشوار قد انتهى. إذ عاد صوت امي يأمرني وصوت والدي يأمرنا. ثم انتقلنا الى بيت عال عند جبل

عال، اسمه لبنان. وتعجبت لأن خان رجل الزبيب كان اسمه لبنان ايضا. وفي المدرسة التي اخذت اداوم على صفوفها عرفت انها في لبنان وأني لن اعود الى مدرستي التي تركتها منذ أن فرحت للذهاب مع عائلة عمي. عندما سألتني المعلمة منذ متى توقفت عن الذهاب الى المدرسة، قلت لها منذ بدء المشوار الطويل. وفكرت ربما قبله بأيام. عندما لم يعد والدي يشرح لي المسائل الحسابية ولم يعد يسأل كل ليلة لأن يرى فروضي مكتوبة. والخاطر الذي خطر ببالي وقتها انه لربما اقتنع اخيراً بأن لا يرسلني الى المدرسة بل أن يجعلني اصبح دليلاً سياحيا كما كنت اتمنى، كلما سمعت الدليل السياحي في بلدة قريبة الى بلدتنا وهو يدخل في الكنائس والأقبية المظلمة ويرطن لسانه بالإنكليزية والإيطالية، بينما كنا نختبىء بها ونحن نلعب عسكر حرامية. جو الغضب والتوتر افهمني وقتها أن والدي لا يفكر مطلقاً بالمدرسة أو بالدليل السياحي. وأمي لم تعد تسرع لتحضر لى طعاماً يختلف عن طعام اخوتي إذا رفضت اكله. الوجوه متجهمة الجملة تعود فتتكرر، " اليهود والعرب. علقوا " لكن العائلتين اليهوديتين اللتين في حينا لم تعلقا معنا، نحن العرب. أصبح اسمي ناصر الفلسطيني في مدرسة لبنان. ووالدي اسمه الفلسطيني. بعد أن ضاع اسمه الذي كان اديب، أو ابو ناصر. ومن اجل اسمه تخانق عمي مع والدي وهما لا يزالان في باحة الدير، بين صناديق الكرتون والصزر والفرس والحمار. قائلا انه لا يود ان يطلق عليه الفلسطيني. لكنهما تعانقا، وشهقا وبكيا وربت كل واحد منهما على كتف الآخر، وتعانقا مرة أخرى. وعادت زوجة عمي تعتلي الفرس، وعمي يمسك بالحصان واولاد عمي داخل كل خرج.

وعندما سألت أمي الى أين ذهبوا، لذا لم يبقوا هنا قالت: " اشتاقوا " وأنا مشتاقه. وهى تشمني وتقبلني وتفلي رأسي وتنظر في تجاويف اذنيَ وخلفها وإلى اظافريي" اشتقنالك يا منحوس يا ناصر وما لقينا حالنا إلا على دربك".

الاشتياق، هو الذي اعادنا الى تلك البلاد بعد عشر سنوات في موسم الحج لنلتقي من جديد بجدتي وبأعمامي وخالاتي وليتركني الشوق بين أيدي الجميع وقبلاتهم ودموعهم. وليجعل امي تنهض من سبات عميق تلوم نفسها على اشتياقها لي وعلى حثها لوالدي حتى يلحقوا بي الى لبنان ووالدي يلومها ويلوم اختيارها للتوقيت الصائب في بث اشتياقها لي، والذي كان لحظة ما سقطت قريتنا في أيدى اليهود. ورأت والدي يبكي وهو يلف الحطة والعقال على رأس حماره ويضربه على مؤخرته، ليتقفز الحمار من لسع الضربة، والحطة والعقال تطيران في الهواء.

افتح عيني بهم وأفكر " إذا الاشتياق جعلهم يلحقون بي، لماذا ارسلوني مع بيت عمي في الدرجة الأولى؟ " خوفا علي ". " خفنا عليك " جاء الجواب ". أنت البكر والمعارك صارت مبلشة بين العرب واليهود".

تؤكد لي أمي:" الاشتياق اليك والخوف عليك جاء بنا الى لبنان ". اذا أنا السبب في تركهما لبيتنا ولجدتي. وهما السبب في افتراقي عن جدتي. فقد كنت رجلها وصغيرها. تصحبني اينما كان. أترقب مشاويري معها، أمسك يدها تلقائيا. بلا مناقشة أو تفكير. وهي تحملني وأنا أهنأ بحملها لي واترك نفسي طوعا لها.

اجعلها تطرح علي قماشا وتلفني به بغتة فأتركها ظناً مني انها تلاعبني. بعدأن شعرت بان الملل قد زحف علي في عتمة بيت القديس الذي من أجل زيارته صعدت معها الى البوسطة تصحبنا امرأة كانت دائما تزور جدتي، والتي لم احفظ اسمها قط. فهي تركت رأسها خارج شباك البوسطة طوال الرحلة. وبدلا من أن تلاعب الهواء كما كان يحلو لي وأنا امد يدي فاشعر ان الهواء يسحبها، كانت تتقيأ. قلت لجدتي أني اريد أن امسك بشمعة أمام الحاووز الحجري في قلب البناء المعتم إلا من ضوء شموع رفيعة وقصيرة وتخينة تحترق كلها تحت صورة المسيح. عند جملتي هذه غطستني جدتي فجأة في الحاووز. أخذت اسعل من طعم ورائحة

السائل الذي لم يكن ماء والذي دخل فمي وأنفي. كلما سعلت. تعالت الصيحات والتي حدست انها كانت ضد جدتي لأنها ردّت عليهم بصوت اعلى. تدور بي مرتين وأنا أتململ بين يديها، إلى أن وجدت نفسي اقف على الأرض وأنا لم أزل اسعل. ثم لأجد نفسي في وضوح النهار وجدتي تديرني حول نفسي وكأني بكره خيطان تفك عني القماش الغريب الطويل الذي انغمس كله في سائل الحاووز وترك بقعا فوقه.

تهمس جدتي في اذني: " يا ناصر ياحسون أخذوك مني يا ناصر، بترجع معي يا روحي" وكان قماش الكفن اياه لم يزل بين يديها في كنيسة المهد. قلت لها: عشرط ما تلفيني وتغطسيني". وضحك الجميع وضحكت جدتي، وهي تتلو عليهم تفاصيل ذلك المشوار الى القديس، قائلة ان وديعة كادت تموت على الطريق: " من دوخة الرأس، آمنت بك يا ربي ويا يسوع، لما فتنا عالقديس ورشت نقط الزيت على وجهها حتى رجعت صاغ سليم ".

فهمت بعد هذه السنوات أن زيارة القديس ولف جدتي لي بكفنها كانت من أجلي أيضاً. أرادت تغميسي كلي في الزيت " حتى يحميك كل حياتك".وفهمت ان الشوق ايضا هو الذي حول جدتي الى صرة قماش وحرامات لتعبر بها الحدود اللبنانية، لكن ما ان اعتادت على نفسها في صحن بيتنا حتى عاد الاشتياق يكبر لدارها و «للحواكير» التي تركتها، رغم آن اليأس كان قد دب بها نتيجة شعورها المتناقض. محتارة بين البلاد وبينكم. وين ما كنت قلبي ولهان ".

لم تعد جدتي تبتسم أو تشعر بالراحة، وبالسعادة لأنها بيننا. بل أخذ الندم.لتركهـا قريتنا يزورها باشـكال وألوان، لابساً حلة الضـجر، لابساً حلة الغربة أخذت تهدس بمواسم الزيتون الأسود: " لوما شوقي اليكم كشوق الأرض الى المطر لكنت في داري ". مع عودة جدتي إلى فلسطين. حسمت بأن الاشتياق هو العدو الأكبر.

عادت جدتي الى فلسطين، اتخيلها من وقت لآخر تنزل الأدراج التي هي الوحيدة الواضحة في ذاكرتي ، أما الحاكورة والقبور والكنيسة فأنا اتخيلها كما اشاء. اتخيل جدتي تسير الهوينى بينما نظرها يستجلب كل شيء. أعرف أنها تفكر بناصر. بوالدي. بقي قلبها معنا، لكن كان على جسمها العودة. لأنه لم يطق ان يكون بعيـــداً عن مكان ولادته وصـــباه وانتظار موته. أخذت تلجأ الى القبور، قبور العائلة، وقبور الغرباء. تضع عليها الزهور وتنقب عنها الحشائش الدموية كما كانت تسميها . ولم تعد تأتي على فكري إلا نادراً فأنا قد حسمت شعور الأشتياق بيني وبين نفسي،الى أن جاءنا خبر موتها . وكان همي الوحيد أن أتأكد من أنها لفت بالكفن الذي لفتني به. وبموتها انقطعت صلتنا بأقاربنا هناك ولم يعودوا على الخاطر. ولم نعد نبصرهم حتى في الأحلام الى أن توفي والدي ولم استطع تبليغ الخبر الى عمي وبقية الأقرباء في فلسطين إلا بعد أسبوع من وفاته، ومن قبرص اتصلت ببيت عمي. وكان هذا الاتصال الأول بيني وبينهم.

إرتجفت يدي وأنا ابحث عن نمرة المفتاح في دليل التلفونات للمكالمات الخارجية. أرقام على مد النظر تحت كلمة اسرائيل وبلاد مؤلفة من أشجار وحقول على مد النظر، لم استطع أن اتخيل عمارات وأحياء سكنية ولا اسلاكا هاتفية ولا شركة تلفونات شرعية، لها دليل الهاتف، موزعة في انحاء العالم. أدير الرقم وكلي ثقة بأن ما اقوم به يحدث في الحلم أو في الخيال. وبأن الخط سينقطع وبأن أصواتاً غريبة عالية مسجلة سترد بلا قلب، " هناك خطأ في النمرة وفي البلد ". لكني أسمع الخط كأنه حنفية تفتح ويصدر عنها صوت لشلال بعيد، أو صخب خفيف يطن في اذن، شخص سيغيب عن الوعي بين لحظة وأخرى من جراء حقنه البنج. دق التلفون مرة وثانية وعندما لم يرفعه أحد شعرت بالارتياح. لا بد أن هناك خطأ. فالبلاد هذه لم تزل محظورة تنتظر رغم سنوات الاحتلال. لم تزل تحت الدرس. إذ لا يمكن ان تتحول الى بلاد اسرائيلية. فيها شبكة تلفونات شرعية،

وانتينات تلفزيونات، وتدون أرقامها تحت بلد إسرائيل. لكن: صوت عربي يقول" آلو. مين بيحكي، آو، مين بيحكي " نويت أن أقول : "عمي موجود؟ أو العم شكيب موجود ".. لكن الصوت ردد: آلو. مين بيحكي ". رددت:" أنا ناصر" وسمعت صرخة. ثم دهشة ثم «مش معقول»، «ثم صرخة»، ثم تعوا ولكم تعوا، هذا ناصر ابن عمي " ثم بكاء، ثم يا حبيبى يا ناصر، ثم شو هالنهار الحلو ياحبيبى... يا ناصر " ثم فجأة بعد أن قالت: كيف الماما، "كيف عمى وين هالغيبة " صاحت قبل أن تسمع جوابى " لازم في شى، تتصل.... مين.... عمي؟ مرت عمي... عمي... يا علي... عمي مش آه ".

ومنذ أدارتي لذلك الرقم أخذت أجد نفسي كلما كنت خارج لبنان والبلاد العربيه أدير رقم بيت عمي اتحدث معهم، منذ أن سمعت زوجة عمي العجوز: " يا ناصر اليوم شوب. شوب. ادلقي يا بنت إدلقي مي على اجري وعالسطح ": ثم تعود إلى: " عم قول للبنت حتى تدلق مي بصحن الدار، شوب... هب يا لطيف. حاولت أن اتصور بيت عمي لا موكيت ولا حيطان خائفة من طرطشة الماء ثم اختم حديثنا دائما بجملة:" ان شاء الله الملتقى قريب ".

قدر ما كانت هذه المكالمات تفرحني كانت تحزنني حالما تنتهي. فأعد نفسي بأني لن اشتاق... لن اشتاق..... لن اشتاق.

وأقرر ما ان يقع لهاثي على الكلمات الأخيرة أن الحق بك حتى احدثك عن الاشتياق ، عن اشتياقي. هذه الصفحات التي قرأتها كأنها كونت علاقة أخرى بيننا. لا علاقة لها بنزولنا على السلم في الليلة الأخيرة. ولا ببيروت. ولا بالغرف المختلفة التي كانت تضمنا، أنما لها علاقة بالولد الذي كان يجري في الحقول فرحاً بالمشوار، والذي غمسته جدته بالزيت المقدس وكأنه فطيرة، والذي هف قلبه

لصوت الماء في بيت عمه ذي البلاط المخطط..

كونت وبسرعة علاقة أخرى بيننا أخذت تحمسني لأن أسرع اليك، لا لأن حمى ترك بيروت الغربية تفشت بي ايضا والتي بدأت تنتشر كالعدوى بين أهاليها. بينماالمنطقة الشرقية فتحت أسلاكها وحواجزها أمامنا. وكل من يعرف عائلة أو صديقاً أو من يستطيع ماديا أن ينزل في فنادق الجبل وجد نفسه يترك الغربية، ليراها في الليل من على تراس الفندق أو من على شرفات الأصدقاء شعلة من النيران. فيتجاهلها وهو يستمتع بسكون الجبل والأشجار. ويلوم نفسه لانه تركها قلبه يتفتت على ما يحدث لها. عندها يصدم بعدم مبالاة سكان الشرقية إزاء ما يحدث ويكتشف أن لجوءه الى الأمان هو وهم. إذ هو يتخبط رغم أنه ما توقف عن تذكير نفسه أنه عندما كانت تحتدم المعارك في الشرقية كان لا يخدش نومه سوى سماعة للمتفجرات.

لحقت بك حتى رمال الاسكندرية، وجلست على الرمال غير مصدقة أني أمام البحر. أني أمام الأزرق. أنتظر كأني امرأة بحار، أو كأني قطة جائعة لعودة قوارب الصيادين تراقب الموجة تلو الأخرى. ولا تشعر بالغثيان بل بالجوع. أكاد لا أصدق أني هنا. وبأني تركت بيروت البارحة فقط، يبدو لى أني قضيت اعواماً طويلة بين بيروت وجونية وقبرص والقاهرة والاسكندرية. كل هذا السباق، لأراك ولأسمعك تودعني. لقد فاتني بأنك قد ودعتني عندما نزلنا بكل هدوء الدرج المعتم أعمى يقود الآخر. كنا شخصين رأيا بابهما يحترق واكتفيا من بعيد بالتحسر على بيتهما وتعديد مزاياه وتذكر الأوقات السعيدة التي قضياها بين جدرانه دون أن يحاولا شيئا لإطفائه أو أن يفكرا ببيت آخر ولو مؤقتاً.

إلى جانبي صديقتي المتلهفة لسماع اخباري بل إلى اخبار بيروت والحصار. رغم شعوري أمامها بالخيانة لأني هجرت بيروت. وشعورها بوخز الضمير لأنها تركت لبنان لتعيش في القاهرة منذ بدء الحرب إلا أني لم اكن أود

أن استدر اي شعور..بل كنت تحت وطأة الإستغراب بأني امام بحر غير بحر بيروت وبأنه غير ممكن أن يوجد حياة عادية في بقع أخرى من العالم.

جلست كأني طفلة يتيمة. اخذتني لحظة قبل أن اتذكر أني فعلا يتيمة. ولم تكر الصور كعادتها كلما سألني احد عن والدي. خيالي يتشبث بك، انك لم تترك دقة قلب أو رمشة عين واحدة إلا لتحوم حولك، هل هي الوحدة النفسية الناتجة عن الحرب؟ اذ طوال هذه السنوات وأنا اتشعب بك كأننا نسيج واحد. وهذه الخيوط كأنها اخذت تسحب بذهابك. وهأنا الحق بما تبقّى منها. علاقتي بك هي الحياة ولم اعد اعرف كيف اعيش من دونها. أو أني التجأت اليها لأني لم أعد أعمل. وشعرت أني في نقاهة من ألم أو مرض الَمَّ بي، أستمتع واصدقائي... بروتين الأيام حيث لا واجبات ولا عمل ولا تفكير في المستقبل ولا في الماضي ولا في الحاضر. رغم الملل الذي كان يداهمنا من ركود الأيام. لكننا لم نكن تعساء بين ساعتها ودقائقها. كأننا لم نكن نعي كل ما يحدث حولنا كأن بيروت خضّتنا ونحن نقود معدنية في قجة من فخار. تضاربت رؤوسنا واتجاهاتنا، قليلا ثم وكان في مقدمة رؤوسنا ابرة مغنطيسية. أخذت تجمعنا مع بعضنا الآخر وتفصلنا عن بعضنا الآخر. لم أكن اسمع امواج البحر طوال جلستي على الرمال بل أرسم عليها مركباً شراعياً حفظت طريقة رسمه منذ الصغر إذ كان مطرزا بالابرة على شرشف ابيض باللون الأزرق. لا أعرف من أتى به إذ ان جماله لم يكن لينسجم مع الأشياء الأخرى في البيت. المس شراعه، فتعتريني لذة اللمس كأني المس قشرة خوخ. أمر باصبعي على شراعه العالي. الأمواج التي تحيطه كانت خطوط متعرجة، زرقاء، ظننت أني احتفظت به عندما انقذته من أسنان اسعاف والتي كانت بالنسبة لها ولامي مقص البيت المفقود.

تسألني صديقتي متى سوف استقر؟ ومسحة الأمومة على وجهها وعلى وجه زوجها الذي وقف عند بائع المرطبات ينتظر دوره. اتزوج منك؟ أني لا اطمع حتى

في علاقة حب دائمة معك. أعرف أن في حياتك كثيرات. لكنك اصبحت كعامودي الفقري. إذا سمعت نكتة ما افكر أن عليّ قولها لك بسرعة حتى تضحك، وإذا سمعت ما يحزنني احفظها حتى أقولها لك وأنوح أمامك، أننا نعتلي موجة واحدة. ذبذباتها تمتد منك إلي، ومني اليك، رغم أني كنت أفكر، لربما علاقتنا العاطفية كانت تكملة لمشاركة الأفكار. لربما هو انبهار بوجهك الثوري الحماسي لأني فقط متحمسة مشاهدة. على كل ها أنا بجلوسي هنا ألغي كل هذه الأفكار. إذ أني انتظر رؤيتك حتى استطيع أن اقرر المضي في الحياة.

خفت ان تسمع صديقتي التي لا تزال متحمسه ما أفكر به الان. لا أظن أنها تسمعني، الزمن يتبدل ولا بد أن صوتي لم يعد واضحا كما كان. عجيب كيف أن الحماس فقط يجعل الصوت ينبع من جذور الداخل ويدوي، وأن الفتور رغم صدقه وقوته يبقى راكدا، خافتا. أنا تبدلت ولا بد أن طبلة اذني صديقتي قد تراكمت عليها ومن جديد، نداءات خيبات الأمل التي كانت كالسهام تتكاسر.

على رمال كهذه، داس الإسرائيليون.. وتمددوا فوقها تحت أشعة الشمس، واكلوا طعمية وفول وطرشى وفطير مشلتت. وفي سحاب هذه الدنيا ارتفع علمهم ونحن ننتظر فوق هذه الرمال السفن الهاربة من جراء اسرائيل. ثلاث سفن تلوح من بعيد كأنها الأفق. استنفرت الأجسام والآذان لكن القلب كان يضرب بشدة. لم أقف، خفت أن يكون منظار المكبر على عينيك وتراني على الشاطئ متلهفة، فتضحك على الطريقة التي أبدو بها. أو أنك سوف تتأفف لأني هنا. إذ انا أكمل ديكور بيروت. ولأن بيروت اصبحت في الذاكرة علي أن ابقى في الذاكرة؟

ظننت أن السفن ستتوقف ما ان ترانا وكان أول من ركض صديقتي وابنتها التي لحقت بها باكية، غطستا أقدامهما في البحر ثم أسرعتا حتى غمر الماء وسطيهما. الكل يلوح ويصيح، ولكن السفن تختفي كما اطلت، رغم أننا نرى أشخاصاً يلوحون بأيديهم من على سطحها. ابنه صديقتي تبكي: " احمليني ماما

بدي شوف الفدائيين ". السفن تهرب، كأنها لم تعد على سطح البحر. لابد أنهم رأونا من فتحات القمرات، لكن هل رأيتمونا نختفي بسرعة. هل رأيتني أقف تحت الشمس أم رأيت قلبي ينبض؟ اعرف أن السفن تمر دائما متمهلة ويراها من يعيش قبالة البحر ربما لأيام. عدا هذا السفن الثلاث. هل وأنت على متنها كنت تعلك سيكارا أستطعت الحصول عليه. كنت كلما رأيته بين أصابع الرجال تدق أوتار عصبيتي، بينما أجده في يدك ضرورة لا أعرف لماذا ينبت الآن وجه الراقصة المصرية والمطرب اللذين اخذتهما قبل الحرب الى مخيمات اللاجئين. وكنت قد تعرفت عليهما اثناء لعبك البوكر في احد فنادق البحر. والححت عليهما لأخذهما الى المخيمات. تظهر صورهما في الجرائد في اليوم التالي وعلامات الأسى على وجه الفنانين رغم مكياج الراقصة وملابسها التي لم تكن تلائم المكان إلا أن الدعاية كانت كبيرة خاصة وقد أظهرت الأطفال الحفاة أو المنتعلين احذية كبيرة والغاطسين في الوحل يلتفون حول الفنانين وبدوت أنت في قميص مخطط جميل لا يناسب «الأنوراك» الذي كنت ترتديه. ثم تنبت صورة أخرى وأنت في الكازينو مع متحمسات للقضية ترتدي سترة الميتردوتيل لأنه لم يكن لديك سترة.

تختفي هذه السفن. تختفي كرمشة عين، كالسحابة، وتترك في خيالي ايادي مرفوعة وأصابع تلوح باشارات النصر. لم أصدق ان السفن تمر هكذا حتى الطائرة المسرعة نراها أكثر. وإذا غابت عن الأنظار يبقى ضجيجها في الذاكرة السمعية كذلك الشق الأبيض التي تخلفه وراءها في السماء. كأن هذه السفن غواصات ارتفعت للحظة ثم غطست مستأنسة بقاع البحر. أضفّر شعري الذي كنت قد اسدلته رغم الحر اللاهب. لا داعي الان لتركه فوق كتفي. اردت أن أبدو كما أريدك أن تراني. هل فعلا كنت متأكدة أني سأراك وسأكلمك رغم ان السفن ستكون كثيرة وربما ستأخذ بحوراً أخرى. هاجس البحر ووداعك ركبني، جعلني أخترق بيروت الى جونيه والطرقات مفتوحة، ثم ركبني الغثيان وأنا أرى ازدحام

مئات الباحثين على مكان ما في باخرة، في مركب، حاولت أن اتراجع عن فكرة اللحاق بك وأنا اتصور الجموع تدفشني وأنا على ظهر السفينة. أتخيل الجرذان الكبيرة تقفز فوقنا وأنا أرى السفينة تغرق. لكني تركت المنتظرين كأنهم يتنافسون للحصول على بطاقات لماتش فوتبول. ولم أجد بدا من التراجع بعد أن لمعت في رأسي فكرة ووجدتني أهز رأسي بالإيجاب لسائق التاكسي الذي كان قد ركن سيارته منتظراً خيبة أمل الكثيرين مثلي.

لم تكن المسافة بذلك البعد، ومع ذلك قص لي السائق قصة حياته أو حنينه الى الشق الآخر من بيروت، أي من حيث اتيت، لم يكن تحت وطأة العجلة أو الضيق من أبواق السيارات والزحام وتمنيت لو يلوذ بالصمت. فأنا أكاد ارتعش من عدم الصبر. لكنه ركّز المرآة حتى أرى وجهه أو حتى تلتقى عينيه بعيني. مما احرجني في بادئ الأمر لكن عدت وبدلت رأيي وأعطيته كل اهتمامي إذ كان همّ السائق ان يسترجع نفسه في ذلك المكان. من عين المريسه، في بيت اشبه بكوخ قبال مسبح الأوندين. كان اذا اصطاد والده سمكة فهي طعامه. كانوا فقراء: " عائلة صياد سمك"، "آه"يتنهد السائق،"آه آه آه لو استطيع فقط رؤية تلك الغرفة.. أو ذاك الكوخ. الأرض الخشبية والطينية السقف الخشبي. وعدة الصيد معلقة عند حائط المدخل. أشم رائحتها، أعرف وقع مسكتها على اليد. قلوسة الصيد. لو أرى المقلى والمجلى والسكين ". لم أسأله شيئا. إذ كلما استفهمته امتنع عن إجابتي وأكمل:" لو أرى الحمام والطبلية والليفة. اللحظة التي ولدت بها أخذني الصياد وزوجته من عائلتي. كنا عشرة، ولم تعد أمي تستطيع أن تطعم العائلة رغم انها كانت ترسم اشارة الصليب على العجين الذي كانت تخبزه. ورغم أن عمتي الراهبة دأبت على اصطحاب القسيس حتى يبارك البيت. عشت مع والدي الصياد وكنت أناديه بابا نقولا. وأمي وكنت اناديها ماما ليلى خوفا من أن تختلط الأمور على من يسمعني. خاصة كنت اني أزور أهلي كل يوم أحد وكنت اشعر بأني الابن

الغريب وسط عائلتي الغريبة.

آه، آه، آه مدموزيل أو مدام. ماما ليلى ماتت بالحرب وبابا نقولا مات قبل الحرب" .

في بيت حياة، حيث أوصلني السائق، شعرت أن البيت كله يرحب بي. حتى كلبهم مرغ رأسه عند قدمي سعيدا بينما أخذت أمها تعانقني وتبكي. كانت قلقة عليّ وعلى كل من تعرفهم في الغربية. قالت أنها كلما رأت الأنوار تسطع وتنفجر في الغربية كلما عصر قلبها وشعرت بالغثيان وتمنت لو تترك لبنان نهائيا ،تنادي على الخادمة وهي تنفض يديها من نكشها للبطاطا في الجنينة وتستفهم عن ابنها وتتكلم عن حياة وهي تريني صورها، ثم صورة الطفلة اللبنانية التي تبنتها بواسطتها صديقة حياة الفرنسية ولم تشأ أن تسألني إذ كنت قد هجرت الآن بيروت لأيام معدودة أو ما هي مشاريعي، بل شعرتْ للتو كم أنا تعبة وبحاجة الى الراحة في هذا البيت المريح النظيف. وقت قصير مضى ومع ذلك تجعلني الحياة العادية من حولي اتروى في تفكيري بالسفر. لكن وأنا اخبر أم حياة عن محاولتي وفشلي لاخذ الباخرة والسفر، عاد الحماس يدب في ما أن سمعتها تصيح بي:" ابن عم حياة بالجيش، الهليكوبتر تحت أمره. بياخذك عقبرص وهونيك بتدبري حالك ". " دب النشاط بي وشع وجهي بالفرح. نهضت اضمها الى صدري وابكي وكأن بساط الريح حطّ بي على سطح سفينة ورأيتك والآخرين تنظرون الى السماء ثم تتبينون امرأة باهتة الألوان فوق البساط المزركش. وهكذا كان، نقلتني الأيدي والأوامر والدرجات كأني كوز تين سريع العطب حتى وضعتني في هليكوبتر كبيرة فيها أولاد يضجون وأم تحاول اسكاتهم ومربية مصرية تحمل صغيرهم وتغني له: " كان في واحدة ست. عندها اثنا عشر بنت ". وهي لم تتوقف عن الغناء إلا عندما التفتت اليها الأم وطلبت منها السكوت، ربما لأن المربية كانت تغني بالعربية. وجـــدتني أشعر بالحنين لأنتينات التلفزيون التي أراها من بعيـــد على سطوح

المنازل، رغم الجبال التي بدت مشوهة بالأبنية الجديدة وكأنها آلات لتفقيس البيض.

يضج الأولاد، والأم تحاول تهدئتهم قائلة بأننا سوف نقلع قريبا ريثما يأتي بقية المسافرين ويبدو أننا كنا ننتظر رئيس جمهوريتنا السابق الذي ترجل من سيارة ببطء ليعاون زوجته على النزول ليمسكها من ابطيها جنديان كانا بانتظار سيارة الرئيس السابق ثم يرفعاها على درجات الهليكوبتر. هل هي لا تقوى على السير أم انها قصيرة وعتبة الهليكوبتر عالية. هزّت برأسها متمتمة:" بونجور " كذلك فعل الرئيس السابق ثم ليجلسا أو ليربضا وكأنهما ارنبان ينامان وأعينهما مفتوحة، رغم ضعفهما وجدتني أشعر باللامبالاة تجاهه كأنه لم يكن رئيسا. الضجيج الذي علا الهليكوبتر ومراوحها الدائرة جعلني أفكر بك من جديد. سرعان ما توقفت الضجة كأن احداً خطف روحها بهدوء لتعود اصوات الأولاد تتساءل بالفرنسية "ماما شوفي؟ ماما " طلبت الأم متأففة أن يسكتوا ومن بعيد رأينا ضابطا ومعه رجل آخر يحمل محفظة، يقتربان من الهليكوبتر ليدخل الرجل ويبتسم لنا ويلقي التحية، لفتت نظري محفظة يده الجديدة الجلدية التي تبدو باهظة الثمن، ثم ليتبين لي أنه المغترب الشيعي... ضحكت في قلبي. هذا المغترب إرتبط اسمه بمعونات مادية يقدمها للاحزاب في شقنا والتي تندد هي وحلفاؤها بهذا الشق وبحلفائه والذي نحن في هليكوبتر يخصه. المغترب يمد يده يصافح الضابط شاكراً والضابط يربت على كتف المغترب قائلاً: " تحت أمرك ". يلمع نحاس الحقيبة الثمينة، يقترب المغترب ويصافح الرئيس السابق وحرمه ثم يجيل النظر ويحطه علي وهو يبتسم ثم يجلس مكانه، يتناول سيكارا يشعله وينفخه، يبعد الأولاد الدخان عن وجوههم قائلين: "ماما الريحة بشعة... ماما دوخانين. ماما.... ماما.. " لاحظت أنهم يتحدثون العربية فقط كلما أرادوا المشاكسة أو التعبير عما يضايقهم وهذه الجمل في العربية هي الصفة اللبنانية الوحيدة التي ميزتهم عن أي

عائلة أجنبية. هذه الفكرة اوصلتني الى فكرة أخرى بأن لبنان هو فعلا كحبيبات الزئبق. هذه العائلة، التي لا بد أن الام من طريقة كلامها وملابسها لا تعترف بالشق الغربي، لا بد أنها متأكدة بأن لبنان هو هذا الشق ومع ذلك فهي لا تستغرب لماذا هذا النائب الشيعي في هذه الهليكوبتر.

لو يعرف ضابط الجيش ما أفكر به ولماذا انا هنا في هذه الهليكوبتر لربما اسكت ضجة موتور الهليكوبتر والمراوح وانزلني، افكر أني لست ممتنة له لإمساكه بي وقوله لي:" ستنا، نحن تحت أمرك " وهو يوصلني الدرجات. انه السبب خلف تركك للأسفلت ولجو بيروت الصيفي الخانق وصعودك على الباخره.. اتمهل في الحقد وأفكر. لا ظابط الجيش لم يكن السبب، بل إسرائيل هي التي اخذتك من الأسفلت، إذا لم تكن اسرائيل بل من أجلها، كل من في هذه الهليكوبتر لا علاقة له بالسياسة بل في الجيش حتى رئيس جمهوريتنا السابق. لو هربت معي الى بيت حياة لكنت معي هنا ولكان أيقن محللو السياسة بأنهم لن يستطيعوا كمش حبيبات الزئبق. لن يستطيعوا تحليل ما يحدث في لبنان. أنت الذي تخوض طرفاً في الحرب اللبنانية. انك ضد رئيس الجمهورية السابق هذا، التخين الرقبة. ضد ما يمثله. هو ضد هؤلاء الأولاد الذين يضجون قائلين بالفرنسية. " زهقانين. جوعانين. وين هيدي قبرص، خلليها تجي. هيدا مش هليكوبتر جيمس بوند. عم تكذبي ماما ". هؤلاء الصغار سيحاربون ما تنتمي اليه. أو أن احدهم ربما سيحارب الى جهتك. ولو رزق رئيس الجمهوريه هذا أولادا وأحفادا لشنوا الحرب على هؤلاء الصغار بعد سنوات. لأنهم لا يحبون المنافسة ولانهم ربما يودون توحيد لبنان الذي أراه الآن يجثم كثمرة بلوط وقعت من الشجرة لأني معلقة بين الأرض والسماء.

تبكي ابنة صديقتي، ويدها تشير الى البحر الأزرق والأفق. تضع اللوم على قصر قامتها وعلى أمها التي انزلتها عن يديها. وجدتني ابكي انا ايضا رغم

إرتياحي لأني لم أرك واقفا خجلا، حزيناً. البحر لم يزل يبلع الأمواج التي إزدادت من سير السفن ولا يهتم لحزننا. رغم أنه يترك خطا أبيض به، وكان زوج صديقتي قد أجرى التساؤلات وعاد الينا مهللا وهو يحمل ابنته قائلا: " بكرة نروح بورسعيد. والنبي حتشوفيهم ". وبقربه الضابط المصري الذي أخذ يؤكد الكلام، بأنه قد تلقى المعلومات هذه الدقيقة بأن سفن الفدائيين لم تزل تأتي الى بورسعيد. لنتجه في فجر اليوم التالي الى بورسعيد، المدينة التي كنت اتخيلها بيضاء البيوت و شوارعها تعج بالصبيان الذين يرتدون الملابس البحرية البيضاء، وسعيد، كان اسم كل منهم. كما حدث البارحة. مرت الساعات ببطء، مياه البحر لم تتبدل، وبقي الأفق جامدا، إلا من بعض طيور تغط وتطير من بعيد. كان عدد المنتظرين هذه المرة كثيراً. الأغاني الحماسية الوطنية عبر الراديو وعلى شفاه المنتظرين. شابات وشبان من جامعات مصر، وعائلات يلتفون بحطات مرقطة ويحملون الأعلام الفلسطينية. فكرت بحزن أن على الإنسان التمهيد والتحضير لكل شيء حتى لأن يقول وداعا. بينما لأننا تصرفنا بغريزتنا البارحة، سحبت السفن من أمام اعيننا ولهفات قلوبنا وكأنها مربوطة بحبال تخينة.

الانتظار سريع اللهفة، يضرب بشريان رأسي وقلبي. الحر لم يعد له وجود على الوجوه ولا على زجاجات المرطبات. لا بد أن البحر فتح بحراً آخر بعيدا عن اعيننا. ووجدتني أخاف من أن يكون هذا الانتظار بلا فائدة، رغم أن بي ذرة شعور تتمنى ذلك. كأني خائفة على كبريائك وأنا أراك تقف واجما حزينا على الدكة أو أنك قد شمرت على ساعديك تحضر التوابل التي سوف تضيفها الى السمك المشوي تمنيت لو يسكت الصخب، خاصة الصوت الذي ينتج عن فتح زجاجات المرطبات. وصراخ الأمهات الخائفة المؤنبة. كلما اقترب الأطفال من البحر.

الشمس تكاد تغطس في البحر أو ما وراءه. والضابط المصري يقترب مني

يطمئنني بأن السفن لا بد أن تمر. لا بد أنه لا يزال يذكر الهلع الذي بدا على وجهي البارحة عندما اختفت البواخر في لمح البصر. أشعر بأن الضابط يحوم حولي منذ الأمس . يعتذر عن كل شيء، عن شدة الحر، عن الرياح التي تهب لتلسع الوجنات، عن فتاحة المرطبات التي لم تكن تفتحها بسهولة، ولأن تناولها المرطبات ليست بالبرودة التي يتمناها العطش. يلامس يدي ويشد عليها وأنا أمدها لأتناول منه القنينة. أتركه يشد عليها بينما أبتعد بوجهي. لربما هذه هي يدك. وأنا أستعد بل اقترب من رائحتك وعناقك.

أطلت السفينة، إنها تقترب، إنها ترسو أو أنني مخطئة. الضابط يشدني من يدي وأنا أشد بيدي صديقتي وابنتها. يلحق بنا اخرون الى مركب صغير ومنه الى السفينه. كأن كل هذا الانتظارالمكتوم تنفس في هذا المركب الصغير. وجدتني أفكر أن القلب هو الجسم والعقل والحياة. إنه يفهم متى يتمهل بضرباته أو يسرع بها، وبأنه يكاد يأخذ نَفَسي. فكرت كيف سأراك وماذا أقول لك. كل ما فكرت به قبلا من حوارات ونظرات تلاشى، ووجدتني أتأكد بأنك لن تكون على متنها، بل لا بد أنك ما زلت في بيروت.

فقط عندما وقفت على سطح السفينة، عرفت أنني كنت طوال الوقت واهمة، لا بد أنك في السفن الأخرى أو أنك لم تزل في بيروت. تبكي صديقتي بحرقة وهي تعانق الفدائيين، تبكي ابنتها على بكائها. يحاول تهدئتها الشباب والشابات المقاتلون. يهدئها الرجال، يهدئون كل من يبكي. كان العياء شديداً على الوجوه. اقتربت مني شابة فـدائية خمرية اللون تضج عيناها بالحيـــاة والشيطنة وقالت: " طمنوني " صحيح السودان أو اليمن مثل إفريقيا شمسها لاذعة "... وعادت فأعقبت:" خيفانة يصير لوني أغمق مما هو ".

ضحكنا لها. وابتسمت صديقتي تخفف عنها قائلة:" ما تخافي شهر واحد

ويترجعو ". الجرحى على خشب الدكة يلتفون بحطات أو بملابس وهم يترجفون من البرد، يطلبون البطانيات من الضابط المصري الذي يسألهم إذا كانوا هم بحاجة إلى شيء ليعدهم خيراً، لكنه لم يتحرك من قربي. كأني اسمع موسيقى يونانية، أصواتاً يونانية. أنها سفينة يونانية تجارية. تعرف أن حمولتها تتبدل من رحلة إلى أخرى. هزني هذا الواقع أكثر من رؤيتي للدماء الجافة على الخشب. الوحده التي تنتج عن معاشرة البحر تبدو على قساوة وجوه بحارتها، تجاه كل شيء يأتي من اليابسة. الأصوات تنادي: " دولار، دولارين " قهوة وشاي وساندويش". أستغرب والشباب يمدون ايديهم الى جيوب ملابس الحرب ويخرجون منها الدولارات. التفت البعض إلى البحر والبعض الآخر حولنا، يعطوننا المزيد من الحطات والأعلام وبعض الرصاص الذي لم يستعمل. يعطوننا رسائل لنرسلها بالبريد.

وجدتني اتوقف عن التفكير بك، وجدتني انساك في هذه المعمعة، ولا أنسى خشب السفينة المهترىء وأصوات من التف حولنا. أمسك بالرسائل وأنا أعدهم بأني سأودعها البريد هذا اليوم، بينما يعدهم الضابط بالإتيان بالبطانيات. احاول أنا وصديقتي الإمساك بابنتها التي اخذت تولول، رافضة مغادرة السفينة.عندما سمعت صوتا يناديني:" أسمى، أسمى ".

وكانت رنا ابنة صديقك في الشورت الأسود. تضمني اليها وتعانقني وتسألني إذا كنت سأذهب معهم. تبحث عنك من حولنا وتسألني عنك. استرجعت غرفتها التي مكثت أنت بها بضعة أيام وكيف كنت أرفض الاستلقاء فوق سريرها. أستيعد لهمسها لي ذات ليلة عندما طلبت انت مني الدخول إلى الغرفة متحججاً بإعطائي شيئاً ما: " يمكن بدو يبوسك؟".

عزيزتي الأرض

متجهين اليك وأنت مازلت مفقودة. رغم أني اتصورك الآن متمددة تحت الشمس، وتحت المطر، أنت الوحيدة المفقودة الظاهرة للعيان في هذه الحرب.

لم أزرك منذ أن احتللت، منذ أن قطعت اشجارك، منذ أن بدلّوا معالمك. وكم حاولت أن اجعل جدّي يفارقك . لكنه فضّل التعرض للخطف، للموت حتى يبقى قربك.كيف يمكن أن يتعلق المرء بالجماد الى هذا الحد؟ لكنك حيّة، تثمرين وتعطشين وتبردين وتتقلبين وترفضين، اذ أنت سواء بشساعة حجمك أو بحفنة من ترابك، قد شذبت وكونت الإنسان وانجبت عائلة وأشرفت على أدق مكنونات النفس. انك همست باسم عائلتي ليتناقله الصدى ويهرب به صائحاً بين الجبال والوديان والسهل وأعمدة الكهرباء حتى وصل به الى بيروت. ومع ذلك بقيت حيث انت ملازمة لنا أيضاً في بيروت.

رغم إنتظاري للألم الذي سوف أعانيه ما ان اقف أمامك وأتأملك غير مصدقة ما جرى لك رغم أن ما أراه الآن يشبه قطع الكلمات المتقاطعة في الجرائد من اسمنت وأخشاب وفسحة من السماء ثم أكياس، ونحن في طريقنا عبر الطرقات وعبر ما اراه من خراب. فإن شعوراً خفيا سعيداً تسلل إلي. وأنا أفكر بأن لا بدّ أن يكون على هذه الشجرة عصفور يغرد أو يطير في فضاء السماء الجميلة، وأنه لم يزل في الدنيا ألوان وحياة، يتوقف السائق عند ازدحام السير من جراء الحواجز، أسمعه يقول لسيارة موازية له: " معي مراطبين عسل، أي والله لابو رفيق، من ابنه في انكلترا». هذه الطبيعة، ولو مشوّهة، أدخلت الراحة الى

قلبي، أبعدت عني اجواء بيروت، صفائح الماء البلاستيك الملونة التي اصبحت منتشرة وكلمة الدولار التي طغت على كل كلمة وعلى ضجيج المحركات. دكاكين الصيرفة، الاجهزة اللاسلكية حول آذان الصيارفة لمتابعة الدولار، والتي أخطأت فضيلة وظنتها " وواك مان " فسألت أحدهم: " اذا كان هيدا موديل جديد! وبكم اشتراه؟" حتى ان دكاكين الصيرفة أصبحت متنقلة:، في كيس واحد يمسكه رجل ويقف فى الشارع. الدولار الذي أخذ يستأنس اللبناني له ولصورة جورج واشنطن بدلاً من أزرقاق المئه ليرة لبناية، أصبح حتى على شفة النورية التي تبيع الصعتر الأخضر والهندباء والتي طلبت ثمن ما اشترته منها زمزم بالدولار. وردت زمزم عليها بكل خبث: "اي ليش لا. تكرم عيونك ! بالدولار إي بالدولار ". وتركتها تجلس على الدرج تحتوي كيس الخيش في حضنها وأتت لها بأقصوصة من جريدة، وعندما اعترضت النورية ضحكت زمزم وقالت: " يعني شايفة بحياتك الدولار "؟.

رغم أن بيروت تصبح بعيدة كأنها جمرة مشتعلة لا نستطيع الإقتراب منها حتى بأفكارنا وإلا احترقنا، إلا أنه لم يزل صدى القذائف ينفجر في رؤوسنا. ترجلنا من السيارة قرب بستان أخضر وارف، نرتاح من وعورة الدروب ومن انتظار مجيء دورنا لدى الحواجز والتي يبدو أنه طويل والمسافة الى ضيعتنا باتت ساعات طويلة أيضاً. اقترح السائق علي أن نتناول طعام الغذاء، وأخذ يضرم النار ويتناول البطـاطا والبيض ودجاجة من كيس قائلاً:" هيدي توصية الأستاذ علي ".

تتمنع جدتي متمتمة بأننا لسنا جائعات. بينما تصيح زمزم قائلة: " بانها جائعة كذلك السائق.. وبأن الجميع يأكل".

وفعلاً كان قد انتشر في البستان ركاب سيارات كثيرة، فتمدد بعضهم على الحشيش، والبعض الآخر أخذ يلحق بأطفاله. تتسلل رائحة الشواء إلى أنفي،

وأشعر بالجوع فجأة، فأجدني اتمدد أيضاً فوق الحشيش لتطلب مني جدتي عدم التمدد معللة باني لست كسواي.

نهضت أجلس وأضم قدمي وأضـع وجهي على ركبتي، لتعود تنتقدني جـدتي. نهضت أتركها وأسير أراقب السائق الذي لم يزل يلّوح بجريدة حتى تشتعل النار، وقد تجمّع حوله الأولاد ومن بينهم ولد مبتور اليد يركض رغم أن على قميصه بعض نقاط دماء. لابد أني نظرت إليه كثيراً، اذ اقتربت مني امرأة وقالت:ان أولاد الحرام الذي يعمل لديهم قد قطعوا يده! قبل أن استفهمها، استأنفت: " راح على عمله متل العادة لما وضع يده على فردة حذاء حتى حدث انفجار طيرها له". هل من الممكن أن يكون زبالاً وهو لم يتجاوز العاشرة؟." ليش شو بيشتغل؟ " انفرجت أساريرها لأنها وجدت أذناً صاغية واهتماماً وقالت "بروح عالزبالة يفرز كل شي لحالو بكيس يعني أجلّك شي عتيقة عجنب. قناني قزاز عجنب، قناني بلاستيك، علب نيدو أو تنك فاضية، يعني بضل أحسن ما أنه يخاف إذا راح ينبش القبور بالليل حتى يفتش عن أسنان الذهب. متل ما عم يعمل غيره».

خجلت من عدم استدراكي لما تقوله:اسألها ماذا يعمل بما يجمعه؟ نظرت، تتفرسني من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى. وايقنت من تفرسّها بي انها لم تستطع أن تكوّن فكرة عن وضعي المادي من ملابسي: "يلمّها لتجار الزبالة». أجيبها بسرعة كأني لا أريد أن يقع اللوم على أصحاب عمله بأن قطعهم ليده ليست من مصلحتهم.

ولم تبادرني: " ولو ليش؟ وين أنت عايشة ". بل عادت تتفرسني من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، وتهز رأسها تؤكد سذاجتي أو صدق كلامها: " ولو، معروفة، القصة، لما صارت الناس رجال قد الحيطان، ونسوان إلها قيمتها بتفتش بالزبالة، تضايق تجارها.... كأن الزبالة لشوارب اهلهم، على كل.. الله يعوّض.

رجال طويلة وعريضة عم تهر وتموت، يللا بكرة منعمل طلب على "الحريري"، وبيركبو له يد من كاوتشوك" تتحرك قليلا وتطرق إلى الأرض ثم تسألني إلى أين نحن ذاهبون وإذا كان السائق أخي أو ابن عمي، وإذا كانت زمزم أمي، ثم تشير الى الشاحنة الكبيرة وتقول: " شفق علينا جارنا، بدي روح شوف أمي، وركبونا بهالشحن".. لماذا لم أكن أصدق أخبار زمزم وأصدق كلام هذه المرأة؟ هل لأن كلام زمزم تغلب عليه رنة تشف؟ رنة بكاء؟ مبالغة؟ كلما أخبرتنا قصصاً كهذه وجدتني أنا وجدتي نوجه اللوم الى أصحاب القصص أو نشعر باللامبالاة تجاهها، ألم تخبرنا زمزم عن المتفجرات في النفايات التي تبتر الأصابع ونحن نصرف الموضوع بأن هذه ما هي إلا إشاعات حتى يعم الخوف والفوضى معلقتان "حتى ناس مثلك تصير تخاف".

" أم فلان باعت محبسها مشان تعمل فتوش وكبّة، أم فلان اشترت فستان لعرس بنتها من اهل عروس ماتت قبل العرس. ذكيّة سحبت ابنها من المدرسة الذي نصف نصف حتى تقدر تعلم البقية".

فعلاً شعر كل بيت بالغلاء حتى بيتنا. وفكرت جدتي أن جبنة القشقوان لن تطيل حياتنا إذا أكلناها، فتوقفنا عن شرائها. وأخذت زمزم تشوي دجاجة واحدة بدل دجاجتين بينما أخذت تفرغ بيوت الموظفين ومتوسطي الحال من الأوليات. لم تعد الجاره تأتي بركوة القهوة في العصر حتى تكون على مقربة منا تسمع أخبارنا، بل أخذت تأتي بعصيرالتوت الذي أتت به من ضيعتها.

نعود من جديد الي السيارة لنتوقف عند حاجز.كنت قد اعتدت على مختلف الحواجز، وأصبحت أعرف كيفية التعامل معهم. اظهار الجديّة أمام حاجز الميليشيا، لا نظرات توسل و خوف. طولة بال أمام الحاجز السوري، فالجنود يبدو عليهم التعب ووحشة الغربة: في الماضي كنت استفيض عاطفة أمام هذه الحواجز، كأنها كانت تفتح العصاب عن عيني وتريني الحقيقة لا التمويه بأن لبنان قد انقسم

الى دويلات ومناطق. وأن هناك من يعمل الآن على خطط وأن ما حلّ بنا كان نتيجة لم يحسبها المتحاربون من قبل.

نتوقف، علينا أن نرجع عائدين، سنأخذ الطريق " الفوقية" إذ السفلى يشغلها قطاع الطرق.على كل اوامر السيد علي».

"هللا هللا يا دنيا" تتنهد جدتي، أفهم سر تنهيدتها وجملتها، لأن علي أصبح السيد علي. الطريق السفلى كانت هي الأقرب، هي الأسهل، تشبه الأكمة من غزارة أغصان أشجارها من على جانبي الطريق، لذ ك انتشر بها قطاع الطرق، يخفون مآربهم خلف طلبهم للهويات وهم يخفون وجوههم ويرتدون لباس الأحزاب. ليت السائق يجازف ويقصدها، حتى أرى كثافة أشجارها. كما أني أريد أن اتسلى برؤية قطاع الطرق واتسلّى بمراقبة زمزم متسائلة اذا كانت ستخاف على الحجلة منهم.

رغم بعض القرى المتهدمة التي تبدو بحجرها القديم كأنها آثار، أو أن الطبيعة جعلتها على هذه الصورة، أخذت أستأنس لرؤية الغسيل المنشور، ورائحة الدخان المنبعثة من ذلك الوادي حيث تحرق النفايات وأوراق الشجر اليابسة. بل إني استأنست حتى لنهيق الحمار، كل هذا يذكرني بالماضي وبك. حتى الحاجز الذي يدّل على الحاضر والمستقبل يذكرني بك، لا أستطيع إلا أن أفكر باختفائك.

اثناء سنوات الحرب بل في أوائل سنوات الحرب عندما كنا نزور الضيعة من وقت لآخر، كنا ما ان نقترب من الصخور والجبال حتى تتراءى الكروم وبساتين الزنابق كأنها أعواد تحمل حلوى المعلل الأبيض والأصفر . لا يبدو أن الحرب قد مستها، أو أنها سمعت دوي المدافع والصواريخ رغم جدرانها التي تصدعت.

وكان من الصعب التصديق بأن الرصاص الفارغ انتشر فعلاً بعد المعارك بين الحشائش والزنابق وأن المدرسة الابتدائية نهبت طاولاتها وأنه قد استوت شظية قرب الدرج الحجري، وأن شجرة التوت وبعض أشجار التفاح قد احترقت. كانت

تبدو كلها بعيدة حتى عن الدنيا فكيف عن بيروت وعن سوسة الحرب؟ لكن جدتي حزرت قبل الجميع بأن القرية لم تكن فى ذلك البعد إذ يستطيع الإنسان أن يطال أي مكان.

في زمن السلم كنا نترك البحر ونصعد من جبل إلى آخر ثم نغور في السهول حتى نصل الى مشارف القرية، كنت استغرب لماذا هي هناك ولا تبدأ بهذه البورة مثلا، فيهرع الراعي الأعمى الى سيارة جدتي. كان هو أول من يسمع فراملها ويميزها عن السيارات الأخرى الآتية. كانت عصاه تتحسس الحجارة، وما أن يشعر أنها لمست الأسفلت حتى يصيح بقطيعه طالبا منه البقاء. ويكون اثناءها علي قد أوقف السيارة وترجل منها وأتى بالراعي الأعمى حتى الشباك وهو يلجم له عصاه التي كانت تضرب السيارة على غير هدى. وما أن يسمع صوت جدتي حتى يقبل كفه ويضعها على جبهته شاكراً. فتفتح جدتي حقيبة يدها السوداء التي كانت تحدث صوت عالياً حين تقفلها، كأن الحقيبة كانت تعرف بأهمية ما في داخلها. فتتناول جدتي الليرات وتضعها فى يده بعد أن تطويها طيتين.

ولم تستقبلنا بساتين جدي هذه المرة كالماضي بل استقبلتنا لافتة " كوافيرة سميرة". "شو صار في كوافيرة "؟ صحت: " مش معقول "؟ ولم استطع أن اتخيل أيا من نساء القرية تصفف شعرها سوى روحية. ابتسمت لوجه روحية، رأيتها والسيكارة في يدها وفنجان القهوة في حجرها، لأصيح من جديد " معمل شوكولا؟ بنك، معمل للشوكولا؟ بنك؟ مزارع، مأكول العائلات؟ قهوه النبع – ثلاثة طوابق، فلل... معقول هيدي ضيعتنا يا ستي. بنك.. بنك تاني». تجيب زمزم بلهفة " ماانت بتقعدي وبتحطي قطن بأذنيك، اخبرتك قبلا انه صار في الضيعة كوافيرة. ولما كواكب راحت تعمل شعرها قالتلها الكوافورة أول مرة مافيش مي سخنة. وتاني مرة عم لف ورق عنب وثالث مرة نعسانة مش فاضية، واخبرتك ان حمد جعفر عمل مصاري من الكويت. وإجا وفتح معمل وأخوه فتح مطعم وحمدوا ربهم وشكروه !".

سمعت هذه الأخبار من قبل.لكني لم استطع تصورها في ضيعتنا. أن أتخيل الطاولات وعليها أغطية، وخادماً يحمل ورقة وقلماً. بدل أحد المزارعين في الصحراء الصغيرة عندما كنا نذهب لنأكل بطيخاً أصفر لم يزل عجراً وقثاء... كنا نصيح به " نصف كيلو" فيترك معوله ويأتي حاملاً بين يديه القثاء في أقصوصة جريدة، أو ورقة مزّقها من كيس ترابه. حتى الآن لن تسمعا أذناي سوى أزيز الذباب، حتى لو كان الأزيز يصدر عن آلات معمل الشوكولا".

تتنحنح جدتي أكثر فأكثر، انها لا تستطيع أن تحط ببصرها على بساتينها، بينما أجدني لا أبعد نظري عنها. كأن الشجر قد مات كله والأزهار البرية لم تعد بتلك الغزارة. وكأني أرى لون التراب يغلب الألوان الأخرى، ثم يلوح بيتنا. ثم اسمع صوت حاووز الماء. أشعر بأني لم أفارق هذا المكان. كل على حاله. تركض نعيمة. تركض صبية أخرى. يركض جدّي. تتأملنا الصبية ثم تعدو باتجاه معاكس وتختفي. يقبلنا الجميع، بينما يضمني جدي إلى صدره ثم يتركني ليقبل يد جدتي ثم يعود فيضمني من جديد الى صدره وأنا أرى خلف قامته حبل الغسيل يراقصه الهواء، الصنوبرات لم تزل على حالها، وشجرة الإجاص عند الحاووز مباشرة. أفلت من قبضته وأتمطى حتى أرى الخيمة عندالسطح،. حيث كان قريب لجدّي ينام فيها عند القيلولة وينظم أشعاره حتى لقبه الجميع " بأبي تمام".

النوافذ لم تزل بلا دور، كنت دائماً أقارنها بنوافذ بيروت. فأنا لم أرها قط تفتح أو تغلق إلا أثناء المطر والشتاء، ولا أذكر أنها كانت تمطر وأنا في القرية. فكأن المطر من اختصاص بيروت. هذه الشبابيك موجودة وكأنها ليست موجودة. لا يطل منها المرء إذ في منتصفها كان الحديد على شكل هندسي، ولم يكن أحد لينظر من خلالها. عندما يسمع بوق أو دواليب سيارة تدعس الرمل والحصى، كنا نهرع الى الباب المشرع.

يحيطني جدّي بساعديه القويين: " هيك، بتشغلولي بالي، ولو ابعثوا شي

مرسال، ليش ما تركتوا من أول يوم ". وطبعاً، استسنحت زمزم الفرصة لانتقامها. واخبرته بأن نقيقها كالضفدع لم ينفع وبأنه عندما اخترق بيتنا صاروخا اخذنا نضحك ونفكر ان ننقره ونحشوه بالرز.

. حاولت أن أبادل جدّي عاطفته بأن شددت على ساعديه، لكني لم اجد شيئاً أقوله له وأنا لم أره ربما منذ سنتين ونصف. لابد أني لا أزال تحت وقع رحلة العذاب هذه التي لم تزل فوق جسمي بينما أصوات المعارك لا تزال في أذني.

ووجدتني أعي وأهمس لنفسي أطمئنها، ها هو وقع ماء الحاووز. الحشرات كأنها الهليكوبتر تقلع وتغط في مياهه، ها هي الصنوبرتان. وها هو بيت جدّي كما كان.

جدي يسحبني الآن من يدي حول البيت، حيث الأراضي. وكان الغروب قد هبط على بساتينك، أسمع أصواتاً تأتي منها وينخلع قلبي وكأنه قفلٌ يحافظ على جهازي التنفسي. أرى غرفاً من حجارة وتنك توتيا تتوسطها. ضحكات، يدل جدّي عليك " شوفي السم المزروع"، لكن لم أر شيئاً في العتمة سوى غرسات هادئة: " شفتي شو زرعوا. زرعوا السم والقطران" أقول مواسية: يزرعوا قرود وسعادين. بكره مصيرهم بروحوا".

ثم يرتفع صوته بالشتائم وكأن توسلي له لأن يسكت شحن دماءه بمزيد من الوقود. فصاح: " ليش بدي أسكت؟ إن شاء الله مفكريني خيفان. كل ما كان عندي صوت، كل ما أنا بدّي خلّيهم يسمعوا، شو فيهم يعملوا. يخطفوني؟ اللي قبلهم جربوا. وهني جربوا.. ".

وعلى ارتفاع صوته دلفت نعيمة وجدتي، تحاولان سحبه الى الداخل من غير كلام، وعندما أبى أخرجت نعيمة ما كانت تكبته في صدرها.

" كل يوم هيك ! صبح وظهر ومساء وبنصف الليل. كأنه واقع بالنقطة بعيد من هون منيح اللي جيتو حتى تشوفو بأم عينكم شو عم يقضي هالمشحر وقديش عم نقضي نحنا معه".

من جديد تضمنا المصطبة التي لا نرى من خلالها سوى النجوم وسلسلة الجبال العالية. يجلس جدّي بتثاقل، فهو يحملك بين كتفيه وفي قلبه. ثم يلتفت حوله ويسأل عن جهينة، ثم ينادي: يا جهينة. يا جهينة".ليعقب وكأني طفلة: يعدني برفيقة حلوة وذكية ". ثم يصيح: لوين رحت يا جهينة؟ ثم لنفسه:" اختفت مثل الجنيّة بسم الله الرحمن الرحيم !".

يحاولون منع الذي احبك من أن يلامسك. من أن يطأ ترابك، هو الذي يحنو عليك، وأنت تحملينه. يطلقون عليه سيدك، صاحب الأراضي التي أحبها كما أحب أعشاش النسور، والذي قال لامه يوماً ، إنه احبك منذ أن اعتلى ظهر طير حلق به عالياً، وبعيداً ورآك من فوق.

مع ذلك أراد ان يتعلم القراءة والكتابة، رغم أن والده وأفراد عائلته.تجمّعوا حوله يثنونه عن عزمه : " عيلتك عندها كل الدنيا وانت بدك تقعد بين يدي معلم يأمرك، ويعلمك. الألف لا شيء عليها والباء نقطة من تحت. جيب خدم بيقرأوا عنك وبيكتبوا عنك.... ليش حتى تتعذب."

لكنه أصر على أن يتلقى العلم. فالعثمايون والفرنسيون يقرأون الجرائد ويمسكون القلم، يراهم يفعلون هذا وهم يرتاحون بعد حفلات الصيد.

وأخذ يعتلي فرسه قاصداً مدرسة الشيخ في البلدة المجاورة بينما تقف أمه وخالته تقرآن تعويذات السفر والدعاوى الطّيبة، لكن عندما حان الوقت حتى يفارقك ويدخل كليات بيروت لم يستطع، الطيور والعصافير هي أول من ناداه اليك حتى اصبح جدّي صياداً ماهراً كوالده، لكنه لم يعد يعتلي الفرس مثله كأنه ملك على الجميع يأمر الخيالين وكشاشي الحجال والكلاب ان تتبعه. ولم تعد الطلقة الوحيدة هي طلقته. حتى يتحدث اهالي القرية والقرى المجاورة عن عدد الطيور المتدلية من على سراج حصانه كما كانوا يفعلون ايام والده، بل أخذ يشارك هوايته هذه مع رجال القرية وشبابها ومن يحب الصيد من القرى المجاورة. أخذ يحضر حفلات الصيد مع العثمايين والفرنسيين. الى أن اخذ يجد نفسه شيئاً

فشيئاً في قلبك. يستمد انفاسه منك ويزفر انشغاله بك وأخذ يكتشف انك الثابتة. لا الكتاب ولا الدفتر. أنت التي سوف تقفين في وجه المصائب والكوارث وأن الحل سوف يكون على أيديك. اما اهالي القرى فوجدوا أنفسهم ينجذبون اليك. أهميتهم هي في الانتماء الى الذي يملكك. أنت روح ترفضين وتقبلين. يرتعد باطنك أو يبارك ، وأنت قبلت جدّي ومددت جذورا له في أعماقك.

عرفت أن عليك أن تجدي له عروسا. وأوجدتها له ذات يوم عندما ذهب بفرسه إلى أقصاك. كانت جدتي قد بكت قبل أن يوافق والدها على أن تخرج وأمها بصحبته من البيت ملتفة بالسواد من أعلى رأسها الى أخمص قدميها. وكان قد انتظر الغروب حتى لا يراها احد واختار تلك البقعة النائية لديك التي جلست جدتي فيها فوق حجر تناجي السماء وتسألها لماذا والدها هو بتلك القسوة والجبروت. فهي سجينة الدار لا يسمع صوتها احد، ولا حتى الجدران، ولا يراها احد سوى بعض النسوة اللواتي ينقلن لها ولأمها ماذا يحدث في العالم وفي القرى المجاورة. حتى ذاع صيتها كأبنة ملك الجان، لا يراها إلا والدها والسماء.وكانت لا تكف عن سؤاله لماذا لا يسمح لها بالذهاب الى الشيخة، فكان يرد بأنه لا يحب أن يلمحها انس ولا جن، فهي عدا كونها انثى فهي ابنته. وعادت تسأله لماذا إذن لا يأتيها بالشيخة الى البيت حتى تعلمها قراءة القرآن خاصة أن عائلتهم اقترن اسمها بالدين، إذ نشرت أولادها حتى يتعلموا الفقه وأصوله. وحتى لا يقر بأنها غلبته أوهمها انه لا يعلم ان الشيخة تقرأ وتكتب بل ظن أنها جوّدت القرآن غيباً مضيفاً بأن الشيخة لا تغادر منزلها في غير المناسبات الدينية وعندما لم تنفعه اجوبته قال: ربما تستغلي القراءة والكتابة وتتعلمي خبايا القصص وتصبحي قادرة على كتابة الرسائل ".

أجابته: " وهل تجـويد وتفسير القــرآن يعلم ســوى التقرب من الله ورسوله؟".

وتغلبت جدتي عليه لتصبح القراءة والكتابة هي الأهم في حياتها، لا أحاديث النساء التي لم تكن تتعدى نطاق الشجرة التي حملت والبقرة التي اجهضت، وزواج فلان وعلان. واخذت ترفع فتيل قنديل الكاز حتى النمرة الرابعة لتكتشف ان فكها لرموز الكلمات قد مدها بالقوة وجعلها ترفض الأكل على الحصيرة وتضع طعامها على طاولة صغيرة. وعندما رمى والدها بحذائه الضخم المهترىء وضعته في قدميها حتى شعرت بقوة تنبع من الحذاء، في أراضي جدي هبطت بعينيها من السماء وسمرتها على والدها. بكت قائلة انها بحاجة إلى أن ترى السماء وتستنشق الهواء كل يوم لا نادراً. لكنه كان مشغولا عنها. يدور في الأنحاء حتى يتأكد من أن البقعة هادئة. لا صوت فيها الا صوت الوحشة وصوت حصان العربة التي كان قد اوقفها في السهل وعندما ايقن أن لا إنس ولا جن سوف يرى ابنته تتنفس الصعداء. لكن الأنس كان موجودا وكان يراقبها. رأى جدي نصف وجهها يتنهد ويتمتم وأحبها.

امتد اسم جدي الى بيروت بعد أن اصبح اسمه من جبلة لبنان، كالشوارع التي كانت تدعى بأسماء العائلات: حي السراسقة وبيضون. واحيانا على أسماء المهن: حاووز الساعاتية وأسماء الأقليات: سوق الأرمن، حي السريان. وكان اسم عائلة جدي يطلق على صناديق التفاح، الاجاص وعلى نوع فاكهة جديدة. قام جدي بتطعيمها من بذرتي التفاح والغوافا فأتى ملمسها بين نعومه التفاح الحلو السكري وبين خشونه السفرجل ذي المسام وطعمها بين ماء الزهر والعنّاب. كنت اسمع بأسمها يصدح أينما كان خاصة بين الباعة المتجولين.

رغم أن جدتي رحلت عنك. الا انك بقيت متأصلة فيها، لذلك لم تعط هي للمدينة سوى نصفها. عين واحدة. فتحة انف واحدة، ويد واحدة. كل ما يتعلق ببيروت كان مؤقتا. وإذا لم يكن مؤقتا بقي على الهامش.

فجدتي لم تغدق ذوقها على الأثاث كما تغدقه على ملابسها والذي تم شراؤه

صدفة.عندما بقيت هي في السيارة وأوكلت علي لشراء ما يجده في دكان المفروشات. لم تحاول قط ان تندمج والجارات البيروتيات ولاحتى مع بيروت نفسها، بقينا نعيش كما لو بقريك. نأكل في صحون مختلفة، ومعالق نحاسية تكاد تكون صدئه. ناكل قطع اللحم النيئة، الكبيرة كذلك قطع المعلاق والكبد. لانبالي بالماء الذي يعوم في السلطة، ولا بالذباب الذي يحوم حول اللبن ويسقط به.

كنت اتفاعل واعيش في بيروت على طريقتها. رغم انك كنت تلوحين وتظهرين عليّ كلما عدت راجعة الى البيت ورأيت صناديقك الخشبية المتكومة عند مدخل بيتنا. كلما دخلت سيارة علي وجلست قرب كرتونة البيض أو الدجاج المذبوح أو سطل اللبن.

ما ان حدثت الحرب وامتدت الى خارج بيروت حتى تغلغلت هي بك، دخلت حتى ببطنك الذي كان يغلي ويُروى ويضاجع البذر ويثمر.ليضاجع الحرائق.

الفلسطينيون هم أول من احتلوا قسماً منك " الوعر " وجدّي لم يترك احداً له علاقة بالفلسطينيين من قريب أو بعيد دون أن يشكو له همه، حتى أنه ذهب الى المسؤول اياه الذي سبق و زار جدي طالباً منه هذه الأراضي ليتمرنوا فيها لفترة، ورفض وقتها جدي طلبه لا خوفا من إعطاء إسرائيل الحجة لتضرب المنطقة بل لأنه دأب وجدتي على التفكير بأنه إذا انتقلت فراشة أو نحلة من شجرة إلى أخرى فهي ملكهما. أرادا أن يعرف الملأ حتى الأبقار بأنه ابتداء من هذا الحجر تبتدئ مملكتهما. فلا رقبة بقرة تمتد على هذا العشب الأخضر أو اليابس. لم يكن حولك سياج من أسلاك شائكة ولا سور بل كنت سائبة للعين ولكن مسيّجة بالفكر سياجاً متينا يعطي رجفه كهربائية لمن يتعداه قاصداً الشر. ولم يكن الخوف منهما، إنما من كل ما يملكان: من البيت ومن الأشجار ومن السيارة والسائق والبيت في بيروت والضيوف الذين يفدون عليهم. من حجّهما عدة مرات لمكة وللديارالمقدسة والاتيان بمسابح من جبل عرفات وماء من بئر زمزم، ومن الطعام

الذي لا حدود له والذي كأنه كان منبع قوتهما.

وأصبح جدي يقصد " الوعر" يراقب الفدائيين ليلاً نهاراً: وهم يؤدون عملياتهم الوهمية يتدحرجون على التلال الطبيعية، يختبئون ويسددون الطلقات، ويطلقون الصيحات وهم يشوون ثعباناً لعشائهم. كان جدّي يقلدهم فيرقص ويرفع يديه وينزلهما ويخرج حشرة أم أربعة وأربعين من المرطبان ويحاول قضمها أمامهم. كان يسأل الفلسطينيين من بعيد: " شو بدكم... كم ليرة حتى تعطوني قفا ظهركم ". فهو لم يكن يؤمن بالسياسة وبالكفاح الى أن ضاق صبرهم به، إذ كان كلما سمع طلقة أسرع ونادى: " الظاهر في حدا مثقل فاصوليا وعم يضرب رصاصة ريح وراء الثانية ".

قدر ما كانت روح جدّي، كان البشر روح جدتي. لا لم تكن تحبهم بل كانت تشعر بأنها تستمد نبض روحها من الهيمنة عليهم. بفقدانهاالوعر كأنها فقدت جناحين كانا سرّ طيرانه.حاولت ان تحافظ على صورتها وصورة جدي وأجداده في أعينهم بإقناع جدّي بالموافقة على إقراضهم الوعر، بل استمالتهم لهما حتى إذا تربعت في المجالس قالت بلا مبالاة، كأنها تبعد عنها ذبابة: " نحنا تمننا عليهم...وهم ياخذوا الأمر من شواربنا ".

رحل الفلسطينيون عن الوعر، بعد طيارة استكشاف اسرائيلية، حلقت فوق الضيعة ومشارفها وجبالها أكثر من مرة، بناء على نصيحة جاسوس من أهالي ضيعتنا كما قيل وقتها. ذهب جدّي يستفقد الوعر فرحاً، يرمي من أعلاه الحجارة المدهونة بالكلس الأبيض على الصخور والتي كانت قد قسمت المخيم الى اقسام ليفكر مع جدتي إذا كان عليه أن يبني مزارعا في هذا الوعر أم يتركه ليضرم تلال الخشب ويتركها تحت التراب مدة لتصبح فحماً. لكن شباب الضيعة لم يجعلوه في حيرة بين هذين الأمرين أكثر من بضعة أيام، إذ احتلوه ذات فجر، في الوقت الذي تغفو العين مطمئنة إلى أن الليل وما يحمله من سواد في طريقه للانقشاع،

لأن تباشير الصباح والوضوح انما تبعد شعرة واحدة.

وأخذ جدّي يعدو ويصيح ": اغتصبني أولادي.. اغتصبني أولادي ".

ركض وقميصه فوق بنطلونه وجدتي تسرع خلفه تمد له بالحزام صائحة: "الرجل الذي بلا حزام يعني بلا حزم، والذي يركض يوحي بان لا عقل له ولا هيبه " وما ان رأى جدي مصطفى ابن ابو مصطفى وبقية الشباب في الوعر حتى أصيبت عينه بانفجار. ومنذ اللحظة التي استرجع وعيه بعد استيقاظه من البنج صاح. " مصطفى؟ ابن أبو مصطفى؟ الذي لما ولد كانت أمه تعبىء المحصول بالصناديق فادخلوها بيتنا لتولد هذا الأزعر"؟. ولم يسكت جدّي رغم أن الطبيب حذره من انفجار آخر.

ظن جدّي أنه قد انهى الموضوع مع بعض اهالي الشباب الذين وعدوه خيراً وهم في غاية التأثر عما حصل له لكن أولادهم الشباب خططوا لترك " الوعر" واحتلال البساتين، إذ فكر المثاليون فيما بينهم أن البساتين سوف تدر عليهم النقود بدلاً من الالتزام بحزب أو بأشخاص أو بدولة، وان هذه النقود ستمكنهم من انشاء حزب حر يتخلّص من الأحزاب المجاورة كلها. بينما اقسم جدّي والشاش لم يزل يخفي عينه المنفجرة لا على الأقتصاص منهم فحسب، بل منك، من التراب والأشجار التي رضيت ان يكون لها سيد سواه. أقسم أنه سيولع النار بك حتى تطقطقي، لكنه وجد نفسة طفلاً صغيراً، يبكي من ألم عينه في المستشفى ويحتاج إلى من يهديء هيجانه طوال الوقت، لكن جدتي وأشقاءه كانوا يزيدون من آلام الطفل الذي يعود الى الصراخ بعد أن يرفض كل الألعاب. " السن بالسن والعين بالعين يا شفيع المؤمين " تحرض جدتي بجملتها هذه مضيفة بأن عليهم إنشاء ميليشيا " قبضايات زعران أو يللي شو بتسموهم مسلحين، عليهم جقرة عين تخللي الأسد يرقد ويقوم على أجريه وينادي التوبة".

وحينما صاح جدّي مقهوراً من كلامها " ميليشيا يعني، يعني ميليشيا..

بقوصوا وبيتقوصوا. كأنه صاير لك شي؟ انت ست الفهم والحكم والعقل... بتفكري بالميليشيا؟ ".

ردّت عليه بصراخ يفوق صراخه " بدني بهب هّب كأنه حدا علقني بصناير من عيوني، معقول كم أزعر يشيلنامن ترابنا. ومن تراب جدود جدودنا. معقول هالبيت اللي حيطانه صارت كلها طاهرة قد ما استشهدت وصليت وركعت وابتهلت، نترك اللي بلا دين يحاوطونها". فصاح عمي حاضراً " كلهم شيوعية بلا دين وبلا أصل بس يا ام فاطمة ميليشيا، شو نحنا زعران؟" أجابته باستهزاء: " معك حق نحنا مش زعران. بس الواحد لازم يتغير.. إذا حمينا اراضينا بالطريقة الوحيدة وقالوا عنا زعران... يمكن نحنا زعران. وإذا كان شمعون أزعر، أو صائب سلام أزعر.. نعم نحنا زعران". كانت فكرة إنشاء ميليشيا بذرة في قلبها منذ أوائل الحرب، روتها على مهل حتى كبرت وترعرعت وأصبحت حاضرة رهن اشارتها. وقفت كمن يود تثبيت فكرته كإثبات قدميه على الأرض، فسألت: "شو قلتوا؟" كانت توجه عن قصد حديثها الى جدّي فقط، إذ كانت تعرف أن أخاه لن يشجعه على هذه الفكرة فقد كانت ولا تزال تشعر كأنها وجدّي هما العائلة فقط.

رد جدّي: " مين بدو دخللك يمسك بارودة. أبو كركي أو أم كركي حسين أو أبو مصطفى، اللي ابنه متزعم كل شي. أو فضل؟". عندها ضججنا جميعنا بالضحك فجدي قد اختار الأكثر تقدماً بالسن، الأكثر انحناء الأكثر سذاجة او الذين لم يزالوا على ولائهم لعائلتنا، لمجرد ان اولادهم هم في المهجر واما في بيروت.

اختصرت جدتي ضحكتها ومالت تستعيذ بالشيطان لانها ضحكت وأجابت: " لا... شو أنا هالقد عديمة النظر والفكر... لاه...لاه.... يا شيخ... ما حداش سمعني وأنا بقول: ميليشيا يعني قبضايات زعران. يحبوا لون القرش وطعمة القوة.. حراس وقبضايات، أنت بس وافق على كلامي وانا اكفل لك ان الجميع

يصير صراصير بين قدميك".

تكلم عمي هذه المرة بعد أن مهّد بأن الذي سوف يقوله سيقع وقع الصاعقة على السمع، لكن هذه المسألة ذات حل واحد، سيقوله مهما كان:

" لازم تتفقوا مع عائلة اللي ما بتتسمى".

صاح جدي: " أم فاطمة جنت، وأنت جنيت، وأنا مش لح جنّ، نوسخ اسمنا مشان كم أزعر طايش، عم يعصوا على أهلهم لأنهم بدهم يتجوزوا ومش عارفين كيف؟ بينما علقت جدتي من غير أن تنظر إلى أخي جدي: " إن شاء الله لعب الساعاتي بعقلك، ثم تعود الى فكرتها متجاهلة اقتراحه: " بيت فلان عندهم ميليشيا وميليشيا فلان، خلليني عدهم، حتى الأبرص صار عندو ميليشيا، قديش صاروا عشرين "!.

" هلق مين في حواليكم؟ اسمعوا مني.. احكوا عائلة اللي ما تتسمى و هي بتبعتلكم الزعران، وهي تحمي الأرضيات... ومش راح تخسروا قشرة بصلة، بالعكس راح تربحوا.. لما بيحمولكم الأراضي، لح ينبسطوا أنه حطيتوا إيديكم بإيدهم.

«عائلة اللا تُسمى لا أذكر أننا تفوهنا باسمها مرة واحدة، بل لقبا خلف الآخر، عائلة بزر القضامة، عائلة الششامي.. عائلة الزفت والقطران، عائلة اللي ما بتنذكر، عائلة اللي ما بتتسمى».

لم يكن الحقد على هـــذه العائلة لأنها تعمل في تهريب الحشيشة والكوكـا (والتي تعلم أحد ابنائها الهندسة الميكانيكية من أهم جامعات أمريكا وعند عودته بعـــد تخرجه قام بتصميم طائرة خشبية صـغيرة حتى تستخدمها العائلة في التهريب) ، بل لأنها برزت في الحرب وأصبحت ذات أهميه. ورغم أن جدي وجدتي لم يعترفا بوجودها بل تجاهلاها طويلاً.

ولم يكن جدي ينسى كيف أخذت هذه العائلة تتوسع وتصبح من أغنى اغنياء

الضيعة والضيع المجاورة، رغم أن أجدادها لم يعرفوا غير مهنة المكارين، ينقلون على دوابهم الحصى والرمل وكيف ان دهاء بعضهم جعلهم يصبحون من أهم مهربي الدخان. ثم الحشيشة أثناء الحرب. وأصبحت هذه العائلة بين ليلة وضحاها تغدق المـــال على نفسها فتقتني السيارات الكبيرة الأمريكية والفلل الجـــديدة والأثاث الذهبي. منعت نساءها أن يحضرن بعر الجمال والبقر لتكون غذاء للنار بل ألغت الصاج والتنور عن المداخل بعد أن شقت طريقاً من الأسفلت وزرعت أحواض الزهور من على جانبيه.

وبدلا من انتقاد هذه العائلة لأن احد أبنائها تزوج من ممثلة جميلة، تزوجت من قبله مرات عديدة ونشرت صورها في المايوه وهي تقرب من صدرها زجاجة عطر ولسان حالها يقول: " الدفا عفا ولو في عز الحر"، إزداد اعجاب أهالي الضيعة والضيع المجاورة بهذه العائلة، وشعروا بالفخر أنهم ينتمون الى البقاع ذاتها خاصة ان الانبهار ازداد بهذه العائلة لأنها تداخلت بالأحزاب وأتت بمخطوفين. وخطفت أيضاً من وقف في طريقها التجاري. التف حولها القبضايات والحراس، ثم توسعت حتى أصبح لها ميليشيا تحميها، وتحمي طرقاتها وتحمي رجالها الذين إزدادت حركة تهريبهم للمخدرات وأخذت كيفية اتصالهم بالخارج تجلب أجلّ الاحترام. فقد اصبح لديهم اللاسلكي، وخط دولي خاص يمتد فوق غرسات ميال الشمس وعواميد الكهرباء وقرب السواقي، حتى انهم ادخلوا الطرق الحديثة على كيفية تحضير الحشيشة، على كيفية توضيبها وتهيئتها للشحن. أخذ كل شاب سواء من القرية أو من جوارها يطمح ان يكون من دائرتهم، وهو يرى طائرة الهليكوبتر الخاصه تحلق بهم، وهو يرى تسريحاتهم قد صففت على طريقة ألفيس برسلي. الخواتم الذهبية حتى الألماسية في بنصر أصابعهم. أحزمة من جلد التمساح الأصلي حول خصورهم.

لم تطق جدتي أن تراك ساكنة امام المحتلين، كأنك لست مبالية. ارتفعت الحيرة في رأسها وهي ترى نفسها لأول مرة بلا وسيلة بلا حيلة،. عندما تجمّع

المسلحون وجاءوا وانتشروا حتى عند حدودها. اسرعت تزور بيوت القرية واحدا واحدا، بيوتا لم تطأها قدماها الا عند موت احد أو ولادة طفل. غاب عن فكرها، هي التي لم يكن يغب عن بالها حتى لون الجفون أن الأهالي كانوا خائفين من زيارتها خائفين من أن يقوم أولادهم بتسميعها الكلام الذي سمعوه قبلا، وهم يحاولون إقناع أولادهم بترك الأراضي سواء بالصراخ أو بالتهديد، أو بالمسايرة والكلام اللطيف وبالذكريات المشحونة بقصص مروءة عائلتنا من قبل أن يبصر أولادهم النور. كلام مشحون بالماضي لا يتماشى مع اولادهم الذين ما وعوا سوى الحرب وما درسوا سوى أنواع السلاح وما طمحوا الا لارتداء ملابس الميدان. لكن هذا التدخل لم ينتج عن نفور الأولاد واستياؤهم من أهاليهم، فهم لم يستوعبوا حتى الآن سر موقف اهاليهم الطيب إزاء عائلتنا، صاحبة أطنان الأراضي، ليتهمونهم بأنهم لا يزالون يعانون من خوف الماضي وسيطرته.

فهمت جدتي من تأتأة نعيمة التي أرسلتها مرسالا لهم بأن الاهالي يفضلون زيارتها في الصباح. بلعت جدتي ريقها وكأنه محشور بالدبابيس، تتذكر الأيام الماضيةالتي لم تكن تسأل أو تستفهم عن وقت الزيارة، إذ كانت البيوت مشرعة طوال السنة تنتظر إطلالتها. والجدران تكتفي بأن تـسمع بسؤالها عن فلان أو فلانة، لكن جـدتي ابتسمت امام نعيمة وقالت: " لا بأس الصباح رباح، شو أنا لازم زورهم بليلة القدر؟".

وجدتي تجول حولها وتسمع صدى كلماتها، إذ ان الغرف تكاد تكون عارية إلا من الطراريح، والخزانة وعلى الجدران علقت مشكة الإبر وصدور من القش. حزرت هي أن الوجوه لم تعد مضطربة كما بدت في الماضي عندما انتشر خبر احتلال الأراضي رغم أن الوجوه بكت أمامها وانحنت تقبل الكتف، تتنصل تارة من الأولاد وتقسم على الاقتصاص منهم تارة أخرى. تعد ان تفعل ما في وسعها. لكن جدتي حزرت أن تبدلا ما طرأ على هذه البيوت: أنه الشعور بالطمأنينة. كأن الأهالي اصبحوا طوعاً لأولادهم، تلومهم لأنهم تخلوا عن سلطتهم. كانت تجلس

بالفستان الذي لم تلبسه من زمان والذي اصبح يحزّ قليلاً على خصرها. لكنها تحب أطراف كمه المخملي، تغطيه بذلك المعطف الذي باخ لونه ومع ذلك فهي لم تزل تحبه. وكانت قد تعطرت بعطر العنبر ولم تنس أن تعطر مسبحتها. لم تجعل اليأس يتمكن منها، كأنها دهنت عقلها بالكثير من الحجج، المستمدة من التاريخ والحكم حتى من الجرائد اليومية. وكأن عقلها اخذ " يزيزق " من شدة ما قامت بتلميعه لدرجة ان من يستمع اليها كان يجد نفسه يغوص في بحر عميق لا لأن ما كانت تقوله لا يستوعب سوى الذكاء أو انه كان من الصعب فهمه، بل لأن عقولهم وألسنتهم أصبحت في حوزة أولادهم. تقول لهم ان أولادهم هم الذين قاموا بإلغاء الماضي والولاء والخبز والملح. وعندما كانت تشعر من ردة فعلهم ان حقها لم يزل مصوناً بينهم حتى تشدد لومها، لأنهم رضخوا لأولادهم وتنكّروا للماضي. ثم تعود فتطّري الموقف وتهز رأسها متذكرة الماضي ثم لتكتشف أخيراً أن الكلام معهم لم يعد يجدي، انهم يجلسون على نار، أعينهم على الأبواب مخافة دخول أولادهم عليهم بغتة وإحراجها بما سوف يقولونه لها. وأخذت جدتي تتلكأ في النهوض عن قصد. تريد أن تتحدث مع الأولاد فقط. لا مع هذه الوجوه المبهمة، التي كانت تميل من جهة إلى اخرى مكتفية " بالطقمسة " وبترديد" لا حول ولا قوة إلا بالله " وهذه الجمل: " مش قادرين نعمل شي، إلا نحطّ السكين على خوانيقهم ! نحنا مستعدين، فداك وفدا... ". ولم يمدها هذا الكلام بالراحة بل بالحقد عليهم لأنهم ضعفاء. تلكأت بالنهوض وهي تتصدر بيوتهم المتواضعة وهم يلتفون حولها كما في الماضي رغم القلق الذي بدأ يظهر بوضوح على وجوهم، كلما سمعت خطوات، أو صوت. ولم تنهض أخيرا إلا عندما دخل مصطفى الذي لا بد أن الخبر أتاه وهو في البستان، وجاء لا من أجلها، بل من أجل ان يتصالح مع والده ابو مصطفى الذي تنصل منه بأن أقسم يميناً من فوق مئذنة الجامع. لكن وقعْ صوته القوي ذاب قبل ان يحط بآذان اهالي الضيعة وقبل أن يسمعه جدي. كانت جدتي قد

وضعت ما تبقى لها من التفاؤل في زيارتها الأخيرة الى بيت أبو مصطفى الذي رغم بنيته الضئيلة ، كانت عيناه تقدحان قدحاً، كأن شجرك لم يكن يحمل إلا عند لمسه له وترابك لا يروى إلا إذا سقاه. ومع ذلك فالموال الذي كان يصيح به والده امام والد جدي هو الوحيد الذي كان يجعله طريا كالعجينة امام جدي.

"ياسيدي ويا سيدي أنت، الفدان وأنا الذبان. احسبني تحت ذيلك ذبانة وبدي احكيلك عن الـــفلاحين شو عم يعملوا وشــو عم يسووا اللي حاسبين حالهم عليك. وإذا كنت عم كّذب ضلك اضربني.. اضربني."

عرف مصطفى أن في حضرة جدتي فقط يستطيع أن يدخل منطق والده. اذا استمع اليه وهو يحاور جدتي ويسد أمامها كل منافذ دهائها وكلامها الجميل ويتركها وقد أصيبت بالتأتأة أو بالجمود. تحاور معها وهو وا ع كل الوعي بأنه لن يقع في الخطأ نفسه. لن يفتح لها قلبه ويقول لها كما قال لوالده انه تمنى ان يكون فدائيا، واقفا مستعداً في الزي الفدائي، يلقي الأوامر ويمسك سخونة الرصاصة في يده، وأفلام بروس لي تتجسد في بساتينك التي وعى عليها ومع ذلك وبدلا من هذا الطموح كان عليه ان يقضي الحاجات لأمه وأن يبارك بصقتها كلما بصقت على الشباب، وأن يتلقى برحابة صدر دعواتها لهم بالفناء. كلما دلقت طشت ماء الغسيل وقالت: " إن شاء الله بتصيروا مثل زوم هالمي أسود ". قال مصطفى: الآباء لا يفهمون غضب أولادهم، نعم هم كانوا في البساتين وأمهـــاتهم في البـساتين ينكشون ويزرعون يحصــدون ويعبئون الأكياس ". بينما الشمس تلفح الاطفال طوال النهار تحط عليهم الحشرات فيصرخون من لدغ النحل. وكلما امتد نظرهم التقوا بالأفق وعرفوا أن هذه كلها للرجل الأشقر الذي يجلس في التخشيبة.صاحب الضحكة المجلجلة والذي يتمطي الحصان ويلكعه. هل هذه الاراضي تحق له لمجرد ان جده جلب القمح أثناء الحرب العالمية إلى كل القرى كما جلب ألواح الثلج وأخذها بدلاً حين لم يستطع الاهالي تسديد الليرات الذهبية؟

رغم هذه الحجج وهذا التاريخ تاه مصطفى عندما عرف أنه لم يستطع ان

يغلب جدتي في حواره معها فقد كانت أوسع معرفة مما يظن، إذا أدخلت الدين وأقوال الأئمة والأحاديث الشرعية امام والده المؤمن. فجدتي كانت تتمسك بالدين من خلال نبّيه وأئمته والشخصيات النسائية. فاطمة الزهراء وستنا زينب ورغم اعجابها بخديجة بنت خويلد كان الأحب إلى قلبها من الشخصيات الدينية العباس بعد على بن أبي طالب. تتبع قصصهم وأقوالهم وأحاديثهم والأحاديث التي تروى عنهم. تناقش سيرهم وتعطي تفسيراتها العنيدة التي لا تتزحزح شعرة حتى وان حاجت رجال الدين انفسهم. وفي الوقت نفسه كانت تعرف الكثير عن جمال عبد الناصر وتأميمه للأراضي وعن العدو الإسرائيلي. عندما لم يجد مصطفى حيلة إلا أن يدخل تجربته الشخصية قال صائحا:" بعدني بتذكر أبوي وأمي على البيدر بعز طقة الشمس وبتذكر اختي الكبيرة عم تمسك الشجرة وتهزّها. تحط الثمر بعبها وبفستانها ".

شهقت جدتي مستنكرة برياء، وهي تنهض وتلملم معطفها وتمسك بمظلتها وتمشي:؟ شو هالظلم اللي ظلمناكم اياه، أمك وأبوك اشتغلوا بالفلاحة وبالبساتين نزلناهم عن العرش، بعد ما كانوا ملك وملكة وأخذنا ذهبهم واجبرناهم عالشغل. إي شو بعد بتتذكر؟ شفت خليناك تتذكر مش احسن ما كنت طلعت تلطميس مش فايق على شي".

وكانت تلك الزيارة الأخيرة التي قفلت بعدها جدتي وزمزم عائدتين. المظلة الزرقاء في يد جدتي تحنيها حتى تكاد تلاصق وجهها خوفاً من أن تذيب الشمس بشرتها الناصعة كالثلج. تنهدت حتى تفتح الموضوع. أرادت أن تسمع رأي زمزم لأول مرة في حياتها رغم معرفتها بأنها سوف تختار منه كلمة أو كلمتين. جملة على الأكثر. ولم تنتبه زمزم الى اختيار كلماتها كعادتها لكنها إكتفت بالتنهد هي الأخرى قائلة:" لهيب وطالع " عندما حشرتها جدتي علقت زمزم بلا اهتمام:" الشغل بالأرض مثل الوظيفة أولادهم صار عندهم وظايف وصار عندهم قيمة ومش

هيك بس صاروا يجيبو مصاري عالبيت". وبيصرفوا على حالهم. لو حطيت بجيبتهم خمس قروش كانوا فهموا شو كنت عم تقولي".ردت جدتي وهي شبه منهارة كأنها صبية اكتشفت أن حبيبها تزوج من أخرى في ليلة زواجهما: " مظبوط المصاري بتحكي والكلاشنكوف بجيب القوة والقوة بتجيب المصاري".

كانت في ضيق كبير لأنك لم تعودي أراضيها، لم تعودي بحاجة اليها. وأخذت جدتي وهي تسير تجد نفسها تتضاءل بين شساعة مسافاتك، تحت إمتداد الشمس الوحيدة بلا ظل. لابد أن الأعين كانت تراقبها من النوافذ والمصاطب. كان عليها ان تفكر بطريقة تجعلها تتمطى طولاً بدلا من أن تتضاءل. ماذا حل بالصندوق الخشبي الذي كان قرب سرير والدها في غرفته. تمنت لو أن الذهب لم يزل في ذلك الصندوق الخشبي والذي كان المخمل يحيط بجوانبه الخضراء والبنفسجية. جنيهات إنكليزية وإطارات عثمانية وجنيهات مصرية من الذهب الملتمع وذهب يرن. رأتها هي في الصندوق وهي صغيرة. أين هي، كيف تلاشت؟ لا تعرف. لو فكرت من قبل بها وهي صغيرة لربما وصلت الى جواب، لو أن ريع هذه البساتين تحول إلى اموال الى حسابات في البنوك بدلا من شراء الأراضي، لو أنها اشترت الأثاث الوثير وأتت بسائق آخر عندما تركها علي. لو... لو....

ولم يفكر جدي وجدتي بأنك ستعودين إليهما الا عندما اصبح الإسرائيليون فعلا في لبنان. كم تمنيا معا لو يصل الإسرائيليون الى القرية ! فهما لاحقا عمليات الإسرائيليين عبر الراديو، وفي الأيام الأولى طلب جدي من ابن نعيمة أن يذهب الى «العائلة اللي ما بتنذكر» حتى يأتي له بالأخبار التي كانت تأتي العائلة عبر اللاسلكي، بينما اعتمدت جدتي وكانت في بيروت على إخبار إذاعة مونت كارلو. كلما استنتج جدّي من الأخبار ان إسرائيل تتقدم إزداد وجهه احمراراً واستدارة. كلما سمع ان اميركا والدول العالمية تنذر إسرائيل وتحاول ايقافها هاج شعر حاجبيه في كل الإتجاهات. وكانت جدتي في بيروت تقلب مخدتها كل مساء

وكل صباح، محدثة جدّي: " ان شاء الله اللي بفكري يوصلك". وكانت زمزم تسمعها وتضحك في سرها وهي تخبرني ان جدتي شاخت وما تابت" وأنها لم تزل متعلقة بجدي كرجل.

وكانت الأخبار والشائعات بدأت تتناقل بأن الإسرائيليين سوف يصلون الى مشارف القرى بسلاحهم الجوي. ذات صباح باكر حلقت طائرات هليكوبتر في الجو مما جعل المسلحون الذين يحتلون أراضي جدي يفرون كالدجاج المذعور من هجمات الثعالب وتفرقوا في كل مكان. وقد فرح جدي وهلل وركض الى بساتينك يقبل وجهك ويرفع نظره الى السماء ولم نعرف إذا كان يبتهل الله ام لاسرائيل، وحينما مضى يومان وبقي الصمت في فضاء هذه البلاد ، خاف جدي من عودة المحتلين، تمنى وقتها لو أن عنده ميليشيا. وفكر للحظات بأن يلجأ الى تلك العائلة ولكن صرف النظر عنها. وفكر في طرق أخرى. لكن الأيام المقبلة جعلت قلبه يخفق بالاطمئنان، اذ حطت طائرة هليكوبتر عليهانجمة داوود ونزل منها رجال بملابس عادية يسألون عن مصطفى ورفاقه الذين كانوا قد فروا من الضيعه والجوار حيث الطبيعة الجغرافية ساعدتهم في الهروب في طرق معقدة، متشابكة بين الجداول والحقول التي تلصق القرى ببعضها. ورغم الخوف والحذر تجمع الصغار والمراهقون حولهم بفضول ولحقوا بالجنود الذين لم يكونوا في ملابسهم العسكرية. كانوا يتحدثون العربية بطلاقة انما بلكنة. عندما توجهوا و دخلوا إلى بيت مصطفى من غير سابق معرفة، يبحثون عن السلاح، تأهلت بهم عمة مصطفى التي فقدت معظم سمعها أفضل تأهيل.: "يا أهلا وسهلا شرفتو وأنستو اهلا بالشباب الحلوين. اهلا بأصحاب مصطفى. شو بضيفكم" ؟ ثم نادت اخت مصطفى امينة التي كانت تكز على أسنانها قائلة:" ليش واقفة مثل الصنم، ضيفي الشباب. ياأهلا، وسهلا. جلول، شي بارد، أو بركي بعدهم بلا غذاء... حطيلهم صحن مجدرة ". عندها عيل صبر اخت مصطفى وصاحت بالعمة:" انت استريحي

". اقترب احـدهـم من العمة وخبط على كتفهـا قائلاً:" انت آدميـة، أنت كويسة. وين مصطفى؟ ". ولم تسمعه بل سألته:" شو مش جوعان؟ طيب ليش واقفين والله استريحوا". لم تتوقف عن الكلام والاعتذار منهم لعدم وجود مصطفى:" لاحق الزعران والبارودة مش متلكم لابس مرتب، نظيف، محلس، مملس ". ثم ودعتهم وهي تشير بيدها ملوحة ولم تنزلها إلا عندما خبطتها عليها اخت مصطفى صائحة في أذنها: " بدو لسانك قص. هول الإسرائيلية وانت عم تتأهلي فيهم؟ " صرخت العمة وضربت وجهها:" الله يبعتلي السم والسخنة " ثم ركضت الى السطيحة تتناول شحاطتها مهدده بيد، لاطمة خدها بيد:" الله علي الله على هبلي. هول الاسرائيليين وأنا بدي طعميهم ". بينما رأى الجنود في الهليكوبتر المرأة الطيبة تشير اليهما فبادلوها التحية. ولم ينتبهوا الى شحاطة قدمها التي رفعتها بيدها.

ما جرى في بيت اهل مصطفى مدّ الشعور بالتفاؤل بين نساء البيت والضيعة لربما أحب الجنود. عمة مصطفى وعفت اسرائيل عنه بينما جعلت هذه الهليكوبتر جدي يفكر بأن صفحة سوداء قد اقتلعت من جذورها وبأن الحياه معك ستعود كما كانت في بساتينه.سرعان ما تبدلت مشاغله وهمومه. هل يعيد والد مصطفى وأهالي الشباب الى سابق وظائفهم ام انه يستبدلهم بعمال من الباكستان ومن السودان الذين بدأوا يتناثرون في القرى، يدقون الأبواب طلباً للعمل. لكن اسرائيل اصبحت همه الجديد فهي تغرق الأسواق اللبنانية بالخضار بأسعارها الرخيصه لإغراء التجار اللبنانيين. عندها أخذ جدي يصف اسرائيل بالثعبان. بينما أخذت جدتي تتوجه الى خالقها بعد كل صلاة تبتهل لخراب بيوت اسرائيل وحقولها. ثم حولت ادعيتها بعد مدة لخراب بيوت الغرباء والأقوياء الذين عادوا واحتلوا البساتين وأعينهم لم ترمش مرة واحدة وهم يشوهون معالمك ويحولون باطنك وسطحك إلى روح أخرى. كأني اسمع الآن أصواتا، قتالاً يدور انما بصخب غريب حتى أنه يغطي على الماء المنساب من حنفية الحاووز. أنهض وإذا الضوضاء هي

ضوضاء الريح فوق تربتك. احاول قفل النافذة جيداً وأفلح في رد الصخب، لكن اجد نفسي مستيقظة اكتب رسالتي هذه كلمة كلمة. أراعي حتى النقطة والفاصلة وأفتح القوسين وأقوم بقفلهما وأنتبه الى اني لم أعد استعمل علامة الاستفهام أو التعجب. ذبابة تطن في أعلى السقف المنخفض رغم الظلام تجعلني اصاب بالأرق. ولم أكن نائمة عندما أيقظني صوت جدي وهو ينادي: « جحشك لا يمللي جحشي وجلالك لا يمللي جلالي ". كأن أوردة أغصانك وذرات ترابك لم تزل معبأة بصوته وما عليها الا أن تعيد الصدى. لكن اصواتا تنادي: " خللينا ننام الليلة وخللي اهل بيتك يناموا "، جعلتني أعي بأني قد صحوت للتو.

أسمع من جديد وقع خطوات على المصطبة. نباح أو بكاء أو موال أو ضحك. انه جدي من جديد. عندما لم اسمع شيئا من الطرف الثاني عدت افتل الى الجهة الأخرى من السرير متجاهلة ما سمعته قبلا وأعود الى التفكير بك وبأمي وبهذه الدنيا العجيبة. إلى أن عدت اثب من جراء حركة صاخبة. شيء زجاجي يتكسر على المصطبة وصراخ جدي من بعيد: " وين بدي ودي وجهي من اهلي، من عضام ابوي ومن أمي والأرض مزروعة افيون وسم وشحار".

ركضت الى المصطبة. كانت قنينة الزيت الفارغة التي كسرها جدي على حائط المصطبة لم تزل في يده. اخذتها منه برفق وأبعدت قدميه الحافيتين عن تناثرها. سألني ببساطة: كنت نايمة يا جدّو؟ من وقت هالأولاد، صاروا بنصف دين عيني بطلت فيني نام مثل الخلق». أفهم الآن لماذا يتجاهله المحتلون، فهو لا حول ولا قوة له. لقد حاولوا خطفه في اليوم الأول لاحتلالهم الأراضي وكان يمتطي حصانه ويحمل بندقيته. انصاع الى الخاطفين بعد أن ترجل عن حصانه حسب ما قيل له، ومشى معصوب العينين وسار مع الملثمين ثم افلت من بين ايديهم وهو يركض راميا بنفسه من على الصخور. ويبدو انه حتى في أعمال العنف هناك قوانين متفق عليها، فإذا عرف المخطوف هوية الخاطف واستطاع الهرب فهو لن

يخطف مرة أخرى. وجدّي كشف عن هوية خاطفيه وناداهم باسمائهم فاخذتهم الدهشة.

" مات والمساس بيده والبقر بتبكي علي...

أقول: بس يا جدّي مصطفى بطّل معهم..؟

يجيبني: " كان أو ما كان، هو السبب".

أضحك ويضحك هو على ضحكي. أوهم نفسي بأنه يضحك سعيداً لكنه يعود يناديني: مش ستكم أم امكم حسبت سيارة ابوي منزلة من السماء وحطت إيدها متل مالواحد بحط ايدو عالكعبة الشريفة لتتبارك منها. وبعدين حطتها على تمها تبوسها. ومش ستكم أم أمكم فكرت انو المصور بيقدر يصورها من دون ما يشوفها عم تحكولي هلق بالتوكا ووكا وبتركبولي سيارات؟

اسمع من جديد وقع خطوات على المصطبة، حيث نافذة غرفتي وبابها. اسمع قهقهات بعيدة ولا أفكر بالنهوض بل أفكر لماذا البلاط الغامق الاحمرار يوحي بالدفء وبالبرودة في آن؟ وأفكر بأنه رغم الطريق والساعات الطويلة التي قضيناها في الوصول الى القرية فوجودي الآن بها كأنه من فعل السحرة.

أفتح عيني فأعود اغمضهما، متلذذة بالجو الطري الجاف، بالأصوات التي تذكر بالحياة الطبيعية والتي تختلط بصوت وقع رسائلي التي ظننت أنها تنام معي ما ان أغلق عينيّ. لكنها مستيقظة مثلي... اسمع صوتا جديداً يضحك. ثم صوت زمزم، ثم الصوت الجديد يرتفع عاليا. ومن رنة صوت زمزم المرتبك أعرف أن هذا الصوت يطغى عليه. تحاول زمزم لكن الصوت الجديد يعلو مقهقها. أجدني انصت جيداً لهذا الصوت الشاب ثم لصوت جدي لكن الصوت الجديد يعلو عليه. يمازح ويتحدى ويناديني: " بانه لن يلمس شيئا اذ روحية بانتظار اسمهان ناطرتنا من دغشة الصبح ". عندها هببت جالسة. لا شك ان الخرف سيمتلكني يوماً ما. لقد نسيت روحية ما ان ابتعدت لافتات الكوافيرة والمقاهي ومزارع الفراريج عن ذهني.

وجدتني من جديد اشعر بأني اترقب لمعرفة هذا الصوت الذي كان يعلو كل الأصـــوات، خاصة على مناداة جـــدي لمحتلي الأرض: انه ينادي الله قبل ان يضربهم بكلماته القاسية أو يضرب نفسه. يقول أن هذا اليوم هو المثالي للتشذيب، يشتم الزعران والشباب والحقودين. يشتم الشحاذين والقوادين. يصيح بأن نساءهم عاهرات وهم قوادون لأمهاتهم وبناتهم وزوجاتهم.الصوت الجديد يحاول اسكات جدّي بدلا من ان يرتجف كما ارتجف الآن. لكن صوت جدي الذي هو كإبرة غرامافون صدئة تدور فوق الاسطوانة. لم يستطع الصوت الجديد اسكاته بسهولة فبقي صداه المتحشرج يطن في الأذن وفي الصدر وفي انحاء المصطبة. أرتدي ملابسي بسرعة حتى الحق بالتهدج الذي يحدث في الخارج وبالأصوات التي كانت تعكر صفو نطقها كأنها عثرات كبيرة من حجارة واختناق. هل يبكي جدي "لا" انه يضحك، جدي يضحك ويغني موالا. الصوت الجهوري الأنثوي يسكته. خرجت وكلي شعور بأن النهار يكاد يولي. وبأنه قد سبقني اليه الجميع. دخلوا بدقائقه وتفاصيله حتى لم يعد لي أي مكان. تهجم عليّ صاحبة الصوت بعد أن رمت الملاقط من يدها في طشت الغسيل. ولم تبال بانتقاد زمزم، بل هجمت علي تقبلني وتشدني اليها قائلة: " الحمد الله عالسلامة، الحمد الله عالسلامة ". هي الصبية التي ما أن وصلنا البارحة حتى حدقت بنا من بعيد وترددت بالاقتراب ثم اختفت. الابتسامة لم تفارق وجهها الجميل الذي يحمل عينين زرقاوين تكادان تثقبان وجهي لأرى بعد قليل لونهما الأزرق على كل شيء. قالت وهي لم تفهم سبب برودي، تعرفني بانها جهينة وبأني اعطيتها بكلة شعري وهي صغيرة، اتذكرها حمراء العينين من الرمد. فتجيبني بأنها لا تزالان تصابان بالأحمرار في موسم التين.

ضحكت لها رغم ضيقي لأني أكبرها سناً: " جبت بوكيه الورد بأودتك؟ حطيتها غصب عن نعيمة وعن الكل ".

تدخلت نعيمة: " حاج تكثري حكي بركي اسمهان بدها تتروق".

لكن جهينة صاحت آمرة: " ليش بتناديها اسمهان؟ اسمها اسمى.. اسمهان دقة قديمة.. لا بدهاش تأكل، روحية ناطرتها مناطرة". ثم استدارت الى وهي تحاول ان يكون صوتها مسايراً: " شو بتروحي لعند روحية، ولما عرفت انك جيت والله زلغطت والله. بتموت على ريحتك والله". عاد جدي وكان في المساحة القليلة قبالة المصطبة وقال وهو يضرب كفيه ببعضهما محاولا نفض التراب. اليوم أعظم يوم لا سقعة ولا حرّ والدنيا مندية اليوم كانت بتلون التفاح. آخ من هالدحنونات لح يجرحولي قلبي والست جهينة جرحتلي قلبي وخلصت ".

كان صوت جهينة مازال يعلو وكأنه يستفزني قليلاً. لكن نظري أبعد افكاري هذه وحطها على ما يرى من غرسات خشخاش تميل مع النسيم الخفيف تبرق ببياضها وبلونها القرمزي تحت الشمس، وكان امتدادها دلق الألوان الغامقة على لونيك الأصفر والأخضر. كأني اقف لأول مرة عند مأساة جدي وجدتي ومأساتي ومأساتك. كأن كبدي فرط لأول مرة وأنا أفكر أن هذه الأرزاق لم تعد لأحد منا. لم يعد هناك ضوضاء ولا صيحات المزارعين تؤنسك كما من قبل. لا شاحنة ولا جراف. وبيتنا الذي يقف مواجهتها الآن كأنه بيت من حجر فقط، لا تدب به روح ساكنيه. ابتعدت أفكاري عن نظري واستوت عند البيوت البعيدة كيف اعتاد الجميع على هذا الواقع؟ ولماذا لم يخدش هذا الواقع شيئا الا عندما خدش عيني؟ . وأنا أرى السيارات التي شقت طريقا لها بين بساتينك. تصدر عنها ضحكات وأصوات وأغنية تصدح: " خش معايا خش. نلعب تحت الدوش ".

" لو حرقوها كان احسن... الخشخاش مثل السم يمصّ موّية التراب. بيسرق الفيتامينات والحيوية ".

جدي خائف عليك. على عافيتك وقلبك. يشبهك الآن بالجلد الذي يبدله الثعبان ويتقدد تحت الشمس برمشة عين. بينما اتساءل لماذا استفزني صوت جهينة. لابد أن جدي علق في حبال شعرها.. ينادي صوت جدي المقهور:." آخ لو اجاني كم

صبي لكنت فلتهم عليهم مثل الكلاب، حتى ينهشوا لحمهم نهش. أي والله». "

قلت مازحة:" شفت الحق عليك ما كنتش تتزوج على ستي ".

تدخلت جهينة: " بس صار عندك اخوه من أمك وجوزها هيك قلتلي نعيمة ".

– صار عندي ثلاث أخوه

– صحيح إنه أمك سرقت حذاء عفاف بنت احمد لما نامت عفاف عندكم ببيروت؟ يجيبها جدي بضحكة: ليش حتى ما تسرقها؟ كانت سكربينة حمراء ويتلمع...

تتجه جهينة صوبنا تشدّني منه قائلة:" يللا خلليها تلبس، روحية ناطرتنا " فما كان من جدي الا ان احاطها بيده الأخرى وقرب وجهينا كالمرة السابقة وتوسل:

" خذوني معكم عند روحية " ثم سألني بجدية: بشرفك بعد جمالك وجمال امك شايفة مثل جمال جهينة؟".

قلت ادير وجهي عن وجهه:" أوف يا جدي فطستني ". بينما صاحت جهينة قائلة:" اتركني جاي عبالك شي عضة؟ " فوجئت بكلمتها هذه وفوجئت ايضا باحساسي بأنهما من عمر واحد. عجوزان أم شابان؟ دخلت غرفتي أبدل ملابسي وقد عمني الفرح لأني في الضيعة ولست في بيروت، وشعرت بشوق يطفح مني فجأة لأني سوف أرى روحية بعد قليل. أخرج الى الفسحة ما بين الغرف حيث المرآه أتأمل وجهي في المرآة الوسطية القديمة التي تغطيها طبقة من الغبار. كأن هذه المرآة انسحبت عن دورها. لم يعد يرى المرء وجهه فيها. عندما مسحتها بقيت دوائر رمادية كأنها طيور صغيرة هنا وهناك. عبرها رأيت طرفك ساكنا كما لو كنت مازلت بين أيادينا".

عزيزتي بيلي هوليدي

أفكر بك ما ان اعتدت على السير، ولم اعد اسمع لهاثي وأنا أحاول اللحاق بجهينة.

ربما لم أمش منــذ دهر. أراقب قـدمي. وقع قـدمي على الأرض وعلى التراب، لم أمش مسافة كهذه منذ دهر.

الحرب حرمتنا السير مطوطحي الأيدي، بدلاً من أن نضمها الى صدرونا. نفكر إذا كنا ما نرتديه لائقاً في أعين المارة والمسلحين، والحواجز الفعلية الموجودة والحواجز التي هي في الفكر والتي هي أشد هيمنة.

أسير بارتياح وسعادة. لا شيء يمسني الآن. لا محتلو أراضينا ولا لوعة جدي. يطل وجهك باسماً، وأفكرّ كيف أنك لم تعودي تقوين على السير في آخر أيامك. كان المخدر الذي كنت تعيشين من أجله. ينشط الفكر ويأخذه في رحلات سباحة وطيران، بينما كان يهمل الجسم وخاصة القدمين. لم أعد أمشي في بيروت لا لأن الأرصفة أصبحت شبه معدومة، لا لأن الطريق أصبحت حفرات ونفايات، بل لأن الطريق يجب أن تنتقل بك من مكان إلى آخر، من جو إلى آخر، من إنسان الى أخر. هذه كلها اصبحت معدومه باستثناء أماكن تعد على الأصابع. السير أو عدمه،، لا يذكرني بك الآن. بل توجهي الى روحية وما أراه امامي وخلفي ومن على يميني ويساري: الحشيشة الخضراء وقد انتشر شذى رائحتها. أفكر لو اعتدت انت على الحشيشة لكنت ممتطية الحصان. لكنت ما زلت حية، لكن حصان المخدرات ركبك ولم تعودي تفهمين الى أين كان يقفز بك.

الحشيشة، وزهرات الخشخاش هي الممتدة أمام ناظري، متروكة للشمس في

السهول وحتى من على جانبي الطريق. تتمايل الغرسات الخضراء والقرمزية والبيضاء وكأنها شجيرات اللوبياء والبندورة. بقربها نربيش الماء الذي يمتد بين التراب والحشائش اليابسة وكأنه أفعى، إبريق فخار مطروحا الى جانب علبة من الصفيح... كلاب تعوي، كلب يعوي ، كلب آخر. تبادرها جهينة: " هيدا بعد اللي ناقصنا... كلاب نجسة تعوي علينا وصارت حراسنا.. تنحني تتناول حجراً ترشق بها الكلاب وهي تشتمها.

رأينا بقرات ناعسة، نستأنس لمنظرها ولوداعتها وتعلق جهينة بأن هذه البقرات تستذوق طعم الحشيشة.

تنحنى جهينة من جديد تتناول حجراً وترميه. تكتفي البقرات بالتحديق بالأفق لتميل رأسها من جهة إلى أخرى." مش معقول تقوم إلا بجهد جهيد ". وكانت رائحة الحشيشة أخذت تنفذ إليّ. ضحكت جهينة:" هيك اخوي الصغير كتب في موضوع الإنشاء عن الربيع – قال أنو ريحة الحشيشة عطرة، وانها بساط سندسي أخضر جميل ".

الحشيشة اصبحت اينما كان في الضيعة. تشير جهينة الى منزل العجوز التي ماتت من غير ان تدري ان الحشيشة اصبحت مزروعة بارضها حتى الدرج. «ما هي الحشيشة اسم الله عليها مثل حبوب الفول... وين ما بترميها بتجي واقفة. أختي زرعت بذرة طلعت بيوم .الحشيشة مثل الطابه، طجيها وبتجي واقفه، يقصف عمرها. يمكن تتحمل حتى الساحل !".

يتجه نظري الى الأفق، والهضاب الوعرة تمتد عند ناظري. تكاد تكون جرداء، كذلك بعض الأراضي. ثم اتبين درباً ضيقاً في جبل، كان جدي يشير اليها مؤكدا أنها ستصبح سكة ترام وكنت أصدقه. أرى بعض غرف الفلاحين. دائما بيضاء. مكلسة الجدران. إلى جانبها عريشة العنب تلصق بالنافذة. عند مدخل أحد البيوت سيارة أمريكية، ثم غرسة حشيشة باسقة كأنها شجرة. امرأة تقف بالقرب من زوجها تسألني عن أمي وعن بيروت وإذا كان الناس هناك بلا كهرباء.

عندما سحبت يدها من يدي ووضعتها على صدرها كانت اصابعها سوداء، وجافة. كانت ام كامل التي اصبحت الحشيشة هاجسها ومع ذلك فهي دائمة التحسر على الماضي:« ياريت من زمان استهدينا على الحشيشة، شو كنا مجانين عم نزرع كوسى وباذنجان". ابتسم لجهينة وأنا أفكر ترى كيف اكتسبت هي ثقة النفس هذه. وهي تتصرف إزائي كأني لا أكبرها بسنوات. وكأني لست اسمى ابنة... وكأني لست متعلمة، وكأن ملابسي لا تشكل لها أي اعجاب. كأن ثقتها بنفسها هذه زعزعت ثقتي. لابد أني أبدو أمامها كبيرة السن، فاتني قطار الحياة وبأن عائلتي فاتها أيضا كل القطارات.

قلت وأنا استوحي صفة جدتي، أي أنتقم لنفسي بمجرد أن اتفلسف على سواي فاقول:" الجفاف والطقس هو الذي ينعش الحشيشة والخشخاش"، " كأنه بعشعش بعروقها سبحان الله "...

أسكتني جوابها وجعلني أحيـــد عن الطريق لأنحني وأقطف خشــخاشة بيضاء. وقد فاجأتني كثرة الفراشات والنحل عليها.. ولدهشتي هجمت جهينة تقطف المزيد قائلة:" ولو بتقطفي واحدة ! شو بدها تعملك واحدة! بس انتبهي من جدك والله إذا شافها بيأكلك بلا ملح".

كأن الأفق أصبح قرى أخرى. والدروب تبدلت. أرى بقعاً سوداء على الأرض وعلى الحجارة. لاحظت جهينة أين تسمر بؤبؤ عيني إذ قالت "أثر من الفدائيين ". عندما سألتها عن الأحزاب الأخرى أجابت ضاحكة:" بيروحوا ياكلوا بالبيوت أو أهلهم بيجيبوا لهم أكل ".

عندما أصبحنا بين السهول، متجهتين الى الحارات الفوقية، أخذت الألوان تنادي. رغم خطوات جهينة العجلة وجدتني اتباطأ، أستأنس بما أراه، حتى لمنظر الدبابة السورية وفوقها جنودها الذين كانوا مستسلمين للنعاس. أتساءل كيف تمنيت البارحة لو أعود الى بيروت بدلا من أن أكون ممتنة لأني بعيدة عن حزبي الله وأمل ولأني استحم بالماء الذي يأتي ساخناً من الشمس التي تضرب قسطل

الماء، ولأني استنشق الفضاء.

ما ان وجدت نفسي بين ذراعي روحية، حتى عاد وجهك - بيلي هوليدي يبتسم لي. فأنا منذ أن أدمنت عليك اكتشفت انك تذكرينني بروحية. لا بالوجه والأسنان، ولا بالعينين ونظرتهما الموجهة اللوم دائما، بل بشخصيتكما، وصوت كلتيكما كأنكما خلقتا من بطن التراب، أنت من تربة فيها جذور نبات القطن والشوك، وهي من تربة فيها الحجارة والدبش والرمل الأحمر. وتكونتما، أنت من الرطوبة والشمس وهي من الجفاف والشمس. نبتما من كثرة ما سمعت تربتكما من تهدج وحزن، من كثرة توقكما للمطر، للماء، لسطح الأرض وإذا انتما تكتشفان حقيقة السطح. عشقتما الرجال من زمان. وأنت تسمعين لهاث المغنيات يدور ومرة وثانية في إبرة الأسطوانة السوداء التي تصعد وتهبط وكأنها تدور كالكرة الأرضية. كأنها تسبح في البحر المستدير... وهي من أصوات المآذن والألحان والمراثي.

لم تستعينا بالقلم، تكتبان فكريكما في فكريكما. التعامل مع سطح الأرض وكل ما فيها يناقض حساسيتكما، تصدحان بصوتكما، هي بعينين دامعتين وأنف أحمر، وحاجبين سميكين غير مزججين، ورقبة تنتفخ بالشرايين تميل وتطرق بالرأس على الأرض فيتساقط الشعر الأملس على وجهها كأنه شعرعنزة. أنت تغنين بعينين كبيرتين رغم الحزن الذي ينعكس في بياضهما إلا أنهما عينان قادحتان. شفتاك هما اللتان كانتا كبيرتين ضخمتين بحجم الكلمة، وبحجم وقعها، تلوين فمك كما تريدين فتبدو أسنانك وكأنها حقن تطبق على الجروح حتى تخدرها.

معاً تغنيان مالا يغنيه أي مغن، تغنيان الواقع الذي تعيشانه، لا كما تتخيلانه، تتحدثان ببحة صوتكما عن الخير والشر والخطأ والصواب.

صوتك، صوتها لا يأتي من جذور الأرض. بل من جذور الروح - يكونه انفاسك قهرك وشعور لا تعرفين ما هو، شعور يتأرجح حزناً من كثرة ترقبك. ومن

السعادة التي تفقدينها أو تخافين اختفاءها، يأتي أحيانا صوتك من بيته الذي في الحنجرة، بعد أن ينام كل جزء فيك وهو نصف نائم... وصوت روحية؟ لن أكرر نفسي انه صوتك.

قبل أن تفتح لنا روحية بابها الخشبي، الذي شققه الزمن، زغردت. وعندما فتحت الباب قبلتني وزغردت من جديد. أمسكت وجهي، نادتني بحبيبة القلب. بنور العيون. بغزالة الجفون، وجدتني أخجل من هذه العاطفة الصادقة المتدفقة عليّ. أجبر نفسي حتى أنظر اليها متحدية خجلي. ورأيت العينين الذكيتين الذابلتين، كأن صفحة مياه تغلفهما، والسمرة الداكنة والشفاه الغليظة والأسنان تبدلت !! تستدير إلى جهينة:" شو قلتلك عن اسمى؟ مش قلتلك الدنيا بكفة واسمى بكفة والله سلالة سلالتها لم تخلق ولن تخلق مثلها...الناس بتحكي بعائلتها وانا بحكي فيها. يا اسمى العيون... شو هالغيبة الطويلة؟

وكأن استقبالها الحار لي جعلها تطلب سيكارة. تخرج من عبها تنكة صغيرة فيها الأوراق الشفافة والتبغ، تلف سيكارة وتشعلها، تنفثها ثم تزفر الدخان قائلة: "خي، مافيش إلا طعمة السيكارة. الله أخذ لي كل شي وترك السيكارة. بدك لفّ واحدة؟".

أجيب ضاحكة:" لا. بدي كوز رمان " تضج روحية من الضحك:" كانت جميلة مثلك. والآن لم تعد جميلة مثلك أيضا. اصبحت اسنانها بلون التبغ وقد فقدت بعض اسنانها. شفتاها ما زالتا ممتلئتين سمراوين.الشامة الزرقاء الكحيلة وكأنها شامة غجرية عند الشفة السفلى.. تمج السيكارة وتسألني عن أخبار بيروت وأخبار جدتي وأخبار أمي. وعن أخبار فضيلة، ثم تصرف هذه كلها عندما تجدني أتلكأ في الأجوبة قائلة: «لا بأس.. الجميع بخير الكلام يؤلم الفم.. الجميع بخير، الذي ليس تحت التراب هو في الف نعمة.. لكن اين حبيب القلب؟»، ؟ " وقبل ان ابتسم لها لاعلق على ما قالته تلتفت. موجهة الحديث إلى جهينة:" أنا عرفت. لما بتجي اسمى، بدك تبطلي شايفة حالك وبدك تسكتي، شفت كيف صرت متل كلب

التوتو؟" وتضحك عالياً، وتشهق وتسعل والسيكارة لا تزال بين شفتيها وتكمل ما ان توقفت عن السعال:" معليش ناس بدها تشرب شاي وتاكل بسكوت".

لا أفهم مباشرة ما تقصده رغم أني تكهنت بأنها تلوم جهينة. لكن نبرة صوت جهينة التي كانت أقرب منها إلى الصياح جعلتني أفكر بأن هناك أكثر من اللوم. وقبل أن استوعب ما حصل أصبحت جهينة عند الباب: تلوم روحية على فظاظة لسانها!.

...لحظات مرت وكأن روحية ندمت خلالها على إغضاب جهينة لتقول لها بتودد: " لوين رايحة بطقة الشمس "، وعندما لم تتراجع جهينة نهضت روحية تثنيها عن عزمها ونهضت أنا خلفها، لكن جهينة تسرع خارجة. نادتها روحية: "يللا ارجعي فوتي. أنت قلبك طيب. تعي حتى راضيك وتعي حتى ماشيك. يللا. ما الواحد بحب يمزح يا شيخ".

لكن جهينة تختفي، تعلق روحية وهي تغلق الباب وراءها بان جهينة سترضى بعد قليل.

" هي وجدي مش هيك؟؟".

تضحك روحية. بدا فمها واسعاً، بانت أسنانها وشرايين حلقها وثغراته التي تشبه الكلل البلورية.

" والله أنك انت مثل الخلد. بتشمشمي متل الكلاب – بعيد مين هون. ضبطيتهم يا ملعونة من أول نهار !".

أشعر بالحرارة، وكأني تحولت الى كرة من عرق وخفقات قلب وارتعاش، تتحدث روحية بهذه البساطة عن علاقة جدّي وجهينة، وكأنها واقع. كأن جدتي ليست أمامي الآن وكأني لا أحاول أن أرى وقع هذا عليها. أبعد هذه الصورة، أنا أعرف جدي أكثر مما تعرفه روحية وجهينة. ما بين جدي وجهينة لا شيء، غير اللعب والمزاح. تحاول روحية ان تتذكر المرة الاخيرة التي التقينا بها معا:

" زمان.. والله زمان.. أي والله زمان... لما صار يمزح معك و أنا خانقته لانه رفع الكلفة معك. فاكرة؟ يا حرام الشوم كنت عامله بوليس أي والله ولا أتاتورك".

أهز برأسي، كنت قد أيقنت وقتها أن الغيرة مني كانت خلف عتابها وجرحها له عندما أخذ زوجها يمازحني ويطلب أن يمسك شعري.

" الله عليّ شو كنت عذبو.. الله عليّ. وهلق الله عم يعذبني ". تقف فجأة ويدها عالية، كأنها تلوح بها يمنة ويسرة وتبتسم وهي تصدح:" نحنا الأرامل حزننا جوّانا. نحنا ألأرامل وحزننا جوّانا "، أتأثر لحركتها هذه التي فجأة توقفت عن الاسترسال بها وكأنها تجبر نفسها على ذلك، تمسح وجهها بكفها تبدل الموضوع: "شو بتشربي وشو بتشربي وشو بتشربي غير ريق قلبي؟"...

أضحك لها. لكن صوتها يصيح باكياً:

" ما أنا نزفت كل دمي عليه لما مات. ولو ما هالسيكارة لكنت صمت أشهر. والله أخذت حبوب حتى ما تجينيش العادة، وما اقطع الصيام. بس هالملعونة بتجي عبالي ". وهي تنظر الى السيكارة تنهض متجهة إلى الباب وترده بالمزلاج الحديدي من الداخل.

" اللي مجنني ومطيّر عقلي أنه كان حاسس عم بموت كان كل ما يأخذ حبة يقول: «عم تموتيني، عم تقتليني " وعيونه كانوا يصيرو مثل عيون الضفدع ".

تبكي. تأخذ وجهها بين كفيها وتبكي.

" اللي قهرني هو أخوه، ما قبلش يعمل عزاء عنده قال ان ابنه شاب وبالجامعة وبدوش يصيبه بالعين، حرام على ها لعقلية. عملنا العزا هون يللي قعد بالجنينة ويللي وقف برة. خليها على الله. بتعرفي نفسية الناس بالموت أي والله.. مش بالحياة: والله امي،معها حق.. كانت دايما بتقول:" متكله على الله وعلى الخزانة ".. أي الخزانة فيها أغراض، والأغراض حقها مصاري ".

كنت اعرف أن زوج روحية كان مدمناً على الكحول. العرق والبيرة والكونياك والويسكي ثم السبيرتو، ثم الكولونيا.. في المساء. في الفجر، عند الظهر، بعد الظهر، وعند الغروب. ادمانه هذا جعلها تدخل لسانها، تقفل فمها، تقلص رأسها وتدخله بجسمها كما السلحفاة. لم تطق أن تصبح في بئر معتمة: لم تعد تفجر

بصوتها أمام لوعة أهل الموتى، فتستفيض أو تخفف من أحزانهم في آن. ولم تعد تجد أن من حقها أن تنشد مراثي الحسن والحسين كما كانت والجميع يعرف بترنح زوجها. فهي دأبت بصوتها المتهدج الحزين على أن تجـــدد مأساة عاشوراء كل عـــام.تذكر بالظمأ الأبدي. رنة صوتـها باحثا عن المـــاء المفقود، المشتهى ليبلل ريق العطشى. صوتها كان نورها في الحياة. صوتها كان امتدادا للفم الذي اكتشف أن وظيفته ما هي الأكل والتداول في تفاصيل الحياة وعلى رأسها القناعة التي تتصف بها نساء القرية والنساء عامة. صوتها هو الذي كان يميزها عن كل النساء حتى نساء بيروت. فمها كان العورة. هو جنسها. ومع ذلك كان عليها ان تهمده لأنه لم يعد حرا طليقاً يقتص من هذه وذلك. بل اعتلاه شوك يغز في لسانها كلما همت بالصدح.

جربت كل الوصفات والطرق حتى تجعل زوجها يقلع عن إدمانه، كل الشتائم، كل الحنان. لكن رغبات زوجها في الشراب ازدادت الى حد أنه أخذ يتلذذ بشرب السبيرتو. عندها امسكت علبة كبريت بيد وقنينه كاز باليد الأخرى وصاحت مهددة:" سأولعك وسأولع حالي وأخلص منك ومني"..."ولما لم يعد يقدر يبلع حبة الدواء البيضاء من مرورتها، صرت دوبها بالليموناضة وبشراب التوت، ضل يقول « أوف طعمهـــا مر مثل الحنظل "، وكل ما يقول عم تقتليني: كنت أضـــحك له واقول: انا اعافيك حتى ترجع مثل ما كنت بني آدم". وصار يقول معليش وهو يبلعها: انا مبسوط، اشرب من بين أيديك المر ومبسوط حتى موت بين يديك ". الحكي بسيط ! بس أنا من يومها صرت مثل اللي ساكنتني وكر حيايا. واحدة بتقعصني وواحدة بتنفث سمها في.فكرت انبش قبره حتى أعرف إذا أنا كنت السبب أو هو مات بنوبة قلبية متل ما قالوا. على بنا كان نايم وعم يشخر. كان عم يشخر شخرة الموت بعيد من هون. الله عليّ أنا اللي خليتو يحب الكاس. ما أنت عارفة كنت اشرب عرق بالسر.من لما عرف اني رفضته لاني كنت احب ابن خالتي كان برأسه عقل وطار، وما عادش يحب يقرب مني.. قلت كاس عرق. بخلليه

يتدودخ ويترخرخ ذهنه ومتى ما ارتاح الذهن نشط الجسم. آخ. آخ، مثلو ما بعد ما صار ولا بصير ريقه احلى من أطيب من أحلى عصير ".

ثم وكأنهـا لم تكن تبكي منـذ لحظات، يشع وجهها من جديد وهي تضحك لي:" الله يخرسلي لساني، شو عم بتغزل – باللي تحت التراب وانت قدام عيوني:

يا اسمى ويا اسمهـان اسمك عاطول دوم علساني

وحبي إلك حب عميـاني بصلليلك انا حسب ايماني

بشوفك قبالي بفستان العروس قبل ما زيت الفانونس ينوس

بإيدي أنا بدي دقلك الناقوس وبإيدي أنا بدي قوصلك بالكلاشنكوف".

أقول لروحية ضاحكة خجلة أبدل الموضوع:" أنت زرعت حشيشة أو خشخاش؟".

يعود فمها كمغارة واسعة وتتساءل:" عبالك؟ بكرة بتكون بانتظارك".

لقد سألتها من أجلك بيلي هوليدي، حتى أعرف إذا كانت تشبهك الى الحد الذي اتصوره. لكنها لم تكن تلتذ بالحشيشة بل بالسيكارة والقهوة بمواويلها وبلومها للرجال وبحبها لهم وبإظهار اعجابها أو عدمه حيالهم. عندما سمعت انتقاد احدهم لأنها كانت تلعب بشعر أحد المراهقين، بررت مرور أصابعها بين خصلات شعره:" ما أنا مثل اخته الكبيرة وعليه شعر مافيش الواحد إلا يلعب فيه، شعر أفرنجي، أشقر سابل وعم يلمع.جنت العالم كلها.. يا كافر البلا. وقالو أنو مش فارقة معي انه زوجي مات ! طيب مش مات هو؟ طيب كان عندي رجال ومات وفقعت عليه، طيب لازم كل دقيقة وكل لحظة ذكر العالم بأني متذكرة أنه مات. طفح قلبي من القيل والقال، ويومها صدحت " نحنا الأرامل وحزننا جوانا وآه نحنا الأرامل وحزننا جوانا" بس صار الكل يضحك على هالموال، ويقولوا، ليش الحزن بس جوا مش برة؟".

تقف روحية من جديد، يدها عالية وكأنها تلوح بها يمنة ويسرة. ثم تمسح عينيها بأصابعها من البكاء والضحك معاً وتمسح يديها بتنورتها.

كنت قد حافظت على صداقتي مع روحية رغم فارق السن بيننا وكانت تحرك

في جدتي وزمزم الشعور بالغيرة. بينما صداقتنا هذه كانت تحير أهالي الضيعة. فكانت كلما زارتني في بيروت، عرفت كل الضيعة استعدادها للمجيء وهي تحضر لي المشاطيح بالزيت، ثم أكواز الرمان وخبز المرقوق واللبنة المكعزلة ومواويلها الجديدة. وأنا بدوري كنت أفرح بها وآخذها معي الى الجامعة، إلى السينما، إلى المقهى... اجبرها على قضاء الليل عندي بدلاً من الذهاب الى أقربائها حتى اني عرفتها بحياة وبأصدقاء الجامعة ثم بناصر في سنوات الحرب. كنت قد تعلقت بروحية منذ صغري عندما جلست قبالتها أمام طشت الغسيل متمنية أن أجلس إلى الأبد أمام هذا الطشت وأمام يديها وهما تفركان وتعصران، وهي ترندح بالمواويل. كانت تحاكي كل ما أمامها حتى السحلية إذا مرت. تشرب القهوة بدل الشاي تجلس تحت شجرة الرمان، بعد أن ترش التراب بالماء حتى نشعر بالبرودة".

عام بعد عام وروحية جعلتني أطل على حياتها. وبالتالي لأكتشف من غير أن تدري سر انجذابي لها وعمري لم يكن تخطى العاشرة. كيف حدست هي أني أهل لثقتها ولصداقتها رغم سنواتي الصغيرة؟ لا أعرف. كيف مدت صبر بالها علي وأنا آتي اليها كل يوم، رغم مشاغلها، خاصة وأن أمها الصعبة المتطلبة كانت لم تزل على قيد الحياة.، فتنت بها منذ أن راقبتها وهي تتلو مراثي الحسين وعاشــوراء خاصة عنــدما بكت وهي تمثل ظمــأ ستنا زينب. لأجد نفسي أبكي. وقد صدقت أن روحية عطشانة وودت لو آتي لها بكوب ماء. كأن غبار كربلاءالذي وصفته بات فوق شفتيها وصدغها. لتجعلني أزيد من بكائي لدرجة أني أخذت أشهق، والبنات اللواتي كن من عمري ظنن أني اجهش في الضحك كعادتنا كلما حشرنا انفسنا في مجالس التعزية في عاشوراء مع الصبايا والنساء، إذ كانت هدذ المجالس بالنسبة الينا نزهة ليلية وفيلماً سينمائياً نرى فيه النساء خاصة العجائز الباكيات وكأنهن شخصيات كوميدية. فنشهق ضحكاً، مخبئات وجوهنا بأكفنا. صوتها كان يغص من غير أن تبكي، يئن، أنما تسيطر على أوتاره. ولم

تفارقني روحية ليلتها. بل إنها تركت انطباعا حزينا أردت ان اتخلص منه بزيارتي لها في بيتها في اليوم التالي حتى أصدق بأنها انسانة كالأخريات، لا تبكي طوال الوقت بل إنها تأكل عن صدر القش الباذنجان المقلي، لكني كنت محقة، لم تكن كالأخريات، لم تكن تمثل الحزن. إنها تعذبت نفسياً، عايشت آلاماً تركت جروحاً على روحها. عندما تزوجت كان قلبها مع ابن خالتها الذي احبته. حاولت ان تعارض زواجها بالموال:

" يا أمي ويا ميمتي، شوفي جفني كيف انتفخ وشريان عيني كيف انسلت

كيف بـــــدك تتركينـــــــــي وعن بزك ما قيمتيني

مين بدو يجرشلك عالطاحونة ويطبخلك معكرونة".

فأجابتها أمها: لا بدي اجرش ولا بدي معكرونة.. تعملي احسن خدمة في.. انك تفلي عني: بدي آكل فراكة بلحمة هبرا ومقلية".

صدحت روحية:" بكره بتقولي آخ آخ.وبترد عليك الحيطان. بح. بح. الأم بتربي وبتشيخ والبنت بتستوي وبتطير".

حاولت ان تهرب من الزوج، إلى الكروم. الى الحاووز، إلى بيت عمها. فلحت في الزوغان لمدة شهر. إلى أن اوصدت عليها أمها وزوجة عمها الباب ذات صباح. لتمسكا بها من يديها وقدميها. رغم قوة روحية إلا أنها لم تقاومهما طويلا لم تكن تصدق أن زوجها سيكب فوقها. أمام أمها وزوجة عمها. لذلك همدت تنتظر معهما.عندما رأته كالكلب الجائع أمام قطعة من العظم شعرت بالفضول وبالشهوة:" وما أن ركب فوقي حتى ما عرفتش شو صار لي وصرت نادي:" شيلوني نار عم تكويني ". وامي وزوجة عمي دايرين وجوههن عالحيط عم يبكو، لأنه مفكرين عم موت من الوجع ومن الرفض. وقد اعتادتا عليّ وأنا اصرخ "لا. لا. لا. لااريده... من غير سبب ".اخذت تصيح ان الدبور يعقصها.. عندما استفهمتها وقتها ماذا تعني بعقصة الدبور وبالنار فرقعت روحية من الضحك حتى هرت دموعها وخاطبت نفسها وهي تضرب فمها بيدها: " لا حول ولا قوة.... لازم حط

دبابيس بتمي. ما انت بعدك ولد، وانا عم فسدّك، شوفي شو عم خبرك، بس يخزي العين الواحد بينسى انك ولد ولا كأنه عمرك عشرين سنة ".

عادت وفرحت بأنها تزوجته. اكتشفت انه يحب صوتها، وقوة لسانها، وحجتها الدائمة وتنهدها ومزاجها. كان يقول لها بأنه يفضل رائحة السكائر المنبعثة منها على الروائح الأخرى: النظافة والوضوء والعطر. وأنه قد أعجب بها لأنها كانت الوحيدة في الضيعة التي تجرأت على التدخين جهراً. وكانت ترفض فتح بابها لكل طارقة مدعية تارة المرض وتارة التعب. مفضلة الخلوة فتصرفه عن عمله ليبقى إلى جانبها. لكنه بقى يحثها لتخبره عن رفضها له في البداية... وهي تتدلع وتكذب وتتهرب إلى أن قالت له مرة عن السبب الحقيقي، عن حبها لابن خالتها في بيروت.

عندما كنت أزورها، كانت تشمني قائلة:" دخيلك خلليني شم بيروت وريحة بيروت وأهل بيروت ". عندما كنت اسألها إذا كانت تعرف بيروت، كانت تتنهد قائلة: ما هي اللي سرقت لي قلبي. بعرف بيروت؟؟ مثل ما بعرف كف ايدي، الروشة والمنارة وقهوة الغلاييني ". عندما كبرت، فهمت ان روحية تعيش في الماضي. فبيروت لم تفارقها منذ ذلك الوقت، حين كنت اجلس في مطبخها، اسمعها تصرخ في أمها، وهي تمسح العرق المتصبب من جبينها بذيل تنورتها. تنفخ بالسيكارة وتبعد وجهها وهي تقلي الباذنجان والكوسى، أمها تبكي لأنها تريد ان تأكل فراكة خوفا من أن تموت:" اللحمة بس يا روحية هي اللي بتسندلي قلبي، والباقي بيحميللي قلبي وبيجرحلي مصاريني ".. تجيبها روحية موجهة الحديث لي:" ليش ما حمي قبلك لما بعتيني صانعة عند بيت خالتي ليش؟ قال. بعتوني عبيروت حتى صير خياطة ونام عند بيت خالتي ما كنتش عارفة أنو بعتوني حتى اشتغل صانعة عند بيت خالتي وبدل ما آخذ أجرتي كنت بنام وباكل وبشرب. كنت متل الزنبرك. بطبخ وبشتري الأغراض وبغسل وبكوي وبأخذ سطيلة الغذاء

لجوز خالتي بسوق النورية. وفكرك كانوا يدفعوا لي خمسة قروش للترين؟ أعوذ بالله كنت اتنهنه من التعب وبعدين روح لعند فريزة الخياطة، وحضرتها مش بتعلمني دروزة المكنة! بدها ياني فقيّ كوز الثوم و قشر بصل وبطاطا قال لتخاف احسن ما تطلع ريحة الثياب اللي بتخيطها اكل. وبعدين، بروح مثل الزنبرك عالبيت بحضر العشاء وبساعد خالتي اللي مفكرة حالها شي عظمة لأنها عايشه ببيروت ولأنها جابت بس صبيان.. كل هالتعب وروحية شو أخذت من هيدا كله؟ ولك بالعيد صاروا يتشاوروا إذا بجيبولي فستان مستعمل خليها على الله".

ووجدتني أسألها:" ليش ما هربت؟".

ضحكت روحية وهي تبعد وجهها عن المقلى، إذ كان بخار الزيت قد تعالى، واكتفت بالقول:" والله انت الصادقة. أي والله، ليش ما هربت؟ كان لازم... بس كنت...".

كيف تهرب؟ فروحية كانت عاشقة. وبيروت كانت ابن خالتها.كانت بيجامته التي تدنيها من فمها وهي تنشرها، رطوبتها ورائحة الصابون، ملعقته وصحنه بعد أن يفرغ من الأكل الذي كانت تعده له. نظراته الذكية. ولم يكن من الصعب لفت نظره اليها. إذ أصبحت هي البيت صوتها يلعلع. خطواتها تفقز على البلاط. كانت تحاول في هذه الضوضاء أن تغطي ما يضايقها: من ثيابها المهلهلة والتي لا تليق ببيروت. إلى جهلها ومعرفتها الضئيلة بالكتابة والقراءة. وكونها تعيش في بيتهم لقاء مساعدتها لخالتها. ولأن هذا الاتفاق الحسي لم يؤكد بالكلام، كانت روحية تعاند خالتها، تريد أن تدير البيت، وتقرر ما تشتريه وتطبخه وتقرر متى تقوم بغسل الملابس ومتى تكويها.

كانت منذ الصباح وهي في عناد وخصام وحركة دائمة. شعر ابن خالتها بما تعانيه، بينما اعترفت هي له بسوء معاملة أهلها جميعاً وهي تبكي وتخبره عن فستان العيد: " ما أنا من لحمكم ودمكم، بدها أمك وأبوك يلبسوني فستان من

سوق العتق وصباط مش سكربينه الله اعلم من لبسه قبلي قبل ما عطاه لموسى الأرمني". ولدهشتها قال لها بهمس:؛ حرام هالجسم، ما يلبس الا من سوق سرسق. وهالاجرين إلا من عند باتا. وهالسنان البيض ال متل اللولو حرام ما تفرشيهم بالفرشاة والمعجون بدل ما تفركيهم متل امي بالملح والمي ". ومداراة لخلجلها ولأنه اصطاد نقطة ضعفها، زادت من بكائها وقالت وهي تنوح وتضرب وجهها: " من وين بجيب ربع ليرة اشتري فرشاء أسنان". ثم وجدته يعطيها منديل جيبه ويقول لها بكل حنان:" أنا بعطيك معليش حاج تبكي". وكأنه ندم أو خاف من لهجة صوته، فرفعه قائلاً:" انا لح جبلك فرشاة أسنان، خلصينا حاج تبكي" وأتى لها بفرشاة أسنان، وبدفتر وبكتاب وبقلم. وأخذ يعلمها ان تقرأ الوقت في الساعة مبتدئاً بعقربي الساعة الصغير والكبير ثم كيف تضرب أرقام التلفون وأشياء أخرى.

كانت تمسح أرض غرفة السطح التي كان يسكنها ثلاثة طلاب من الضيعة يتلقون العلم في بيروت. وقد اعتادوا على ترك مفتاح غرفتهم لدى خالتها. ومن غير اتفاق كانت تشعر خالتها ان عليها واجبا تجاه هؤلاء الشباب، فتطلب من روحية ان تكنس الغرفة وتمسح أرضها مرة في الأسبوع أثناء زيارتهم للضيعة.

وكانت روحية تحب وجودها في الغرفة. كانت تتأمل نفسها مليا في المرآة، تناجيها، تغني، تتمدد على الكنبة تفتح النافذة وتطل منها مراقبة بيوت وحدائق بيروت ثم مكتفية بالنظر الى الهاتف الاسود. حتى انها لم تستطع ان ترد عنها مرة فضولها لتمسك بسماعة التلفون بالمقلوب وتدير ارقاما وعندما سمعت صوتا ابعدتها عنها كالوباء وتركتها تتدلى من الشريط لتهبط السلالم دفعة واحدة وتسرع الى باب ابن خالتها الموصد تستنجد به. كان الصوت المنبعث من الهاتف قد اختفى وحل محله تكتكة. ضحك ابن خالتها علمها كيف تمسك بالسماعة وكيف عليها ان تنتظر صوت قبل ان تدير الرقم. ادار رقم صاحبه وسمع حديثهما،

جعلها تدير الرقم نفسه بعد ان قال لصاحبه: «عم علم بنت خالتي كيف تستعمل التلفون» وعندها دفع لها بالسماعة حتى تتحدث مع صديقه. مدت يدها توضب شعرها قبلا. تحدثت مع صديقه وكأنها تعرفه من زمان، تضحك وتنصت وتضحك. لحظة ما ابعدت السماعة السوداء عن اذنها كان ابن خالتهاقد اطبق على شفتيها. ارادت ان تستسلم للدوار الذي اصابها لكن رؤيتها لنفسها عروسا تجلس على المرتبة قربه محى الدوار بسرعة رأت نفسها في بيت في بيروت تكوي له قمصانه توضب اوراقه وكتبه وتقفل الباب عليها حالما يأتي من مدرسته. شدها اليه ووعدها بان يرسلها الى المدرسة، فالدروس التي تعلمتها في مدرسة الضيعة كانت لفك الحرف ولكتابة اسمها ولتجويد القرآن. قبلته تلك كانت وقودا فاض من كثرته. فتحمست من جرائها على القراءة وكتابة الفروض التي اخذ يلقنها اياها ريثما يجد الفرصة المناسبة لاقناع اهله بارسالها الى المدرسة. كذلك دب بها الحماس من جديد للتفصيل ودق فصوص الثوم ولتنظيف اسنانها اكثر من مرة يوميا وفرك قمصانه من هواء بيروت الوسخ، إشعال الفحم وانتظاره حتى يصبح جمرا وتعبيء المكواة وتكوي له قمصانه بتأن وطولة بال. توضب له اوراقه وكتبه وفقا لطريقتها الخاصة مما جعله اكثر من مرة يطلب منها ان تترك له طاولتها على حالها، ثم وكأن كل ما تقوم به يتطلب الوقود الذي كانت تطلبه من غرفة السطح، حيث كانا ضمن جدرانها يقبلان بعضهما، يمسك بصدرها وينزل يده الى بطنها، عندها كانت تخاف وتفلت منه مرات ثم تجد نفسها وقد تمددت معه على الارض. تراه فوقها وتتململ تحته من الخوف رغم شعورها بالغبطة والحب، الا انها همست له: «عمتموتني» امسك بشعرها وهمس: «عم حبك وبدي موت اللي بموتك» وشد عليها، على وجهها وصدرها واهتز قليلا قبل ان يترك جسمها الذي كان يرتعش رغم الملابس كريشة عصفور.

لكنها تكهنت وهي تدرس ما كان يمليه عليها بان هناك مكانا يفصل بينهما:

الكتب الضخمة التي يحملها تحت ابطه والتي ينقب في صفحاتها في الليل. هده الكتب حملت بعضها ذات يوم وسارت بها قاصدة سوق النورية الى جانب سطيلة غذاء زوج خالتها. لان الكتب في حضنها شعرت انها تختلف عن كل ما تراهم في الترام، تأكدت من ان هذه الكتب ومضرب التنس والطابات البيضاء والجوارب البيضاء السميكة والتنس شوز الابيض خاصة هي التي كانت تفصل بينهما. وفي المساء ذاته فتحت سيرة أمنيتها بالالتحاق بمدرسة حوض الولاية القريبة من البيت امام خالتها وهي ترى نفسها عائدة من المدرسة بالمريول الاسود وحول رقبتها الياقة البيضاء وقد طرزت فوقها الارزة الخضراء.

لكن خالتها فاجئتها بان فتحت موضوعا اخر، موضوع عودتها الى الضيعة مستهلة: «بيروت خراب بيوت... صرتي تمسكي المقص والابرة والعرسان ناطرينك» لكن روحية سدت اذنيها واكملت احلامها ولم تتصرف كنساء عائلتها فتجمع حوائجها وهي تتمم لنفسها وللاخرين عما كانت تقوم به من جهد لخالتها ولهذا البيت وكيف ان خالتها انكرت جميلها وتترك البيت والدموع في عينيها، بل تصرفت كأن شيئا لم يكن، كأنها لم تسمع ما قالته خالتها، لكنها عرفت ان الحرب قد بدأت بين وبين خالتها وزوج خالتها، غير انها لم تجرؤ على التفكير من سيكسبها. لم تبال بوجهي خالتها وزوجها اللذان لم يعودا يعكسان سوى الضيق، و لأن الزوج منعها من أن تأتي له بطعامه، بعد الآن، بل وجدت نفسها تهز كتفيها ارتياحاً. فهي لم تكن تحب منظرها وهي تحمل السطيلة النحاسية. والتي طالما لسعت قدميها من سخونتها. لكن خالتها كانت أكثر دهاء من زوجها، عادت تعطيها الوجه الرحب والكلام اللطيف، وتطري همتها وحركتها في البيت فتناديها: "والله أنك نحلة والله".

عندها تحاول روحية لعب لعبتها، فتسأل خالتها برجاء ان تسجلها بالمدرسة الرسمية تجيبها خالتها:" ما انت عمرك صار سبعة عشر سنة وبالسرتفيكا. كيف بدك تدرسي مع بنات أصغر منك، هون البنات شاطرات. بدك يضحكوا عليك

ويقلولك يا كبيرة يا هبيلة مافي غيرك شنتيرة". ولم تيأس روحية بل فكرت ان تتعلم منه فلعله يعدها هو لامتحان شهادة السرتفيكا.. لكنه لم يعد مواظبا على تعليمها، أو شراء الكتب والدفاتر لها. انه يتبدل، لم يعد ذلك الحنون. ولم يعد ينتهز الفرص للاختلاء بها عندما اخبرته عن ترك أمه البيت لزيارة قريبة لها كانت تسكن بعيداً لم يعد إلا في المساء. بعد أن جلست تنتظره مع أفكار فار لها دمها. أفكار غير معقولة تتزاحم على العينين والبال. ترى نفسها وقد خلعت ملابسها وتمددت امامه. ورأت نفسها تشده اليها وتغتصبه وتحمل منه. ثم ترى الشيخ يقرأ الفاتحة ثم ترى نفسها وهي تجلس في بيتهما ويجانبها تلفون أبيض.

وعندما لم يطل، جلست تلعن حظها لأنها ولدت في القرية وتربت هناك ولم يهتز أملها إلا عندما أطرق مرة إلى الأرض قائلاً لها إن الظروف أقوى من شعوره نحوها. وبأن لا مستقبل لهما معاً، شعرت بالغثيان لكن وهي تلاحظ نبض رقته قدمت المواساة لنفسها بأن والديه قاما بتلقينه هذه الكلمات، كلمة كلمة. ووقفت تبحلق بحنان إلى باب غرفته الذى أخذ يغلق حتى في وجهها.

لم تعد تنظر اليه أو تتحدث معه. لكنها لم تهمل واجباتها تجاهه. لم تزل تواظب على التأني في كي ملابسه. وهي تفكر بأنها حبيبته، زوجته. ثم تتخيل أنه تزوج من أخرى بعد أن حصل على وظيفة راقية. وأن زوجته ولدت وترعرعت في بيروت وتعلمت ولبست الحذاء ذا الكعب العالي، وأنها أخذت ووالداه يتعاركان على راتبه الشهري، لأنهما أرادا استرجاع كل ما صرفاه عليه أثناء تلقيه لعلومه وبأنه أخذ ينادي اسم روحية في أحلامه،، وعروسه تغار وتكشف سر حبه لابنة خالته، وتعود الى بيت أهلها طالبة الطلاق وهي تخفي شعرها بالإيشارب تماماً كأفلام مريم فخر الدين.

معنى بابه المغلق أمامها أنها اصبحت بالنسبة له كالآخرين، كأمه وأبيه وأخوته. لم يعد بينها وبينه شيء خفيّ. ولم تعد تشارك الوهيته هذه.ما ان يدخل غرفته ليدرس. لم تعد تطلب منها خالتها حتى أن تأمر الصغار للكف عن

الضجيج، ولم تعد تخرس الراديو وأصوات الزائرين حتى انها كانت تطلب من الأولاد الذين يلعبون في الطريق خفض أصواتهم. وما ان يدير أكرة الباب من الداخل حتى تعجلها خالتها لتحضر له الأكل.كانت تسألها وكل مساء خميس أن تُشعل الحطب تحت مياه القازان حتى تسخن الماء، بينما تتولى خالتها تحضير الليفة والصابونة والمنشفه له.

بعد أشهر فاتحتها خالتها بالأمر وهي تبصر لها في فنجان القهوة، قائلة: اللي بفكرك منو بدو يتزوج من شقيقة صديقه، وشايفة مكنة سنجر جايبها كميون عالضيعة وشايفة مصاري بجيوبك. واختي عم تشتري لحمة وبتاكل فراكة ". لكن روحية هزت كتفها متصنعة عدم الإهتمام. غير أنها شعرت بالاختناق لما ترمي اليه خالتها. وعندما سألتها خالتها:" يللا بتروحي عالضيعة يوم الجمعة لروح معك"، أخذت تبكي وتطلب من خالتها أن تقنع ابنها حتى يتزوج منها. لتشهق خالتها قائلة:

" أحب ما علي ياخدك. ما انت متل بنتي لكن لم يعد الجبر ينفع هذه الأيام".

لم يكن هناك خطوبة، أو زواج. لذلك نهضت روحية ذات صباح لتعرف انه ذهب لقضاء فصل الصيف مع صديق له في الجبل وبقي مكانه سراً.

حثتها خالتها وقتئذ للذهاب إلى الضيعة لزيارة والدتها، ولم تقبل روحية. خافت إذا تركت بيت خالتها أن لا تعود إليه، رغم أن أمها جاءت الى بيروت، وعلا صوتاهما ورمتها أمها بقبقاب وضوئها. لم ترض روحية أن تفارق بيت خالتها بل قالت: " هالبيت صار بيتي. أنا بنظف وبغسل وبكوي، هالبيت بيتي ". وبقيت روحية في حر بيروت غير آبهه بذهاب خالتها وأولادها الى الضيعة، تنتظر عودة ابن خالتها كلما سمعت حركة عند الباب، هكذا طوال فصل الصيف إلى أن عاد ابن خالتها في مطلع فصل الخريف.

ولم تدر روحية كيف مضى عامان آخران. كأن الانتظار من طوله يبلع

الوقت. فهي كانت تنتظر دفئه ونظراته. وفي الوقت الذي كانت تشغل نفسها بالخياطة. اشترت لها خالتها مكنة خياطة لتخيط الستائر وبيتاً للراديو وآخر للتلفزيون، ووجوه بيوت جديدة للمقاعد. وأغطية للأسرة وتبانات وقمصاناً لأولاد خالتها... كانت تجد نفسها وهي تهز قدميها لتدرز الابرة فوق القماش كأنها تدرز جملاً في رأسها، تنتهي كلها على نغم واحد، كلما قالتها على مسمع من الجارات تسمع ضحكاتهن فتعرف أنها لم تكن تدرز الكلمات جيداً خاصة عندما تصيح بأعلى صوتها.

يا تقبروني طالبة من الله صحتكم...

وفي كل اشغالكم ربي ينجحكم

بس ليش وافقت وتركت الألف والياء عشانكم

ومفاصلي قاعدة بتنحل كل ما فكرت بعملتكم

مافيني قلكم غير الله يسامحكم".

تخرج ابن خالتها في الجامعة. وحضرت حفلة تخرجه وشاهدته على المنصة ولم تزغرد، زغردتها المشهورة، رغم حث خالتها لتفعل هذا، متأكدة من أنه سوف يكرهها إلى الأبد إذا فعلت هذا. وبقيت بعيدة عندما هرع اليه الجميع بعد أن نزل عن المنصة، وفي يدها علبة ملفوفة باللون الأحمر وفي داخلها ازرار اكمام ذهبية فوق قطن أحمر اشترتها بكل ما معها من نقود.. وكانت قد ضمرت ان يراها مرة على المنصة. وطافت بذهنها هدى التي تخرجت ممرضة من كلية المقاصد. وانتسبت هي الى كلية المقاصد حتى تصبح ممرضة، ووعدها بأن يحضر حفلة تخرجها. ومثلت طويلاً كيف ستسير على المنصة، كيف ستجلس، ستبتسم، ستتناول شهادتها، وتخرجت ممرضة لكنه لم يحضر حلفة تخرجها.

ولم تيأس حتى عندما عقدت خطوبته ثم زواجه من صبية بيروتية. بل رقصت في عرسه على أغنية:" دقوا المزاهر يالله، يا أهل البيت تعالو ". بينما حولت

الأغنية في رأسها الى:" دقوا الحجارة يالله يا أهل البيت براسي ".

وكان العرس قد اقيم في بيت اهل العروس الكبير وهو يضع الخاتم حول إصبع العروس ويعانقها. لم تشعر روحية بالغيرة. بل استعادت لمسه لها وكل ما فعلاه معاً في الماضي. كانت إذا رأت عينيه تنظران الى الصحن أمامه، لفحتها حرارته. واقتنعت بأن لم يزل يحبها لكن الظروف هي أقوى من شعوره تجاهها، لا بد أنه يحبها إذا وهما متمددان معاً، ولم يمس جسمها سوى بكامل ملابسه. ولم يطلب رؤية صدرها بل أراح رأسه عليه هنيهة. لذا يجب أن تبرهن له أنها صامدة فانها لم تزل تحبه رغم الظروف. وأن الحق يقع على الكتب وعلى كونها ولدت في الحارة الفوقانيه في الضيعة بين الذباب والحجارة. وأخذت تتردد إلى بيته. تساعد زوجته وأحياناً الخادمة، وكان قربها من اشيائه كالعادة يضعها في حالة سعادة. كلما لمست أشياءه شعرت كأنه يعانقها ويقربها منه. ولم تتوقف عن زيارته، حتى عندما لم تعد زوجته تستقبل أيا من عائلته في بيتها. عندما وضعت الزوجة بنتاً زارتها روحية في المستشفى،بعد ان أوصت على باقة من الورد الجوري الغالي الثمن. وبقيت تنتظر عند باب الغرفة في المستشفى الى أن رأته يطل، فادعت بأنها قد أتت لتوها. ودخلت الغرفة فخورة وهي تحمل باقة الورد. وتعمدت أن يريا من أين اشترتها ثم ذهبت الى بيته واستلمته طوال إقامة زوجته في المستشفى، تسدد حاجاته، رغم وجود الخادمة وأم زوجته، سعيدة بأنها سيدة هذه الغرف الكثيرة تجلس على كرسيه، تسوى له سريره. قريبة منه، من صوته. وعندما رفض الترويقة التي اعدتها له. أيقنت أنه يحبها لأنه لم يزل يتحاشاها. أيقنت أنه يأتي متأخراً كل ليلة خوفاً من أن تلتقي عينه بعينها. عندما قدمت له فنجان الشاي ورفضه تأكدت من أنه خائف من أن تمس كفه كفها وهو لا يعود يتمالك نفسه.

أصبحت روحية في قلب بيت خالتها من جديد. التفت حولها اهله، يسألونها التفاصيل عن بيت ابنهم، عن خزانة زوجته وعدد ملابسها وعادات البيت. وكلما

روت لهم ما يجهلونه شعروا بالغيرة وهي بالغبطة لأنها أصبحت أقرب الى عالمه منهم جميعاً. علاقتها ببيته فقط، لا بزوجته جعلت موقعها ضمن عائلة خالتها ذا مكانة. ومع ذلك لم تسمع خالتها مرة تقر لها بندمها لأنها لم تشجع ابنها للزواج بها. بل كأن خالتها وزوج خالتها لا يزالان يفضلان زواج ابنهما بابنة العائلة البيروتية.

طوال هذه السعادة الكاذبة وهذا الشجن، لم تتوقف روحية يوماً عن التفكير بالأشعار والأقاويل. كانت إذا فكرت بها وتلتها شعرت بأنها قريبة منه، وبأن حزنها يزداد وهي تقولها. ليهمد بعد ذلك. ولم تعد إلى القرية إلا بعد أن وافق على الإلتحاق بوظيفة عالية الشأن في بلد عربي وسافر اليه. أخذت تتحدث في الأشهر الأولى عن بيروت وكأنها كفها، وواظبت في البداية على هندامها وعلى انتعالها للكعب العالي الذي أخذ يتحفر بين الحجارة والتراب. وكانت ترضى أن تحقن الابر، وتداوي الجروح مقابل لا شيء. كانت أول ما تقرأه في الجريدة التي واظبت على شرائها بين وقت وآخر كلما نزلت الى ساحة الضيعة أخبار البلد العربي حيث ابن خالتها. رافضة كل من يتقدم بطلب يدها واحداً واحداً. وكان معظم الذين تقدموا للزواج منها مدرسين يعلمون في القرى المجاورة ومن بينهم رجل بيروتي كان يصادفها في حي خالتها. لكن أرادت عريساً كابن خالتها أو من هو في مستوى وظيفته، بعد وقت لم يعد يتقدم اليها أحد اصبحت هشة الصوت تصدح بالأشعار والمواويل والمراثي، تلف السيكارة، تسعل وتفرز بلغماً كالرجال، غير مهتمة لمن حولها، تضاحك من هم أصغرها سناً، خاصة ابن خالتها الصغير جواد الذي اكتشف عندما اصبح في سن المراهقة ان ابنة خالته. التي كانت تلبسه مريوله وتبكل له حذاءه قد تركت عليه أثراً، وأخذ يأتيها في عطلته الصيفية ويلازمها مصطحباً أصدقاءه.

وأخذ بيتها يعج بالمراهقين. يدمنون على كلامها وزيارتها، تضاحكهم،

تؤنبهم، تنصحهم، وأحياناً تجد اصابعها تداعب شعرهم، تغني لهم.

" لقيت حالى بالليل بتونس بسراج الليل

شكرت ربي وحمدتو على اللي بعتو بها الليل

وان كان هو قد اللقمة

بالقليلة بيضوي العتمة

بس لما عطشت واشتهيت بل ريقي

قام طرزان ونط عتميّ.

تفتح روحية باب الحديقة الخشبي فيدلف النور ويظهر اثاث بيتها كما كان. اتبعها، اخطو على عتبة وأنزل الى الجنائن المعلقة كما كانت تطلق عليها " أو فسحة التراب الصغيرة " والتي كان في وسطها شجرة رمان واحدة تحمل ثمارها حتى على أطراف أغصانها.

" رزق الله يا أسمى، لما كنت تقعدي على العتبة. أنا فقيلك اكواز الرمان وأنت تاكلي ".

عندها ضحكت، مدت يدها تضعها على ركبتي:" ياست الحسن ومهجة الفؤاد شوفي مافي؟".. قلت وكأني تلميذه مؤدبة:" ما في شي إلا الخير ". "ولو، كل هالجمال وهالدلال ومافيش شي"! دار بعقلي سيمون وفلان.. والمراسل الأجنبي حتى ريكاردو. وهززت كتفي:" الكل يسأل إلا أنت. زواج ومواج، ما في حدا بدو يحب أو يتزوج.يوم بشتغل وعشرة لا. بس بنقع شعري بالزيت. وبغسله بماء البابونج. ويحط طرابيش كوسى علي وجهي وبتحمم بكريمات جوز الهند. لا أكثر ولا أقل ".

تضحك:" أنا عارفة انت ناطرة جواد ابن خالتي. ليش ما بتسافري لعنده؟ لما بدو يشوف وجهك راح يجن، والله ما بكون اسمي روحية إذا ما جوزتكم لبعض ".

شعرت بالخجل. كنت أعرف كيف تفكر روحية. وكانت وقتها تنظر الى صدري.

نسمع جهينة تصيح من الخارج، " شو؟ ممنوع الدخول، خطر الموت؟". ضحكنا على جملتها الفصيحة هذه و هرعت روحية فرحة إلى الباب تفتحه قائلة: والله بنت حلال " . ودخلت جهينة بكل ثقة تضحك هي الأخرى قائلة:" طبعاً بنت حلال. والله كرمال اسمى رجعت، يللا بدي آخذها مشوار. بدي فرجيها الكوافيرة والقهوة والمطعم هي سألتني الصبح عنهم. مش هيك يا أسمى؟".

في قلب السهل مشينا، بعد أن تركنا الحارات الفوقية. الهواء الساخن يلفح الوجه، استأنس له وأتمنى أن يزورنا الحر الصحراوي. وبدلا من الطرق الملتويه القاحله امتدت الفلل والبنايات والسيارات الفارهة الواقفة في الشمس. كل هذا في ظرف عامين؟ المقهى له لافتة نيون. لا بد أنها تضيئ وتطفيء في الليل رائحة شواء اللحم الشهية تنبعث منه إلى الأنف. الدخان يطير على الطاولات والكراسي وعلى حبل غسيل منشور الذي يظهر في الزاوية رغم محاولة تغطيته بالحشائش المجففة والقش. أعرض على جهينة أن نجلس على طاولة ونتناول طعام الغذاء. تتردد قائلة ان روّاده الان من الرجال اما البنات يأتين في ساعة متأخرة من بعد الظهر.. ثم ندور حول المقهى حتى باب البيت. نرى سميرة التي كانت تشوي فوق الموقد، لتتأهل بنا وتقبل جهينة ثم لتقبلني وتقسم علينا لأن نتناول طعام الغداء معها في الداخل. وعندما لمحت جهينة إلى أني أريد أن أجلس في المطعم – المقهى، هزت سميرة رأسها كأنها ترفض رفضاً قاطعاً وقالت:" يا عيب الشوم على هالحكي".

ولم استطع أن اقنعها كيف أني الآن لا أصدق بأن في الضيعة مطعما ومقهى وبأني فضولية لأرى كيف نطلب وكيف يأيتنا الطعام. ويبدو أنها كانت الوحيدة في البيت والمطعم معا. إذ تمنت عندما سمعنا فرامل سيارة قالت: «ان يكون زوجها حتى يعاونها". لكن تتوقف سيارة كاديلاك سوداء ضخمة، فتهرع جهينة تنادي من يقودها وتطلب منه ان نركب معه بينما.تبتسم سميرة قائلة وهي تبعد عن وجهها دخان الشواء بأنها بنت حلال اهتمت بجدي في غيابنا ثم

لتسألني: «انتو امبارح وصلتوا مش هيك، والله واجبي روح سلم على ستك ".

تعود جهينة قائلة:" يللا شوقي راح بوصلنا عالبيت ". ولم تمانع سميرة، كأنها نسيت دعوتها لنا. لم أبال أيضاً، إذ أردت أن أركب هذه السيارة التي لا تمت الى هذه السهول، غير مصدقة أن البنات أصبحن يتجرأن ويركبن مع الرجال. لكن اثناء مراهقتي لم يكن هناك سيارات خصوصية سوى سيارتنا". ثم سيارة العائلة التي لا تسمى، أوقف نفسي عن هذا التفكير.. كأني اكتشف لتوي اني فعلاً قد تركت القرية وغصت في عالم بيروت منذ سنوات طويلة.

يفتح شوقي لنا الباب الخلفي، تدخل جهينة ثم لأدخل خلفها. القي التحية على الرجه المستدير الذي كان يطفح عرقا وعافية. ولم أفاجأ بالفوضى التي كانت تعم هذه السيارة الفخمة. من علب بلاستيك وأوراق علب دخان وكوفية. لكن علبة ريش للرسم، استرعت انتباهي لنوعها الجيد ووجدتني أسأله من هو الرسام؟ متأكدة أنها لا تخصه، فهده الإبتسامة وهذه الأنفاس الثقيلة لا يمكن ان تكون لرسام.تتناول جهينة العلبة وتفتحها:" والله رسام الشهداء بيرسم بها الريشة". يرد شوقي:" شو الواحد بيرسم بالمقشة". أضحك عالياً لسماعي جوابه هذا، يستأنس هو لضحكتي ويعيد جملته " يعني شو بدي جاوبها. شو الواحد بيرسم بالمقشة». هاها يهتز رأسه التخين.

" والله رسام الشهداء... نازل بها الرسم فلاحة، بروح عالضيع هون وهون وبيرجع بالصور وبينزل رسم عن أبو جنب. نقشت معه بها الآخرة، بعمره ما عرف يعمل شي؟ وهلق صارت لوحاته بكل البيوت". استفهم فأعرف أن اخاه عبد الله هو الرسام الملقب برسام الشهداء. يتعرف بالشهداء المنتمين إلى حزبي الله وأمل قبل موتهم ويرسمهم بعد موتهم. عندما أبديت رغبة في رؤية هذه اللوحات، رحب الرجل: " أهلاً وسهلاً " بينما تشهق جهينة:" هلق بطقة الشمس؟" ليجيب الرجل:" شو راح نقعدكم برّة؟ صار عندنا أوده مكندشة".

ثم يسألني الرجل وكان اسمه شوقي عن أحوال جدتي وجدي:" الله يقويه ".
ووجدتني عندها انتفض غيظا. كأنهما مريضان أو هزيلان، وتخيلتهما فجأة كأهالي الضيعة الذين كانوا يجلسون بصمت أمام جدي وجدتي عند زيارتهم لهما، للسؤال عن صحتهما أو عن طلب يخص العمل في البساتين.

لابد أن هذه السيارة الفخمة، ومسكة المفاتيح الذهبية هذه أمدته بالقوة والاستعلاء عليّ. لكن غيظي تلاشى وأنا أرى " الأودة المكندشة" والتي لم تزل عبارة عن طراريح ومساند على الأرض. والأم وهي تستقبلني بكل حفاوة وعدم تصديق أني اسمهان وأني ترجلت من سيارة ابنها ودخلت بيتها بهذه البساطة.
فهي دخلت الى الغرفة الأخرى وسمعتها تقول بأني هنا في بيتهم وهي تقسم بالإمام علي، تتهافت على الغرفة ثلاث نساء ورجل صدمني شكله عندما اقترب ومد يده مصافحا تذكرت أنه الشاب الذي كنت أطلق عليه رجل الفيل. تمازحه جهينة قائلة:" مين مثلك يا رسام الشهداء. الناس جايه من بيروت، الست اسمهان أجت امبارح وركضت اليوم حتي تتفرج على لوحاتك يا مظنطر".

رغم ضيقي من علو صوت جهينة ومحاولة سيطرتها عليّ الا اني اظهرت موافقتي. يجيبنا الرسام " مش تكرم عيونكم " ولو لم اعتد على وجهه لظننت انه يهزأ بنا.

تصيح أمه لان يأتي بالشهداء الى غرفة الجلوس لا ان يدخلني الى المزبلة ".

يجيبها الرسام بتأتأة مدافعا بأن مرسم الرسام دائماً:" هو فوضى وقايمة هي بتعرف!" اشجعه بنهوضي قائلة " عن إذنكم".

يأخذنا إلى مرسمه وهو يقول: " الستات... بت... بت " ... أجابت امه عنه: بتأمروا " إنه مصاب بالتأتأة. نسمع ضجيجاً يأتي من غرفة التنور، تتوقف جهينة عندما باب التنور تقول:" الله يعطيكم العافية بدو عبد الله بفرجينا على الشهداء.

اسمع صوتاً يقول:" اوعى يا عبد الله تكون صورة ابن اختي معك "!! يضحك عبد الله هازئا ويقول:" أي هياها.. بجيبتي شو يعني أنا عزرائيل قباض الار.ر.. وراح!".

اقف في وسط الغرفة لا أصدق ما أرى حولي. هل السبب يكمن في ضعف نظره أو عينيه المريضتين اللتين جعلتاه يضع نظارتين كأنهما كمدتان على عينيه، أم أن شلل يده اليسرى كان يؤثر على اليد اليمنى، أم ان فمه المائل الى جهة هو الذي يجعل الكلمات تتعثر بين فكره ولسانه وهي تتدخل في كلام اللوحات ايضاً. يبقى فمه مفتوحا ريثما ينطق بالكلمة الأخرى. يبعد اللوحات عن بعضها، يفردها امامنا في المزبلة، لا المرسم كما أراد أن يصفه، حتى أني ارى صحناً فيه فضلات الطعام ربما من عام. هل هذه وجوه ام شربكات، هل هذه الوان، ام انها علبة البندورة دلقت عليها خطأ ولفحها الهواء فمال لونها إلى العفن؟ هل هذه خطوط أكمل بقيتها خارج جانبي اللوحة، لأنه لم ير حدودها؟ هل هذه عينا رجل أم أنها سوسة الخشب؟

لا يجب ان استرسل في تحليل ما أرى، ولا يجوز ان اضحك في سري، بل أن الخص أن هده اللوحات تعيسة. وأن الرسام يعاني من عدم وضوح بالرؤية ومن الشلل. لذلك جاءت الألوان مائلة حيث تميل العين. وأن الرسم هو خلاص عبد الله في هذه الحرب. لماذا لا؟ انه كالذين لم يمسكوا قلماً في حياتهم إلا لتسجيل مصاريفهم. أخذوا يدلقون على الورق غضبهم وحزنهم كأنهم أرادوا محاورة الآخرين من القبر. يبدو أن جمودي هذا فسره عبد الله على النحو التالي:" ما في حدا شاف هاللوحات إلا واتـ سر سر سر سر ربل " وكانت جهينة قد اختفت اسمع صوتها يأتي من غرفة التنور.

" الكل يقول يا ريتني أوقع شهيد حتى ترسمني. قبل ما الشباب يروحوا بمهمات فدائية بيدقوا باب البيت بعرف... لكن شو بدي أعمل، بغالب دموعي وكل

حزني، بحصر المي بلطشة، بلطشتين، بجيب الوجه وبحط اللوحة على جنب واللي بيستشهد الأول برجع للوحته الأول.. وبصير بتأنى فيها ".

أسأله:" اذا كانوا يرون لوحاتهم قبل استشهادهم؟".

" أي طبعاً في واحد قال لي بدو شواربه أكبر. وأخذها على البيت وتصور حدها قبل ما يستشهد بيوم، وهلق يللي بدو يعرف اذا ابنه مع الحزب بيجي وبيسأل إذا معي صورته. كأني صرت شارلك هولمز".

لم أعد أتأمل اللوحات. التفت متصنعة البحث عن جهينة. وأترك المزبلة التي كانت تون أيضاً بالبعوض، الحق بجهينة التي وقفت عند الباب الخلفي، حيث أم عبد الله وأخرى كانتا تغليان السفرجل لتحدثني المرأة التي لم اتبين من هي وكانت تسد انفها بكفها من جراء البخار المتصاعد من الدست. رغم أنها كانت ملثمة بمنديل أبيض الا ان كلامها اتى واضحاً: «شو يا ست اسمهان شفت صور المجانين. شفت صغر عقلهم.. اللي ذبحوا قلب اهلهم ذبح. الواحدة بتتعذب وبتحبل فيهم وبتخلف، وتقحط خرا البقر كرمالهم وبتربي واللي بموت الف موته حتى يدحشلهم بتمهم رغيف خبز وبيشحذلهم حتى يعلمهم ولما بيطلعلهم شوارب بقولوا بخاطركم صار بدنا نروح». أكملت جهينة الأغنية:" بخاطركم صار بدنا نروح استروا ما شفتوا عنا ".

– " والله صوتك حلو يا ملعونة ". بادرتها إحدى النسوة.

صاح الرسام: خـ.. خـ... خليصيني انت وحكياتك..

... ونحن لا نزال واقفتين سمعنا من ينادي من بعيد:" يا جهينة " ثم ضحكات ثم " يا مظنطرة تعي لنشوفك ".. بنات بملابس ملونة وقفن في فسحة بيت على تلة يسألنها:" مين معك يا مظنطرة". وكأن دعابهن قد مسها كالسحر إذ أخذت جهينة تضحك هي الأخرى وتحييهن:" طقوا موتوا ".

ثم سحبتني وهي تودع الرسام عبد الله وأمه التي ما ان رأتنا حتى اقسمت لنبقى ضيوفها لوجبة العشاء. فأجابتها جهينة : " باننا ما زلنا بلا غداء، لكن ام

الرسام تتجاهل ردّ جهينة وتطلب منا انتظار ابنها شوقي ريثما ينهض من قيلولته حتى يصحبنا بسيارته ". يتدخل الرسام:" ليش ينطروه منفيـ.. منفيـ.. منفيقلكم إياه " تشهق امه مدافعة: " لا. لا. حرام نايم وعم يشخر من كل قلبو... اتركوه ".

يمشي الرسام معنا، و جهينة تأخذ الجهة الأخرى، حيث البنات عند بيت التلة. أسألها عن هذا البيت، وجهينة تحزر حيرتي:

"اني لم اتعرف على بيت ابو احمد لانهم قد قاموا زيادة مستودع ومعمل وغرف للعمال وبأن البيت صار من الجهة الثانية ". يشعر الرسام أخيراً بأننا متوجهتان الى بيت التلة فيودعنا قائلاً " " مع السلامة " . وكانت البنات لا يزلن يداعبن جهينة بالكلام والضحكات، يقلن لها:" امشي عدل يا دلوعة، حاج تميلي عالجهتين، مفكرة حالك مادونا يا مخلوعة؟" وهي تجبيهن أيضا بالصياح وبالقهقهات إلى أن وصلنا اليهن... عرفنني للتو وقبلنني، بينما اعترفت بيني وبين نفسي اني لابد اعاني من مرض النسيان فأنا لم اكن اعرف انهن كن ثلاث بنات.

أقسمن ان يأخذنني الى بيتهن وهن يحاولن أن ينزعن الكوفية التي لففن بها افواههن. لكن جهينة تعترض: "بان لا يتركن عملهن وتطلب اي شيء بارد حتى تشربه؟».

تقول احداهن:"والله واجبنا نجي و نقلكم الحمد لله عالسلامة. بس الشغل لفوق راسنا هون". ندخل غرفة واسعة، فيها نساء وفتيات. تتقدم احدى البنات من صندوق عريض، ما ان رفعته حتى هبت برودة من التلاجة التي كانت تحفظ قناني ماء وأكياس وابريق من فخار، فوق ألواح الثلج.

امرأة مسنة تقترب تقبلني من كلتا وجنتي تسألني عن جدتي وهي تخبئ وجهها بمنديل ابيض لا يظهر منها سوى العينين. تقول لها احداهن:" روحي يا أمي، لكن الام تصر على مساعدتهن وهي تتمتم باسم الله الرحمن الرحيم. ما ان تمد يدها تتناول رزمات الحشيشة الذابلة من باب صغير يطفح في شجيرات الحشيشة وعيدانها، بينما تبادرها إمرأة أخرى كانت تمسك منخلا تغربل به فتات

الحشيشة وكأنها نعناع مجفف ترشه فوق سلطة الملفوف، بان الفلسطينية سألت اذا كان الاجر هو واحد للامهات وبناتهن.

لم تجبها المرأة المنهمكة بالغربلة للحظات ثم تتمتم: » لا اعرف » وكانت قد اعتادت عيني على العتمة في هذا المستودع، فرأيت صبياً متشبثاً بحديد النافذة من الخارج ينادي أمه. ثم يقوم بتقليد كل جملة أو كلمة أو زفرة تصدر عن النسوة. يبدو أن أمه كانت إحدى المرأتين المنهمكتين فوق طاولة شريط المنخل تمسكان خشبة كممحاة اللوح أو كفارة النجارة، تدفعانها بقوة على الحشيشة لتفرمها الى قطع صغيرة تنفذ من خروم الشريط الى الأرض المبلطة. أمسكت النسوة بالحشيشة لتغربلها او تنقلها من مكان إلى آخر وهن يتمتمن: " باسم الله ". والولد يردد خلفهن مقلداً.

كن ينقلن الحشيشة المفرومة في الرفش الي مناخل أخرى يمسكنها بايديهن وينخلنها، وينقلناها الى مناخل اخرى اكثر نعومة حتى تتساقط من بين الخروم وكأنهـــا طحين بني اخضر اللون، بينمـــا تتنقل ام البنات الثلاث من طاولة إلى أخرى، تتفحص نعومة الحشيشة أو خشونتها دون أن تنسى أن تبسمل. وكلما بسملت انتبهت النسوة وبسملن بدورهن حتى خيل لي أنني في معبد لطقوس ديانات قديمة.

في ظل هذا الغبار والبسملة وصوت سميرة توفيق، تدخل صبية وفي يدها طفل يبكي تتناوله منها امرأة كانت تفترش الأرض بثوبها الملون وهي تهلهل فرحة:" إجا البوبو.. اجا لعند أمه.... ! " تسحب صدرها من فتحة فستانها الذي كان يخبئه ايشارب أسود.

كانت جهينة تنتقل من امرأة إلى أخرى تضحك لهذه وتغمز تلك وتنظر الى من حين الى آخر. يطل رجل لا يشبه رجال قريتنا، يتحدث مع أم البنات الثلاث مكتفياً بهز رأسه يمنة او يسرة. في هذه الأثناء يعلو صوت جهينة صارخا:" يا ويلي ام أربع وأربعين حد اجرك يا سنية ". ولولت سنية تبتعد راكضة وعندما

اصبح الجميع عند الباب تراجعت جهينة " عم كذّب عليكم ".

بعد أن هدأ الجميع من لومهم لجهينة ثم ضحكن على انفسهن وخوفهن من أم أربع وأربعين نادت المرأة التي لم تزل تحمل رضيعها بين أيديها: " وحياة النبي يا جهينة تحملي عني البوبو. خيفانة من شي عقربة. بدي صلي صلاة الظهر".ثم توجه كلامها الى ام البنات: «يللا خللي الرجال يروح بدنا ناخذ راحتنا ونصلي».

في طريق عودتنا شاهدنا الرجل الذي كان يتحدث مع أم البنات. تلقى جهينة التحية عليه بكلمة " سلام عليكم " فيجيبها " سلام عليكم أسألها». "اذا كان بيفهم غير كلمة السلام عليكم؟".

" صار يفهم كل شي" وأخذت تخبرني كيف تحول الى مدار الشقفة في الأيام الأولى لحلوله في الضيعة قادما من أفغانستان. الكل يسأله اذا كان مشتاقا إلى أهله، وإذا كان يأكل بما فيه الكفاية، وإذا كانت البطانيات كافية".

" من افغانستان؟ هون مش معقول ".

لم تفهم جهينة ما أقصده إذ تجيبني بلؤم:" شو، وإذا من افغانستان؟ عم يجوا من أميركا الجنوبية، والله هني علمونا عالكوكا. ماحدش كان يفهمها. وعم يجوا كمان من نيكاراغوا بدهم يبادلونا بالسلاح، شو ناقصنا. هني فكرك احسن منا؟ لو بتشوفي ها الأفغانستاني شو بلقوط ويجمع. كل شيء، حتى سدادة البيبسى كولا. وتنكات الكبيرة الفاضية. كل الأجانب نتنين. بحاسبو على القرش ". وحكت لي عن الرجل السويسري الذي كان يساعد في معمل الهيروين وكيف يسجل على بيت فلان حتى أجرة السرفيس ولا يشتري حتى الشاي ".

أتحسس زهور الخشخاش التي ماتت وأصبحت كقطع من قماش الحرير في جيبي. ولم اتكلم إلا عندما وصلت البيت لاطمئن جهينة وهي توجه الى نفسها الدعاوي لأنها تأخرت في العودة ولم تساعد نعيمة في شغل البيت، اسمع صوت جهينة تخبر جدي بتفاصيل اليوم وبتعليقها بأني احب الناس.

تجيبها نعيمة:" كلها فهم، لو كانت رجال، كان ما حدش استرجى وأخذ عود من الأرض".

اسرع إلى الغرفة أرتمي علي سريري. اسمع صوت جدي وصوت جهينة تخبره بأني تعبة. ثم صوت زمزم، ثم صوت نعيمة. أخيراً يدفع الباب وتدخل جدتي التي بادرتني:" شو يا حبي ويا مهجتي. يا قلبي ويا فكري. شو تعبانه. بدك يسخنولك مي تتحممي غابت الشمس "أجيبها بأني اريد ان اغمض عيني قليلا. حينما بقيت جالسة عرفت انها تريد أن تقول شيئاً آخر. فأغمضت عيني، تجيء بالمنشفة من على طرف السرير تغطيني بها، وأيقن ان كلامها يتململ في صدرها، ومع ذلك بقيت مغمضة العينين. تتنحنح وهي تعود تجلس على السرير، لتسألني اذا كنت ذهبت مع جهينة ازورالبكوات ". " بكوات. أردد بسخرية وكلي شجن، من هي الشخصية المهمة؟ أخ الرسام شوقي الذي يسبح بمسبحته وفضلات الأكل عالقة بين اسنانه ام انها تقصد بيت التل والحراس الذين تفرقوا هنا وهناك بينما صوت يصدح، يحارج، يتوعد. ثم يساير ثم يتفق على الشحنة مع رجلين يركبان السيارة الفخمة التي يهبط دولابها في حفرة والآخر يرتطم بالربوة... بكوات؟ ابن موسى وحماره؟ المسلح وبندقيته؟ بائع الكاز وتنكته؟ أغمضت عيني وأنا افكر بأن زمن جدتي قد انضمر كذلك الأراضي. " شفت الشجر متل عيدان الحطب، وشفت الخشخاش بدل الثمر؟ والدنيا كلها تبدلت " لم أعلق على جملتها هذه بل بقيت مغمضة العينين الى أن سمعتها تسأل عن رأيي بجهينة؟ ملاك أو شيطان "؟ عندها افتح عيني وأقول متجاهلة ما ترمي اليه: " ما بعرف "، كنت أفكر بأن اضع اسطوانة واسمعك يا بيلي هوليدي كنت أود أن الغم سيكارة حشيشة وأقفل الباب علي وأصبح في عالم آخر.

رغم أني لم أفعل هذا وجدتني ابتسم لك ولروحية. أعرف أكثر من أية مرة لماذا انتما قريبتان، صوتاكما اللذان ينشدان المراثي الدينية. لأنهما متصلان بالحياة. ورغم ذلك فإن الشهوة والحس كانا يدخلان به ويختلطان بكلماتكما. انتما تبشران بدين يخصكما. انتما من الأرض انتما من أمهات الأرض.

عزيزتي جدتي

أعرف أن جهينة وجدي متواطئان. مجرد أن أصفهما بالتواطؤ لا بالعشق، معناه أن هناك حيرة. فنحن اعتدنا على جدي ان يقع في الغرام من قبل، وينام في السرير منادياً، شاكياً ماداً يده إلى قلبه. اعتدنا عليك تطمئنينه مبتسمة بأنه سيشفى هذه المرة، تبشرينه بأنه لابد أنه سيقع في حب أخرى ككل مرة. إذ ينتفض القلب كأنه يرقص يميناً وشمالاً وهو يبحث عن أخرى. عندما كانت تطول مدة عذابه كنت تواسينه، وكأنك تهبطين بالسيف على عواطفه الرقيقة، فتلغينها بحركة من كفك قائلة: " كل شيء يتبدل، هيك سيرة الدنيا، ينضج الثمر. الغصن يصبح مثل العود. ورق الشجر يتساقط ويعود لينبت. الشجر وكل شي يتغير ". الحيرة الصاعقة هبطت علينا، فاجأتنا بنورها وبهرت أعيننا ولم نعد نعرف ما بين جدي وجهينة. فهي صغيرة، ومع ذلك راضية ونحن قد اعتدنا على ما نرى على السطح. لحاقه بهن وتمنعهن، ما نسمعه في الخفاء، ما اكتشفناه بواسطة السنة العجائز الملتوية بأن العازبات كن يرفضنه فقط من أجل معزّة جدتي. فالزواج من رجل متزوج ليس هو بالكارثة ولا هو الزواج المثالي، لكن لا بأس، فجدّي تعززه أراضيه الشاسعة وضحكته وسيرة أجداده المحفورة حتى على جبين أي مولود.

أذكر أني وجهت لك اللوم بيني وبين نفسي لقبولك بهذا الواقع، وعندما أخذ هذا الشعور يزداد ويطفح فاتحتك بالأمر. وإذا بك تشرحين لي المسألة وتحسمينها بدقائق. لتتركيني أخبط بأرجلي وبكفي فوق فخذيَّ من شدة الضحك كلما سمعتك.فرؤيتك للأمور كانت عجيبة. من منظار خاص جدا. من حدقة عين خاصة. من ذبذبة طائرة. تدخل رأسك. لا يراها أحد سواك. تقولين لي ووجهك الأبيض

الشاحب لا يعكره سوى شريان أزرق وسط جبينك.

«الطبيعة يامهجة فؤادي، قاعدة مش بلا شغلة وعملة. هي متربعة عالعرش، بتناظر وبتدئدس وبتشم وبتلم وهي عارفة أنه أنا لم يعد عندي ولا بزرة بعد بزرة أمك وبزر اللي اجهضت. الطبيعة كل عمرها تعرف ان جدك عنده بزور قد بحر.اللي كل ما بشوف ست حلوة حتى تتنشط وتشتهيها ولسان حالها يقول يا ريت منتعرف على بزراتها حتى ننبسط ونصبح " بنابين " صغار، صبيان وبنات بدل مانحنا محشورين بعتمة هالجسم بين اللحم والشحم والدم والعصب، بس المشكل أنه في جسم جدك ايضا العيون والتم والمنخار وأكثر وأكثر، في الفكر.كل ما يتمادى جدك مع ست بينزلوا هؤلاء مواعيظ: " شو عم تعمل؟ ليش في بالدنيا كلها متل عيون سليمى. وحدا بيحكى مثل سليمى، حدا ريحتو متل ريحة سليمى ". حتى العقل اللي عامل حاله لا علاقة له، كأنه لابس قميص مبهبط عليه، بيبعد عن صدره كانه حران. يتدخل بالموضوع: « أنا ما خصنيش، بدك تحب وتقوم وتنام مع واحدة انت حر، بس معزة سليمى عندي معزة خاصة ". وهكذا الحرب متل ما أنت شايفة بين بزر جدك وبين الفكر والعيون والتم والمنخار هيك كل الوقت، وبعدين ما تنسيش يا مهجة القلب أنه جدك مسكين، فوق هالبزرات اللي بيتلصصوا كل الوقت من الشباك، بينغزوه يمين شمال، يدير وجهه ناحيتي... مع الاسف لا يجد عندي ولا نصف بزرة».

كنت أسمعك تستطردين.. ولا أتعجب، فأنا قد اعتدت على هذه الرؤية الخاصة بك منذ الصغر، منذ أن سألتك يوماً وكنت في التاسعة من عمري " يا ستي أصلنا من الجناني؟" ولما التقت عيناي بعيني زمزم علقت بسرعة: " يعني انا وأنت؟". انتبهت الى نظرتي فركضت كالصاعقة تعانقينني وتغمرنينني.ثم ناديت بأعلى صوتك.:"تعو يا عالم يا هو، اسمعوا اسمهان بتسأل إذا كان اصلنا من الجنـــاني". ظننت أني اكتشفت السر وانت تفشينه، إذ قربت فمك من وجهي

وقلت:" كيف عرفت؟ " اجبتك:" نحنا غير العالم ". والتفت الى زمزم وأضفت:" لكن زمزم أصلها مش جنية؟" عندها فرقعتِ ضحكة وهتفتِ: يا عالم يا هو تعوا اسمعوا معلوم معك حق، زمزم أصلها مش من الجناني، عم تتعلم ". وكأن هذه الجملة اغضبت زمزم فنهضت قائلة:" بسم الله الرحمن الرحيم، نشكر الله بس والله عم تكفري يا ست» لتجيبها باستعلاء:«فكرها اننا مش من هالدنيا، مش فكرها بالجن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". ثم تسألينني بكل جوارحك: ليش بتفكري اصلنا جناني؟ ". فكرت قليلا إذ كان من الصعب أن اشرح لك لماذا؟ فأنا لم أر قط جدّة مثلك، ووجدتني أقول لك: وماما اصلها مش من الجناني ". ضممتني الى صدرك، وعندها شممت رائحة ماء الورد الذي كنت تمسحين به وجهك ورقبتك وصدرك كل يوم وهمست: "معك حق، بس انا وانت ". فكرت أني تملصت من الشرح. لكنك عدت تلحين علي تريدين الجواب؟ بسرعة البرق مرت بخيالي صور لم استطع عدها أو اللحاق بها من كثرة ما حوت من تفاصيل. صوتك كان يرافق هذه الصور وانت تصفينها على هذا الشكل: روحي صارت عبارة عن دخان وغيوم في قلب صندوق في قاع البحر....

كنت أراك في الليل تقتربين من فراشي بقميص نومك الطويل الأبيض، شعرك الأسود المجعد يحيط بوجهك البيضاوي الأبيض تقتربين على رؤوس أصابعك تغطينينني حتى رقبتي وتقبلينني أينما كان. لكني لم استطع وصف ما شعرت به أو تصورته بالكلمات. وعند الحاحك العظيم اجبتك إني لم أعرف جدّة مثلك، ثم انتبهت أن كونك جدّة لا يعني لك شيئا إذ كنت تقولين دائماً: اسمى هي مش بنت بنتي. ولابنتي اسمهان هي أنا وصغيرة". ووجهك لم يزل ينتظر الجواب، وأنا لم أشأ إلا أن أبدو خارقة الذهن. رددت اذكرك كيف ابعدتي عني المرض بأن قطفت ليمونة حامض ما زالت خضراء وقمت بعصرها في الحساء، ثم فركت لي انفي بفص من الثوم.

وقتها لم أقل لك أنك تدورين في الليل ولا تنامين وأنا أتقلب في فراشي ولا أنام، كأنك تعيشين في الروايات التاريخية التي تقرأينها والتي قرأتها.أهدس بهاليسا مؤسسة قرطاجة، بشجرة الدر، لأن شعرك المجعد كان أحيانا يشبه شجرة خضراء وارفة. هذا الفستان الطويل الفيروزي كأنك اخذته من منمنمات فارسية لوناً وشكلا. أكمام عباءتك كأنها عباءة فتاة غسان، أنت الملكة أروى بنت احمد تسير في أزقة جبله العالية، عيناها تستنطقان حتى الأحجار مع فارق واحد فقط، انت تجوبين في السيارة التي لم تكن تمت اليك إلا بلون مقعدها النبيذي الباهت، ومع ذلك كأنك تطيرين من على المقعد، مكانك في تلك الفسحات المظلمة نوعا ما.

لكني وصفت لك وجهك منذ سنوات. كيف لمع كجنية تحت نار الرعد وكأني أخيراً ابشرك بوجود كنز في شعري، وكان القمل قد غزاه. وقتها قالت زمزم: "يمكن انعديت من بنت الحاجة نظر، ما انت وياها كنتو بعيد الشر مثل الخاطبين " لتجيبيها بتأفف:" ولو هيك بيحكوا مع بنات المدارس، شوها المنطق؟"، وعندما ايقنت زمزم اني لابد امسكت شعري وانا اتناول الطعام حتى نهرتِها مرة أخرى، وانت تحدثين نفسك بانه يقفز من راسٍ لاخر والانسان سيزور القمر قريبا ولم يفلح في ابادة القمل. عند كلماتك هذه، لم اعد اخجل بأن القمل هو في رأسي بل اقتربت وجلست بين يديك وأنت تقلبين خصلات شعري، وبعد صمت وهمهمة قلت:" الست عم تتمشى هويدلك يا هويدالا، مش عم تزيح عن حز الشـــعر، كأنها نفر جيش " وهرعت زمزم تكب على رأسى وقالت:" أى والله حاشا الله ". واكملت انت:"لو بتشوفيها يا اسمهان هالقملة ضايعة بين أمواج شعرك، عم تتفيأ وتظلل بريحة المستكة والنعومية ". وأخذت اتبين الفرح الذي يعمك. لا أفهمه، ثم اخذت تحاولين ان تسحبين الصيبان من شعري، وعندما تململت قلت:" عم بسحب الصيبانات قبل ما يفقسوا ويصير برأسك جيش قمل وياخذوك محل ما بدهم ".

" صحيح يا ستي؟".

" أنت عارفة انه مش صحيح، بس يمكن صحيح شو قولك؟".ثم تستطردين: سبحانه كيف فكر بالقمل حتى يعيش بالراس ويفقس البيض؟ والقمل بيتغذى من جلدة الراس وحماوتها، ولما بيزهق بنط على رأس ثاني، امنت بك يا ربي ".

أفكر بجملتك واتخيل رأسي الآن غابة وفيه المخلوقات، تعتاش وتتزايد. لكن اسعاف تقول: " نسيت الكاز " فقاطعتها صائحة:"بانك تفضلين قطع يدك على صب الكاز على رأسي. تساءلت:" مشان الريحة يا ستي؟" اجبتني وأنت تطقطقين عظام رقبتك:" مظبوط كلامك، مشان الريحة ومشان جلدة راسك الطرية، ما هي مثل الأسفنجة بتمص، ربما شرايين راسك شمت الريحة وداخت وما عادت تشتغل؟".

وجلست كالعادة على طبلية الحمام هذه المرة اخفي أسفلي من الشعيرات الصغيرة التي نبتت. كنت أعرف انك تتأملين وتحفظين جسمي كله. وتشعرين بالفخر كلما تبدل شيء ما به. كأنك انت التي تقومين بشدة طولا وعرضاً. انهضتني من على طبلية الحمام وطلبت مني القرفصة في طشت الغسيل، لم اتبين علاقة الطشت بالقمل الا عندما اخذت تهتفين: «هيدي» واحدة وتسحبينها من طرف الطشت، «كمان واحدة»، وعندما ينساب الماء من النربيش الذي حكمته في الحنفية لثوان وأنت ترين شيئا اسود يعوم في الماء أو على ظهري، كنت تهمهمين " يللا، يللا، اطلعوا بره، عم نحمم الست اسمهان."

أتأمل القملات وأعدها، تسع عشرة، وانت مازلت تهمهمين: "يللا أغرقوا، موتوا، اغرقوا". ولم تتوقفين الا بعد ان فقدت الأمل في رؤية واحدة ولم اكن أرى وجهك لكنى استطيع تخيله مركزاً مهتما كراعٍ وغنمه او كحارس وسجينه. ".

ختنقوا". ثم كلما نظرت الى المشط فرحت وغنت:" يا صبيان عم تعلق بين الخيط وبين السن ومش حتولد إلا قشرة الجن".

دخلت الى هذا البيت اسمهان ذات اللسان الحائر، الذي لا علاقة له بالأعضاء الأخرى، ينتفض كلاما ولا يهدأ. كلاماً كاذباً. فهو قد اعتاد على تبرئة نفسه وتبرئة امي واحيانا تبرئة اسعاف.

فهمت انت هذا وحاولت ان تعيدي اسناني الى فمي وتجعليه مطيعاً للأعضاء الأخرى، للأذن وللعين وللعقل وجعلته يهدأ ولا ينتفض، خاصة اني لست بحاجة لأن أغطي على جرائمي وجرائم امي وإسعاف التي كانت الصغيرة.

قدر فرحتي بالاهتمام الذي صبّ عليّ وكأنني معدن لم يعرف لونه وجنسه قبل أن يدلق عليه السوائل لاكتشافه قدر ضيقي منه، بوجوده فقط اخذت تضاء الأنوار، وتستسلم العين للنوم وللراحة. فأنت كنت تبالغين عندما هجمت تصعدين على حائط المصطبة لترمي بنفسك عندما سمعت صراخي وصراخ نعيمة وزمزم ما أن وقعت من على شجرة التين. ولم تكوني تبالغين عندما كنت تطلبين مني ألا ادخل المرحاض اثناء توعكي بل تأتي لي بوعاء ابيض الى الغرفة فأسألك إذا كنت لا تريدين ان يلفحني الهواء اذ كان الهواء هاجسك كذلك الشمس. وهربت. لكنك كنت تنتظرينني حتى افرغ من الوعاء الابيض وفي يدك عود من غصن شجرة، تفحصين مافيها حتى تقرري مدى توعكي فتنادي الطبيب أو تنتظرين يوما. ثم تفتحين عيني وتقومين بعد الشرايين في بياض العين، تفتحين لي فمي وتكشفين عن لساني وتطلبين مني أن ابصق لتلمين بمدى قوتي وعافيتي.

فأنت بانتشالك لي من مدرستي السابقة وادخالي مدرسة اخرى علمانية كأنك قشرت جلدي حتى بان جوهري وأخذت استوعب القراءة والكتابة بعد ان كدت لا اقرأ ولا اكتب. اخذت امسك كتبي وعليّ يمسك لي وسادة حتى أجلس عليها خوفا على مؤخرتي من قساوة خشب المقاعد المدرسية ثم ينقلنى بالسيارة وكأنني سندريلا ذاهبة الى بيت الأمير في مريلة نظيفة.

ولم أكن التلميذة الوحيدة التي كانت تقلهاالسيارة الخصوصية بل كثيرات.

بينما في مدرستي السابقة كانت هناك تلميذة واحدة لا تأتي مشياً على الأقدام انما بعربة يجرها حصان ويقودها جندي في ملابس كاكية خضراء تشبه لون عربته. بدلا من الإسراع الى البيت لتناول طعام الغذاء الذي لم يكن حاضرا دائما، بدلا من سماع شتائم أمي وإسعاف، أخذت أدخل غرفة طعام المدرسة حيث تجيء زمزم قبل أن يقرع الجرس بقليل وتقوم بتسخين طعامي على بابور كاز تأتي به من البيت وتجلس قبالتي لتتأكد من اني اقبل على إنهاء صحنى كله، وما ان تجمع كل ما أتت به في حقيبة جـلدية كانت تدفع لي بالصابونة الزهرية وبمنشفة صغيرة حتى أغسل يدي وأجففهما. هكذا والبنات يتكومن حولى مندهشات. وكأني بمدرستي هذه، وبحذائي الجديد وبكل شعري وبكون امي تعيش في أمريكا، دهنت عقلي بدهن اللوز فأخذ يتوهج بتلميعه.

تجلسين في فراشك وانت تأنين لتخبط أفكارك فانا أكبر وافلت عن انظارك وأتوه في بيروت الكبيرة.

تأنين لأن قلمي توقف امام معضلة حسابية ولم استطع حلها. وعندما اقرر الاستعانة باستاذ حساب هو من ضيعة مجاورة لضيعتنا تمنعينني معلقة بأنه سوف يظن نفسه أنه كسرى بن أبى شروان. فأنت قد رأيته مرة يحتمي بمظلة سوداء كبيرة. ولم اجبك ما دخل كسرى بن أبى شروان بالمظلة والمطر والاعتداد بالنفس، اذ لم اعد اطيق تعليقاتك وسخريتك بالناس. لكنك تسألينني بكل حماس ان اشرح لك هذه الأرقام حتى تساعديني في حل المعضلة وقد جعلني غيظي افتح لك الكتاب وأطلعك على ما أريد حله. فعدت تطلبين أن اشرح لك لماذا هذه الأرقام؟ وبدلاً من أن يزداد غيظي وجدتني أخاف على عروق رقبتك من الانفجار بعد أن نفرت. خفت على عقلك الذي أبى أن يتراجع وقلت لك مبتسمة لو أنت تعلمت الحساب لكنت ساعدتني بالطبع، أذكرك كيف كنت تقومين بجمع وطرح التواريخ حتى تصلين الى السنين بسرعة مذهلة.

أعود إلى البزور التي يبدو أنها في عائلتنا ليست كما هي في كل عائلة، فهي لا تقفز دائماً كحبيبات الذرة، كما في حالة جدي، بل تدخل في السبات العميق وتشهد الحقيقة في حال أمك التي بعد مضاجعة والدك لها أسرعت لا لتحقن البابور وتغلي الماء وتغتسل كما هي العادة، بل لتضع البزور في مرطبان زجاجي وتأخذها في عتمة الليل الى تربة شجرة التفاح التي تحيط بالبيت، فتحفر بأصابعها عميقاً وتودع بها المرطبان الزجاجي وتطمره مطمئنة. حتى إذا حملت أثناء رحلة والدك التي كانت ستبدأ عند الفجر ولأشهر طويله ألى بلاد العراق والنجف نبشت هي عن البرهان وهو مطمور تحت شجرة التفاح.

كانت الطقوس تحوم حول هذه االبزور في عائلتنا. وكان كل من في البيت يعرف بأن عليكما التطهر منها، لكنك كنت تنتظرين في فراشك لربما علقت واحدة منه بواحدة منك وحملت بغير أمي، فتنادين زمزم ما ان يفتح جدّي الباب حتى تقوم بتسخين الماء. وأعتقد أنك كنت تعتزين بهذا النداء، حتى يعرف كل من في البيت أن جدّي لا يفارق فراشك. حتى زمزم كانت تتواطأ معك، فتقرفص حتى تحقن بابور الكاز بكل قوتها، حتى يهدر بشدة، كأنه يود أن يصيح على الملأ لماذا هو يقوم بغلي الماء.

عجيبة بزور نساء عائلتنا.أمك حملت بك فقط. وأنت حملت بأمي، وأمي حملت بي وأنا لا بدّ أني سوف أحمل بأنثى. رغم أني شرحت لك مراراً بأن بزرة الرجل هي التي تقرر المولود،ومرارا علقت وكأنك تتلين علي سراً لا يعرفه سواك: نحن نساء العائلة لا يستهان بنا، نعرف ماذا نريد. لو احاطنا الرجال لربما كنا في الزاوية نبكي من القهر. وعندما اجبتك بان امي اصبح لديها الشباب وهي ليست في الزاوية تبكي،هززت رأسك:" الأولاد البعاد بالغربة هني لهيديك البلاد مش لأهلهم»

جاء دوري الآن حتى أخبرك كيف ورثت عنك وعن أمي الشكل وبعض الطباع. إنها الخلايا التي تسبح يا جدتي والتي فيها صناديق والصناديق فيها

اشكال كالمقص إنما يغلفها شعيرات كالفرو. هذه المقصات تحفظ شكلك وطبعك، وشكل أمك وطبعها. فتلعب «الطرة والنقشة» لأنها تضجر من الرتابة أحياناً، فتدخل عليها أشكالاً وطباعاً أخرى. يبدو أني ورثت عنك وعن أمي الكثير. حتى تلاوة هذه هي تلاوة قصصك. عقلي يسير على خطى عقلك. رغم أني كنت في الطفولة أحذو حذو أمي.

ليست هذه المرة الأولى التي اضع بها يدي على شبهي بأمي. بأني أريد ابعاد جدّي عن جهينة، بل مرات كثيرة. لكني كبحت نفسي حباً بك. ولا أقصد هنا صفاتي التي بعضها طبق الأصل من صفات امي كضيق الصدر الذي يجعل امي تدلق الزيت في القنينة مباشرة من غير قمع فيذهب بعضه في المجلى وبعضه الآخر على ملابسها....رميها لجميع المفاتيح لأنها لا تستحمل ان تدير المفتاح في الثقب. تركها لادراج الخزائن مفتوحة... ووقوفها بتململ عندما كانت تطلب مني ومن اسعاف ان نجر لها سحاب فستانها وكأنها في طور النزاع. شدها لزر تنورتها وإذا كان لا يفك بسرعه قطعته، شدها باسنانها شريطة شعري التي أرادت فكها. وإذا استعصى عليها ذلك قصتها بالسكين... لم تكن تستعمل المالح بل تحب الغرف بيدها من كيس الملح. نعم كبحت طبعي هذا وقاومته حبا بك. منذ أن امسكت انت برأسي مرة وأنا أضحك ضحكا متواصلاً أمام زمزم، وشددت علي حتى لم أعد أشم سوى رائحة فستانك، ورفعت وجهك الى الفضاء وصحت بالله: " انا العبدة المطيعة الى يوم القيامة. الكبيرة راحت عليها. وهلق الصغيرة افتح عقلها يارب واعمي قلبها. اربط لها الشريان الذي يجعلها تشتهي الضحك. سد أذنيها عن أفكار امها ونكات جدّها الى الأبد".

عندما تزوجت جدتي من جدي وفهمت طباعه اصيبت بالقهر. فهي كانت تكره الضحك والطبع المعشراني. كانت تحكم على من يحمل هذه الطباع كأنه مصاب بمرض عضال ميئوس منه. وعندما ايقنت انها تستطيع إبدال طباعه وباعت كل

محاولتها بالفشل، وجهت اللوم لنفسها لأنها تزوجت به رغم أنها كانت قد سمعت بأنه عندما مات والده أوتى بجدته على ظهر الحمارة، خبأت امه وجهها وأخذت تنتفض. وحين سحبتها النسوه ظننا أنها تتشنج من شدة التأثر، اكتشفن انها كانت تضحك على منظر ام زوجها الميت.

خافت جدتي من ان تحمل بمولود كجدي خفيف الطباع فابتهلت الله ان لا يرزقها بولدْ وعندما لم تحمل لمدة اشهر، قررت ان الله استجاب لدعوتها عرف مسبقاً بأن الولد الذي سوف تحمله وستلده سوف يغص بالضحك ما ان تسحبه القابلة القانونية بدلا من أن يغشى بصراخ الولادة. ولم تشأ ان تطلب من الله اكثر مما طلبته فلم تعد تعاند جدي، وتنتقد ضحكته ومزاحه. بل أخذت تتجاهل ما يضايقها به لدرجة انها لم تعد تسمعه أو تراه. وعندما حملت جدتي بأمي غاب عن بالها موضوع المولود والضحك. وأخذت تفكر بصوت عال كيف سينشأ المولود مالكا الكون بذكائه وعلمه وكرافاته قاتمة حول ياقة قميصه. ستعلمه النطق والمشي منذ الأشهر الأولى. والأرقام والحروف الأبجدية في سنته الأولى. ستعيش معه في بيروت لان القرية رغم وجود المتضلعين في العلم كانت تنقصهم اللياقة. أبن موسى الذي درس في العراق والنجف والذي يستشار حتى من شيوخ الأزهر في مصر، يمسح انفه بكم سترته، يكرع كوب الشراب مرة واحدة.

بعد الانتظار، أتت أمي رغم أن جدتي أكدت أنها كانت تحتفظ بهذه الأحلام لمولودها ذكراً أو انثى. الا أن امي أظهرت علامات طبعها الضاحك منذ الصغر. وكرهت العلم وفضلت الضحك، وتدبيل اجفانها. فضلت صحبة الفلاحات والثرثرة معهن. وأرادت الزواج وهي في الخامسة عشرة من الرجل الذي يأتي ويدوّن في دفتره عدد الصناديق التي كان يعبئها رجـــاله في الشاحنة لانه كـــان يشبه الممثل انور وجــدي ولأنه كان يدندن بلحن لعبد الوهـــاب. كانت تهرب من غرفتها إذ خصتْها جدّتي بغرفة خاصة، وهذا قلما كان يحدث في ذلك الوقت.

ولكن امي شعرت بأنها سجينة هذه الغرفة بعيدة عن بنات الضيعة وعن الضحك. كانت جدتي تريدها ان تجلس وتقرأ ســـير نساء التاريخ ورواية بين مدينتين المترجمة بعد ان يئست من حثها لتكملة تلقي العلم، فهي لم تضغط عليها لان تقرأ مثلها الادعية والأحـــاديث الشـــريفة والقرآن. إذ كـــانت جدتي واقعية، تعرف ماذا انجبـــت منذ أن ابتدأت امي تخطو خطواتها الأولى، وتتكلم.

لا أذكر أني جلست مع أمي عندما نضجت وكبرت لنتحدث بل كنت انصت وهي تروي لي القصص المضحكة التي تحدث لها أو لسواها. لا أذكر انها كانت فضولية لأن تعرف عني شيئاً. وإذا أرادت إظهار اهتمامها بي كانت تقول لي: " أوعى هه... انتبهي على.. هو من ذهب ". كانت تشير الى هناك في اكثر من مناسبة وتقول: " يقبرني... يسلملى منجم الذهب". ولا أذكر اني سمعتها تتكلم بجدية عن أي شيء يخصها أو يخصني، سوى مرة واحدة، رغم اني لم اصدق أثناءها ما اسمعه عندما عرفتها بناصر اثناء زيارتها لبيروت، كانت تمضغ اللبان كأنها مراهقة. لم تكن طريقتها في مضغ اللبان تتماشى مع فستانها وطول أظافرها المطلية ولا مع ساعتها الكارتيه الذهبية. ومع ذلك قالت فجأة وكأنها خطفت لسان جدتي ورنة صوتها وهدوءها:" الله ينور على اسمهان ويحط فيها الهدى، مش لح تلاقي مثلك، بس إن شاء الله هي تلاقي غيرك. بعرف بدك تسعدها مرة وتمرمرها مية مرة من غير قصد بدك تنيمها كل يوم بمحل.. بدها تخاف عليها لأنك عارف بدك تتركها وهي تخاف عليك حتى ولوكنت قريبها. بدو يبطل عندها اصحاب واحباب .الكل راح يخاف يزوركم ويدو يجي يوم بدك تنفذ بجلدك وتتركها وراك ».

نظر ناصر وقتها الي نظرة. فهمت منها ان امي هذه هي اخرى، غير التي حدثته عنها. غير التي وعيت عليها وأنا اضحك على ضحكها حتى قبل أن أفهم الكلام والقصص والمعاني. كنت اراها تخبط على فخذيها وتضحك، تخبئ فمها

وتضحك، تضرب اسعاف على كتفها وتضحك. حتى أيقنت ان الضحك صفة تلازم المرء بكل ما يقوم به، سواء في اكله أو صلاته أوحتى في حزنه.

عندما اكتشفت امي سرقاتي من العائلة التي كانت تسكن في الشارع القريب، اخذت تضحك. كانت تقلب صلاة والدي مشهد فكاهي. فتشبك في بيجامته نيلا في قماش. وعندما كانت سجدته تطول، كانت تحوم حوله تسأله الأسئلة وهو يتجاهلها بصبر. حتى أنها حولت مجيئ الشيخ القارئ عن روح والدي الى حادثة ضحك ويضحك لها الجميع حتى الآن.فهي كانت تقطع عليه تلاوته ما أن تضجر وتقدم له الماء. وعندما تقدم له الطعام تنصحه بأن يتأنى. وما ان يعود الى التلاوة حتى تقترح عليه أن يذهب الى الجامع ربما تقبل الله الصلاة على روح والدي مع بقية المصلين ونال الثواب الاكبر. وعند رفضه كانت تتوسل اليه لأن يكف لطالما هو يقرأ طالما فكرت هي في والدي. ثم لتطلب مني اثاره الجلبة بينما هي تدخل السرير وتنام إذا لم يكن هناك من معزيات أو تذهب الى زيارة فضيلة. وقبل ان تتم مدة الحزن، اقفلت الباب ولم تعد تفتح له بل لتمد معه حواراً ساخراً عبر الباب تنفي أنه كان يزور هذا البيت ويقرأ على ميته. وكان باقفالها الباب بوجهه، فتحت روح بيتنا من جديد واسرعت تباشر في تبديل معالم البيت حتى لا يعود يحمل في طياته حتى ذكرى والدي.

لكن يبدو أني أؤمن بخلايا عائلتنا الخاصة، نحن نساء العائلة. فأنا أريد ابعاد جدّي عن جهينة. تماماً كما كانت تتصرف أمي عندما كانت تأخذ إحدى صديقاتها جدي مأخذ الجد وتبتدئ بالتخطيط ظناً منها أن السيطرة من أسهل الأمور على من يمزح هذا المزاح ومن يملك ضحكة كهذه ومن عنده بنت مصابة بداء الضحك والمزاح حتى وهي تؤدي فروض الصلاة. لم تكن لتعرف الصديقة ان أمي كانت كلها عيونا تنتهي بشوكة عقرب وها انا اود أن أجد له أنثى أخرى استطيع السيطرة عليها تماماً كما كانت تفعل أمي. عليّ أن أفتح عيني جيداً، علي

أن استجلب بنات القرية حتى أجد من تملك ولو شيئاً واحداً مما تملكه جهينة وهو النضارة.

فقد اعتاد جدي الآن على النضارة، على رائحة الفم الندية، لن يرضى كما قبل بأن يقرص لحماً ليس طريا. أو يتغزل بفم فيه سن ذهبي أو سن مقلوع. أعرف ان مجرد أن تحل أنثى بين نساء البيت حتى يعود يفرح من جديد، حتى ولو رآها تتكلم وتسير وتعمل فقط. كما كان يطمع قبل جهينة. أن يمازح ويقرص ويلعب لعبة القط والفأر. لكن جهينة أفسدت العجوز ولا بد أن نعيده إلى اللعبة السليمة، الأمينة.

خلف شعر جهينة و قامة جهينة مخطط لأن تفرد شعرها في كل الغرف وقامتها في كل الشقوق، وصوتها في كل الأرجاء حتى يظل صداه يرفرف حولنا، ويسري في كل شيء بنا، حتى في وسائدنا. فهي تغسل شعرها وتجففه تحت أشعة الشمس فيبدو كشلال عسل. تغسل ملابسها في كل تأن، وكأنها وهي تفرك بها،تذكرنا بأنها ستكون عليها ما أن تجف تحت الشمس، تنشرها كأنها تقول هذه هي ملابسي، هذه أنا معلقة على هذا الحبل، حرة تحت الشمس وتحت الهواء حتى يلامسني الرجل العجوز ويشتهيني.

إنها تضغط بخطواتها ويصوتها على رموش أعيننا. مضغها اللبان يدوي في آذاننا ويحرقص قلوبنا. تتجرأ على فتح حنفية الماء حتى آخرها، كمن يقول لنا في تدفق الماء: " أنا حرة، لا أسأل عن أحد أو شيء ".

أعرف أن مهمتي صعبة. كذلك كانت مهمة أمي من قبلي التي استطاعت أن تستميل حتى " مرت المصابحي " لا للتردد علينا فقط بل لترضى أن تبتسم لجدي.. وتتركه يتغزل بها وتقبل هداياه حتى ان تصل بعلاقتها معه الى حد أن تتساءل لماذا لا يتردد الى بيروت أكثر إذا كان هو فعلاً يهواها كما يقول، وكما توافقها أمي ولماذا لا يدعوها الى الضيعة برفقة أمي لقضاء يوم إذا كان هو فعلاً

يهواها كما يقول وكما توافق أمي، وأمي لم تكن لتختار " مرت المصابحي " لو أنها لم تتأكد من المنافع الفورية. فجدي سوف ينسى ليلى التي أرادت أن تجعله ينسى نفسه وعائلته، بينما " مرت المصابحى " كأنها وردة فوق هرم من الشوك ، أو وردة بين طيات الكتب، مدمنه على الارتجاف خوفاً من زوجها الذي اصبح هو اسمها. فأنا حتى الآن لا أعرف اسمها الصغير بل أعرفها باسم " مرت المصابحي ". وهي بالتالى لن تحاول أن تأخذ اعجاب جدي بها، أوحتى اعجابها به أبعد من جدران بيتنا.

أعرف أن مهمتي صعبة، لا لأنها تكمن في اختيار الأنسب. بل العثور على أخرى والسلام. أية أخرى لن تكون كجهينة. فجهينة نادرة كندرة لوليتا. لوليتا يا جدتي طفلة حزرت الرغبة في عيني الرجل وأخذت تلعب بها وكأنها قطعة لبان مضغتها في فمها ومصت كل سكرها ثم نفختها كفقاعة، ثم " طقتها " لتلصق العلكة بين اصابعها، وتلعب بها وتراقبها وهي تتفتت بين اصابعها. وجد الرجل نفسه تحت سطوتها ونعل حذائها. وجهينه تريد ذلك من أجل ان تأكل البسكوت كما قالت روحية؟ البسكوت والأراضي المحتلة والأراضي غير المحتلة وقلوبنا.

مهمتي صعبة لأنك تعرفين انه لم يعد هناك سرب من البنات متهالكات على العمل ينشدن الأغاني كالماضي ليموهن عن رتابة عملهن مع الأشجار والثمار.

فعندما كنت تسألينهن ان يتركن التراب والثمر ويدخلن البيت الذي كن يرينه من بعيد ليساعدن نعيمة، كن يفرحن متأكدات من أن الله معهن. إذ كان البيت يبدو لهن كالقلعة المسحوره فيه الماء المنعش من برودة أبريق الفخار ورائحة الشواء التي كانت تصل اليهن وهن تحت الشمس، إلى المصطبة الظليلة والمذياع وضحكات الرجل. اما الآن إذا لم يجذبهن العمل في الحشيشة والأفيون، جذبهن اليها مستشفى التوليد الذي تديره نساء يعلمن البنات كيف يصبحن ممرضات. جذبتهن أيضاً المدارس والجمعيات التي أقامتها السفارة الإيرانية، والتي اصبحت

توزع عليهن الدفاتر التي تحمل صورة الإمام الخميني، كذلك التعاونيات والصيدليات الاسلامية وكل الاماكن الذي يتولاها شباب الحزب.

أخذت جهينة ترفرف كالفراشة، إعتادت على وجودك ووجودي في البيت، ولم تكتف بمساعدة نعيمة في غسل الصحون وتحضير الشاى والبابونج لجدي ثم اعداد حصانه، والبحث له عن قبعة الفلين التي حتى الآن لم يعتد أن يتركها في مكان واحد، فأنا لا افتأ أسمع نداءه: " مين شاف لي المنحوسة؟" وكنا نعرف من هي المنحوسة فنجيبه ضاحكات: شفناها عم تتمشى بين الكروم..." أو" شفناها طلعت بالبوسطة عبيروت ". بل أصبحت جهينة تنهض في الصباح الباكر وكأنها تود السيطرة على البيت منذ طلوع الفجر، تخرج من غرفة المؤونة التي جعلتها غرفتها بعد أن تركت غرفة زمزم التي كانت تنام فيها أثناء غيابنا، رافضة أن تشارك نعيمة غرفتها، متحججة بأن نعمية تشخر عالياً. أخذت أنهض كل صباح على الجلبة التي تحدثها جهينة وهي تلحق بالدجاجة، حتى تمسك بها وتذبحها وهي تحادثها ضاحكة شامتة وهي تتشاحن عن بعد مع محتلي الأراضي تارة، وتارة لترسل لهم مع حفيد نعيمة قنينة زيت زيتون وألواح من الصابون الأخضر. وعندما كانت تصرخ بها زمزم أو نعيمة وتشكوانها الى جدي كانت تهزّ كتفيها بلا مبالاة ثم تصيح كأنها نسيت شتمها للمحتلين:بانهم بحاجة الى هذه الاشياء. وكان جدي يستشيط غضبا من جوابها هذا الذي لم يكن يفهمه، بينما تعلق زمزم ما ان تختفي جهينة: «بيتحشروا فيها. شايفين بتنشر كلاسينها وصداريها". فتؤيد نعيمة:" والواحدة لما بتفرجي اللي بخبي البزاز واللي شو اسمه ".

فقط أنت التي كنت تدافعين عنها، متفهمة لوجهة نظرها وهي ان بيتنا اشتهر بعطائه وسخائه وسيظل هكذا ابد الدهر.

كنت أفهم ما ترمين اليه بدفاعك عنها، فأنت قد شعرت كم تغلغلت هي في

عروق البيت في فترة غيابك. أعرف أن كثيرات كن يتغلغلن في كلا البيتين. زمزم في بيت بيروت، ونعيمة في بيت الضيعة. وأنت تفرحين بهذا. إذ كن يأخذن عنك عبء البيت وهمومه.لكن جهينة تغلغلت لا بأشيائه الجامدة بل بجدّي، وكأنها الأنثى الوحيدة رغم الكثيرات قبلها اللواتي كنت تشاركين عبثه معهن. كأنك متواطئة معه بأنهن خفيفات العقل.

كنتما تتمازحان عليهن وكأنكما شقيق وشقيقة أو صديقتان. عندما كان يشبه جدّي لون عيني احداهما بالفيروز، وكنت تنفين أن الأعين يمكن ان تكون فيروزية، فيعاندك قائلاً: "مش كنا نقول عن الفيروز أزرق مثل فصوص العيون؟".

قبل جهينة ايقنت قبلنا ان إعجابه بسواك كان دعابة، وإلا لما كنت انتقلت الى بيروت. بعد ان تزوجت أمي إثر وفاة والدي، واحتضنتني لأقيم معك في بيروت. في بيتك الذي قلما حواك أكثر من أسبوع في الماضي. شممت بي بزرة الذكاء وعرفت أن عدم كوني الأولى في صفي كان يكمن في جو البيت غير الطبيعي. كانا جوّين يشدان بعضهما الآخر وأنا في الوسط، مصلاة والدي من جهة، وغناء أمي من جهة أخرى. وإذا اتفقا معاً على فعل البكاء اختلفا لأسبابه. بكاء والدي كان مخافة من الله كلما جثم فوق المصلاة، وبكاء أمي كان لأن الفيلم لم يكن عادلاً. كان يجب على محمد عبد الوهاب ان يسامح رجاء عبده بدلاً من أن يبكى مغنياً: " ياما شكيت وبكيت ".

لا أحد يعرف إذا كان انتقالك الى بيروت كان من أجلي ام من أجلك ايضاً. أخذت أفهم مع الأيام لماذا اخذت إقامتك في بيروت تطول من غير أن تزوري القرية. فأنت اعتدت وأحببت العيش في بيروت. كنت تعيشين في بيروت وكأن كل ما تفعلينه يبدو من كثرة نعومته وكأنه مغلف بشاشة من البخار. فتنهضين متلذذة بسريرك الذي كأنك لم تنامي فيه، بينما سرير جدي كان يبدو وكأن المعارك تحدث به اثناء الليل. حتى وسادتك كانت نظيفة لم تمس رأسك ووجهك. تتوضئين

وتصلين وتتناولين الشاي قبل أن انهض فاستغرب من الهدوء الذي يلف البيت والذي إذا رمينا على أرضه إبرة، لسمعنا وقعها.

تنهضين متلذذه في الصباح، فاسمعك تخاطبين الشمس أوالغيوم من نافذتك. ثم تحدقين في المرآة وتتمتمين لنفسك: " ربما لم انم جيدا. اجفاني منتفخة ". تأتين بقنينه ماءالورد تصبين منها على شاشه نظيفه ثم تضيعها على كلتا عينيك وتتمددين وأنت تبسملين:" اللهم صلّ على روح النبي وآل النبي، ماء الورد كرائحة الجنات ". ثم تدورين في البيت كأنك تسيرين فوق البيض، بل كأنك تتمايلين.، تنصتين الى الأخبار وإلى الأغاني التي تروق لك. تقرأين الكتب المترجمة أو الأحاديث الشريفة.تتمشين بعد ظهر كل يوم في الحديقة. تستقبلين النساءالوافدات من القرية أو من اللواتي يسكن بيروت. بعد وقت تشعرين وكأنهن عطلّن عليك خلوتك فأنت قدر ما تستمتعين بكل اصغاء قدر ما كنت تصابين بالضجر. إذا كانت الأحاديث عاديه. تفضلين حديثك وأحاديث الذين لم يزالوا يتلقون العلم او من أنهوا تخصصهم من الشباب. تفضلين الأكل وحيده معلله مرة:" حاشا الذي يراني امضـغ الطعام كالبقرة." تجلسين كأنك تترفعين عن الصحن. تمدين يدك بتأن حتى إلى أكلتك المفضله تمضغين بصمت وبشرود كأنك توهمين الذي يراك أنك لا تأكلين بل تفكرين بمسائل في غاية الأهمية. تختارين الوقت الذي ينشغل به الجميع لتدخلي الى المرحاض إذ لم نكن نسمع حتى صوت السيفون. فقط عندماكنت تتوضـأين كنت تستشهدين وتبسملين في صوت عال. تستعدين لليل. لفراشك المرتب من جديد، فتقومين بقطف فله أو غصن عويشقه وتضيعنها في فنجان قهوه فوق الطاوله الصغيرة قرب سريرك. تنادي زمزم لتغلي الشاي الأخضر. فترشفين منه كأنه اكسير الحياه متمتمه:" رائحته فرح للقلب... " ثم تبدلين فستانك الأبيض الطويل بقميص نوم، وتجلسين في غرفتك تنصتين الى المذياع بعد أن تتركي اخبار التلفزيون لزمزم في غرفة الجلوس. فضجيجه كان لا

يتماشى مع ذبذبات هدوئك حتى وأن خفضت الصوت. كان شكل الناس لا ينال رضاك، كنت تطلقين على المذيعة الكثيره التبرج: شو مفكره حالها علاقة ثياب " والرجل صاحب البرنامج الترفيهي:" يا ويلاه على ثقل دمه ".

وإذا جئت من المدرسة ورأيتك معصوبه الرأس عرفت أن رأسك يؤلمك. كنت تعصبينه بخرقة حمراء، قائلة:" حمراء كأنها الدم الذي يسيل في شرايين الرأس. وإذا ناديتني لأنام قربك مقتنعه بأن المك سوف يختفي ما ان اصبح قربك، كنت تضعين شاشه على الوسادة، حتى لا تمس انفاسك عيني كنت تحتضنيني وتقبليننني في كل وجهي ورأسي ويدي ورقبتي وصدري وظهري وحتى على فمي. وأنت تقولين: " يا حبيبتي، قلبي، بيوجعني قد مابحبك" لأرى عينيك وقد أغرورقتا بالدموع.في اللحظة ذاتها كانت تمر بخاطرك فكرة، فتمسحين عيني، ويتبدل وجهك، وتكزين على أسنانك، وعندما أسألك ما بك تجيبيني:" معلهش، الله المسامح الكريم " افهم من هذه الجمله أنك تودين توجيه العتاب لي ثم تبدلين رأيك أعرف أنه الكذب فأنا لم أكف عنه حتى من غير سبب. إذا صدف وسألتني إذا كنت بردانه، كنت أجيب:" شوية. لا " جائعة:" لا " وكنت عند مفارقة البنات اللواتي العب معهن امثل الضجر فأقول:" ياريت بعدني عم العب تحت ". فتصيحين بزمزم كأنها قد اقترفت ذنباً لا يغتفر وتقول لها: " ضحكيها.. سليها. خلليها تأخذ شو ما بدها من علب الشوكولا، من صندوقي، ومن جزداني: " وكان الفضول يأخذني لأفتح صندوقك الصغير، رغم أن كل الذي أراه لا يتبدل، لا يزيد ولا ينقص " دبابيس شعر دبقة، تلمع في علبه صغيرة. صور مكحلة. أعشاب يابسه في كيس من ورق، ورقه في قلب ورقه. في قلب ظرف صغير، ثم خاتم كحلي من حوله فصوص الماسية. اخذ الصندوق الى غرفتي وأجلس متربعه مثلك أكب على الصندوق بانحنائي إلى الأمام كما تفعلين وأتناول المكحلة.. محاولة أن اقلدك كنت تكحلين عينيك وأنت تنظرين في مرآة صندوقك الصغير. دون أن تغمزي بالعين

الأخرى كما كانت تفعل أمي أو زمزم. حدقة عينك كبيره وثابته. ثم اتناول علبه البودرة، أفتح الغطاء الذي رسم عليه أمرأة كنساءالرومان والقياصرة، ما هو لون هذه البودرة كيف لم أره قط داخل هذه العلب التي حفظتها من كثرة ما تأملتها، والتي وعيت على وجودها على طاولة زينة أمي وفضيله. سألتك عن هذا اللون الغريب الذي لا يوجد في الأقلام الملونة، ابتسمت وبكل فخر، أفهمتيني أنك لست كالغنم تنصاعين لكل ما يفرض عليك، علمتني كيف تخلطين ثلاثه أجناس من البودرة، حتى تأتي بهذا اللون. وعندما سألتك كيف اخترعته، أجبتني عالربيع بفرجيك ".

ونظرت في عينيك وقتها. في البؤبؤ الواسع الكبير البني والزيتي اللون، والذي من وساعته يكاد يطغي على بياض العين والذي كان بياضه الناصع أقرب الى اللون الأزرق. ثم تأملت اصابعك النحيله الطويله، وأظافرك القصيره وأكمام فستانك التي تتدلى، تكاد تغطي رسغك النحيل، وكأنك ملكه تميلين وتقطفين وردة.

وكان الربيع قد أتى. وقلت للبرعم: " ما تآخذني يا صغير" ثم فتحت وريقاتها، وقبل أن تصلى الى الزر. أشرت الى لون البودرة، الزهري والرماني والدرّاقي حتى والأبيض. وأذكر انك أريتني نبته "المستحية" وقلت لي أن لا أدع احداً يرى هذا السر وإلا قصفوا لها ظهرها كل لحظة، وكانت " المستحية " خجولة ما أن تلمسها اليد حتى تنشل شروشها وتلتصق بالتراب، تضربينها برفق وكأنك تداعبينها قائلة:" يللا استحي" بعد قليل تنتصب كما كانت. فتعلقين: " بان المرأةعليها ان تخجل عند اللزوم". ألم اقل لك إني لم أرك قط تخجلين بل رأيتك تخشعين وأنت تقرأين في كتـــاب الأدعية وتصلين وتبتهلين دائمــــاً.

تعيشين في بيروت بلا جدي الذي إذا تغنى بالمرأة غنى:

" دخل كيلوتك الأحمر

اللي شراشيبو مش منه

مش قاهرني وموتني

إلا إللي... منو..

والذي اذا جاع استشاط غضبا حين لا يجد الطعام بانتظاره. والذي يود أن يخبر نكاته أو ما يزعجه او ما يراه في أحلامه في أي وقت، ولو كان في منتصف الليل. انتقدك الجميع على عيشك بين بيروت والضيعة، وعلى عدم التصاقك بجدي خاصة وأن عينه كانت تترقرق كلما رأى أنثى، ولم يحزر أحد انك اكثر سعاده وأنت وحيدة في بيروت فأنت قد حزرت أن العيش مع الرجل يشبه الملابس في خزانه عليها ان تخرج بين حين وآخر، لكي تتنفس الشمس والهواء، كنت الح الفرح على وجه قريبتك المغتربة المتقدمه في السن التي تعلمت قيادة السيارات ما ان توفي زوجها، وأخذت تقود سيارتها تزور الأقرباء والأصدقاء وخاصه أمي. أذكر كيف كانت تعبيء النساء والأولاد في سيارتها وتأخذهم في نزهات جميله وإلى دور السينما.

لم يكن جدّي يكتفي في بيروت باللحاق بالمرأة وقوله لها: " نظرة منك بتشفي العطشان " كما كان يفعل وهو في الضيعة ولا أن يبحلق في المرأة الممددة في الحقل وقد انزلق غطاؤها وبان شعرها، ولا ان يتسمر على من تغسل مكبة على طشت الغسيل بين فخذيها، ولا ان يدع عينيه تلتهمان اهتزاز صدر المرأة كلما خبطت بعصا شجرة الخرنوب الجافة، بل على أعلى الزند الممتلئ، وقرصة عل الفخذ وأحاطة جهة واحدة من الخصر. عدا ابتسام التي مالت له ايضاً وبدلا من ان تلقاه في مكان ما كالعادة أرسلت اخاها الى الموعد وهو يرتدي معطفها ويضع الغطاء على رأسه. ثم ليفاجئ جدي والرجل يسألة عن نيته تجاه شقيقته. أذكر كيف عاد جدي لاهثاً يخبرك ما حدث، ناسياً ولعه بابتسام واذا بك تلومين خيانتها وتضحكين عندما نادى جدي:" كنا مفكرين بدنا نشوف النحله اللابسة فستان

أصفر قام طلعلنا الدبور بشوارب سود ".

في بيروت، كان جـدي يحاول تقليـد اللهجة البيروتيه وهو يتغزل بكحل العيون، بأحمر الشفاه بشنيور الشعر، بالكعب العالي، ببطّة الرجل بدلا من كاحل القـدم، بالسيكاره التي في اليـد، بالتنوره الضيقة، وتغزله بالنساء، صديقات أمي، كان يشوبه الحذر. إذ كانت اسعاف تتحول إلى أعين وآذان ولسان يلسع كالنار كلما دخل جدي بيتنا، وتجمعت صديقات أمي عندها ولم يكن يأبه لأن يسوقه تغزله بهن أينما كان، لولا تدخل أمي ولفت نظره إلى إسعاف التي كانت تتعمد التدفيش وقلة الذوق. فهي لم تكن تحضر القهوة عندما. تطلبها أمي، وإذا حضرتها بعد طلب أمي أكثر من مرة كانت تضعها على الطاوله بخبطة وبجفاف وبتأفف باد على الوجه. وماأن تجد إسعاف نفسها وحيده مع أمي حتى تبدأ بالإنتقاد وبالشكوى بأن ما تفعله أمي لا يجوز، عندهاكانت تقسم أمي بأن ما بين والدها وفلانة لا يتعدى طق لحنك، وبأن جدتي لابد أنها اعتادت على عشرته، بل أن كل نساء القرية اعتدن على مزاحه وطيبة قلبه.

كانت اسعاف تذهب بعيداً في تأنيبها لأمي قائله بأنه لا يجوز لشخصيتها ولا ولسمعة زوجها وسمعة بيتهاان تشجع والدها على لقائه مع صديقاتها، وجواب أمي كان صراخاً وتأنيباً وهي تشد شعرها تنفي انها تأتي بالنساء لتسلية والدها.

ويتحول الكلام الى معركة فتمد امي يدها الى شعر اسعاف تود شده من كثرة ما صاحتا ومن كثرة ما علت التهديدات بأن أسعاف ستخبرك وستخبر والدي. ارتعبت وأخذت اشهق وأبكي، وكنت اغشى عن قصد مما جعل أمي تصيح بإسعاف بأن تأتي لى بطاسة الرعبه. فتهرع أسعاف كأنها لم تكن تتخانق وأمي لتوها، فتمد لي الطاسه وتنسيان بلحظة واحده عراكهما وتوجه كل منهما الدعاء بالمرض والموت الى نفسها. صياحهما هذا هو الذي علق بي. فهمت أن ما يجري

لن تباركيه. وكنت أحدس انك لست راضيه عن اشياء كثيره تخص أمي واسعاف وبيتنا، رغم انه عند سماع اسمك فقط كانت امي تصغي للحديث جدياً وتتوقف عن ضحكاتها وقفشاتها كانت تخاف منك. تود التأكد دائماً انك لا تلمين بكل اخبارها وبأنك راضية عنها. يبدو أني أردت التأكد ايضاً من ردة فعلك أزاء ما كنت أراه يحدث في بيتنا فأقول لك الأخبار التي كنت اعرف انها يجب ان تكون محرمه امامك، حتى اني كنت انا سبب قطيعتك الأخيرة مع أمي عندما حضنتني تسأليني إذا كنت احبك وطلبت مني أن اصف لك حبي، فاجبتك: " بحب نام عندك " ممهدة لسؤالك الثاني ليش يا تقبريني؟ " اجبتك وكلي معرفه أنى سوف اندم على ما سوف اتفوه به، لكني قلت ودقات قلبي تسرع. " لأن الماما وأسعاف بيتخانقوا مشانك ومشان جدّي ".

تعصرينني إلى صدرك تستميلينني. تستميليني لأخبرك أكثر وأنا كأني أرمي لك بصة نور وأعود فأغلق على ما أعرف، خائفة من وجهك. ثم ألوذ بالصمت لمدة وأنت تحكمين شدك علي لدرجة أني أخذت اتململ من شدّك على صدري. لم تأبهي لحركتي هذه بل ازداد عصرك لي،كأنك اكتشفت أيضاً أني أحبك وأفضلك على أمي واسعاف. إذ صممت منذ تلك اللحظة على أخذي منهما. فوجهت اليها نصيحتك بصوت ارق من النسيم بأنك خائفة عليّ من سلوكها، وأن بنتاً مثلي حرام أن تعيش في " خان طومين ". وأمسكت بيدي من غير أن تدخلي في الموضوع، واتجهت بي الى الباب وأنا انظر الى الخلف، إلى أمي وإلى اسعاف. وكلي شجن لأنى تسببت في قهرهما .ولم تتركاني أسير معك. انقضّتا عليك لتشدّا بي غير آبهتين بالحدود التي كنت قد وضعتها بينك وبينهما، لتتركيني فجأة وذقنك يهتزّ مقسمة بأن لا تطأ قدماك هذا الخان، أبداً مدى الحياة، ثم استدركت مضيفة: " الا عند المرض او الموّت".صاحت أمي بك انك تودّين الفأل ان يحل على هذا البيت وبأنك تتمنين هلاكنا وبأنك لم تحبيّها قط.

وتوقفت عن زيارتنا منذ ذلك الوقت بينما واظب جدي على زيارتنا رغم ذلك اليوم الذي كنت اتحاشى استعادته حتى بيني وبين نفسي، حتى اني ردمت فضولي لمدة طويلة لمعرفة ما هو خان طومين، إذ كنت خائفة أن استعيد مشاعري الشريرة، إلى أن عرفت بعد وقت طويل بأنه المكان الذي يرتاح به الفلاحون من عناء السفر، ويريحون دوابهم بعد أن يدفعوا تذكرة قرشين ثمن الدخول، فيرفعون أكياس المؤن عن الحمير حتى ترتاح في الليل، بينما يتمدد المسافرون على بطانيات أينما كان ".

إلى الآن لم اخبرك بتفاصيل ما كان يجري كلما زارنا جدّي. كنت ولا أزال خائفة أن تتهميني بخيانتك. وكنت اخونك فعلاً، رغم صغر سني.. كانت أمي تهلّل فرحة بجدّي كلما أطل، تفرح بالخيرات التي كان يأتي بها وتحوم حول علي وهو ينزلها من السيارة كأنها نحلة وجدت الرحيق بينما يقول لها جدّي:" يابا. حاج تبيني على حالك فرحانة بالسمنة وبالدقيق! اتقلي شوى. ما انت متجوزة لأكبر التجار ". تجيبه أمي بالضحكات وهي تهرع إلى العلب والأكياس خوفاً من أن تخبئها إسعاف في مكان لن تحزره.

وجدي يحاول أن يفهمها بطريقة المزاح بأن ليس كل ما أتى به هو لها بل للتي تدلعه، للتي تظهر له الاهتمام والعاطفة. وكان الدور ينتقل من ليلى إلى " مرت المصابحي ". وكان هناك سبب لكل ما يأتيهن به. فيقدم لهن كيس الجنارك الأخضر واللوز قائلاً: "مشان اضراسكن تصرصر متل صرير أسناني كل ما شوفكم. وبدى اتغزل فيكم قد ما في هالكيس من غزل البنات" حتى أنه قال لأمي ان من كانت تملك الصدر الأكبر كانت تنال الحصة الأكبر، وكان يضع قطعة اللحم أمامهن قائلاً:" بتتاكل نية بلا ملح ولا بهار مثلكن. والله لحتى عضوضكم ونجوركن مثل عظام هالموزات". وهن يقهقهن ويضحكن ويداعبنه بضرب كتفه أو يده الى أن تأتي اسعاف فتنشلها منه وتخبطها على البلاطة تدقها.

وعندما كانت تتنافس النساء على هدايا جدي وتتضارب رغباتهن في اختيار الامكنة يشتد عراكهن، كان جدي يهدّد بأنه سينزل بنطلونه ويركض في الكلسون صارخاً بانهن يتحرشن به، عندها كانت تنتشلني يد اسعاف وتأخذني الى المطبخ وهي تبتهل لو أن جهنم تنزل على رؤوسهن.

فضيلة تغني له:" عقال المرعز يابا... شاب صغير... يا بابا وعيونو، عيونو يابا". ثم ترقص، وتفقس اصابعها محدثة صوتا. ولم تكن بلوزتها النايلون الحمراء إلا صدر قميص نوم أرتدته فوق تنورتها. وبدلاً من أن ينتشي جدي من دلعها وإغرائها كان يقول لها بلا مبالاة.." حاج تنطي. مثل القرد ". وهو ينظر الى أم ابراهيم التي لم تكن تبادله حتى الكلام في بداية تعارفهما وإذا بادلته لتردعه قائلة:" اعقل وين قيمتك ورجولتك ". إلى أن سألها مرة:" صحيح بدك تعرفي وين قيمتى ورجولتي تعي تعي " ليناديني أمي " يابا خدي بنتك وأتركيني أنا وأم ابرهيم" لكن أمي ضحكت، وأم إبراهيم فرّت من الغرفة وهي تنعته "بالشايب الأزعر".

لكنهاعادت تتحمس للمجيء ، ورؤية جدّي وعادت تتحمل تحرشه بها إذ شغفه بهن وكرمه إزاءهن تخطى بيْتنا. فهو يصطحبهن الى المصايف، ويدعوهن للسهر وتناول العشاء في مطاعم مشهورة كثيره الطاولات، فيفرحن بأنهن كالنساء الجميلات الثريات اللواتي كن يتصدرن الطاولات، وصفحات الأخبار في الجرائد، يجلسن وقد لففن حول أعناقهن المكتنزة عقود الياسمين. كانت صحون المازة العديدة امامهن تجعلهن في سعادة غامرة، لا لأنهن كن يشتهين الأكل بل لأن الجلوس في المطعم وتدخين السيكارة أو النرجيلة، بينما هناك من يضع امامهن الصحون هو متعة عظيمة يمدّهن بشعور الاهمية. وكانت دعوته لهن الى مطعم فيه الطرب والرقص هو ما كان يطير عقولهن. حتى " مرت المصابحي المرتجفة دائما، الخائفة كانت تتذرع بسبب ما لزوجها وترافقهن وهي تنتفض خوفاً. بينما ينتفضن هن سعادة، إذ كانت السهرات هذه تتوقف على حضورها شرط جدّي:اذا اتت

مرت المصابحي اصطحبهن حتى السماء السابعة والا اخذهن في الترام حتى المنارة، واشترى لهن كعكة بالصعتر واعادهن.

كن ينتظرن اطلالته بفارغ الصبر، والساعة تتخطى الموعد ربع الساعة. كن يتناوبن على التوتر، عدا أمي التي كانت تنتهز الفرصة لتبدو جميلة، فتبدل فساتينها في المطبخ بينما تغلق الباب على والدي الذي كان كعادته يكب على مصلاته إذا كان في البيت أو أنه في الشوارع يجمع ما يراه. وكنت أشعر بأنها ليست مبالية كالعادة إذا كان والدي لم يزل في الشارع ام لا. تعدو فضيلة الى الباب المشرع كلما تهيأ لها أنها تسمع دعسات جدّي على الدرج، وهي توجه العتاب إلى أم إبراهيم لأنها لم تكن تتلو معها الفاتحة لصاحب الأمر المستعجل حتى يظهر ويبان ".

بينما يتركن " مرت المصابحي " تتخبط بالحيرة والخوف ازاء أوهامها بأن لابد زوجها سيراها. تفكر بالعودة الى بيتها بينما تظل جالسة، تفرك المنديل النظيف المطرز بين أصابعها الجميلة التي تنتهي بأظافر مطلاة باللون الهادئ، حتى أسعاف كانت تتحمس لحماسهن خاصة وأمي تحاول إقناعها للإتيان معهن، وعندما تشهق أسعاف قائلة: " والبنت؟" كانت تجيبها أمي:" مناخذها معنا ما تخافيش عالبنت، لما بتنعس منحطها على حضننا ومنيمها ".

أمي، قصيرة القامة، نحيلة في تلك الأيام، مستديرة الوجه الناصع البياض وكأنه الثلج، كبيرة العينين العسليتين، ذات أسنان بيضاء متناسقة ومتقاربة كأنها عقد من اللؤلؤ التي ما أن تفتح فمها وتظهراسنانها حتى تجد الأعين نفسها وقد التصقت بهذه الأسنان، وبالشعر الأسود الذي بلون الباذنجان. إذ كانت تدلق على شعرها ماء الملفوف الأحمر المنقوع في القليل من الماء لمدة يومين.

أمي الصغيرة هذه، كانت تقلق مضجع الكثيرات من الضيعة وجوارها. كلما سمعت أن والدها يميل إلى احداهن. هجمت تضربها أو ترمي عليها الحجارة. ثم

تسرع الى والدها، تصيح به، توجه له الشتائم. بدلاً من أن تثنين انت عليها كنت توجهين اليها اللوم، تردعينها تنعتينها بالجنون، بخفة العقل. وهي تصيح بك:" راح يتجوز عليك وأنت قاعده عالعرش، مفكرة ان الله لم يخلق قبلك او بعدك».

غيرة أمي بنظرك كانت ردة فعل لضعف شخصيتها وانعدام ثقتها بنفسها التي كانت تعاني منهما بينما انت بقيت جاثمة متمسكة بقوتك. تعرفين بأن كل الضيعة حتى أهاليها الذين يعيشون في بيروت يلمون بقصص جدّي. عدم انجابك لغير أمي تركك مصدومة، كأن أحداً رمى بك الى الحائط وخبط رأسك بصلابته حتى اصبت بدوار. أكتشفت أنك لست كاملة بل إنك كبقية البشر، لا كما حسبت من قبل أن الأمراض هي للآخرين عندما كنت ترين أو تلتقين بمن اصابهم مرض عضال أو حتى وعكة خفيفة، كاحمرار في العين أو حبة في الوجه، أو حتى هيجان ضرس العقل.اكتشافك هذا اصابك. زعزع ثقتك لمدة، إلى ان تيقّنت أن ولع جدّي بالنساء هو مرض لا دخل لإنجابك أو عدمه بك. وأنت ترين وجهه قد تحول إلى أعين، وبياض العين إلى ماء والبؤبؤ الى شرايين شهوة كلما رأى انثى حتى وإن كانت في سن المراهقة، وإن كانت زميلتي. هل تذكرين " تينا "؟ التي وقف جدّي مبهوراً بجمالها ولم يستطع إلا أن يقول لها: " بوسة على خدك. البوسة من الجد فيها حظ وبركة" اعطته تينا خدها سعيده بعاطفته قائلة ": مش معقول شو لذيذ هالجدّ، شو طيب ". وجميعنا في حيرة بين الضحك والابتسام.

كنت تتنقلين بأفكارك من الاقتناع بأن لا ذنب لجدّي في رغبته بغيرك، إذ هذه الأحاسيس تولد من تلقاء نفسها إلى إلغائك لها، لأن الإنسان ليس حيواناً يتصرف حسب غريزته.

هل كان جدّي يطمر وجهه في صدر جهينة، أم انه يكتفي باللمس، أم انه يطلب منها أن تتعرى أمامه فتعمه السعادة وهو يتمعن بما أمامه بعد أن يكون قد رسم في عقله كيف هي هذه الاجزاء؟ أم أنه يحب طق الحنك، ويستمد من الكلام

العاطفي، وأحيانا الكلام الصريح، الشعور بالرجولة. وماذا عن الرغبة؟

أفكر بالكاتب الأمريكي الذي بقي يحب المرأة ولم يحاسبه أحد، يجلس في كرسي ذي عجلة لعدم قدرته على السير، رغم أنه ينتعل حذاء لامعاً أسود ومن الشامواه البني بينما تتمدد أمامه المرأة عارية على الطاولة.. تصغره ربما بخمسين عاماً؟

لم أكن اتصور جدّى إلا وهو يطبع قبلة على الوجنتين ويمد يده الى الكتف وإلى الفخذ، وإذا مدّها إلى الصدر ليعلق:" اسم الله، عافيتك جايه اسم الله عليك ". أم أن شهوته كان عظيمة لفضيلة وأم ابراهيم و"مرت المصابحي" لذلك كان يفتعل التهريج بتغطيتها؟.

تحولت زمزم ونعيمة إلى لبؤتين تودّان الاقتناص من جهينة، فهما لم تعتادا من قبل علي اختلاء جدي بأنثى في البيت، ولا بجلوسه معها في الليل عند المصطبة بعد أن يفتعل الجميع النوم ما عداك (فأنت كنت فعلاً تنامين).

كانتا خائفتين من أن يتكور بطن جهينة وتلحق الفضيحة بعائلتنا ويجبر جدي على الزواج بها دون أن يخطر ببالهما أنه لربما لم تعد البزور في حوزة جدّي إذ كانتا متأكدتين أن الرجل في القرى لا يشيخ إلا إذا مرض وأقترب من الموت. وكان فضول زمزم عظيما لأن تبقي مستيقظة حتى الساعات الأولى من الفجر حتى تضبطهما في خلوتهما. لكني رفضت ان اتحد معها رغم فضولي، وجدتني ابعد هذه الفكرة. لابد انه يظن ان تعلقه بجهينة هو من حقه. الانسان مسيّر لا مخيّر، واذا حدث وسألناه وعمرها لربما اجاب، بانه لم يجبرها وبانها اكبر منه سنا.

مع ذلك لم تتبدل عادتكما بالنهوض في الصباح الباكر والجلوس على المصطبة انت تديرين ظهرك للمسلحين واللخشخاش تشربان الشاي الغامق وفيه غصن نعناع، تتحدثان. بين جملة وأخرى نسمع صوت جدّي يردد عالياً:" الله يميتني بحياتك ". وأنت تبعدين عنه الشر وتطلبين منه أن يكف عن ترديد هذه

الجملة الفأل. تتحدثان عن الأزعر، وابن الأوادم وعن الذي نسي النعمة، ولأول مرة تتساءلين أين ستدفنين وبأنك لن ترضي أن تدفني في هذه البلاد التي صارت قلب رمالها تنبض بالخشخاش مفضلة مقابر بيروت " ولو مع الأغراب ". وهكذا إذا فتحت موضوعا فهو اما بعيداً كل البعد عما يدور حولك أو أنك تدخلين في صلبه لدرجة أنه يبدو وكأنك تتنصلين منه: " شوف... شوف هالبدر سبحان الخالق ". كلما سمعت صوت جهينة أو لمحتها تمر، ثم تنصتين لربما علّق، ثم تسرعين للدخول في موضوع، فتوحين له بأنه موضوع عام لا يخص جهينة فتتحدثين عن هذه الأيام عن الناس التي اصبحت تنظر إلى نفسها في المرآة وترى حولها أبهة وصولجان. وعن الذين يمسكون البارودة:" "مش عم ياكلو الأخضر واليابس بس، عم يأكلوا عقول الصبايا والشباب، صار الكل عندهم جواسيس في البيوت، وين مكان، حتى في مراطبين الملح؟" ثم تنهين الموضوع كأنك لم تكوني تشيرين بأصابع الإتهام اليها بقولك:" أنت شايف شعر جهينة مثل شعر المهر؟ ".

تحاولين أن تكتشفي ما يجري بين جدّي وجهينة، حتى تمدك المعرفة بالراحة مهما كانت النتيجة. كنت علمتني انت منذ الصغر، أن المرأة من كثرة تشابك مشاعرها، تتخبط ولا تعود تفهم سبب مشكلتها، لكنك لم تصلي الى هدفك، فأنت قد سددت أذنيك أمام الكلام والإيحاءات. لذلك اخذت تتصنعين التعب، وآلام الرأس« والإطراف حتى لا يظهر عدم تدخلك ضعفاً. بل كلما شكت لك زمزم تصرفات جهينة أجبتها بتأفف كأن جهينة لا تستأهل هذا الذم والبغيضة " مسامحة، معلهش ولد ". لكنك ذهبت بعيداً بإظهار عكس ما تشعرين به، فتعلقين على شعر جهينة، كلما انتقدت زمزم ونعيمة غسلها وتجفيفها له عند الحاووز: " ها مثل شلال العسل، أنا خائفة عليه ليعلق غصن شجره او بمسمار باب ". لو كان شعورك تجاه جهينه طبيعيا كما تريدين ايهامنا لكنت اجبرتها على تضفير شعرها أو جمعه. لكنت طلبت منها ان تبصق اللبان، ان تخفض صوتها. لكنك أخذت

تثنين على صوتها وأغانيها وعندما شكتها زمزم لكِ لأنها رفضت جلي الصحون من غير قفاز بلاستيك علقت:" معلهش خيفانه جهينه على أصابع الحليب "

عند جملتك هذه امسكت نعيمة رأسها، بعد أن أمسكت لسانها، لا تصدق أن جهينة استطاعت ان تسيطر عليك بصوتها العالي ووقع قدميها ونزقها. لا تصدق نعيمة أن هذه البنت التي دخلت هذا البيت لتعمل به مثلها، تتصرف الآن وكأنها سيدته. فحكاية المنشفة النظيفة التي شهقت لها جهينة عندما مدت لها بها نعيمة قبل دخولها للحمام وقولها:" نظيفة، خيفانة تتوسخ " لا تزال على شفتي نعيمه تضيفها الى حكاية التنورة والبلوزة:" من أول ما لبست بلوزة وتنورة اسمهان صارت مفكرة حالها ست تأمر وتنهي».

ولم تخجل جهينة أمام استحسانك الكاذب لها، بل كانت تبتسم لك، لم تنتبه الى انك كنت تتملقينها وأنت تحسدينها على شامة ذقنها وانت تسألينها إذا كانت موضة ميالات الحديد قد عادت لأنها كانت تسير كمن تدق بخطواتها لا على الأرض فقط بل في القلب.

لا أخفي عليك أن شعوراً بعدم الاهتمام فيما بين جدّي وجهينة قد حطّ عليّ بعد أيام. لكن وأنا أرى جدّي سعيداً من حين إلى آخر وجدتني أبارك علاقتهما، وأنا أرى جدّي المتورد الخدين، الأشقر الشعر، يعشق من جديد وينسى الألم ولو مؤقتاً، والذي لا بد أنه كان يخزه كأنه مناشير صغيرة تنشر في لحمه كلما التفت برأسه ورأى البساتين.

وأعود أتأرجح كلما رأيت جهينة تفرد شعرها تكاد تلفنا تحته. ومع ذلك فأنا لم أتوقف عن الخروج معها والسماح لها بالدخول الى غرفتي والاستماع الى الموسيقى. بل أني شجعتها ولم استطع ان أشد الحبل الذي مددته لها.مشيت معها تحت ضوء القمر وأمسكت لها وجه الحصان حتى تعتليه، وهو الذي لم يعتد على جسم آخر سوى جسم جدّي، ومع ذلك فهو يدعها تمتطيه ربما يتوق هو الى جسم الصبية التي تعمل في بيت جدّي.

لطالما حاولت أن ألغي وجودها بالاستهزاء منها كلما فتحت فمها وأسدت الى النصائح وأعربت عن رأيها في ألاشياء إذ سألتني لماذا لا نركب جرسا يصدح كلما لمسناه بلحن " هابى برث دى تويو"، ولماذا لا نزرع مدخل بيتنا بالزنبق والورد بدل مساكب الحبق والمردكوش ونطلي حجارته الصخرية بالدهان الزهري، ولماذا لا نبدل بلاط المصطبة المتفسخ الذي اختاره والد جدي من بين قلب الصخور. لا بد أنها كانت تقارن بيتنا ببيوت المغتربين الذين كانو يعودون من إفريقيا والتي بنيت عند مشارف القريه حتى تكون بيوتهم أول ما يقع نظر المرء عليه، "فلل" عصرية الهندسة والحجر لا تمت الى قريتنا إلا كونها واقفه كأشجار الكاكتوس في حقل سنابل القمح.كانت ترثي لتواضع أثاثنا، للغرف التي تكاد تكون فارغة إلا من الضروريات والأشياء التي تكسرت ولم يهتم أحد لإصلاحها. وهنا تذكرت وسألتها عن مرتبة العروس، فردّت عليّ باستهجان بأن مرتبة العروس؟ هي عبارة عن خشب مسوس.

لن تفهم ما ســـوف اقول لها عن مرتبة العروس، ذات الدرجات الأربع التي تنتهي بكرسي كأنها طاووس أبيض من كثرة زخرفة العـــاج والصدف عند ظهرها وجوانبها. كانت قريبة فضـــيله التي تتاجر بالأثاث قد جاءت بها من أحد البيوت التي لم تسمع بأن هذه الكركويه القديمه عادت مرغوبه. أتت المرأة بكل ما تبقى عندها أبان إحدى المعارك التي كانت تدور حول بيتها خبأته في إحدى شقق البنايه خاصتي ووجدتني ما أن وقع بصري عليها أتسلق درجاتها وأجلس على كرسيها الطاووس. رأيت نفسي عالية أكاد الصق بالسقف. زغردت وقتها زمزم التي رأيتها من فوق كالقزم والتي توقفت عن زغردتها عندما ابديت رغبتي في شرائها لتستنكر بان المرأة عليها منحي اياها مقابل لا شيء وهي تنتقد محتلي احد الشقق الذين لم يخصونا بقطع اللحم بعد ان ذبحوا الخروف الذي عاش مدة على الشرفة.

قالت جهينه تقطع الصمت: " بس لو أنا محلكم لو تشوفي شو كنت عملت. تمتمت في قلبي: " الحمد لله انت مش محلنا ". انظر إليها وأفكر هل بالغت هي في زينتها اليوم»، وهي تنتقد اهتمامي بهذه الاشياء القديمة بدلا من الكنبات الذهبية لتنطلق بانتقادها لاني لم اترك لبنان ما دمت قادرة ماديا على ذلك.

وأخذتني إلى غرفة " التين وطور سنين " كما كانت جدتي تدعوها. وفي غرفة التين رأيت المرتبة وقد انكسر تاجها وإحدى زوايا مقعدها. كذلك إحدى الدرجات بينما هر الكثير من اصدافها التي رأيتها ملقاة على جانبها إذ يبدو أن سقف الغرفة كان منخفضاً لها. رأيت إلى جانبها قنديلاً أبيض مكسوراً، وصينية من الفضة مخرمة وشمعداناً اخضر تنقص زجاجاته الثلاث واحدة. لا بد أنها كانت خاصة بقريبة فضيلة. لا أذكر أنني أردتها أو حتى أني لمحت بأني أحببتها. أيقنت أن التواطؤ قد تم مع علي وزمزم.. وها هي سرقاتهما قد وصلت الضيعة مكسورة.

وجدتني استمع إليها، ربما لأننا كنا في الليل. وفي الليل تصبح الأحاديث حقيقية. وهي في قميص نومها، بلا حزام أصفر، وفمها بلا علكة، وشعرها بلا الشريطةالزرقاء من العين الحسودة اذ حاولت اختها المحجبة قصّه لها اثناء نومها.. ولدهشتي بدت لي بريئة حالما استندت بكوعها على سريري ولم أجد في وجهها سوى سذاجة صغار القرويين، وهي تسألني إذا كنت أحب مرافق ياسر عرفات..

لم أعلق من أجلك، كأن جدران بيت الضيعة لا يجب أن تسمع أو أن تعلم كيف نزلت معه الدرجات في الليلة الأخيرة والتي لم أتكهن أنها الأخيرة. أشم رائحة عرقه وأتمنى لو أعود معه أصعد السلالم ولا افارق صدره. ثم يطل وجهه في تونس ويختفي. أحاول أن أصل إلى لذتي مع سيمون والمراسل الأجنبي وو.. وأنظرالى جهينة ترى كيف تكون لقاءاتها، كلماتها إلى حبيبها. هل كانت تختبيء هي تحت الأشجار، عند الساقية، أو عند بيوت النحل. أجيبها:"باني كبرت " ولسوء

حظي سمعتها:" لو يعني الكبار ما بحبوش؟ شفت سفرجلة؟ المرا اللي بتصبغ شعرها حنة حمراء، بتقول: لو كل يوم بصحلها رجال ما بتقصر"!..

لا بد أنها فتحت سيرة حبيبي الفلسطيني حتى تتحدث عن جدي . لكنها لا تتحدث، أنها تفتح صدرها لي، تفك أزرار قيمص نومها، ولا أعرف ماذا تود أن تريني. حمّالتها، وأخذت تخلع قميص نومها بسرعة، ثم حمالتها، وأنا لم أزل تحت صدمة تصرفها، أرى كدمات بنفسجية أحدثتها أصابع أو أسنان؟ جدّي؟ كانت حلمتاها كبيرتين كقمرين في عز استدارتهما. أتخيل يدي جدي عليهما وأسنانه عليهما وأرتجف، غير مصدقة. أطرق إلى الأرض. أحسب ولأول مرة عمر جدي وكان في السبعين. ووجدتني لا أفكر لماذا يحدث بينهما هذا، بل أشعر بالامتعاض لا بالشفقة كما تود هي. فأنا لم أزل مصعوقة أمام ما أرى وأمام نفسي التي لم تستطع أن تتخيل ما يجري بينهما. هل قمت بتشجيعها من غير أن أدري أم أن سكوتي كان الموافقة؟ عندما دخل علينا جدّي وكانت تسمع معي بيلي هوليدي وتحارجني بأن صوتها ليس جميلاً ولا يشبه صوت روحية وأخذت تغني لوردة الجزائرية. جلس جدّي وقتها معنا على السرير مستأنساً بهدوئنا الذي كان يخالطه النعاس وطلب منها ان تغلي له الزهورات، وعندما رفضت وجدت نفسي اتمنى لو أن جهينة فعلاً تنهض وتغلي له الزهورات وأن تدوس بيدهاعلى بطنه، أن تقترب منه، ان تفعل له ما يشاء. هذه السعادة التي يشعر بها حتى من جراء رؤيته لها في قميص النوم هي هبة ولو كانت جهينة ليست صادقة. الرجال يستمتعون بالمرأة حتى ولو شارطتهم على سعر هذا الاستمتاع. الوم نفسي لأني اتواطأ معك ومع أمي في صمت." يللا، لما بكون جدك مبسوط بتصير الحياة أسهل ويصير أكرم من حاتم طي".

كأنه لم يبال أن تبقى علاقتهما بالخفاء. أفكر والكدمات الزرقاء تكبر وتتوسع أمام ناظري بأنه ربما كان ينوي الزواج بها إذ اصبح كل ما حوله جافا، يتزوج

من الصبية ويعود شاباً. ويقلب صفحة جديدة، يطمرك تحتها ويطمرني أيضاً. يطمر الأراضي ويطمر الماضي.

أفكر بكلمات روحية وهي تثنيني عن اتخاذ جهينة رفيقة لي لانها تعد مخططا، تريد ان تصبح اميرة على الاراضي، خاصة اذا ما رزقت لجدّي بولد.. ما ان يموت العجوز حتى تسافر الى بليغ حمدي بالفراء وبالألماس وحتى يقوم بتلحين أغنية لها وتصبح متل وردة الجزائرية وعفاف راضي، ومن شرب الشاي والبسكوت بصير الى شرب النسكافيه واكل الكاتوه.ثم تنتهي روحية تحذيرها قائلة: اسمعى يا أسمى يا حبيبة القلب، كل واحد بدو شي من التاني، النملة بدها حبه قمح، وحبة قمح بدها التراب، كلمة " ليش " مش مهمة، المهم شو بدو الواحد.أنا كان بدي جوزي يحبني من غير ما يكون مطوطح، هو راد المشروب، والموت كان رايده شو بعرفني!".

أنظر إلى جهينة أحدق بها: هل هي في منتهى الذكاء لأنها اختارت جدّي، مهما كان السبب، اختيارها له، إنما اختيار الماضي الذي يبرهن عن اصالته إذا ما قورن بالرؤوس واللحى والأصوات المتنافره وقوة السلاح.

تتنهد جهينة، وكأنها تفهم صمتي فتقول:" مش عارفة شو بدّي أعمل، إذا تركت جدك والله بموت ".

ثم صمتت رغماً عنها، إذ كان في صمتها كلام أيضاً. وأخذت تحكم ربط حمّالة نهديها وتعاود ارتداء قميص نومها من جديد، لكن،كيف حدث هذا. جدي كان يبدو مريضاً كالطفل بين يديك، ينظر إليك بعينين، ضائعتين دامعتين متوسلتين:" الله يميتني بحياتك. وأنت تضعين له لبخات الخل الساخنة على رأسه، لعل حرارته تسقط، تقرئين له في كتاب الأدعية. تستشهدين بالأئمة واحداً واحداً. هل كان يترك كدمات زرقاء على جسمك أم أنه لم يكن يجرؤ؟ لا أتصور أنك تستطيعين إغماض عينيك إما خجلا وإما نشوة وأنت معه في سرير واحد. أعرف

أنك مجبولة الأفكار والأحاسيس ولم تستسلمي لعناقه قط .

لا أعرف لماذا تريني جهينة هذه الكدمات الزرقاء، ولا أعرف بم أجيبها، ثم بلمحة بصراجدني اصبح أنت واجيبها برياء بعد أن ثرت على نفسي فجأة لضياعي هذا وقلت:" أنت صغيرة. وهو قد جدّك، ما تفكري إذا عاش أو مات. فكري بحالك. المهم أنت ".

" أنا احبه. مش لح تصدقي بس احبه. هو مثل ولد الصغير. لا أكبر مني ولا قد جدّي احبه من قلبي ".

أنظر إليها مليا . إلى شعرها الذي بدا فاتحاً تحت أشعة الشمس، لا بد أنها غسلته بعروق البابونج كما رأتني أفعل. فهي أخذت تضع على وجهها القمح المطحون وشرائح الكوسى وتستحم بصابون ورق الغار. أتساءل لماذا تريده، وهي تحمل على رأسها الشعر هذا الذي يتوق الى الحياه لماذا تفكر بأن تكون سيدة هذا البيت وهذه الحقول، تدع يد جدّي العجوز، وأسنانه الاصطناعية فوق لحمها وتترك خشونة قمصانه وسراويله التحتية تحك جسمها . أم أن هذه المشـــاعر هي للذين يملكون، اما الذين يفتقرون لأي تملّك يخوضون ســـهول العطش من غير أن يشعروا سوى بما يرونه من بعيد من نقطة ماء. أعرف أن الجميع يريد النجاة إذ أخـــذ الفقر يدب على الأبواب ماذا تتوقع وهي تريني هذه الكدمات الزرقاء وهـــذا الكلام : أن أطلب يدها له؟ تفشي سرها لي بعد أن لازمتني كظلي. تريدني أن أكون شاهدة على حبهما وأباركه، لا بد أنها اخبرته بأني حدست بما بينهما ومع ذلك لم أقاطعها، وبأن عدم تعليقي معناه موافقتي. وها هي تنتظر الإشارة مني حتى تخبره بأن عائلته لا تمانع ظناً من أنك أنا وأنا أنت.

أعرف أنها تلهيه ولو قليلاً عن التفكير بالأراضي. تشبكه باخبارها الصغيرة والكبيرة التي هي سرهما . أصبح عالماً يخصهما يسليهما . كيف نظرت زمزم إليها؟ ماذا علقت أنت وهل احسست بهذه العلاقة أم لا؟.حتى أصبح عالمها أيضاً

درعاً. أمام الآخرين.

أخذت أتصنع النوم كلما دخلت جهينة غرفتي في الليل واتصنع التعب كلما دخلتها في النهار. أرفض نزهاتي معها. أرفض التحدث معها. أرفض حتى النظر في وجهها. لا بد أنها أخذت تشعر كم أن أحلامها التي حاكتها ونحن بعيدان عن جدّي والتي تراءى لها آنذاك بأنها قابلة للتحقيق بالصبر والحيلة، انهارت ما ان جئنا إلى الضيعة.

فاتحتني في الامر مرة اخرى. وجدتني انظر في وجهها واقول لها وانا اختار كلماتك: بأني احبها ولذلك اتعذب من جراء علاقتها مع جدي، والا هدمت مستقبلك، فهو يقارب الموت وهي في عز الشباب.

وإذا بها تصيح بي:باننا بلا قلب، نترك جدي للعذاب وهو يرى اراضيه محتلة امام عينيه، بينما نحن نسعد في بيروت، وبانه علينا توجيه شكرنا لها لانها ردّت عنه خطر المحتلين.

ولم يكن صراخها هذا النهاية، بل كأنه اشعل من طباعها. فأخذت تصيح في زمزم، تضرب الأرض، تصيح في جدّي، تدخل غرفتي رغم تصنعي النوم ولا تفارقها إلا عندما افتح عيني واستمع إليها. توجه اللوم لان الشعور قد تبدل من ناحيتها. شعور الجميع، وأنها ليست مذنبة ولا تحب هذه الضغينه، تتراءى لي عبئاً كمحتلي الأرض فلم اجد نفسي أشفق عليهاحتى وأنا أراها تبكي بل أفكر بأن الأمور فعلاً تبدلت في الحرب، وأن عليّ أن أبعدها عن بيتنا، تماماً كالقطة التي توضع في كيس وتؤخذ الى البورة فإذا بها تعود إلى البيت قبل صاحبه وتستقبله بالمواء وكأنها تسأله اين كان ولماذا تأخر؟ كيف أنشل جدّي من أظافر هذه القطة. إذا لم أجد له قطة أخرى من غير أظافر؟ أين اجد هذه القطة، والبنات يتمشين زرافات ووحدانا يتضاحكن ويتسامرن أمام أعين المسلحين المسلطة على أوراكهن. بساتين جدي لم تعد تجمع وأنفاس البنات اللاهثة من الشمس ومن توقهن الى

الشباب والزواج والأمومة؟ أين هن؟ البنات اللواتي كن يهجمن الى الحقل بعد الحصاد حتى يجمعن حبيبات القمح في أحراجهن، والتي كنت أسأل جدّتي ماذا يفعلن بها. تقول: يدقونها ويأكلونها مع السكر، خاصة في خميس البيض، أول الربيع بعد شباط الذي كان يلبط برياحه الأشجار، والسماء. كنت أذهب معهن نبحث عن الزهور والورود البرية والمزروعة.

أرى نفسي أعدو بين الحقول ننادي للفطر الأبيض:" يا فطروس يللا قوم تعرّم قدامي متل الطربوش ". ونحن نبحث عن زهرة البيسان حتى يصبح وجهي أكثر بياضاً وتتوسع عيناي. وتضع زمزم كل ما التقطناه في وعاء على المصطبة. وفي اليوم التالي نتسلل الى يمامه وخديجة. توقظانني بهدوء، لنغسل اعيننا بما أغدقته السماء على زهورالوعاء المنقوعه بالقليل من الماء، قبل أن تجد الأفعى طريقها اليها قبلنا.

أخذت جهينة تختفي وهي ظاهرة، كطير جميل دخل كوة وترك طرف ذيله ظاهراً للعيان. إلى أن جاء الليل ذات مرة، واختفى الطير وذيله وانتظرها جدّي. كرع البابونج والقهوة والشاي وأحدث أصواتاً عالية دخن السيكارة وضرب الحجارة على خيام المحتلين. غشي من الضحك. وقال:" كان لازم اتعلم لعب الورق والباصرة. اتعلم شرب المحرم. افحص الأرض. افحص اللحم، أركض على حصاني اتصيد واما اقع طريدة عيون السود والزرق. والان ولت الأرض. ولم يبقى سوى مقصوفة الرقبة.. ومقصوفة الرقبة اختفت الله يخفيني عن الوجود".

ولم ينتظرها جدّي فقط بل جميعنا، خاصة زمزم التي ايقنت أن جهينة لا بد أنها تعد عدتها للانتقام منا. وأخذت تبحث عن رفيقة حتى تزور معها ضريح ستنا زينب لتبعد عنا الشر والسوء. بينما اتهمتها جدتي بأنها قد اخترعت هذه الهلوسات لأنها تود الذهاب الى الشام وتشتري القماش المذهب وتأكل الحلو الشامي وتأتي بالمستكة. وعندما أصرّت زمزم على أن جدتي مخطئة، تتذكر جدتي

كيف كانت تعود من تلك الزيارات.

كانت أمي تنذر النذور لستنا زينب الليرات والحلق الذهبي بين أيديها وهي تبتهل وتصلى وقبل أن تدفعها الى الصندوق. كانت تتراجع وهي تهمس: " يا ستنا زينب انت فاهمة قديش انا محتاجه بدي ألبس هالحلقات شوي وأنت ماشاء الله عندك الكثير. خلليني اتدين هالنذر هالمرة. ومرة الجاية بوعدك بحطلك النذر نذرين".

والست زينب كانت بالنسبة لي امرأة وضعوها في قفص كبير خوفاً من أن يسقط عليها زجاج الثريا الكبيرة ثم وضعوا هذا القفص في آخر، أكثر زينة سواء بالرسوم فوق البلاط ام النوافذ المشبكة.

عندما اصبح جدّي كالمدمن، أو كالمحتجز الذي ينتظر إصدار الحكم عليه وهو يمشي في الزنزانة، يدور حول نفسه أطلت جهينه وهي تماطل، وقد أسدلت شعرها وشدت الحزام إياه على خصرها، وتركت زراً من أزرار بلوزتها مفتوحاً. متصنعة البساطة: . " والله انشغلت ".

يحاول جدي أن يكون ساخراً فتتحول سخريته الى حقد. ثم حاقداً فتستدر كلماته الشفقه من كثرة ما يوجه لها اللوم والعتاب، مقسماً بأن لا يدعها تغادر هذا البيت، إلى أن علا صياحهما وهما عند المصطبة وهو يمنعها من الذهاب صارخاً شاتماً منادياً، صوته يذكر بالعجائز الذين فقدوا الذاكرة تماماً وكأننا سقطنا نحن أيضاً من ذاكرته. خاصة أنت فقد سقطت مكانتك علنا. ووجدتني اخاف عليك حتى من افكارك. لا بد أن شعورك بالضعف أمام نساء البيت وأمام جدرانه لم يزل يعذبك. وأصبحنا كأننا نحل اعتصم في قفيره بعد أن اكتشف ان هواء البراري مسموم. ونحن لم نعد نجرؤ على تخطي عتبه غرفنا " إذ صوتها ملأ حنجرتها، وملأ المصطبة:" روح اسأل بنت بنتك تريد اكلي بلا ملح..: " يللا شوف شو بدك تعمل، يللي بدو الواحد بيتصرف.. شوف شو بدك تعمل.. ما بديش

حكي، بدّي فعل".

كأن لا بد من حدوث هذه الزوبعة، حتى يعم الهدوء من جديد. عادت زوبعة من نوع آخر. دائما الحركة من غير بداية أو نهاية، جدي الطفل الصغير أخذ يرفض طعامه أو ينتقده وكان يودّ لو يرفض طعامه دائما لكن حبه للأكل لم يكن يسمح له بذلك. وأخذت تتعالى الصيحة حينما اخذ يدخل المطبخ ويحرك ما على النار ويذوق المرق ويحرق لسانه وينادي، يذبح دجاجة رغم أن الأكل يطهي فوق النار ويدخل بها والدماء تقطر منها نقطه نقطة. أصبح صياحه بالمحتلين متواصلاً بدلا من أن يكون متقطعا متوقفا على وجود جهينه أو عدمه. يصيح بهم متوعداً يتمنى لو تنطفئ العين التي ترى الكميـونات تنقل الحشيش وأن تصـــاب الأذن بالصمم وهي تسمعع ضجيجهم أحاول اخذه معي لزيارة روحية متحججة باسباب كثيرة وكان يرافقني ليقول لها " اطلعيلنا بشي موال بس دخيلك لا عن الموت الله يموتك . ولا عن عاشوراء الله يعطشك، ولا عن ابن عمك . كيف الله رمّلك ". ثم يسألها أن ترقص له رقصة وهو يناديها " يا ممزوعة الرقبة " ثم ينهض خارجاً لا يلوي على شيء . فجهينة هي البزاقه التي تركت خلفها السائل اللزج حتى يتزحلق فوقه جدي . شدته الى الفكرة بأن المرأة موجوده كتلك الشجرة، يستطيع أن يمسك بها ويتحسسها بعد أن كانت كالقمر بعيدة . وأفكر ببديلة لجهينة ليلاً ونهاراً. كنت أتوهم أني وجدتها في الليل لكن ما ان كنت أنهض في الصباح حتى يبتديء بحثي من جديد.

هكذا بدأت رسالتي اليك. أفكر بما ورثته عنك وعن أمي وهذا يمدني بالنشاط لأخوض مهمتي . فكأنني لا درست ولا قرأت كتب الفلسفة والمنطق . بل كأنني أعود الى كتبك وأوراقك التي لم تزل محفوظة في العقل . ما أراه الآن ، فتاة، امرأة على المصطبة وعند حبل الغسيل وفي المطبخ وفي يدها ركوة البابونج وجدّي مسرور بدفء خطواتها وأنس وجودها.

عزيزي ولمى...

أرى روحية بين الفرش والملاحف وتلة من قطن وسادة أفرغتها في صدر القش حتى تتشمس: " يابا يابا أوف، جاي حبيب الروح. يابا يابا ويلى، جاي حبيب قلبي ". تنادي في فسحة الجنينة الصغيرة القاحلة فتسمعها شجرة الرمان التي لا بد أنها كانت بذرة طمرت في الأرض صدفة وكبرت صدفة.

" مش مبارح حكى حبيب قلبى لعند العايلة اللى ما بتتذكر وقلتللو يعني هيك اخذتك منا فرنسا وبطلت تفكر بروحية بس بتبعتلي روايح وايشاريات حرير، شو بدي أعمل فيهم. يعني فكرك هول بيغنوني عن شوفتك؟"والعكروت سألني:"شوبدك ياني أعمل يعني، بدك إجي لعندك". قلت له:" دخيل إجريك تعى" ! " قال: " إيمتى بجي "، قلت له: " هلق قبل بكرة". وأكبر العكاريت قال:" معليش أعذريني لح اتأخر عليك وأوصل لعندك بعد بعد بكره "

لم أعرف بماذا أعلق. غير أن الدفء اعتلاني فجأة. وشعرت كأني معنيه بالأمر، وكأنه سيجيء من أجلي وبأن انظار روحية عليَّ. وبأن عليَّ ان احترس من أن لا تظهر حمرة وجنتي، او أرتباك عيني. لكن روحيه كانت منغمسة في صراعها مع النمل تضرب الفرش بالعصاة:" متساءلة لماذا يخلق الله النمل؟.

أضحك لجملتها هذه. وأخبئ في ضحكتي هذه لهفتي إلى جواد الذي لم أره قط في حياتي. بل رأيت كتابه بالفرنسية يتصدر " خزانة القزاز " بين استكانات الشاي الزجاجية وعلب الأعراس التي كانت تجمعها. عندما كانت روحية تنهمك

عني في قلي الباذنجان والكوسى، أكلها المفضل، كنت أحاول الالتهاء في تأمل الأشياء من حولي، ومن بينها على كتاب جواد، مكتفية بتقليبه بين يدى، إذ لم أكن أتقن اللغة الفرنسية. اما الآن فتقليبي للكتاب لا يبعد عني ضجري في بيت روحية المعتم، بل يحرك في مشاعر عاطفية وكأنني في حضرة رجل نبت فجأة من أوروبا وحل هنا في هذه الغرفة.

أرد هذا الشعور إلى الوحده التي بدأت أعاني منها، فأنا لم أكن في بيروت التي اتخيلها الآن وكراً يعج بالأخبار وبالحياة. من قنبلة في شارع كذا، إلى ملابسات حول مقتل كرامي الى من كسب " أمل أم حزب الله، إلى الأصدقاء القلائل، إلى الليل وما يصحبه من وحدة أو تعارف على اناس جدد.

تمنيت لو تأخذني روحية معها لاستقباله، فأنا إلى جانب فضولي للتعرف به أردت أن أرى المطار، ولو مطار دمشق. من زمان، لم التق بأحد يفد من الخارج. من زمان، لم أر المطارات. لم اسمع ضجيج الطائرات ولهفة المسافرين القادمين ومعهم الحقائب.

لكن روحية لم تفهم إشارتي، رغم أنها قرأت لي الفنجان واشارت الى المال والرسائل او الشخص، الى الناس، ثم لتجيب نفسها بان هذه الاشارة لابد انها تحويلة من امي، والاشخاص ما هم الا ممثلي الاراضي... ثم أخذت تعيد قصة الطبيب الذي سمع جواد عبر الإذاعة الإنكليزية:" وقال عنه نابغة وتوصى بالفحصية. فحصني من فوق لتحت وعطاني أدوية ببلاش " اجدني لا اناقش لهفتي اليه الا وانا في طريقي الى البيت مخترقة السهل القاحل والمزدحم بالوان الخشخاش التي كانت تتمايل في الهواء الساخن. أخبط قدمى فوق الحجارة، أبعد ذبابة عن أنفي، بينما بدت الجبال الصامته وكأنها تسترق النظر الى السهل. لهفتي تريني نفسي بين يديه، ثم أفكر في طعم شفتيه وإذا كان يعرف ما هي القبلة وإذا كان من يمت إلى هذه القرى يعرف أن الفم هو مفتاح العشق أو

الشهوة لا للأكل والصراخ ووجع الأضراس، أحاول أن أوقف نفسي عند هذه اللهفة معللة بأن الضجر هو الذي يجعلني أعدو وراء الحدث الجديد في القرية.

ثم أحــاول أن اضع اللوم على روحيـــة التي كانت تأتى على ذكـــره طوال الوقت، والتي جعلتني أشعر بأني أعرفه من زمان وبأني اتوق إليه. ثم وكأن المنطق أرسل إلي رسولاً ظهر علي في هذا المناخ الجاف ليريني الحقيقة بأني امرأة متلهفة للرجل، أى رجل، وأنا أرى رجلاً جذابا أشقر الشعر يسير برفقة مسلح. اراه يلتفت ويتأملني ويبتسم لي. افرك عيني قبل ان أحدق في عينيه وابتسم له أيضاً. هل معقول في هذه الطبيعة الجغرافية، التي وكأنهامصبوغة باللون الاحمر،تجعلني ألتقي برجل أشقر الشعر، جذابٌ أفهم من نظرته لى بأنه هو أيضاً مدهوش لرؤيتي هنا على هذه الطرق غير المعبدة، رغم أن كلاً منا استأنف سيره، بعد أن أفرز ذبذباته و أوصلها إلى الآخر. كلما سرنا، التفت كل منا الى الوراء، إلى أن اتخذ هو طريقا أخرى باتجاه التله حيث البنات صديقات جهينة. وأيقنت انه الكيمائي الأجنبي الذي يشرف على مختبر الأفيون.

وجدتني هذا الصباح أتأنى بتسريح شعري وباختيار ملابسى وبمواجهتي المرآة. ثم أعود فأبدل ملابسي وأربط شعري بشريطة قديمة، خائفة من لسان روحية. اتصورها تبادرني، بأني قد اعتنيت بمظهري منذ طلوع الفجر من اجل زائرها. أسير باتجاه بيتها وأنا ألعب مع نفسى لعبة تمني العكس حتى تكون النتيجة كما اشاءها. أفكر بأن ابن خالتها قصير لدرجة سمين لدرجة. ثم أفكر بأنه لا يرى إلا إذا قرب الصفحات من عينه، وبان عادة إمساكه لأنفه تتكرر. وبأنه أصلع تماما يجفف صلعته بمنديل رطب. وأنه يأكل وفمه مفتوح. أوقف نفسي من هذا الأسترسال إذ سبق وأن رأيت صورة له مع روحية من قبل.

أدق باب روحية. وقلبي يضرب بشدة لدرجة أني نظرت الى بلوزتي حتى أرى إذا كانت دقات قلبي تظهر عبرها. " هش،. هش " بادرتني روحيه وهي تفتح الباب بهدوء. " بعدو حبيب قليى. نايم " لم أتوقع حقيبة سفر في بيت روحية والتي بدّلت

بوجودها البيت، فبدا كأنه غرفة فندق في أفغانستان.ثم رأيت اشياء غيرت مجرى أفكاري: تنس شوز، وكلسات سميكة بيضاء موضوعة داخل فتحته. ثم مجلات اجنبية كثيرة فوقها نظارات شمسية.

لأول مرة أفكر بعيداً عن هنا حتى عن بيروت. أفكر بحياة فيها جامعات، أشخاص يركضون جوكينغ عند الشواطئ وعلى أرصفة المدن الواسعه. تمسكني روحية من يدي وتجرني الى المطبخ وتهمس لي: «حبيبي هالصبي شو هو كله عاطفه. حتى جايب معه قهوة وشاي ومرطبات حليب مثل النيدو، ومعلبات... قال " الناس جوعانه ". وأمسكت بمرطبان القهوة لا يشبه المراطبين التي نشتريها. أهز رأسي بالإيجاب عندما تسألني عما اذا كنت ارغب في فنجان قهوة، أشعر بترقب وسعادة لم أشعر بهما منذ مدة طويلة.

أجلس معها تنتظر نهوضه، وأنا أحاول اشغال نفسي باخبار روحية عن جهينة. لكن روحية لم تكن معي هذا اليوم. كأن قدوم جواد قد زلزل كيانها. تترك اللوبياء تغلي على النار وتسحبني من جديد إلى الفسحة وتوشوشني: " قلتلو يكتب قصه حياتي مع اخيه النجس، قال لي في حدا كتب هالموضوع وعمل فيلم سينما... اي والله كأنها قصه حياتي.. عن واحده حبت واحد وهو المفروض حبها، بس هي ما كانت تقرأ وتكتب مثله وصار يخجل فيها امام أصحابه، وهي تضايقت ولما تركها جنت ودخلت المصح للأعصاب وصارت تشتغل دانتيل بالصنارة وعقلها شارد. لما شافها بالحالة صار يبكي، اكتشف قديش هو حمار. ما عرف قيمة ما كان بين ايديه. نفس طاهرة شريفة حلوة، الحب اللي اعطته له...

أوقفها عن الاسترسال بأن الجمل الاخيرة لابد انها من حبك افكارها. تمر ساعتان، وترقبي لابن خالتها يزيدني عصبية، اتصنع النهوض ولدهشتي لم تمانع روحية ولا تصر علي لأن اشاركها طعام الغداء كالعادة.لكني لم أشأ المغادرة.

احاول أن اصطاد الأخبار الدسمة اخبرها عن خوفي على ريكاردو بطريقة وكأني بت المسؤولة الوحيدة عنه، أرفع صوتي قليلا رغم تذكيرها لي لأن اخفضه. أشعر أنها لم تعد معي أبداً. انهض عن الطبلية وأحدث صريراً. تلتفت روحية تجاه غرفتها، وإذا بابن خالتها ينتصب أمامنا في شورت وقميص من القطن، حافي القدمين، يفرك عينيه كأنه نزل من كوة من السقف بلا صوت. أسرعت روحية تضع يدها على كتفه وتبادره:" يا حبيب القلب هيدي بيجامتك أو كلسونك؟" ضحكت أنا مداراة لخجلي، بينما وهو يفرك عينيه كان ينظر إلي مستغرباً وجودي. ومع ذلك يجيبها: انه شورت لا بيجامة ولا كلسون " أجدني اضحك مداراة لإحراجى لأنها لم تعرفني به: "مش اسمهان؟" دهشتى تعقد لساني. تسأله باستهجان كيف عرفني ثم لتتدارك بانه عرفني من كثرة ما تحدثه عني، لكنه يقول:" ولو ما كانت دايماً تجي لعندك، ومرة اجا الصبي شو كان اسمه يا جواد...ابن المنجد، كنا نفكر لما ينجد انه عم يعمل سحر.. من القطنة بيعمل غزل البنات لا يؤكل.. تذكرت اسمه كان عبد الله، اجا وراي عالقهوة هو والست اسمهان ماشية معه وقال لي بنت خالتك روحية بدها اياك. وأنا قمت وسألته: شو بدها في والست اسمهان" وحط نظرة عليّ للحظة واكمل:" وحضرتك سألتيني: صحيح بتعيش بببيروت؟ وصحيح بتروح عمدرسة اللي بالجامعة، وصحيح عندك سيارة؟ وأنا جاوبتك مضبوط بعيش بيروت، وبروح عمدرسة حد الجامعة. وأبوي عنده سيارة " وقلتيلي: طيب ما زالك هيك روحية بدها ياك تتجوزني ".

أضحك بخجل رغم سعادتي بما يقوله. ثم اشعر بالقليل من الحزن وخيبة الأمل. صراحته في الكلام وهذه الراحة بينه وبين نفسه تدل على أنه يأخذني كروحية، كأي قريبة لا تمت إلى دنياه. لا كفتاة وجد نفسه قد جذب إليها، ويكمل: بانه داعبني وقتها قائلا بأنها وجدت العريس ليسألني بدوره من اكون وعندما اجبته بأسمي جدتي وجدي، وتمتم ما هذه الورطة، حتى اخذت ابكي واهرب راكضة رغم نداء روحية.

تضرب روحية كفا على كِف صائحة: " ولك يا سعدان السعادين ولك تقبرني أنا وطيبة وتبحشلي وتطمني، والله أنا مش دايرة بالي. أنت داير بالك؟ يااسمهان. بسم الله الرحمن الرحيم، ولك بعدو بيتذكر الكسر اللي بالطاولة مش سألني عنها، قال لازم يتأكد اذا هو عم يحلم بالكسر وهو حقيقة».

لا أذكر. ما اسمعه هو جديد على ذاكرتي. أحاول. الآن، احاول وأرى نفسي أمام الباذنجان والكوسى والقرنبيط المقلي. اسمع روحية تكلم أمها بحنان تارة وبضيق تارة والعجوز الأم تطلب اللحمة. والزيت المقلي يتطاير من الطنجرة وتبعد روحية وجهها وهي تمسك بالباذنجان المنقوع وتسحبه من الماء تلوّحه بيدها قبل أن ترميه في المقلى وهي تبتعد عنه كأنه داء البرص. وما أن تنتهي وتنتبه لرفض امها الأكل حتى تهددها بانها سوف تتلو علي قصة المصور". تضحك أمها، تبدو لثتها الفارغه إلا من سن واحدة. وتستدير تتأملني. لتؤكد لها روحية بأني فعلا حفيدة جدي وجدتي: " وحياة النبى محمد وعلي مش عم كذّب. هالبنت اللى كلها اخلاق كأنه لا راحت عبيروت ولا أجت من بيروت، بتحب الأكل عالارض، وبتحب حتى تراب هالبلاد".

صورة أخرى أرى روحية تنحني تنزل المطاطة عن جواربها لتتناول الصدر من الأرض وتسألني بكل لطف اذا كنت اود المزيد بعد أن انتهينا من الأكل، فتحت بابا صغيراً كانت قد اسندت إليه اشياء كثيره منها أكياس لا أعرف ما في داخلها وانحنت تخرج من هذا الباب. انحنيت أقلدها، ورأيت نفسي في فسحة صغيرة، أمام شجرة رمان. همت أن تصعد الدرجات الخشبية التي دقتها في جذع الشجرة، لكني رجوتها وأنا أرى عروق قدميها الزرقاوين أن أصعد بدلاً منها. كانت خائفة ان اقع، لا حفظا على سلامتي بل من وقع الامر على جدتي. حين وصلت الى اكـواز الرمان، وقطفت واحداً، قالت: "أرمي هيدا واقطفي واحد تاني.. ثم اخبرتني كيف ان عمي قد تقدم يطلب يدها وهي رفضته. ولم أهتم

لحديثها إذ كنت كلي غبطة لأن امسك بالكوز الزهري، وأنا أتمطى، أمد يدي وعنقي وكل جسمي حتى أطاله. لكنها اكملت: " بس أنا خفت من أمك"، رغم اهتمامي بقطف الكوز كثيراً، إلا أني شعرت وقتها بما يشبه الجرح. اقنع نفسي بأن روحية لا تحبني أذا أنا التي كنت ألحق بها بعد كل مجلس عاشوراء،حتى أرى تبدل صوتها وإبتسامتها.نزلت سعيدة.. ولكن ليس في تمام السعادة إذ كنت خائفة من أن تكون أمي قد آلمتها بشيء، وصورة أمي تطوف بي وهي تعلق بسخرية أحيانا على الناس وأن عن طيبة قلب وحباً في المزاح. لكن روحية كانت مشغولة بإقفال الباب من جديد وأسناد الأكياس عليه وقولها: هالرمانة للمحبين. بكره باخذ كم كوز لستك ". عندما دخلنا وكانت أمها لم تزل جالسة أمام صحن المقالي تنظر إليه ولا تمد يدها حتى صاحت بها روحية:" شو بقطعلك لحمة من فخذي وبدقها كبة، اليوم ما فيش لحمة بالسوق "ودنت من الصحن تتناوله من امامها مهددة:" بدي طعمية للقطط " واخذت تنوء نو نو نو تعو كلو، أمي شبعانة ".أحاول ان اشغل نفسي بالنظر إلى بابور الكاز الذي كان يهدر. لم أشأ الإعتراف بأني لا أذكر شيئاً. ولم يسألني هو رغم أني شعرت بأنه وروحية ينتظران تعليقي. اتصنع الضحك، وأحاول أن اتذكر نفسي وأنا صغيرة، ولا اتذكر سوى أمها تبكي من أجل الفراكة. وشوقي لأكواز الرمان وولعي بروحية كلما صدحت بموال وكلما اختنق صوتها وهي تغني المراثي. أتذكر الأولاد الذين كنت العب معهم منتعلة حذائي الأسود اللامع، وأذكر عبد الله ابن المنجد ولا أتذكر أني ذهبت الى القهوة حيث جواد.

يتثاءب، ويتمطى، ويصدر صوتاً. فتبادره روحية،اذ كان لم يزل نعسان، اجاب وهو لم يزل يتثاءب " ما أنا ما نمتش كل الليل، هالقرص الكاتول لازم تسمّوه قرص القاتول. قتلني والله، دخلك ما كنش عندك نموسية سحبتها من صاحبتك المرضة البيروتية؟".

تجيب روحية " آخ إى إى بتذكر، خللينا ساكتين، يا ريت ما بتذكر شى حتى هالفكر وهالقلب "...

يجيبها وهو يتمطى مرة أخرى: " مش هالقلب ولا الفكر، هالجنون ! في حدا عقله براسه بحب اخوي. جلده متمسح، ولك كان يزور باريس ويسمع أنه إجا من الناس. لحتى يتذكر ويحكيني تاني يوم ! ".

" النتيجة هلق. يا سيد جواد. صورتك بنصف الدار، ويمكن بجيبة الطقم" يهز جواد رأسه أسفاً " "مع الاسف..أنه هلق بس الكل تذكرّني " ويعود إلى التمطي. أشعر بالارتباك لأنهما نسيا وجودي، أفكر بالتشاغل ثم بالإنسحاب. أود لو أعلق على ما يتحدثان لكني لم استطع أن أفكر بكلمة واحدة أقولها. يعود الى التثاؤب. وأشعر من جديد بأن هذه الراحة بينه وبين نفسه يستمدها من شعوره بأني عانس، أو أني كروحية أصدح بالمواويل وأقلى الباذنجان وأندب زوجي وأفرد الفرش تحت الشمس.

لم أتوقف طوال الطريق عن تسديد اللوم الى نفسي من جراء ارتباكي أزاء كل حركة قمت بها، إزاء كل كلمة، حتى إزاء صمتي وكيفية جلوسي. وكيف أني حاولت التسلل اليه عن قرب بقولي له: " الظاهر قمتك من النوم ".كأني أردت أن أوحي له بأني كنت معه في غرفته، قريبة من شعر فخذيه، قرب سريره أوقظه. أجدني أتمني ذلك. اهزّ رأيى وأكمل سيرى واهمس لنفسي بصوت اسمعه:" يا بنت انت مش طبيعية ". أفكر إذا كنت سأزور روحية في الغد وأتردد. رغم أني اعتدت على زيارتها كل يوم. أقرر بأني لن أغادر البيت في الغد، أعرف أني أدخل الاطمئنان إلى نفسي وأنا أفكر وكلى يقين بأن الضجر ورتابة الحياة في القرية ستجد طريقها إلى جواد في القريب العاجل بعد أن يفحص شقوق الطاولة وتبحث عن النموسية وو.... ولا بد أن يقصدني مع روحية. لكني كنت مخطئة.

لم يشعر جواد بالضجر، بل كان يتمنى لو أن النهار يحمل الساعات الأطول.

ولم يكن الليل محسوباً لديه. الليل كان ليكتب في مفكرته، بجلدتها البنية وقلمه الحبر الأسود التخين. يجلس ويفكر بمن التقى، من زار. جمله فلان. جملة فلانه. الطريق الفرعية التي بحث عنها طويلاً ولم يصدّق أنه شيدت مكانها هذه الفيلا ذات الحجرالقبيح. يكتب عن شجرة الرمان وعن السلم الخشبي وعن المصباح الأبيض وفتيلة الكاز. حتى انه جملني أنا أيضاً، وأطلق عليّ عروستي الصغيرة اسمهان التي أصبحت تدخن السيكاره وتشرب القهوة مرّة وتحب النبيذ، والكتب أيضاً. وأن اسمهان التي كانت مرتبة مهندمة في الصغر عندما جاءت تطلب يدي أصبحت غجرية، ربما لم تمر المياه على شعرها، منذ أشهر. فساتينها تذكر بلفظة الكيمونو باللوحات الإيطاليه. وكتب عن روحية، بأن روحها لم تزل مدلوقه حتى على بلاطة الكبّة. روحها تهيمن حتى على كوب الشاي: فاجأتني بأسنانها المتآكلة وكأن طير ناقر الخشب " قد قضم لها أسنانها وهي نائمة. وحالة أسنان روحيه قد هانت امام اسنان الآخرين التي كلها بلون التبغ وبلون الصدأ والتي كأنها أقلام بريت حتى وصلت الى كعبها. هذه الأسنان هي التي تدل على حالة البلد الاقتصادية والنفسية أكثر من الدراسات والإحصاءات الإجتماعية ثم ليضيف انه قد عزم على إصلاح أسنان روحية عند طبيب أسنان بريجيت باردو الخاص.

نتحلق حوله وأعيننا تكاد تلامس القلم التخين، بينما روحية تشعر بالفخر وكأنها تنجز عملاً سيساعد البشرية لقرون منذ الآن. وكأنها تساهم في حياته الأدبية مساهمة فعلية. أفرح للطريقة التي وصفني بها وأشعر بالرغبة لألتصق به. لكنه كان متحمساً لكل شيء حوله حتى لرغيف الخبز المرقوق الذي يشمه، يخبرنا كيف كان يرى خالته، قرب الصاج وخلفها الحائط الأسود وإلى جانبها امرأة أخرى بدوية غجــرية ثم يصيح: " ملكة اســمها ملكة ". شهقنا متذكرات "ملكة". لماذا اختارت هذه الغريبة ضيعتنا، لم يتساءل أحد قبل الآن، كانت تنتقل من بيت إلى آخر تمد يد المساعدة من تلقاء نفسها. وما كانت لقاء مال ولا قروش، كانت

تعرف أن أهل القرية مثلها معدمون إنما لهم بيوتهم ومزارعهم ودوابهم. حتى العائلات التي كانت تتداول النقود كانت تلم بأن النقود هي للمدارس، للأطباء، للمستقبل، للآخرة فقط. فكيف لاعطائها الملكة التي كانت تكتفي بأخذ بضعة أرغفة ورقاب الدجاج والقليل من المؤن والخضار.

" وعندما اتت ملكة على خاطره أخذ يبحث عنها في ذاكرة روحية: "وينها، وين أولادها، وين راحت؟ " طردت روحية هذا السؤال بلا مبالاة، وسيرة ملكة كانت كالمرأة الروسية الخشبية. كلما فتحتها وجدت امرأة أخرى بقلب امرأة بقلب امرأة. ولم ينته من سير الأسماء وما حل باصحابها من الأعمى الى الجزّاره والمجلخ، المهرب والحزبى ومعلم المدرسة البيروتي الذي كان يصدق ما يقال له بأن الديوك في هذه الضيعة كانت تفهم الكلام كذلك الكلاب. ثم تذكر جواد إنه لمح البارحة الكلب الذي كان يراه منذ طفولته، لكن روحية انصتته وهي تتوسل الله ان لا يتمادى في اللامعقول خوفا من ان يظن اهالي القرية بانه معتوه..

تعلق روحيـــة وهي تهزّ كتفها: " روح اســأل، في كلبة بتضلها تلحق السيارات، البراغيت أكلت لحمها وخلت عضامها بس. كان في واحد من ضباط الأمم بطعميها شوكولا وبسكوت وحليب. وكمان بحطلها نقاط كلسوم.. وحياتك كان حتى يدور وين في بركة مي ويفتفت كم بسكوتة قال مشان السمك. ويا ريت بس هيك.. والله نصب فزيعة للعصافير. لأنو اكتشف أن عم ينقدو السمك، بس عصافيرنا متعودين عفزيعة شراطيط مرقعة موصلة... مش قميص وبرنيطة مرتبة. ولك العصافير عرفت انو فزيعة وصاروا يوقفوا ويشخوا عليها وينقرو سمك السواقى حتى صارت مناقيرهم سوداء وحمرا ".

يسأل جواد عن الإخوة الثلاثة الذين ثقبوا الأثر الحجري ليعرفوا إذا كان فعلاً ينام في جوفه الذهب، اجدني انفر من اهتمامه، وياخذ ضيقي منه اشكالا وطرقا، اخذت انتقده وأنا أفكر بالأماكن والأشخاص الذين كان يعلق عليهم

الأهمية، ولم أكن أجد لها ولهم مبرراً. الأخوة الثلاثة اصحاب الكروش المدلوقة، يتحدثون كأن في افواههم الحصى. يؤكدون له أن الذهب لم يزل ينام في جوف الحجر الأثري، الذي اصبح كأنه كحائط من حيطان الشوارع والبيوت. يبول عليه الرجال والكلاب. اختفت ملكه كما اختفى الآلاف، واللحام لم يزل يشرب العرق ويخبئه تحت الطاوله، ولون حائط المنور الأسود لا يقارن بالسواد الذي غطى الأبنية. ودخل الى قلوب البيوت وحرق سرائر الأطفال ووجدتني أكره أيضاً الكاميرا التي كان يصوب عدستها الى كل شيء. كذلك أجد أن أحاديثه حتى مع الأطفال مفتعلة، لا معني لها سوى أنه يجعلهم يشعرون بأهميتهم من غير سبب.

ضيقي يصبح غضباً وأنا الاحظه وهو يرفع الغطاء عن المقعد حيث القماش المهترئ قد بانت حشوته ليأخذ مقصاً ويقص طرفاً منه وهو يرفع صينية القش ويحاول أن يدخلها حقيبته، وهو يعلق: " الصينية تركت عالحيط صينية ثانية الواحد مش ممكن يمحي الماضي ولا بشكل ! بعمرك ما استعملت هالصينية ياروحية.. كنت مفكرتيها للزينة؟" احتارت روحية بما تجيبه على غير عادة أرادت أن يكون جوابهامهماً لذلك أصيبت بالتأتأة فجأة قبل أن تقول الحقيقة، بانها لا تذكر من امرها شيئا.

لابد أنه سيعلقها في شقته في فرنسا. أثر من لبنان، وقطعة القماش الصغيرة هذه أثر من لبنان، والصور أثر من لبنان، تحولنا جميعنا فجأة إلى عينات تحت مجهره يدرسنا. ووجدتني أنهض وكلي ندم لأني تحلقت حوله فرحة وهو يكتب في مفكرته المرتبة وبقلمه التخين.

لم يدم هذا النفور أكثر من يوم وليلة. منذ ابتعادي عن بيت روحية. إذا لم اتمنّ في اليوم التالي إلا أن أكون في عتمة بيتها، اتحلق حوله، مستمتعة بحديثه، إذ بت في حضرته مترقبة ومتلهفة لجملة منه تخصني باهتمام متمنية لو يلمس كفه أي جزء مني، حتى فستاني. كنت أفكر وأنا أرى اسنانه وهو يضحك، ألا يحتاج هذا الفم ليطبق على فمي؟ وهذان الفخذان ليحفّا على فخذي، أم أنه يفكر بأني ما

زلت عذراء؟ أني كروحيه احببت شخصاً ولم أزل أعيش على ذكراه؟ أم أنه لا يرى سوى الشعيرات البيضاء القليلة بين خصلات شعري. والتجاعيد عند جبهتي؟ أم انه لاحظ عروق كفي الظاهرة، رغم أني بت أحرص على رفعهما وكأني امرأة هندية أو غيشا يابانية، حتى ترتاح العروق.

إنها بيلى هوليدى، عليّ أن امتنع عن سماعها، أنها تؤجج عاطفتي بصوتها المجروح وبندائها للرجل، وكأنها قطة في شهر نيسان. ثم اجدني أوجه اللوم إلى اللهب الجاف الذي يتصاعد من الأرض ويدخل حتى في أوردة الأشجار. ويجعلني ملتصقة بهذه البلاد. أطلق عليها بلاد لأنها ممتدة بلا أفق. الجبال عالية والسهول منخفضة والسماء تكاد تلصق بأرضها. كأنه لا يوجد بيروت؟ لا جامعة ولا بنايات حفظت لون بلاطها، وكأن البحر الذي تعلمت الغطس فيه منذ سنوات اختفى. عندما أنظر في الصباح إلى ما حولى، وأرى اشجار التين ساكنه أفكر، هل معقول؟ أني قدمت إلى القرية منذ عشرة أيام. أم أني لم أفارق هنا أم اني لم اكن أبدا هنا من قبل، ولم امتط حصان جدي ولم أعد إلى بيروت وأنا في صفوفي الثانوية والجامعية، والشمس قد لوحت لى شعري؟ لكن خلف هذه الأشجار، حتى بين أوراقها، وداخل هذه البيوت، وعند ضفاف النهر الصغير، وفي الأحجار الأثرية حيث الكنز، أعطيت شفتي لأحد زملائي في الجامعة، أسير وأقول لنفسي هذه البلدة هي قريتي مؤلفة من بيوت قليلة، غير مسكونة. هذا القلعة الأثرية لم يكن فيها جثة منذ وقت قصير. هذه البلاد لم تزل بعيدة عن السلاح والمال والمخدر. أم أني أراها هكذا الآن لأني في حالة حب وشهوة؟

أتمدد *في السرير وآتى بمرآة لأرى ما* سوف يرى جواد وهو *إلى* جانبي أو إذا اعتلاني. هذا الشريان عند صدغي، أو الشعيرات عند منتصف حاجبي أو الاحتقان عند جانبي أنفي. كلما أحاول أن أوقف من سيل خيالي تزداد رغبتي لأن أكون معه. أسير وأجلس وأنا استرجع صوته، اسمع ما أود سماعه منه وهكذا

إلى أن أطل مع روحية بعد هذا الظهر. وإذ بهوسي به يتحول إلى شعوري الأول ! الضيق منه وأنا أراه ينزل مع جدي من المصطبة إلى الأراضي ويستمع اليه بكل اهتمام. يده تقطف زهرة الخشخاش واحدة ثم ثانيه. يدنيها من فمه يلتفت إلى حيث جدي يشير. اسمع ضحكته. أشعر بالنفور أيضاً من روحية التي تبدو مختلفة اليوم، جميلة بشعرها الذي صبغته في الحناء، وبالكحل العربي الذي يحيط بعينيها، وبالحمرة الزهرية الخفيفة فوق شفتيها وبتايورها القديم الموضه إنما الانيق.. وكأني أشعر بأن اهتمامها بشكلها هذا قد أبعد عاطفتها عني أيضاً.

وأكتشف بسرعة أني لم أكن وراء زيارته لبيتنا منذ أن مدت يدها تحيطني، بل جدي ورسام الشهداء ومجلس تعزية عن روح الشهيد ابن كوثر. إذ تهمس بأذني انها تخاف أن تفصح عن المجلس لجواد، فيصرّ على اصطحابها خاصة أن المجلس هو مقصور على النساء وهي لا تريده أن يفكر بحيلة أو بأخرى ليدخل ويسمعها. تخاف من الضحك إذا لمحت أحداً من عائلتها.

لكن أجد نفسي اجيبها بلؤم: " مهندسة حالك هالتهندس وأنت رايحة عالعزاء؟.

" حلفت أمه على الكل لايجي بالأسود ولا احد يبكي. قالت شهيد عمره تحت العشرين رايح عالجنة". أندم على فظاظتي لاداعبها قائلة بانها تبدو صغيرة وجميلة على غير عادة!

أجابتني وهي تقبلني على خدّي:" ولك تبلميلي يا حبيبة القلب. الهندمة بدها وقت وجلد. ولمين بدّي هندم حالي للذبان؟ انت عندك بيروت وناس وأصحاب وأحباب» ".

أراه يلتفت صوب الخادمة الجديدة " صوما" كيفما تحركت. كانت كعادتها تسير ببطء شديد وكأنها تخاف من التزحلق إذا هي عجلت الخطى، وهي تنحني تجمع غصناً جافاً، أوراق شجرة، ورأس الحبقة المزهر من أجل تمثال البوذا الذي

صدرته في غرفتها. ولم تكن تنسى أن تشك في ضفيرتها أى لون، خاصة اطباق وردة الجن الصفراء، والتي كانت تغلق نفسها في الليل. لابد أن جواد يرى اسمرارها عجيباً بالنسبة إلى سحنتنا الفاتحة اللون، خاصة ان لهجتها أصبحت لهجة أهالى الضيعة.

صوما هي المرأة التي حلت في بيتنا واصبحت من حصة جدي في اللمس والقرص والعض، ولابد في أشياء أخرى. محت جهينة وشعر جهينة، إذ كان شعرها بطول اسم بلدها سيري لانكا. مضت أيام قبل أن يعتاد الكل على اسمها. صوفا، صومنا، صوبيا لتشغل البيت كله باخبارها منذ أن اختارت العراء لأخذ حمامها في المرة الأولى قرب قسطل الحنفية الذي يمتد كثعبان من الحاووز إلى طرف المصطبة، لم تغط جسمها برغوة الصابونة التي أعطتها إياها زمزم بل بزيت الطبخ وبحجر التقطته ودقته حتى اصبح جسمها ينادي من التماعه، تكومت نساء البيت يزغطن وكأنهن دجاجات متعجبة امام عريها إلا من سروالها التحتى. ربما لأنها تعبد بوذا لم يهرعن اليها يخبرنها عن الحرام والحلال. بل أخذن يراقبنها وكأنهن أمام فيلم سينمائي وهي تستحم ثم وهي تجفف نفسها وتسرح شعرها وتعيد تبخيخه بالزيت الذي أفرغته في قنينة الصحة. كل هذا وهي جالسة، والدجاجات تزغط من نافذة المطبخ، مسحوره بما تشاهده. ثم لفت صوما القماش الملون حولها ووقفت تضفر شعرها تبتسم لهن ضاحكه وهي تضع بين الخصله والأخرى بعض زهور الخشخاش القرمزية والبيضاء، ولم تغب الإبتسامه عن وجهها، الذي كان ناعماً، املسً. ثم سارت تتشمس في الأراضي المحتلة، تقطف الأغصان من بعض الأشجار وتلم الحشائش وتدخل غرفة المؤونة التي اصبحت غرفتها.

منذ اليوم الأول لحلولها في بيتنا اعتادت نساء البيت على ترقب الغرائب منها. فهي بعد أن غلت الأرز لنفسها وأكلته بأصابعها في المطبخ، تمددت في إحدى الزوايا حتى تأخذ قيلولة الظهر، هكذا من غير غطاء أو مخدة. ثم لتنهض

وتجمع الحشائش والزهور والبرية وتضعها في فناجين قهوة أو شاي أمام تمثال البوذا. صيحات زمزم علت من الدهشة. قبل صيحات الغضب لرؤيتها للأكواب والفناجين تتجمع في غرفة المؤونة. كما علت من قبل عندما أخفت صوماً الفستان القديم الذي اعطتها إياه. لتتعرى به وهي تقوم بأعمال البيت في كيس تجمع به كل ما يعطى لها وأوله لوح صابون. ولم تكن صوما السيرلانكية الوحيدة في ضيعتنا إذ كن كثيرات يعمل معظمهن في حقول الخشخاش والحشيش. يحملن الأكياس ويقمن بقص الخشخاش، يجمعنه ويعملن بلا توقف ويصمت. لم نكن نسمع أصواتهن إلا عندما كن يرين أحداً يدوس حشرة. لكن صوت صوما أخذ يسمع، لهجتها لهجة زمزم، ضحكتها كأنها صهصهة ضباع. وهي تخفي بيدها فمها وأسنانها وأنفها. يبدو أن هذه الأجزاء هي الوحيدة التي كانت تخبئها. فجدي لم يكن يتصور أنه ليس بحاجة لأن يلعب لعبة القطة والفأر مع صاحبة اللحم الأسمر الذي كان يشبه قشرة دراق ملساء، من غير شعرة واحدة أو وبر ناعم على صفحته. لم تكن تمانع لمسات جدي مهما كانت غير بريئة لكنها كانت تستفظع القرص والعض، وهي تتساءل لماذا يؤذي اللحم المستسلم الذي هو طوعه، كما هو طوع العمل والجد الإسترخاء ويعكر صفاء لونه؟ كأن تسليه جدي اصبحت من روتين عمله، فما أن تفرغ من تناول طعام الغداء حتى تدخل غرفته بعد أن يسبقها إليها، حاملة فنجان الزهورات، بكل هدوء وبثقة وكأنها لا تريد أن تخفي ما تفعله عن الجميع حتى أمام جدتي. وفي المساء أيضا، كانت تنتظره حتى يناديها، فتبتسم لنا وهي تنهض وكأن ساعة عملها قد حانت. من يدري ربما كانت ابتسامتها توحي بأن ملامسة صاحب البيت لها يعزز طموحها بأنها إمرأة كادحة وهي ترى نفسها في فراشه.

لم يصادف جدي امرأة مثلها، مستسلمة، هادئة، تبتسم، تضحك، لاتعاند حان طموحها أن تشتري مكواة كهربائية رغم أن لا كهرباء في بلدتها، إلا أنها

كانت علامة السفر والرقي. أوصى جدي لها بمكواه أفرغتها من علبتها بكل فرح وحماس وأخذت تتمارى بلمعانها، تضمها الى صدرها قبل أن تصمدها كأنها تمثال جميل. عندما اعطاها جدي بعض الليرات ذهبت واشترت بها كل ما يلمع ويحدث خشخشة من حلقان رخيصة تحدث رنينا كلما حركت رأسها. وتتساءل: هل أبدو هندية الآن؟

وكانت تتساءل وتستفهم إذا كان هناك المزيد من الهنود الذين يعملون في حقول الحشيش، فتوقها لأن تتعرف برجل من الهند كان ملحا. ولم تعرف النساء لماذا صوما تتحدث عن الرجال الهنود بهذا التوق والإعجاب بينما كن يتقززن من شعورهم المطلوسة بالزيت ومن شفاههم الغامقة بلون الكوبيا (التشبيه لزمزم) إلا عندما افهمتهن أن سيري لانكا هي غير الهند وقارنت لهن الرجل الهندي بالرجل الأميركي بالنسبة للمرأة المكسيكية.

كان هناك الكثير من الهنود الذين يعملون في حقول الحشيش، ورغم أن صوما كانت تحلم بلقاء أحدهم فهي لم تكن تفعل شيئا من أجل اللقاء. لم تكن تخرج من البيت، بل تجلس عند المصطبة على الأرض، خائفة حتى من الجلوس على الطراحة، مستكبرة أن تأكل من صحن خاصتها وأن تتمارى في مرآتنا. فهي منذ أن ولدت وهي تعيش وحيدة من غير أشياء سوى الرطوبه والاشجار والفقر لذلك اخذت زمزم ونعمية تعاملانها بكل عطف، بعد أن شعرتا كأنهما ملكتان عليها وهي الرعية الوحيده. كانت تخبئ كل ما يعطى لها، حتى زجاجة السفن آب والكنزات الصوفيه القديمه التي لم تستعملها. لم يصدقن أنها لا تحمل الخبث ولا الملعنه كسائر النساء، إلا عندما أخذت تواظب على زيارة مريم، التي ولدت بنتا، لتجلس أمام الطفلة شاخصة صامته، بعد أن تقدم للأم ما تحضره من طعام. فهي منذ أن رأت الطفلة صاحت قائلة:" ملاك. ملاك " وأقسمت بأنها لم تر ملاكاً حقيقياً من قبل ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر. وكأن الضيعة كانت تنتظر هفوتها

هذه ، إذ أخذت النساء المسنات يحاولن أن يعلمنها اصول الدين الإسلامي وهي تكتفي بهز رأسها وتتمتم:" إن شاء الله".

أحزر ان روحية قد أخبرت جواد عن جدي اذ أخذ ينتقل بعينيه بين جدي وصوما. تلدغني عدائيتي كعقرب، فأحاول بدوري لدغ روحية فأقول باستهزاء وكأني جهينة:" شو مبين جواد عم يستنطق جدي يمكن يفكر بيكتب شي كتاب عن بيتنا وعن الضيعه ".

" راح يجنّ ليروح عند بيت رسام الشهداء، انا قلت بتروحي معه لعندهم!».

عدت ألدغها:"آخذه معي؟ حتى ينشر اخبارنا على صنوبر بيروت".

تجفل روحية من لدغة العقرب هذه ثم وكأنها تداوى ألمها لا بالصراخ بل بالإنتقام "فتخبرني بانها قد لاحظت جفافي تجاهه، بل مضايقتي ولو انها لا تعرفني جيدا لكانت ايقنت ان عدم وقوعه في حبي هو السبب، مضيفة ان اي مجلة تستحوذ على اهتمامي اكثر من كتبه..".

لم تكن لدغتها انتقاماً أو فشة خلق. إنها تحاول أن تصل الى صميمي، كأنها تحاول أن تكمش من غير أن تدري ما يكويني من عقد وأحاسيس وتفكير، كأنها تعرف أن من المفروض مستقبلاً باهراً كان في انتظاري، سواء في العمل أو الزواج أو الجمال. وماذا كانت النتيجة؟ غير سكائر وقهوة ونوم وصمت وضحك وفشات خلق. لم يكن يجب ان أكشف نفسي أمامها، أزورها كل يوم وأجلس الساعات معها. بل اعتكف في البيت أوحي لها بأني جد منشغلة بأمر مهم أو ربما كان عليّ زيارتها وأنا أرتدى ما هو غال وجميل بمفهومها، تماماً كما رآني جواد وأنا صغيرة، لا بملابسى "الاثمال" هذه كما تصفها. جدتي دائماً هي المحقة، على الإنسان ان يغلف نفسه دائما بغلاف ملون، جذاب، شهي للفتح وللفضول.

أتركها على المصطبة، أدخل البيت واكتشف بعد ثوان أني لست متضايقة من روحية بل اني قد سببت لها الألم عن قصد. أخرج من جديد اليها ضاحكة

وأضمها اليّ وأبكي ولا اتوقف عند سماعي خطوات جواد على المصطبة بل أزيد منه كلما خطر ببالي انه يفكر الآن بأني واحدة من شقيقات تشيكوف الثلاثة خاصة أني أحطت نفسي بشال جدتي الأزرق الحريرى المطرز لأول مرة أجد روحية تتصرف من غير صوتهــا فلا تجيب استفسار جــــدى بل تدخلني الردهة حيث المغسلة، تغسل لى وجهي وتمسح لى شعري بالقليل من الماء، أجدني استسلم لأصابعها الخشنة وأجهش في الضحك. أنظر إليها وأضحك، تبادلني الضحك من غير أن تنسى أن تلعن الشيطان. لكنها تريد الانفلات من القصة بسرعة وتقول:" يللا خلليني فوت سلــم على جدتك ".

- " وأنا بعمل الشاي ".

أسمع صوت جواد وتعود الرغبة تتملكني لأن أكون بين يديه، التصق به وأبكي وأفرح لأن أحاسيسي تجاهه تتأرجح بين رغبتي للالتصاق به وضيقي منه. أقرر عندها ان المسألة عابرة ككل المسائل الماضية. فأخرج بصينية الشاي وكلي ثقة بهذا الشعور الجديد. اتحاشى النظر اليه ولا اعيره ادني اهتمام. أجلس استمع إلى مياه الحاووز. وأراقب الصناديق المتراصة وكميون الشحن والطرق البعيدة المتعرجة. وأستحضر ما يجري في بيروت، وأضغط على عقلي حتى يئن قلقاً على ريكاردو ويتساءل عما يحدث له، ويناقش أمر المحتلين، وأمر الغلاء والأحزاب. أسمعه ما أفكر به عند سؤاله لي بماذا أفكر، لأعود الوذ بالصمت وأحدق بعيداً وهو يوجه لي كلامه، عندما يشعر ببرودي ينتقل الى الاهتمام بجدي، يسأله عن حكاية الأراضي ويستفهم منه عن التفاصيل، يستمع بكل شغف ويلتقط ما اصطاده بالطعم الذي كان يرميه في البحر الواسع.

وكان طعما شهيا، مثيراً، إذ تتزاحم عليه كل أسماك البحر لتبلع هذا الطعم وتجيبه على ما كان يسأله وأفاجئ نفسي وأنا أرمي له بطعم معاكس رغم ترددي وأسأله إذا كان يكتب قصه جديدة، وإذا كانت عن لبنان، عن هذه الضيعه بالذات؟

عن روحيــة؟ عن أرضنا؟ ولهذا يود أن يتعرف برسام الشهداء؟ ولدهشتي أجاب بكل بساطة أنه كتب عن روحية وعن الضيعة في كتاب هو قيد الطبع. و،أنه يتمني لو أنه يكتب بالصحافة عن مأساة أرضنا ! تحمس جدي كل الحماس وقال له:" طيب اعمل حالك صحفي ياشيخ ! مين لح يسألك عن شهادة الصحافة. هوني كل واحد بيقرا وبيكتب وبحب يشتغل بصير صحفي، عم يجوا من بره ويتخبوا وراء اللحى والعبايات وخلف زعران الأحزاب..عم يفوتوا ويطلعوا ويكتبوا ولا حس ولا دستور ".يضحك جواد قائلاً بدماثة: " الصحافة بدها جهد و وقت! " .

" وقت؟ ما عندكش وقت؟ تعوا اسمعوا ما عندوش وقت؟" .

يقهقه جدي، أفهم قهقهته:" عندنا فيضان وقت وما بعرفش شو اعمل فيه ولا نعرف ماذا نفعل؟ " .

اكتشفت وأنا اسير مع جواد متجهة معه الى بيت رسام الشهداء بأني اسير على كتل من اللحم طرية لدرجة أنها كادت توقعني أرضاً. إنه يزعزع ثقتي بنفسي. منذ أن استيقظ ووقف يفرك عينيه ويتثاءب، أجد نفسي الآن اتحاشى حتى أن يصدر عني نفس واحد أو زفرة أخرى. رغم أن كل من يدب فوق هذه الطرق المحفرة لا بد أن يلهث. وكانت الضيعة تنغل كأنها مدينة. بنات يتمشين على حده ومسلحون في سيارات الجيب أو على بوطات سميكة، يتأملون البنات.. أو يتسامرون فيما بينهم، يعلق جواد: " شوفي شوفي التغيير من زمان كان المشوار عالعين ! عالصحراء ! هلق عالقهوة... هالله هالله يا دنيا ". استغربت انه لم يزل يستعمل هذه التعابير وهذه اللهجة القروية كأنه لم يعش حتى في بيروت. فلهجته المدنية تبدو مصطنعة، كزمزم عندما تضع مجهوداً للاندماج بأجواء بيروت. اتساءل الآن ماذا يحدث لي، كأني لم أسر من قبل مع شاب، صديق. أو حتى عشيق، إذ أسير وجزء بسيط مني فقط يسير في الحياة ويرى الطريق والمارة وما تلمحه العين، بينما ألاحظ أن خطواتي تتبع كلامي المتعثر وأفكاري التي هي مجرد

ظلال على حائط تظهر وتختفي حسب أشعة الشمس. أجمع كتفي حولي وكأني نعامة احاول أن اختبئ بعدما كنت أهز كتفي بلا مبالاة.

لم يزل يتحدث عن هذه الطريق، وعن ذاك البيت، يسأل ماذا حل بتلك العائلة، بذاك الشاب الحزبى، بالنائب، بالرجل المهاجر صاحب الثروات، بالمرأة التي نامت على وليدها وفطسته، بعادل الذي كان يلبس فستان أمه ويعزل البيت ويلبس الحلق. وأنا أهز رأسي، وأجيبه بجملة: " ما بعرف "؟ أو اخبره عما حل بهم، بكلمات مقتضبه كأنها كلمات تلكس. ولم أفهم عدم انتباهه لجفائى هذا ! والتأثر به بل انه لم يكن يستطيع أن يوقف سيل المتدفقين من أهالى القرية على لسانه ومخيلته:" مش ممكن أنسى عدنان. لما راح يقتل أخته وكانت في " سوق الأوادم "... ما بعتقد قتلها. كذّاب رجعو شافوها.." يعود إلى عادل " يا حرام كان شاذ... وما حدا كان يفهم عليه " ووجدتني أجيب:" ما بعتقد كان شاذ، تزوج وجاب أولاد ".. يعلق كأنه يحذف جملتى هذه:" مش ممكن يكون مبسوط روحي فتشي جوزوه غصب عنو.. متل كل هالعالم بس اكيد هو ندمان ليش ما بيلبس مرا وبينقرط" أضحك من كل قلبى...

أكمل سيري على الدرب ذاتها التي سرت عليها قبل الحرب، ومع جهينة منذ أيام. لكن هذه المرة وعيت أني أضرب حجارتها وترابها الناشف بحذائي، بينما يتركني هو ليلمس حجارة الجل المسطح بيده " من وضع هذه الحجارة فوق بعضها بلا تراب، كيف ركب الحجر الكبير على الصغير والصغير على المتوسط؟".

الطريق المقابلة التي كنت أفكر نهايتها في السماء، والتي كانت تؤدي الى الفيلا التي بناها أحد المغتربين، والذي رغم ثرائه الذي جناه من بيعه للبن البرازيلى ظل اهالى القرية يدعونه باسمه: ابن النملة. وأخبر جواد عن أمه التي حاولت في زيارتها لجدتي أن تستقبل لا كسواها من الزائرات، لكن جدتي بادرتها: " أهلاً وسهلاً، أوعى تخللي حدا يقول عن ابنك ابن النمله " ثم تجاهلت

امر الفيلا والطريق الخاصه واكتفت جدتي بالتمتمة امام النساء " بأن الملك لله، وما نحن إلا عبيد وإجراء عند سبحانه وتعالى ". زوجته فقط هي التي اقتصت من جدتي ولم تزرها، وأخذت تتمشى في القرية وهي تحمل مظلة شمسية من القماش الأزرق، وتقود بنفسها سيارة مكشوفة حول عينها نظارات ذهبية الإطار.بينما إيشاربها الخفيف يعلو في الهواء.

عندما يعلق جواد: " حلو، حلو كتير" أفكر لماذا اصطحبه إذا كان يحرك بي شعور الضيق هذا؟ نقترب من الطريق الفرعية التي تؤدي إلى بيت البنات عند التلة وحيث مختبر المخدرات. أتمني لو أرى الشاب الاجنبي الأشقر حتى ينظر إليّ وأنظر اليه. ثم يلوح قميص الرسام منشوراً على حبل بين شجرتين. وكان الباب خاليا من السيارة الفخمة السوداء التي اعتادت ان تسد مدخله.

ما ان أطللت عليهم حتى تأهل بي الجميع. وهذا التأهل زاد من ثقتي أمام جواد لكن وأنا أهمّ بسؤال ام الرسام عن ابنها حتى شهقت وهي تتعرف عليه، تخبره بانها سمعت مقابلة معه عبر الاذاعة والتي قال فيها انه يشتهي «كبة الجرن» ثم تأسفت على بيت اهله في بيروت الذي اصبح خربة.

كان التأهيل به يفوق التأهيل بي حتى في المرة الأولى التي قصدت بيت الرسام. كل ما كان مخبأ من حلوى و مخلوطة وضع امامنا وبالأحرى أمامه، والام لم تتوقف عن الاعتذار:تدعوه لتناول الغذاء في الايام المقبلة.. من غير ان تنسى ان تعلق ان ابنة خالته روحية اصبحة عصبية وغير متوازنة.

ويبدو أن الرسام لم يكن موجوداً إذ صاحت أمه: " يللا لا بعت لك وراه" يميل جواد إلي " يا ريت بفرنسا اذا حدا إجا يشوفني وما كنت بالبيت بيبعتو وراي "... أجيب بلؤم: " ولو حتى بيروت ما عاد حدا بيبعت ورا حدا " ثم استدرك قائلة: ان هذه العادات انقرضت، لكنه شخصية مهمة..

يدخل والد الرسام مرحباً، ومعه رجلان، تدخل امرأة ملثمة الفم وتلقي التحية على جواد. ينهض ويضع يده على صدره احتراماً لها. يسألها والد الرسام عن

اخبار ابنها عرفات.

تجيبه المرأة بأعلى صوت " منشان هيك جيت. قال عطى صورتو للرسام. والله إذا عطاها مش لح قول غير قشة تقشو، ضيعان هالمصاري اللي حطيناها على ثيابه ودفاتره وكتبه وعلى بطنه. كان دواء الربو يكلفني، خلليها على الله. والله لو يجيني خبر موته لن تنزل مني ولا دمعة، بدو حزب الله... بدو حزب الله... يللا خلليه يموت ". يريد جواد أن يسألها المزيد، لكن والد الرسام كان أسرع منه فسأله:" شو رأى الأستاذ جواد بحزب الله؟".

وجدنا انفسنا نضج بالضحك وجواد يعلق:

" حزب عجيبة، صار الله عنده مكان على الأرض، عنده مراكز وطاولات وكراسي ودفاتر وأسماء ". استغفرت الله أم الرسام بينما تتمتم أم عرفات:" هيدا كفر يا استاذ جواد. أعوذ بالله. شو عم تقول؟ شو عم تحكي؟".

وكأن موضوع الام القلقة لم يعد مهما إذ عاد الأب يسأل جواد" كيف ملاقي بلادنا؟" وسؤال آخر:" كيف ملاقي هيديك البلاد ". ولا اعتقد أنهم كانوا قد سألوا هذا السؤال لأي مهاجر أو من يعيش في الخارج، بل لكانوا استفهموا بطرق ملتوية كم جمع هو من المال.

يجيبهم جواد بكل بساطة، كلماته تحمل الأحاسيس التي لا أعرف إذا كانت حقيقية. ثم ولأول مرة منذ زمان استحضر الشعور بأني من عائلة تملك هذا التراب وبأنها كانت تتدخل غصباً عنها في شقوق هذه البيوت ومسام هذه الأجسام فتمدها بالأوكسجين أو تسدّه عنها. أرى نفسي الآن وحيدة. لقد نسوا من أنا. انهم يضمونني الى شقوقهم. اجلس معهم وكأني انظر معهم بإعجاب إلى جواد.

اجدني امتعض من هذا الشعور، الذي يذكرني بجدتي والذي أعاني منه الآن رغم انتقادي الدائم لها في الماضي. كانت جدتي قد عاتبتني لأني صعدت في

سيارة أخي الرسام الذي وصل الآن والذي لم يفلت يده من يد جواد. إذ سألتني وقتها باستهزاء:" شو بالله عرفت بيت أبو شوقي كم صار عندهم دجاجة وبقرة وسيارة؟" تمنيت لو اجيبها بأن الأيام الماضيه لن تعود وبأن اللواتي يزرنها الآن إنما يزرن الماضي الذي ربما ذكراه تسعدهن إذا ما قورن بالأيام الحاضرة. فهي اصبحت للسلوى المؤقتة، «كزيارة القبور عندما تضيق الصدور» وبأنها قد اصبحت مثلهم وبأنها لا حول ولا قوة لها.

أنظر في وجوههم من جديد، غير مصدقة أن عائلتي قد انطمرت أمامهم الآن. رغم أن الحرب أفرزت عائلات أخرى. لكن يجب ان تظل الذكرى تهيمن على كل ما هو جديد. أتمني لو أذكرهم واحداً واحدا بعائلتي، لكني اتوقف، بل اجلس وإبتسامة تشفٍّ على وجهي، وأنا افكر بالماضي استجلب الصور والمشاهد، فتمنحني قوة.. أفكر كيف كانت الأقدام في الماضي كادت تهرس جميع هؤلاء الشباب وهم صغار يلحقون بالصخب الذي خلفته عائلتى سواء ابان احتفالها بالمناسبات الدينيه أم الانتخابات السياسيه إذ وعائلتى تحتفل بالمرشح الفائز. كانت البساتين والأراضي وكل شق عليه التراب يتحول الى ساحة للأكل. تذبح الخرفان بعد أن تسمع نداءاتها الأخيرة من بعيد عند الفجر، فأسرع لأرى الرجال وهم يسلخون جلدها بينما الأيدى والأعين على فروها الصوفي، رغم أن القرار كان يعود الى جدتي بما سوف تفعل بها ولمن تعطيها. لتنتشر نساء القرية في الساحة وهن يوقدن المواقد ويقمن بحقن البوابير وشي اللحوم، ويطردن القطط والكلاب من حولهن، كذلك الذباب والأطفال، هكذا ولساعات، الى أن تجمع كل البوابير الساخنة والتي يبدو عليها التعب إذ كانت نارها تنوص ثم تطفئ المواقد، بعد أن تدلق الماء عليها لتحدث صوتا اشبه بالهمس: وش وش ثم تصف القدور كلها في الساحه عند المطبخ، تنتظر نعيمة وزمزم حتى تضعا الأرز في صدور من القش، تمهدانه بيديهما وهما تختلسان سف الأرز بين حين وآخر. عندما تبدو

جميع الصدور كاحواض ملح أو كبقع ثلجية ناصعة البياض، يحين دور جدتي التي كانت تقترب وهي بكامل زينتها ترفع نظرها إلى السماء، تبتهل قبل أن ترفع كم فستانها الطويل وتحكم إدخاله ببعضه فيبدو زندها الأبيض الجميل، تنحني وهي تبسمل وتغمض عينيها ثم تبتدىء بوضع يدها في قدور اللحم التي لا بد أنها اصبحت دافئة. وكانت تصف قطع اللحم فوق الارز في تأن وهي تمسكها كأنها من زجاج. تبدل رأيها في النهاية فتأخذ واحدة من هذا الصدر وتضعها على الآخر. في هذه الأثناء تكون البوسطات قد بدأت بالوصول. كل واحدة تحمل بيرق ضيعتها. وسرعان ما كانت تخلي النساء المكان وتتجمع قرب ساحة المطبخ فوق صدور الطعام بينما يكب الرجال في إرجاء الساحة فوق الصدور الاخرى ولا ينهضون عنها إلا وهي فارغة. يتقدم عندها المرشح الفائز فيخطب بهم. هكذا الى ان يسمع النفير ويرفرف البيرق في يد الخيال، عندها يلتم الرجال والنساء ليغادروا تاركين امكنتهم لركاب البوسطات الأخرى من القرى الأخرى لتحتفل بالمرشح الفائز. فتتقدمهم موسيقى النوبة بطبولها وبالصيادج ويؤتى بالصواني والطعام من جديد.

النفير يعلو والبيرق يرفرف في يد الخيال، وبدلا من أن يرفع الفائز على الأكتاف كانوا يرفعون جدي وهو يحاول التملص منهم مع أن السعادة لا بد أنها كانت تستخفه كلما ارتفع عن الأرض. في المساء كان يستعيد وجدتي وقائع النهار فينتقد المرشح الفائز ويستهزئان به، كيف سار كيف ارتبك كيف وقف معتزا بجدية وهو يتلو خطاباً، كيف أتى له ابو مصطفي. بناء على طلب جدي بالسكملة الخشبية حتى يقف فوقها ويظهر بين الجموع. ثم كيف صدق والده أن ابنه شخصية، بينما انحنت أمه تقبل يد جدتي.

تعلق ام الرسام ان ابنها قد تأخر فيطمئنها جواد انه ليس هناك من عجلة

وبأنه لابد من انتظار الرسام حتى يقوم بشرح اعماله. أريد أن أضحك. أكاد اغص في الضحك، لو كانت روحية بيننا الآن لكنا سمعنا جوابها: " شو يا روحي؟ بدك مين يشرحلك عن خريش الدجاج؟ شوف يا حبيبي هالنقطة السوداء هيدي عيون. وهالخربشات البنية منخار، والبزر الابيض المصفوف هون وهون اسنان ".

يدخل الرسام فجأة وكأنه زوبعة. يصافح جواد ويشدّ على يده ويحييني قائلاً: أهلاً " ستتنا ". لكن الكلمات علقت بين اللسان والفكر وهو يسألنا يا... ب. ب تشربوا زهورات أو. أو. أو. كا.. كا.. كازوز"، ليجيب جواد " من زمان لما مرة وقعت من فوق الجل، جابوني على بيتكم وامك كانت عم تقطر ماء زهر، وقتها حطت كم نقطة بطاسة الرعبة وسقتني إياها. والله جاي عبالي شي كباية ماي مع كم نقطة ماء زهر". يضحك الجميع على ما قاله جواد كأنهم أمام طفل صغير لم يزل في حضن امه، والذي عندما فتح فمه ليتكلم، قص عليهم قصة غريبة عجيبة ادهشتهم، تخبط أم الرسام على كفها قبل أن تنهض، بعد أن اقسمت يميناً أن لا يتحرك جواد، بل انهم سوف يأتون باللوحات اليه لتعود قائلة بأنها لم تجد طاسه الرعبة،لكنها أتت له بالماء وفيه ماء الزهر.

يدخل الرسام باللوحات الى الغرفة. أطرق الى الأرض، خائفة من الضحك أمام تعابير جواد الجدية، بينما تبعد أم الرسام صينية من قش فوق خبز يابس وقد رشته بالماء حتى يصبح طريا. " صرنا نبعد كل شيء عن طريقه، يوم العز يوم اللي يهجر الرسم والصبغة، لان كل قمصانه قد تلطخت. بينما يحاول الرسام أن ينطق بالجملة التي ربما كانت على طرف لسانه أمام اللوحات التي هي أقل جمالا حتى من أغطية علب الشوكولا." يعني بفرررنسا ما... ما... ما بيعم... لـ... لـ.... لوا معرض عن الكفاح؟ عن ألاب... الأب .. الأبطال... أو عن الفن الإس... الأسلامي؟" يهز جواد رأسه مهدئا: "...ممكن. كل شي ممكن، وعند جملته هذه: عم يطلعلك يا مقصوف. بكره بيعملولك معرض على الخازوق ايڤيل يا مقزوع

الرقبه". والرسام يضحك مسرورا وأنا انتفض غيظا من غرور الرسام ومن دهاء جواد.

منذ أن غادرنا بيت الرسام والشعور المختلط يؤرجحني، التوق للتقرب منه وللصراخ به. لكن الإحساس الأول كانه طغي على الآخر. فالنهار يعد نفسه ليصبح ليلاً والغروب يهيمن على السهول من حولنا. زهرات الخشخاش البيضاء والحمراء ساكنة قرب اللوبياء والبندورة الحاملة. فسحات من رمل هنا وهناك الكلاب تعوي. انها تجتمع معا حتى تطوف تحت ضوء القمر وتعوي. من عامود الكهرباء تمتد أشرطة كثيرة. يتذكر جواد السهل الذي كان مزروعاً بالعنب والذي كنا نطلق عليها كلمة الكروم، وسهلا آخر كان مزروعا بالفرين، كنت احب السير فيه رغم الكلاب الشرسه التي كانت تحرسه. أشجار التوت لم أرها قط حاملة، ولا شجرات الزيتون التي لم تكن تحمل كثيراً، ولكن جذوعها لم تزل كأنها أشكال ناقمة على العالم، استنشق دخان البلان والأشواك التي كانت تحرق وأجد أن هذه الرائحة تدغدغ رأسي وخيالي الآن. اضحك على الرسام لأنه يفكر اسوة بالكثيرين من الكتاب والفنانين اللبنانيين الذين يتمنون أن تعرض أعمالهم في الخارج، وانا استغرب كيف لا يعرف الانسان موقفه وحدود موهبته.

-" مش مهم. فنان اصيل، غير اصيل.. المهم عم يرسم الشهداء. أنا الحقيقة معجب فيه، معجب فيه كثير.. تارك العالم من حواليه، مخدرات ومخدرات وعمولات وهو قاعد بيرسم الشهداء.. نيته حلوة، سليمة إيجابية، وإذا كانت النتيجة كأنه حمار أجلّك مسكوه ريشة وألوان ".

وجدتني أقلد تأتأة الرسام وأقول:" مخدرات، عمولات: الله يساعد اللي بدو يأخذ ويعطي معه بالشيفرة. أو يتعامل معه بالسر". ويبدو أني قمت بتقليد الرسام جيداً لأن جواد انفجر ضاحكا.

أخذت رائحته تنفذ إلي، رغم سيرنا في الهواء الطلق، ومن جديد شعرت

بالدفء لأني قريبة منه ونحن نسير فوق هذه الأرض. مع ذلك فنحن غرباء عنها. لذلك نتحد معاً ولو قليلاً رغم تباعد عالمينا. أشرت إلى لافتة الكوافورة، وكانت تهجئة كليوباطرا في الفرنسية خاطئة. " حلو.. حلو كتير ". ولم أبال بجملته هذه بل اخبرته عن القروية التي أتت من قرى الجرد النائية التي اصطحبت ابنتها وقالت للكوافيرة سميرة:" شوفي يا حلاقة بنتي بدهاش شنيور، بدها كباتيل كباتيل بالنصف، ومن داير من دار عالبابور ".

يثني على خفة دمي وهو لا يزال يضحك، ما ان شعرت بالألفة والفرح فجأة حتى اكتشفت أن جملته هذه كانت محط الكلام إذ لم يزل ينظر الى السماء، الى السيارات المسرعة، يلتفت إلى جانبي السهل ويكتفي بالزفير وكأنه يدخن سيكارة. كأنه ابتعد عن الليل وعن وقع خطواتنا. أفكر بحزن كم أن الإنسان بالنهاية هو لنفسه مهماحاول أن يلتصق أو يمنح نفسه للآخرين. زفيره يزداد إلى ان توقف وأمسك بكفي وقال بصوت يشبه الهمس:" شوفي شو عاملين بهالسهل. شوفي كيف كل شي ساكن هادئ على السطح وهو بيغلي من جوا بالكومبينات والمخدرات والتهريب والأحزاب". ثم يكمل بصوت لا مكان فيه سوى للحزن: بأنه عندما رأى صور الخشخاش وقرأ عن معامل الهيروين في إحدى المجلات الأسبوعية في فرنسا تشنج وبكى، خاصة عندما رأى الابتسامة العريضة على وجوه الأطفال والنساء وهم يحملون رزم الخشخاش الملوّن قريبة من قلوبهم بين أيادي عليها الوشم الأزرق تماماً كوشم عجائز عائلته. هذه الصور، تهون أمام صور الشباب الذين تركوا المدارس والتحقوا بهذا العمل المريح، ليؤلفوا وعائلاتهم مافيا لبنانية.. حين قرأ أن في منطقته ما يفوق الخمسة عشر مختبراً لتحضير الهيروين والخشخاش، لم يتصور أنه في ذلك البناء ذي النوافذ الحديدية المخرّمة، القريبة من الذاكرة، يجلس الخبراء يكررون المخدر.

أشعر بمبالغته فأدافع:" ولو كل عمر لبنان بيزرع حشيشة؟؟ مظبوط مش

بضيعتنا. بس شو فرق ".

" حشيشة، بسيطة بس معامل هيروين وكوكايين.. وبعدين هلق صارت كل المنطقة مخدرات. صار لبنان المورد الثالث في العالم، وبعدين كانت سهول الحشيشة بتنعدّ على الأصابع ولبنان كان لا يدري اين يخفي وجهه من الخجل.. والأجانب متعجبين لهالبلد النموذجي المتناقض بين مراقبة الإرتيستات ومراقبة صارمة، والسجن لمن يحمل سيكارة حشيشه، وبذات الوقت كانت الحشيشة بتنزرع على مد النظر. مش خسارة يصير طموح كل إنسان، شاب أو كبير، أن يتاجر فيها؟ مصاري سهلة وسيارات متل ما شايفة طويلة عريضة.. وأبهة، وسلاح وحراس، صار المهرب والتاجر والزارع أهم من أي وزير أو نائب ". استمع إليه، ولا أتأثر بما اسمعه.لقد جاء متأخراً هو ونظرياته، لا بأس من الحماس القليل، هنا وهناك من وقت إلى آخر، لأنه سرعان ما سوف ينسى ويبتعد عن واقعنا والحياة الأوروبية تغرقه بتفاصيلها. لابد أن مفكرته مزدحمة بالمواعيد. دور نشر، ومجلات ودعوات عشاء وحفلات وإذاعات. كلها مكتوبة بخطه المتأنق الواضح. إنه يسّن القوانين كأنها على بلد طبيعي، على مواطنين مازالوا يترعرعون بهذه التسمية وبكل ما تحمله. من السهل عليه بالتالي أن يبث هذه النظريات، فهو لم يختبيء في الملجأ. لم يذهب ليشتري الخبز وخر ميتا وهو ينتظر دوره، وإذا لم يمت عاد إلى بيته في البناية التي يسكن فيهاليجدها قد اختفت، لتأخذه وهله قبل أن يكتشف أن هذه الحجارة والرمال التي يدوس فوقها كانت بنايته.

تعلمت الصمت، خاصة أمام النظريات الاجتماعية والسياسية. هل يستطيع أن يتصور الاختيار الصعب الذي تقف إزاءه العائلة أمام تعليم أولادها؟ أي ولد؟ وأي بنت؟ إنه يتصور والتصور مؤلم. لكنه لا يؤثر. الأم التي أصبحت تتأفف وهي تسمع لهاث ابنها، ضربات قلبه، همسه لها بأنه عطشان أو أنه يريد التبول... أو الأم التي لم تزل تنتظر ابنها المخطوف أن يعود حتى وهي تسمع من الميليشيات أنه لا سجناء لديهم. وأم سامية هل اخبره عن أم سامية التي هيمنت على عقل

سيمون لمدة؟ كان يحيطني بيده التي كانت تمر على خصري ثم تتحسس اللحم الذي ينتج عن شد الخصر. ثم ينحني حتى تلامس يده فخذي ثم يرتفع بها من جديد إلى خصري وإلى ذراعي. كنا نراقب الجبال التي كانت تحيط بالبحر، كنا محظوظين، إذ رأيناها مغلفة باللون الليلكي الفاتح والغامق. قبل ثوان من غياب الشمس. كنت في الجهة الشرقية، في بيت اخي سيمون المسافر، نقف على الشرفة، في أيدينا كأسان من البلودي ماري الأحمر. كان لبنان يبدو مسالماً وكأن لا حرب مرت عليه ولا حرب سوف تمر عليه، كنت الحق حبل غسيل الذي يمتد عند الشرفة المجاور، وصوت التلفزيون يأتي من غرفة ما قبالتنا والمسبح المشهور بدا هادئا. وكأن رماله داست عليها الأقدام ونثرته، ثم عادت فسمدتها الشيزلونغ والمناشف.

" لو الدنيا تبقى في هذا الانسجام ". كنت أعرف نفسي عندما أريد أن أتمدد مستسلمة في ارتخاء تام تماماً كما في دروس اليوغا. الشعور برمي ثقلي على الأرض لدرجة أن يتعذر علي تحريك أي جزء مني. أردت ليلتها أن يتمدد سيمون إلى جانبي ويداعب شعري كعادته، ويلامس كل وجهي بأصبع واحد قبل أن يميل إلى ويقبلني على شفتي، اشم رائحة الفودكا أو البيرة المختلطة مع السكائر، فتخدرني هذه وأشعر بعدها بأني أريد أن اعانقه واتشبث به. عند هذه الصورة اقتربت التصق به وأقبله على ذراعه، وأنا أعود الى الصورة التي تمثلني متمددة، طائرة أنتظر حركة واحدة منه حتى أحلق أكثر. لا بد أني أحبه، فكرت لكني كنت شعرت هكذا ايضاً مع ومع... ومع...

أحاطني سيمون بذراعه للحظات ثم سحبها. لم يكن معي تماماً. فكرت ربما لأننا نقف على الشرفة والجيران من حولنا. لكنه اخبرني أنه يريد مغادرة لبنان، لم يعد يحتمل العنف الذي يراه في عدسته وعينيه، أخبرني عن المرأة التي قصدته وهو يصور المقابر، التي احب ان يأخذ لها صوراً لأنها كانت عكس بيروت

المنهارة. فالقبور متساوية نظيفة، من حولها الورود كأنها حديقة. لتركض اليه امرأة وتتعلق بملابسه وتسأله باكيه ". إذا رأى ابنتها سامية. أخذت تصفها له. ظن انها مجنونة عاقلة. وصفت له شعرها وعينيها وشامة أنفها والفستان البرتقالي الذي كانت ترتديه، وصفت حذاءها وخاتم اصبعها ثم استدركت. كأنها تود أن يعلم من أخذ الخاتم بأن سلامة سامية هي المسألة لا الخاتم. " معلهش الخاتم ذهب يمكن ما كان باصبعها، يمكن سرقوه منها ". ثم أخذت تتشنج:" كانت سامية مخطوبة، هل رأها؟؟ " عندما حاول الاستفهام منها، أكملت بأنها متمالكة نفسها، مهما يكن جوابه. ثم أخرجت من جيبها صورة ودلته على سامية التي كانت تستند الى بنت أخرى وتبتسم. " كانت عم تضحك مبسوطة. دخيلك ما تخبي عليّ.. شفتهم عم يقبروها؟ قالوا لي انه انصابت برصاصة طايشة ويمكن قبروها مع غيرها. أول امبارح شفتها؟ قالوا لي في واحد مصور عم يصوّر الأموات بالمقابر، شفتها لسامية؟ شوف يا روحي الصورة... تذكّر منيح.. بدي ريّح بالي... شفتها لسامية؟".

أقول لجواد وانا اضم المسجّل الي لا اصدق ان الرسام قد اعارني المسجل. يعلق جواد:" لاحظت أمه قديش بخيلة؟ ". جملته هذه اراحتني من وطأة الشعور بأن هذه العوائل الجديدة هي الحاضر والمستقبل " حدجت ام الرسام بنظرات استنكار عندما وافق على إعارتي مسجله بينما كان بيتنا ولا يزال مفتوحاً وأشياؤنا حتى القدور التي نطبخ فيها كانت تستعار. يتهموننا بالإقطاعية، لأن أراضينا كانت شاسعة والحقول على امتداد النظر، لم يخطر ببالهم أن التعلق بالأراضي لم يكن من أجل المال بل هي رغبة في تكملة ما بدأته عائلتنا.

أقرب المسجل من صدري وأقول بدلع كأني استدرجه للدخول الى عالمي وخصوصياتي: " مش راح نام اليوم. بدي اسمع موسيقى كل الليل ".

لكنه يجيبني:

" رسام الشهداء حكاية لحالها. واخذ يصفه كيف هبّ كالسهم يفرغ الكاسيت من المسجل، كيف يسكب الشاي كأنه عم يهبه لمريض سيفارق الحياة بعد لحظات.

يجب أن أسرع الخطى. فهذا الذى يسير معي يكتب رواية، وأنا بحاجة الى الدفء الذي، ربما علي أن امده مَن نفسي الى نفسي. لكنه يعود يسألني: «ماذا سوف اسمع؟»

" بيلي هوليدي " أقولها بفخر، كأني اتفوق عليه هذه المرة.

. كان جدي على المصطبة يتناول الطعام. بينما وقفت صوما الى جانبه تنتظر منه اشارة لتعرف إذا كان بحاجة اليها. عندما رأى جدي من بصحبتي انفرجت اساريره. وأقسم على جواد ان يقاسمه طعامه.

وما ان نادى زمزم حتى، ولدهشتي أطلت جهينة من خلفها. لأول وهلة ظننت أنها كالقطة التي عرفت أن لا طعام لها في هذا البيت، لكنها لم تزل تحن إلى رائحته.. ولدهشتي ايضاً يبادرها جواد:

" شو يا جهينة غيرت اسمك لأسم حلا؟ حتى نقولك يا هلا يا هلا من وين لك هالحلا؟" أتأكد من أنه قد التقى بها عند روحية، ليوجه لها اللوم جدي لاختفائها ومحاشاتها حتى وهي في بيته، ثم يشرق اللبن محدثا صوتاً فيتلوث شارباه وذقنه.

تهجم عليّ جهينة تقبلني، تحيطني بذراعيها وأنا احاول التملص منها. تمسك شعري قائلة: "ياالله أول مرة بشوف طعجات على شعرك. رحت عند الكوافيرة...؟".

يجيب عني جواد:

" عملتلها إياه كباتيل كباتيل والباقي عالبابور". جملته هذه جعلتني اشعر بالزهو وبالدفء. كأن الخصوصية قد نشأت بيننا في هذا المشوار، ووجدتي اتخلص من جهينه لآتي لجواد بصحن من المطبخ.

لم يلحق بي أحد. ولا حتى صوما. أغرف لجواد في الصحن وكلي ترقب لأرى وجهي في المرآة ثم اخرج بالصحن وأضعه أمامه. أفهم ان جهينة تكاد تطير

فرحاً به. أفهم لماذا فتر شعورها بالاقتصاص حتى من الأرض ومن الهواء الذي يحيط بنا عندما عرفت أني أتيت بصوما من مكتب الخدم في البلدة المجاورة رغم انها ارسلت تهديداً في اليوم التالي بأن خطيب أختها الإيراني سوف يتدخل في القضية.

لم أرها في الماضي كمثل هذه الليلة. ضحكتها عالية وكأنها لا تمت الى التي كانت تنخر بي وبأهل البيت منذ أيام. أومئ برأسي حتى تتبعني الى الداخل. بعد أن تمنيت لو انادي على الملأ بأن عليّ أن أدفع ما تبقى لها من المال حتى أذكرها بموقعها. لكن الشجاعة لم تتملكني وهي تدنو تحيطني بذراعيها وتسأل: " بشرفكم مش أنا وأسمى متل الأخوات ".

ينهض جدي ويقترب من جهينه ويمسكها من شعرها يشدها اليه بكل قوة: " خلص.. ما فيش بيننا خبز وملح. قال بدك تتجوزي وعا أستراليا من حكيم ". تضحك عاليا « أي شو عبالي حكيم او مهندس، أو رئيس جمهورية، شو ناقصني؟" تفلت نفسها منه وتنفش بصدرها الذي يقف بدوره طوعاً لها.

يصيح جدي:"محظوظ.. محظوظ بدو بس يطّلع فيك "؟

تجيبه: " مين مانعك؟ طلع فيّ قد ما بدّك. حدا عم يحاسبك ".

" ولو عم تسألني مين مانعني؟ بنات آوى بحاسبوني.. وراي ليل ونهار: ولك حرام ما انت بعمر جدها " كأني أرى ملامح جواد للمرة الأولى، أو آنها تبدلت فجاة، العينان واسعتان وكأنهما قمران كبيران في الوجه الذي لم يكن يبث سوى ذبذبات الإمتصاص لكل ما حوله. حتى شعيرات ذقنه كأنها مستنفرة كالرادار. لم يكن ليصدق حوار جدي وجهينة. أخذ ينتقل بنظره من جدي الى جهينة الى صوما، التي لم تمح الإبتسامه من على وجهها، رغم عدم فهمها للعربية ولهذا الصياح والضحكات.

-" لا والله جدي اصغر منك يعني انت بعمر جدّ جدي ".

جوابها هذا هو انسحاب، نفي لقصتها معه أم استعادة لكبريائها؟ بل هو

انسحاب إذ اشرق وجهها الذي منحته لجواد طوال الوقت، غير آبهة، لاغية كل من حولها. تلوح بشعرها. تنظر في عينيه ولا تحيدهما عنه وإن حط نظره على الآخرين. كأن بينهما سراً. نظراتهما معاً كانت حول صوما. وضحكهما فيه تواطؤ. لابد أن جهينة أرته كمدات صدرها، أدخلته في تفاصيل جدي وروت له حربي معها ووحشيتي.

يقول جواد مبدلاً الحديث:" والله إذا مشيت جهينة عالشانزلزيه حتى يتوقف السير». معنى هذه الجملة اني اصبحت متقدمة بالسن وبأنه علي أن أوافق وأن اشجع الأحباء، جدي وجهينة وجواد، كلهم بابتداء حرف الجيم. وأنسى حياتي التي قد تصبح جحيماً. يقف جواد خلف المغسلة في الردهة، وأنا اخرج من المطبخ بعد أن أدخلت الصحون برفقة صوما وزمزم، وهو يشير الى الجدران قبالتـــه، ويسألني عن الصورة الوحيدة المعلقة عليه.

صورة جدّي، الصبي الذي في يده بندقية، رغم انه لم يزل في حضن والده المتطي جواداً أسود. وعلى خاصرته سيف. كان وجهه يقطر هيبة تزيدها الكوفية والعقال على رأسه وشاربه الضخم، والهيبة التي كانت تقطر من سراج الحصان وشراشيبه السوداء.

كانت الجاكيت التي يلبسها والده مشغولة بخيط القصب. وقد التف حولهما الرجال متأهبين بالسيوف والبنادق، ورغم عبوس وجه جدّي الصغير كانت استدارة وجهه سمحة، اسنانه بيضاء كبيرة كأنها اسنان لصبي اجنبي.

" لو بتعرفي شو عم حس هلق... يا ريت بتحكيلي مع ستك وجدك حتى يخبروني حياتهم. من الأول. من أول ما فتحوا عيونهم لهلق ".

أجدني أبدل طريقة حديثي معه، ربما عليّ ان اكون كجهينة فأجيبه ضاحـكة:" أحكي انت معهم؟ يمكن ينبسطوا خليهم يفشوا خلقهم ". وكما حسبت سابقا، تطل جهينة وفي يدها وريقات من الحبق تدنيها من أنفه: بشرفك، شم شم.

– " والله ريحة ايدك أحلا ".

أخرج، أتركهما خلفي. وقبل أن تبدأ هواجسي عملها، تلحق بي جهينة: والله يا ريت، بروح على فرنسا وبتعلم " شارمران". ولعلها لم تجدني متحمسة لقد عادت تقول: " طيب بركي بساعد جواد بالبيت. بطبخ وبكوي وبغسل وبرتب، وبعدين بروح عمدرسة الشارمران شي كم ساعة ".

أجيبها وأنا أجمع الأكواب، بل كأني أدمر عليها جدران أملها: " أول شي شارمران هيدا اسم، متل ما بتقولي سينما ريفولي. فكرت انها لم تسمع بسينما ريفولي. أنها صغيرة لم تسمع بصالون بالوما أو دكانة الزهار. «بدك انت اكاديمية للتجميل وتصفيف الشعر ».

لا أعتقد أنها تسمعني. لا بد أنها تفكر كيف ستشبكه بشعرها. تماماً كأسطورة رينزول. هي شمشون وهي دليلة. فمادام شعرها ينسدل حولها فهو يحبها. لذلك تتركه له في النوم وفي الصحو. "شو قولك بيقبل جواد؟ هو بس يعطيني أوده، مثل اكرام عطوها أوده على السطح وهي انتبهت عالصغار. دخيلك أسأليه، بينك وبينه ".

تريد غرفة في عمارته، حتى تهبط عليه وتغطيه بشعرها، تشكبه بلهجتها، بشهقتها، بروحية. تريدني أن أسأله حتى أظل بعيدة، أكون شاهدة، الممثلة ذات الدور الثاني. زهرة العلا، لا فاتن حمامة، زينات صدقي، لا شادية. كانت قد لحقت بي إلى المطبخ، تركتها تغلى القهوة غير مبالية بجدي الذي لا بد أنه ضجر من كثرة حومه حولها وهي تطرده بنظرة منها وكأنها تكش ذبابه. لتسأله من دون خجل لان يشتري لها تذكرة ذهابا الى فرنسا عربون حبه لها.

" شو قالو عني منوب بلا عقل. بشتريلك عفرنسا مشان قول والله اشتريتللها عفرنسا وانا اشتريت لحالي محل بجهنم ".

يعود جدي إلى جواد من جديد، وكأن ما دار بينه وبين جهينة لا يدعو الى

التوقف عنده لحظة أخرى. ما يهمه الآن هو التحدث عن أولاد الحرام والسياسة المحلية والعالمية. يريد من جواد أن يساعده في كتابة رسالة موجهه الي بلاد العالم. لتنشر في أكثر المجلات مبيعاً. يشكو بها ظروفه وأراضيه. وجواد يراقب الجميع خاصه زمزم التي وقفت في قميص النوم، والتي كانت سعيدة بأن أحداً غيرنا يراها في القميص الجديد، لقد تحققت امنيتها التي كانت تطمح لأن يراها الغرباء في قميص النوم الجديد، بدلا من الفراش والوسادة.

بينما تسأل نعيمة جواد لو يأخذ معه ابنها مسلم الى فرنسا ويجد له عملاً، وزمزم تضحك قائلة بأن عليها أن تبدل اسمه من مسلم الى سليم. وجواد يتدخل بأنه اسمه ليس مسلم. بل مُسلّم به، فتشب جهينة متدخلة مستهزئة، ثم تغمزني لأفتح موضوعها لكنها تبدل رأيها بسرعة وتهز رأسها بالنفي.

يحاول جواد من جديد أن يجعل جدي يتحدث عن نفسه وجدي يزيد من غضبه تجاه المحتلين، تجاه العائلات التي لا بد أنها مشتركة بطريقة خفية بهذا الاحتلال، فهي التي تسوق وتتاجر بغلة هذه الأراضي. يصيح، يريد جواد أن يُفَهِم العالم.. ولم يسكت جدي إلا عندما سمعنا صوت جدتي يناديه وينادي زمزم. وما أن فرغت المصطبة حتى غمزتني جهينة وهي تحضنني بذراعها. فقلت لجواد وأنا سعيدة لأن محاولاته مع جدي باءت بالفشل:.

" جهينة بدها تسألك إذا كنت محتاج لحدا يدير باله عليك بفرنسا، إذا بتعطيها أوده ".

-" جهينه عم تسألني إذا كنت محتاج لحدا يدير باله عليّ.. مظبوط بدي حدا يدير باله عليّ... " تضحك جهينة بتصنع، أحاول ان افكر في كلمة غير " مساعدة البيت " حتى لا أجرح شعورها. ولم تنتظرني بل تسرع هي بالقول " قصدي بفرنسا. بدك حدا يشتغلك بالبيت ويطبخلك ويكويلك " يقاطعها:" شفت ما حدا بيهتم في منظري مبين عليه، مبهدل، جوعان. عطشان ". ليت جهينة تسكت ! لقد عرف ما قصدته منذ السؤال الأول، لكنها استأنفت تخبره عن الشارمران، عن

صديقتها اكرام ورعايتها للصغار وعن غرفة السطح وجواد يبتسم ويقفل الموضوع قائلاً:"واحدة متلك بخلليها تشتغلي ؟ انا لازم أكويلك واطبخلك وأغليلك القهوة". ثم يضيف بجدية انه يعيش في بيت صغير، يأكل في الخارج، ويرتدي قمصانه من غير كي، ويقوم بغسلها من غير ان يضيف اقراص النيل.. وهنا يسألني اذ كانت زمزم لا تزال تستعمل اقراص النيل، فاجيبه بلا مبالاة ان يسألها.

ينهض فرحا لانه سيدخل الى غرفنا.. لكني اطلب منه مناداتها من الخارج لان جدّتي لابد انها تستعد للنوم.

يعود صوت جدي يرتفع قبل أن يظهر على المصطبة:" وين غط طير *الحمام*، على وسخ البدن ". نطلب منه أن يصمت، كما هي العادة كلما علا صوته محاولا اغاظة المحتلين.

يستدير جواد إلي تلمع عيناه كأنه نسي أمراً مهما ويسألني اذا كنت قد تحدثت مع محتلي الاراضي، وعندما نعته بالجنون لفكرته هذه، دافع عنها: تصوري *القصة* انت بتحبي واحد من *المحتلين*...

يغلي دمي حتى يصل رأسي ومنه الى لساني فأنفر به:"...شو رأيك لو أنت تجرب تحب واحد منهم؟".

يطغي الصمت على الجلسة رغم كلام زمزم الذي لم يتوقف ومسايرة جواد لها ثم ضحكات جهينة، رغم المذياع وصوته الذي يأتي من الغرفة التي كانت تجلس بها جدتي، رغم صوت بيلي هوليدي الذي انزويت معه في آخر المصطبة. ظننت أني وحيدة الى أن سمعته يدندن معها. وكأن فجوة انفتحت بيني وبينه. اتهمته بالخبث وكأنه بمعرفته لبيلي هوليدي كان يسحب مني حتى تفردي بها. يقول ما ان تركنا للحظات مع صوتها، بينما تفرق الجميع عنا سواء باجسامهم أو بأفكارهم:" بتعرفي بيلي هوليدي. وبتلبسي مثل اخوات شيكوف الثلاثة. وبتضحكي لأنو جدك شاب وما تاب ولما بحب عن جد بتطرديها.. وبتفتشيلو على

واحدة تشيل همه وبالوقت نفسه بتزعلي من ولا شي، يمكن بعقلك في طبقة ثانية يا ريت بتخلليني أوصل إلها".

احاول ان اصيح، لكن قلت بهدوء غير مهتمه لاقتراب جهينة وجلوسها الى جانبه:" لأنك اناني، نحنا عندك مواد لكتبك... تستهزيء بالشعور بدك ياني اوقع بحب المسلح اللي احتل بساتين اهلي.. حتى يكون هالحب أوريجنال.. حتى لما ترجع تخبرهم عن الفلكلور وعن البنت اللي حبت عدوّها ".

عندها ينهض جواد يتركني وأنا أرتعش والكلمات ترتعش في فمي، تلحق به جهينة، ويختفي وقع خطواتهما بينما يعلو صوت بيلي هوليدي وحيداً... فأسمع احد المسلحين يصيح:" خلصينا من هاللي بتنوح ليل نهار، حطيلنا فيروز ". يتركني مع نفسي ولم أشأ أن أترك معها.

أطفئ النور، وأجلس في سريري، لم أزل انبض مع وقع قدمي جواد. وأتمنى لو أنها آتية وليست مغادرة.

هدوء تام قبل أن يعلو صوت جدي منادياً:" يا صوما ايمتى بدك تصومي، الخص ضيقي من جواد، انه يعاملنا بعين الأجنبي". أهز كتفي بلا مبالاة، اطرد نبضي الذي لم يزل مع وقع قدميه على المصطبة، يرانا فولكلور، لا يشعر بما نعانيه، لا يرى طموحنا، حدود قدرتنا. لحظات وأتراجع عن تفكيري هذا هل عدم استمالته لي هو لبّ الموضوع؟ هل أشعر بالغيرة من جهينة وصغر سنها؟ لماذا ترتبط معاناة المرأة بالعاطفة دائما ولو بجزء بسيط منها. إذا هي لم تبدو جميله تتزعزع ثقتها بنفسها حتى ولو كانت اهم الموجودين، أم أن الغائب عن هنا، البعيد عن هنا يحمل في ذهنه الوطن الجميل وأنا لا أراه إلا مشوهاً؟ هل يضايقني ان مخيلته مزروعه بالسهول الآمنة، بذرة بذرة، يرويها ويشذبها ويقطف ثمارها، بينما لم يعد في مخيلتي شيء، لابد أن الماضي يعيد الروح الى النفس ويطيل عمرها وإلا لماذا هو مرتاح، بينما اجد نفسي معلقة بخيط دخان في الهواء. أجبر نفسي

الآن لأسمع نفسي تردد:" انا اسمهان.... بنت.... من عائلة ". أغمض عيني وأرى نفسي متمددة على العشب في أيام الربيع فأردد:" تمددت مره على العشب الأخضر وحانت مني نظرة الى الفضاء الأزرق. همست لنفسي: لماذا انا خائفة من النجاح في البكالوريا وكل ما يحط نظري عليه هو لي؟ حتى السحاب الخفيف، والفراشه الدائخة التي وكأنها. عرفت انها تعيش ليوم واحد. كل شيء لي. حتى هذه النجوم المنطفئة"

.لكن هذه الصورة لم تمد نفسها إلى وجهي حتى تلين ملامحه أو تدخل حلقي وتقوم بتخدير شعيرات داخله التي لم تزل متيقظة تشكل حشرجة. أشتهي كأساً من الجن لكن لا أطمح أن أجد إلا عرقاً.

أنهض الى " خزانة القزاز " افتح درفتي الخشب حيث يخبّأ تحت الرفوف والواجهة الزجاجية ما هو غال وماهو محرم للطوارئ. الكحول لوجع الأضراس ووجع النساء. ولوجع قلب جدي على أنثى. كأن العرق جف في القنينة. أفتح كيساً من ورق فأرى قناني صغيرة فارغة امسك بواحدة وأبتسم، أعود بها مع زجاجة العرق إلى غرفتي. امسكها بين يدي وأبكي.

أمر بيدي على القنينة الصغيرة على اللون البنفسجي. كنت أفكر بأن من ركب هذا الدواء هو ساحر، فالقنينه لم تكن كقناني الأدوية، بل أنيقة خاصة بكتابة الاسم الذي لم أكن اقرأه إنما أحببت لونه البنفسجي " عنتر بك " أرى الآن الطير الذي كان يتدحرج بالطابة. فوق الجسم الأبيض ليريحه من الأوجاع، بينما ربط في الوسط ضماد أحمر علامة الاسعاف والمرضى. لون برتقالى يتأرجح في زرقة السماء التي لا بد أنها النار التي اندلعت في فمي ما أن لمس السائل شفتي. تحت هذه الصوره المستديرة، كان الكلام مكتوباً بخط صغير، كأنه صفحه قاموس، لتنتهي بتوقيع لا بد أنه توقيع الطبيب. كأن طعمه المرّ يعلق في سقف الحلق، يذكرني بوقع كلمة الحنظل. أمسك القنينة بيدي. الطائر يدحرج الكرة الأرضية،

على الثلج، كلمة في الوسط " انترباغ " صنعت في سويسرا. وصفها الطبيب لجدتي وهي في فندق في سويسرا، عندما آلمتها معدتها، ولم تكن معتادة على البرد وعلى طريقة طعام أهل سويسرا. وكانت قد اصطحبت جدي لتعالج من العقم الذي أصابها بعد ولادتها لأمي، وكانت هذه سفرتها الوحيده خارج لبنان. ومع ذلك أصبحت هذه السفرة محطاً في حياة جدتي ومن حولها. قبل وبعد. " بعد رحلة سويسرا صارت معدتي توجعني. قبل ما روح عسويسرا كنت دوخ وبعدين من لما ركبت الطيارة الدوخة كلها راحت ". لم تخرج هناك مع جدي، لتبقى في غرفتها وتتمشى معه ليلاً في حديقة الفندق بعد أن يأوى كل من في الفندق. لم تكن تحسب حساباً للأجانب الذين لا يستحقون حتى رؤيتها. ومع ذلك كانت دائما تخبر كيف نقلت النساء هناك موضة فساتينها.

ما ان أتى الطبيب لها بهذه القنينة، وكرعت منها حتى شعرت باللهب يمسك بلسانها وسقف حلقها، ثم ينزل في زلعومها، وما ان يصل الى معدتها حتى زال التشنج. أصطحبت من هذه القنينة العشرات عند عودتها، لم تكن توصي عليها المسافرين إذ لم تود ان تكون ممتنة إلى حد بل أرسلت في طلب الصيدلي تتلو عليه الدواء العجيب الغرببب وتطالعه على القنينة، فأخذ يستورد لها القناني التي اطلقت عليها اسم " عنتر بك ".

من جراء هذه القنينة، كانت ضحكات الحاجة نظر والحاجة عمشاء وصائمة الدهر تتعالى، واللواتي ما رأيتهن قط يضحكن. بل كن كالخنافس في براليمهن السوداء وأغطية وجوههن يتدحرجن على الدرج. الحاجة نظر تمسك بالحاجه عمشاء تقودها بينما صائمة الدهر تأكل الراحة والبسكوت التي اخذتها من الصحن ووضعتها في عبّها.

ولم أرو لجدتي حتى الآن رؤيتي للعنتر بك في إحدى الحانات وكيف دق قلبي. وطلبت من صاحب الحانة ان يطلعني عليها وأقرأها لأول مرة واكتشف أن كل أحرف الاسم كانت موجودة لكنها كلمة أخرى. وعندما سألني الذي كان

برفقتي إذا كتنت أريدها هززت رأسي موافقة فأتتني في قدح من الكريستال، جرعة واحدة، واللهب علا حتى لساني. تمالكت نفسي لأسأل صاحب الحانة ماذا تفعل قنينة جدتي هنا. ولماذا هي ليست بين رفوف الأدوية في الصيدلية بل أسأله عن نوع المشروب ويجيبني " ليكور " يا آنسة.

أتبسم لهذه الذكرى، وأجدني اصبح خفيفة ارتفع عن سريري. وأغمض عيني وأبتسم لهوسي، اضمه بين ذراعي وأحاول النوم. كيف أنام ومئات الخواطر تون في أذني. لكن نتيجتها تصب في مكان واحـد، في سؤال واحد: مَا أريده منك؟.ماذا أريد منك غير أن تأخذني بين ذراعيك وتعصر بشفتيك شفتي، تعصرني مؤكداً لي بأنك تهتم بي. مجنونة؟ محرومة؟

علي أن أوقف سيل رغبتي هذه. فأنا بت كفضيلة. اسفنجه تريد أن تمتص اي ماء، أي رطوبة؟ رغم اني كنت قد شطبت على علاقات كثيرة في الآونة الأخيرة بعدما وجدت نفسي ذات صباح اقسم بالله والنبي محمد وبالمسيح وباسماء أخرى بأني لن اغمض عيني وافتح شفتي إلا لمن احب. لن اشق فخذي حتي للذي احب ألا بعد مدة طويلة حتى أتأكد من أني اتعلق بالذي قابلتي بالذي إلى جانبي، حتى اشعر بالأمان لفترة من غير أن أسأل شروطا من القلب أو الجسد. بل أجد نفسي كصقر يغط كلما عطش من غيران فكر بأنه ينهل من ساقية أو من ينبوع.كعصفور يتمرغ بالرمل عندما يشعر بالحاجة اليها غير مبال إذا كانت حبيبات التراب لامعه تحت الشمس او متلبدة.

لم اصدق ذلك الصباح ما رأيته، رغم اني قد رأيت نفسي عارية لكن جسمي لم يبد مدعوكا هكذا من قبل، وكانت التجاعيد قد ظهرت على البياض الذي بدا شاحبا، شعيرات قليلة على الفخذين، بينما بهت لوء طلاء الاظافر، وانقشر بعضه. والذي زاد من شعوري الحزين هذا، الشراشف التي كانت غير نظيفة والتي لونها يذكر بالاهتراء. شعرة واحدة من رأسي على الوسادة ملتوية كالثعبان، جعلتني انتفض، لا اعرف ماذا كانت الوسادة محشوة، لكنها بدت وكأن جيشا بكامله قد

اراح رأسه فوقها. مددت يدي آتي بملابسي من على الارض، من على جانب الفراش، وانهض بسرعة. الاصوات التي كانت تأتي من الخارج هي التي ايقظتني ولسعتني. مع الاصوات رأيت الحياة تضج عبر الباب الذي كان بلا ستارة. عائلة تتصايح، اولاد يلعبون، ضجيج في الفضاء حتى شجرة البلح الطويلة لم تبد ساكنة. كان السوس ينخرها والاصوات تلصق بها، بصيص نور يلمع امام عيني فجأة ويختفي ويريني ما يجري في الحياة وفي بيروت التي كانت بعيدة عن الحرب. انها طبيعية. الكل يعمل، الكل يركض. الكل يفتح ذراعيه للمستقبل. الكل يحب. الكل يتزوج، ينجب. ما عداي.

اعود بعيني وبفكري الى الغرفة، الى حيث الرجل الذي كان نائما، اتمعن برأسه، بصلعته الصغيرة التي بانت الان رغم انه يواظب على تغطيتها، يحذف شعره الى الجهة الاخرى. وتساءلت: هل اعرف هذا الرجل، هل احب استاذ المدرسة هذا؟ الذي اود ان اهرب منه ومن ذكرى ليلة الامس، رغم اني استمعت اليه بكل جوارحي وهو يخبرني كيف يتمنى ولو يعلّم الحساب والفيزياء، بدل التاريخ والجغرافية. لم يعد يطيق النفاق، الذي يبدأ حالما يلمح الكتب، لا يستطيع ان يشرح عن محافظات لبنان ولا ما حل بها، لا يمكن له ان يسترسل عن الجبال المكللة بالثلوج وعن اماكن التزلج، بينما يقف المسلحون عند اول التلسياج حتى لا يتعدى المتزلجون عن ادوار بعضهم.

كنا نسبح يومها في السان جورج، والأطلال السوداء للفنادق تلاحق اعيننا كلما مسحناها من ملوحه المياه. بينما كان دوي المدافع من الجهة الشرقية يحدث زلزالا في الماء ذي الرائحة الكريهة بسبب انصباب المجارير فيها. ونحن نتمازح ونمسك بالأيدي. ومع ذلك وددت في الصباح ان أهرب منه ومن ليلة الأمس. لأن ضوضاء الشارع تتدخل بأفكاري. وتريني كيف أن الحرب فتحت مسامي، وأصبحت الأيام لحظات تنفي الماضي والمستقبل وتريد الحاضر في هذه الدقيقة. إذ من يعرف متى ستنفجر الصواريخ ويتوقف القلب ويرتمي الجسم فالانهيارات

في الخارج كأنها تولد الشعور بالفوضى وبالعتمة، بالسرية، بالالتصاق. لا. لا.
أهدس بك من جديد. لابد أن عاطفة حقيقية تكبر من جهتي. لكني اتلوى وأنا
أهدس بك من جديد. وكأني اسحر نفسي الآن وأرى غرفتي بعينيك الثاقبتين.
ورأيت سريرا يئن من الوحده. كأنك تفهم اخيرا لماذا اسمهان هذه لم تزل بلا
زواج . أنها حادة الطبع، استمدت غرورها من كون عائلتها تكاد تملك كل
الضيعة. لا بد أنها تعالت على من احبوها، حتى نبذت، وها هي تنام فوق هذا
السرير وحيدة. وها هي الكتب اينما كانت، فنية، سياسية. قصص روايات.مجلات
تافهه. كأنك تقترب وتمسك كتابا وتتصفحه وتقول:" غريب، لم أكن اتصور انها قد
رأت أفلام هذا المخرج. فكيف تسمع بهذا الكتاب او بهذه الرواية، لابد أنها لم
تقصد أن تأت بغطاء سريرها هذا لا بد أنها لا تعرف قيمته الآن في أوروبا وهذا
البساط الملون...

كأني أراك الآن تهز رأسك وأنت تقلب كتبي، لا أحب تصرفك هذا كأنك
خياطة، كلما شاهدت فستانا لم تخطه، فكرت انه من الواجب عليها أن تتحسسه
وتبدي رأيها بخياطته. أفكر أني أقسو عليك لكن كل ما هناك اني اشعر بأن عقلك
ينبض أكثر من عقلي. شعرت بذلك وأنا امام كتابك، وأمام الاشياء التي التقطها
انت امام بلوطة صغيرة. غصن يابس، نبتة سوداء، كوز تين مجفف، فكرت لماذا لم
شعر بالحنين اليها ولم افكر بالاحتفاظ بها وأنا أراها ليلا نهاراً ولا أراها؟

أجدني أسأل الأحلام ان تأخذني الى دنياها. وإذا بالأحلام تستولي علي
وتجعلني انهض في الصباح وقد نسيت حتى اسمك وشكلك.

عزيزتي أم ريكاردو

عزيزتي أم ريكاردو، لا أعرف بم تفكرين الآن؟ ام ان اخبار الحرب اللبنانية لا تصل بقعتك؟ واذا وصلت، يكون تعب النهار قد حط عليك، فتشردين قليلاً، وتتذكرين وليدك الأسمر ريكاردو. فتبتسمين لذكرى وجهه، لذكرى فمه وهو يمص حلمة صدرك البنية، ولا بد أن تنتقلي بذكراك الى والده، وعندها، لا يتجهم وجهك فقط بل تصابين بالجمود. إذ ان ما فعله بك أمر لا يصدقه القلب فكيف العقل. لكن، لا بد أنك اعتدت على هؤلاء الرجال البيض الذين جاؤوا إلى بلاد الشمس كالمتسللين، ثم فردوا اجنحتهم. فردوا انفسهم وأصبحوا اينما حلّوا كغمامة سحاب فوق بطن أراضيها التي حولت الى مناجم الماس، يفكرون كيف سينزلون للاستيلاء على الألماس، أين وكيف يُجنى المال، وبالتالي كيف هم جائعون للجسد ثم كافرون بالشهوة. يفرون منكن عندما تنتفخ بطونكن، أو يخطفون أطفالكن في ليلة يغيب عن سمائها القمر. أو في صباح تتحول به شمس الفضاء الى شموس كثيرة متوهجة. فتعمى أبصاركن ويركضون بالأطفال من غير أن يتفوهوا بكلمة ولو كانت كاذبة، أو مؤاسية. كأنكن فراش جامد حوى هذا الطفل بين أغطيته.

فكرت بك قبل اليوم، فكرت بك منذ سنوات، وحثثت ريكاردو على أن يبحث عنك. وكان يعدني بذلك. كان يستمد من انفاسك أوكسجينا لحياته، هو الذي كان حياتك لمدة من الزمن والان اصبح مجهولاً لديك. هو كالأسطورة الحزينة. لم أعد أسأله أو أشجعه. الواقع علّمني أن ريكاردو لا يملك حتى فمه ليضع اللقمة

المستعصية. لذلك تشبثت أنا بفكرة الخيال الذي هو قوت الإنسان أحيانا. وتخيلتك في غرفتك الصغيرة، المتكدسة بالأوائل التي تحتاجينها للطعام وللنوم. تجلسين على حصيرة من القش، أو على فراش لا يمد الجسم بالراحة تتشبثين مثلي بالخيال، تفكرين أن ريكاردو يعيش كالأمير العربي الآن أو كالرجال البيض الذين ترينهم رغم الرطوبه والحر في بذلاتهم البيضاء فتبتسمين وتغمضين عينيك وتنامين. لكني أنا لا أغمض عيني وأنا ممتنة الى خيالي ليأخذني حيثما يشاء، فأنا اعيش واقع ابنك منذ أن جعلني جواد اختلي بنفسي البارحة، أخذ كالساحر يفتح صناديقي المفتوحة المهجورة، التي بنت الحرب فوق محتوياتها اللامعة بيوتاً للعناكب، هدست بابنك ريكاردو ويعمته فضيلة. فكرت بما حلّ بهما، وأنا اسمع الأخبار بأن السوريين يقبضون على كل منتم الى حزب الله. يبدو أن هدسي بهما كان قويا، حقيقي، حتى وجد ريكاردو نفسه مسيراً الى بيتنا القابع بين الأشجار الواقفة الميتة، وبين الغرسات المزدهرة باللون القرمزي.

" هيدا يحيى، أي والله يحيى ابن اخت فضيلة " ، صرخت زمزم " ريكاردو، ريكاردو " قلت لنفسي وأنا أهب من فراشي، وألبس الجينز والقميص فوق قميص نومي. ريكاردو يقف حائراً على مصطبتنا وبقربه مسلم، بينما نعيمة تنهال على حفيدها بالأسئلة." ليش وين كان عم يسأل؟ عن أي طريق جاء ". ثم تسأل ريكاردو باللهجة نفسها " عمتك ببيروت؟ ومين الكسبان أمل؟، وانت قطعت عند المسيحية ". وكأن ريكاردو لم يكن يتوقع رؤيتي، أو لعله يطلب حمايتي من هذه الأفواه، اذ اخذ ينظر إلي بعينين مصعوقتين. يجلس ريكاردو على حافة المصطبة كمعظم الزائرين سواء كانوا من الشباب أم الرجال، يجلس ببساطة وهو لا يزال ممسكا بحقيبة سفر تشبه حقائب البائعين المتجولين، او حقيبة ارتسمت فوق جلدها البني خربشات وكأنها تعكس جروح من يحملها. اختصر ريكاردو كلامه كالعادة قائلاً إنه جاء عن طريق عرمون وانه استقل سياره أجرة. اشفقت على

يحيى، ريكاردو، الجالس على حافة المصطبة الحارقة كمذنب في قفص الاتهام أو كطفل ينتظر أن يتعرف عليه اهله. ببنطلونه العتيق وقميصه البالي. طريقته المنحنية في الجلوس لم تساعده في جلب نظرة أخرى من نعيمة. كنت أنظر اليه والشوق لأن أضمه إلي يزداد، لكن هذه المرة بطريقة مختلفة عن المرة الأولى التي ضمني بها اليه ذات ليلة، والتي من بعدها لم يتجرأ على المبادرة من جديد. بل اكتفى أن يصبح كظلي، فهو إما في المطبخ مع زمزم يساعدها في نقل قنينة الغاز أو في الحديقة متحججا بنكش وزرع وسقي البقدونس، أما في الدكان مقابل بيتنا ينتظر ذهابي وإيابي لألقي عليه التحية وأبتسم له. حذرتني عمته فضيلة قائلة بانه لم يزل طفلا وعلي الاحتراس من انجذابه اليّ. وجدتني اندم على ما بدر مني في تلك الليلة عندما وقف كالطفل عند باب حديقتنا الحديدي والمطر يهطل فوقنا. خواطر متدافعة تدفقت على فكري وأنا أمد يدي أتناول منه الورق الملفوف الثقيل. هل هي قنابل، رصاص، مسدس، مال؟ وعندما اخذت وقتا لأفتح الكيس، سمعته يقول: " أن شاء الله تعجبك، بقولوا الماما عطتني اياها وانا صغير ". وضعت يدي في الكيس وأخرجت شيئا كأنه من معدن. وكانت العتمة تخيم علينا لذلك اشعل ريكاردو عود ثقاب وأدناه من هذا الشيء الذي كنت أحدق به وأنا أحاول أن اتبينه في العتمة. كان رجل صغير من معدن ذهبي يمسك عصا حمراء بيد وترسا باليد الأخرى. فمه عبارة عن كهف مفتوح وقامته صغيرة يرتدي بنطلونا حتى الركبتين ابيض مقلما بالخطوط الحمراء والزرقاء، على رأسه قبعة من الألوان الثلاثة. ثم وجدتني انتشل آخر، وكان رجلاً من معدن أسود اللون وبنطلونه ذو خطوط بيضاء صفراء وحمراء ثم رجلاً آخر وآخر وكوخاً مكوناً من رأس انسان.

أشعل ريكاردو وقتها عود ثقاب ثم آخر وآخر وأنا كالمخدرة، أتساءل إذا كنت في حلم. فأنا لم أعد أرى شيئاً جديداً كهذا في بيروت. إذا قامت الدكاكين باستيراد الجديد فهي الأشياء البراقة والستانليس ستيل التي ينقصها الذوق. فالمشتري الذي كان يفرض ذوقه على البائع لم يعد موجوداً، والجملة الشائعة

"زورونا تجدوا ما يسركم " اختفت عن زجاج الدكاكين. لقد انهمكنا بحربنا وبشقائنا لدرجة أننا لم نعد نتنبه الى وجود بلاد أخرى في العالم وها هي التماثيل أو أحجار الشطرنج الافريقية تبشر بوجود بلاد أخرى، حضارات أخرى وبالأمل بالهجرة و العيش فيها . فرحتي بهذه التماثيل كانت لا توصف، أسأل ريكاردو وأنا اعيدها الى الكيس، إذا كان باستطاعتي الاحتفاظ بها الى الغد، حتى أراها في وضح النهار من غير أن يغرب عن بالي التساؤل كيف خطر بباله أن يأتيني بها، لكنه أجابني " هذه لك"، علت وجهي السخونة وأنا أرفض قائلة "بانها ذكرى من أمك " اجابني لدهشتي:" معك بطمئن عليهم أكثر، عمتي ترميهم أو تعطيهم لاحد". كنت أشعر بأن زياراته لنا لم تكن فقط من أجل شكواه لعمته ولا من أجل استشارتي في حياته فقط. كنت الاحظ ارتباكي أمام عينيه اللتين كانتا تنتقلان من وجهي الى صدري الى يدي. ألاحظ نبض شريان رقبته الذي كان يود أن يفّر منه بين لحظة وأخرى. ومع ذلك لم أكن انتبه حتى أُحكم لفّ العباءة عليّ أو ابدلها بارتداء ملابسي. فكان يراني كما تراني عمته وزمزم وجدتي. النور الذي أتى من عود الثقاب جعلني أرى جمال وجهه الحنطي وعينيه اللتين كانتا تشبهان اللوزة واسنانه الناصعة البياض، مع ذلك لم تكن هي الدافع لأن أتركه يعانقني.بل دوافع كثيرة ساهمت بقبولي: حرمانه من عائلة طبيعية ومن الأصدقاء وشهوته لي التي جعلته يرتعش ما ان لامس جسمه صدري. تظاهرت بأني لم أفهم ما جرى له. رغم أنه لبث جامداً، خائفاً خجلاً بانفاسه التي انتظرتها حتى هدأت لأنسحب من ثقل رأسه وصدره وأنا أفكر لو حدث هذا في الحلم لم أكن لأصدقه.

في المرة الأولى التي دخل بها ريكاردو الى بيتنا بعد عودته من إفريقيا كان بصحبة رجل. تعرفت على ريكاردو الصغير الذي لم يتبدل رغم أنه اصبح شاباً. شممت الخطر عندما تأهلت به وصحت باسمه وانا أمدّ له يدي بينما هو يحدق الى الأرض ويمد لي يده المرتجفة. وانتفض الرجل الذي كان يرافقه وبرزت عيناه وقال بتهكم:

" على بنا اسمك يحيى؟ " ولدهشتي نطق ريكاردو بلهجة قروية وبصوت خشن: " نعم يحيى، غيّرت اسمي". ردّ الرجل وكأنه ضبطه متلبساً بالجرم:"غيرت اسمك، حدا بغير اسمه من دون غاية؟". ولدهشتي مرة أخرى ردّ ريكاردو، يحيى: " ريكاردو اسم اجنبي، وأنا مش اجنبي، أنا مسلم، أنا عربي ". هزّ الرجل رأسه غير مصدق: " مين سماك ريكاردو؟ "، لم يجبه ريكاردو.

تدخلت وقتها قائلة: "تفضلوا ليش واقفين، تفضلوا " في تلك الأثناء أطلت زمزم وأرتفع صوت جدتي تسأل ما الخبر، لم أعد احتمل فضول زمزم التي سلطت نظراتها عليه ثم عليّ تستفهمني عنه لأعلق: " هيدا ريكاردو ابن خي فضيلة شهقت زمزم ": اسم الله عليك. شفتك مع عمتك من يومين، قلت مين هالشاب الطويل العريض اللي مع فضيلة. لمين طالع؟ يمكن طالع لأهل امك.... نسل بيت عمتك كله مثل السحليات"، ضحكت وضحك الرجل الذي لم يعد عدائياً ثم ضحك ريكاردو.

ولم استطع رغم هذا الجو المكهرب إلا أن أسأل ريكاردو إذا كان قد التقى بك، لكنه اكتفى بهز رأسه.

صببت كل اهتمامي عليه حتى يفهم الرجل أن ريكاردو هو في حوزتنا أيا كانت جريمته، واخذت اسأله عن صحته، وعن تاريخ قدومه واذا انهى دراسته كطيار. و ريكاردو يهم بالإجابة تدخل الرجل قائلاً:" الحقيقة أنا من حزب الله ". اجابته زمزم: " والنعم أهلا وسهلا "، " شكراً، الحقيقه صار لنا يومين منراقب هالشاب، " ثم كأنه خجل امامنا فأردف: " منراقب ريكاردو، لا يحيى... اللي هو. بمحلين خطرين، بالمطار والثاني برأس النبع. لاحظنا انه بروح وبيجي وبيحورك، ساعات. عيونو يمين وشمال فوق وتحت ومبين عليه غريب. الشباب كان بدهن يحبسوه، بس انا من لهجته ومن كم كلمة، قلت ما بدي أظلم حدا وبدي أتأكد. دلني على بيت عمته لقينا الباب مسكر بس كان في رجال طل من الشباك وقال

اختو حابستو جوا، ما بعرف كل شيء غريب، عجيب. الحقيقة ما تؤاخذوني بدي شوف هويته، أو جواز سفره بالأول، وبعدين مندقق بالموضوع، ومنقول له مع السلامة..... ".

قاطعته زمزم. "كلامه مضبوط ع‑ـ‑ه خضيلة مجنونة. مظبوط بتحبس اخوها بالبيت، شي يوم بدو يعملها شـي عمله بدو يحرق البيت عن أبو جنب "وفكرت بأن الشباب لا بد أنه شعر بالأمان أكثر مما يجب لذلك القى علينا هذه الموعظة، ولم أسأل هذا الشاب ماذا هناك حتى يتجسس ريكاردو عليه. معامل نووية، محطات؟ جيوش تحت الجسور، في ملابس بلون الشجر والهضاب؟ ام الرادار؟ طيارات، ذخـائر أم انه خائف من أن يتجسس ويعرف مدى قوة هذا الحـــزب في هذا الزقاق وعند ذلك المنعطف حتى يحتله افراد الحـزب المعادي بلمحة بصــر ويرفعوا علم كتيبتهم على القلاع والحصـــون.

اقترح وقد علقت ابتسامة في عيني وعلى شفتي لان يبقى ريكاردو عندنا ريثما تأتي عمته وانا اضمن ان تصحبه الى مركز حزب الله وتطلعهم على جواز سفر ريكاردو. عندما حاول الرجل الاحتجاج سألت ريكاردو ما اذا كان يفعل في رأس النبع في المطار، ليجيبني ريكاردو وهو مطأطيء الرأس، بانه فور عودته من افريقيا قبل ايام حتى اخذ يبحث عن مكتب حزب الله الرئيسي، لانه يود ان يلتحق بهم، ليحارب الى صفوفهم، وبأنه يذهب الى المطار ليناظر الطائرات ويسأل عن عمل، فهو قد حصل على شهادة طيار من افريقيا. سأله الرجل بكل طيبة:" هيك صار لك بعيد عن لبنان وجيت بدك تدخل بحزب الله؟ " اجاب يحيى:" وإذا كنت بعيد عن لبنان، احنا عندنا تنظيم. أنا كنت داخل التنظيم. في عندنا شيخ مسؤول عن الحسينية و عن الجامع، هو بخبرنا كل شي يحدث بلبنان ويجمع تبرعات ويرسلها للبنان. حتى كان في مثلي شباب كثير شباب متحمسين وبيتدربو بس اهلهم ما سمحوا لهم يتركوا افريقيا.".

قال الرجل كاذباً: "انا عارف كل شي طبعا، بس كيف انت اهلك سمحوا لك ورجعت بلبنان؟»

عندها سكت ريكاردو، وأطرق إلى الأرض ولم يشأ أن يجيب عن سؤال الرجل. رأيت ريكاردو الصغير، مغمض العينين، يفتحمها قيد شعرة حتى يرى اذا اتت له جدته حقا بقرن الحر حتى تفرك له فمه أو بالحزام الجلدي حتى تضربه به، أم أن عمته دخلت الغرفة فعلا، أم أن جدته مقلدة كالعادة صوت فضيلة ووقع خطواتها.

حينما عاد الرجل يكرر السؤال على ريكاردو، وريكاردو قد تحول إلى تمثال " "التناغرا" ، الدقيق الأنف والفم والعينين، جميل الجبهة واليدين والشعر. نظرت الى الرجل اهزّ رأسي كمن افهمه ان بيني وبينه حديثاً. لكن ريكاردو نبس أخيراً بصوت خافت " أنا ما عندي اهل غير عمتي " ساد الصمت الا من لعلعة صوت زمزم: " يا حبيبي مش ناسي فضلهاعليه. فضيلة الحقيقة مع أنها هوجاء وعصبية والله يساعدها بس عاملت هالصبي كأنه ابنها، لا والله كأنه أمير. البوسات و العاطفة».

ريكاردو ابن اخي فضيلة جيء به من إفريقيا، صبياً لا يتعدى الرابعة من عمره.اغمض عينيه و لم يعد يفتحها إلا نادراً. وكنا نتساءل اذا كان السبب خجله لهذه الدرجة ام عدم فهمه للعربية ام انه متمردا "؟. بعد مضي اسابيع إذكر تكهني لفضيلة بالسبب وهو انه لا يريد ان يرى أو يسمع شجارهم. وكان بيت فضيله كأنه مسكون من ذئاب اكتشفت قن دجاج. وأخذت تتخانق فيما بينها عليه. كان والد فضيلة هو الذي أرسل في طلب الطفل ريكاردو، عندما عرف أن ابنه خليل الذي هاجر الى إفريقيا وافتتح مطعماً انجب طفلاً من إمرأة إفريقية. تطوف الجالية اللبنانية تطلب عنوان خليل الذي اختفى بعد ان ذهب الى بلد آخر ليفتح مطعما ووعدها بالزواج ما أن يعود. علم والد فضيلة بالأمر بكى وقال أن الله لن

يتقبل حجه ولن يسامحه إذا هو لم يأت بالطفل ويعترف به ويسجله في سجل العائلة ويطهره. بعد مراسيل عدة، أرسل خليل ابنه ريكاردو الى لبنان. فرحت به فضيلة وكأنه لعبة، تأخذه معها اينما كان، ذهبت به الى استديو ميني فوتو حتى تأخذ له صورا بأوضاع عدة. ومع ذلك بقي ريكاردو صامتا. وظنت أن السبب يعود الى جهله للعربية، وجهلها للإنكليزية، إذ صاح مرة وهو يصطك من البرد: " آيم كولد " سألته " بدك بسكوت يا روحي ". اتت له بالبسكوت وهو ما انفك يرتجف ويبكي. وأبتدأت عادته لإغماض عينيه منذ ان كانت فضيلة تتركه في البيت مع امها، ولم تفلح فضيلة في إقناعه بفتحهما الا اذا تأكد من وجوده معها وحيدين. عادته هذه طيرت صواب جدته التي شعرت بأنه لم يكن يحبها. لا بد أن الطفل ألمّ بجنونها قبل أن يحذره احد، لذلك اخذ يتململ ويطلب العودة الى افريقيا ما ان تزوجت فضيلة رغم بقائها في بيت العائلة.اذكرَ اني قلت لفضيلة وهي تبكي بعد سفره، انه لربما من الافضل ان يعودان معه، لم يكن يعيش حياة طبيعية.

جن جنونها: «ولو كنت أضرب الأولاد اللي ينادوه عبد اسود، من يدي كان ياكل ويشرب. ما عاش حياة طبيعية؟؟!".

أنا لم أره قط يلعب بسيارة أو يركب دراجة، أو يلعب بالكلل أو يركض مع الأولاد؟ صاحت بي: " ليش انت كان عندك بسكلات وانت لعبت بغير لعب الشراطيط؟ وبزر المشمش واللاقوط"؟ اجبتها، " لعب الشراطيط فادني وبزر المشمش واللعب بالحي ". لم يكن في بيتهم مكان للأولاد. حتى سريره كان كبيراً. ملابسه كانت لعمه أو لجده، قامت فضيلة بتصغيرها له. لا بد أنه عرف بالغريزة انه لا ينتمي الى هذه العائلة، حتى انه لم يتخيل والده ينتمي اليها ايضا. فوالده قد أتى له بالألعاب حين اخذ يجهز له أوراق السفر.أخذه الى البسين ليسبح رغم أنه كان يتركه ساعات في السيارة الحارقة ريثما يدخل المطعم أو يقصد دكانا.

عندما سافر ريكاردو عائداً الى إفريقيا، تنفس الجيران الصعداء لأنه وأخيراً سوف يعيش مع والده حياة طبيعية.لن تحفه الجدة بسيف العبد حتى يصبح أكثر بياضاً كما فعلت عندما رفض الذهاب مرة إلى المدرسة بحجة أنه ليس بلون بقية الأولاد. أذكر عندما سألته وأنا أودعه إذا كان سوف يبحث عنك فصرخت بي فضيلة وكأنها حيوان كاسر قائلة ان أمه تركته واختفت، دافعت عنك. قلت لها انهم خطفوه منك. وإذا رضيت انت إعطاءه لهم فلانك لم تستطيعي اطعامه. نهضت فضيلة وقتها بحنق، تنتشل الرسالة من يد ابنك والتي كنت اكتبها بالإنكليزية حتى تُعرف به إذا هو لم يلتق بوالده في المطار لسبب ما.

وأنطوت سيرة ريكاردو في زحمة الأيام بعد أن انقطع حتى عن إرسال بطاقة لعمته من وقت إلى آخر كما كان يفعل.

يسألني الرجل فجأة ، مش مدموزيل، اسمهان؟ هـزت رأسي مبتسمـة. " انا بعرفك مدموزيل، ملتقي فيك ببيت ناصر ". هل رآني هو من شق الباب، عندما كان ناصر يتركني احيانا في الغرفة ريثما ينهي اجتماعا سريعا طارئا مع من دق بابه فجأة لأرتدي ملابسي بلمحة بصر وأربط شعري الى الخلف كأني ابعد الشكوك عما كانت اجواؤنا قبل أن يدق الباب... هل رآني عند ناصر، جالسة على فقرات ظهري، أفلت دبابيس شعير حتى تنسدل الخصلات؟ والحوار يدور بين الجميع بينما عيني على ناصر أحاول استمالته، احاول أن لا أغيب عن خياله؟ أو لعله سمعني اتكلم بأفكار ناصر وبكلامه أو بصوته. اكمل الشاب وكان اسمه كاظم: " ٦٧ بتذكر سنه ٦٧... ٥ أو ٦ حزيران ".

بعد هذا اللقاء ادخلني ابنك الى دنيا أخرى، دنيا كاظم والأحزاب المحليه والشيخ المودرن الوسيم، والفنادق وبيروت جديده لم اعرفها قبلا. اعادني داخل الاحداث التي كنت اصبحت خارجها برحيل ناصر، وبترك سيمون للغربيه،

ريكاردو الذي اتى من إفريقيا، يعيد اسمهان في بيروت الى قلب بيروت، ويدخلها من باب آخر يختلف عن الباب الذى أدخلني منه ناصر، فالأحداث كأنها في مكان يشبه ثمرة الجوزة فيها غرف متشابكة، مجوفة، منفصلة في آن. كنت كلما دخلت الأحداث وجدت نفسي انتعش حية من جديد مهتمة بالاتصال بالناس والطرقات وبلب المدينة. وباني معنية بحياة الآخرين كلما اصبحت حبة فيتامين يومهم ضرورية، كضرورة بنزين السياره والماء والرغيف. جاءوا لزيارتي، عمّ الهياج والفرح بين فناجيل القهوه والحلوى الذي كان يمتــد ايضا الى جدتي زمزم. ورغم أن جدتي لم تكن تجلس معنا فقد كانت تسمع اصواتهم وتشعر بأن البيت يحيا من جديد معتمدة على زمزم التي كانت تسمع بكل جوارحها إلى ما يجري وتنقله اليها حرفيا، وقد أيقنتا معا بأن كاظم أو أخاه يريدان الزواج بي.

كنت أشعر أن ريكاردو يحاول أن يحيد نظراته عني. أنه في صراع دائم بينه وبين عقله الذي يريده أن يصدر أوامر عكس ما يتمنى. عندما كان يفد مع كاظم وأخي كاظم كانت ترتاح أساريره ويجلس كالقط الفرعوني يستمع الينا، ويحاول، كم كان يحاول ان يشارك في الأحاديث ولا يستطيع. فهو لم يتعلم الألفاظ والمصطلحات العقائدية ككاظم ولا الفقه والأصول كالشيخ المودرن. ولم يعش حياة المراهقة الطبيعية حتى تنفرج أساريره وتبرق عيناه، وهو يستمع الى أخي كاظم وقصصه المسلية المضحكة، بل كان ينتظر إطلالة الإبتسامة أو الضحكة على شفاه كاظم حتى يغفر لنفسه هذا الاستمتاع والتعبير عنه رغم انتمائه الى حزب الله. قصص اخي كاظم لم تكن لتضحكنا أو تسلينا فقط بل كانت تشرح حالة بيروت ويشرحها: عندما تهجر مع عائلته من بيتهم الذي كان عند خطوط التماس واحتلوا غرفة في فندق الأكسلسيور، اخذ يرى من البلكون الفنادق الأخرى المحترقة كالسان جورج والفينسيا وبعض المطاعم المفتوحة ذات الشماسي الزرقاء والكراسي والطاولات البيضاء. لو لم يكن يراها من الشرفة لما حزر أن و، هذا

الباب وهذه الشجرة المطاعم حيث الزبائن تضحك وتأكل صحونا خلف الأخرى، أحب أن يكون في إحداها وهكذا كان.

" طبعاً لبسوني بدلة غرسون كبيرة علي، وصرت كل ما امشي يتوشوش عليّ الناس اللي عالطاولات ويضحكوا، قال لي اخوي انه شافني من البلكون وعرف السبب.الطريقة التي اسير بها، حتى اني كنت احمل الصينيه غلط، دايما اخاف ان تقع الاشياء مني،.لكن الحق يقع على الحذاء، لانه واسع وكل ما أدعس دعسة كنت افلش قدمي، وبعدين قالت لي المدام.المسؤولة ان وقفتي غلط، ووجهي غلط، كانه يظهر الحزن والجوع: شهرمضبى وضجرت من الوقفة مع الناس الاغنياء.. الا انهم كانوا مقهورين، يقولو: يا لطيف يا لطيف وبيحكوا مثلنا عن الكهرباء والمي والمازوت. مع ان صاحبة المطعم كرهتني، لكنها خافت ان تطردني، انتظرت حتى شافتني سرقت قطعة من البطاطا مقلية قبل ما اضع الصحن للزبون قالت: « يا انا، يا انت».

وهكذامن المطعم للفنادق، فندق وراء الثاني.'وفي الفنادق شاب راسي من العجائب والغرائب. اكتشفت ان كل المفارقات لا تفسر. في الفندق الذي لم يزل يستقبل الزبائن، رغم ان النزلاء باتوا يخدمون انفسهم، من غير ان يبالوا بالدمار الذي امتد الى بعض الغرف، ما دام هناك السقف والجوانب ". يحدثنا عن السياسي الذي يعشق صبية ولقاؤهما اليومي في إحدى الغرف. المطربة المغربية التي تجد في لبنان رغم الحرب استقراراً وعاطفة لا تجدها في بلدها. هذه الفنادق لا زالت تعمل من كثرة إقامة التعازي بالأموات ومن كثرة إقامة الاعراس. كان معظم نزلائه من العرسان في شهر العسل، ولم يكن كله عسلا، أحيانا كان يأتي اهل العروس في منتصف الليل، فيأخذون عروسهم، ولا ينسون فستان العرس الذي كان من غضبهم وعجلتهم، يكنس الأرض، أو يعود الأهل بعد وقت يسلمونني

القرآن الكريم مع رسالة الى العروسين. فكنت اسرع افض الرسالة وأقرأ بان عليهما ان يصليا خمس ركعات قبل أن يتجامعا. أمزق الظرف واعيدالورقة إلى داخل القرآن وأسرع إلى غرفتهما. أدق الباب وعندما لا أسمع شيئا، ادق الباب من جديد الى أن يفتح العريس لي وشعره منفوش فأعطيه القران الكريم هامساً: " داخله مكتوب!!! ". وأدخل مباشرة غرفة الجلوس لأروي هذا الخبر على شلة النزلاء، الى المرأة الجميلة والتي ما ان تكلمت حتى اكتشفت انها عجوز اجرت عملية تجميل.. ماذا عن الصوت؟ صوتها المرتجف يردد عن حضارة لبنان وإيتان. بتقول وعيونها كلها قرف من القاعدين، كان في حضارة هلق كله زبالة وهي تنظر الى نزيلة البغاء عندما عادت الى اهلها وقد تابت، قالوا لها تبت لانك كبرت وشخت، عندما احتل الكتائب الاسواق، نظمت هي مظاهرة وسارت فيها على رأس المومسات وهي تحمل يافطة «وين بدنا نروح»...

ولا اخفي عليك اني اخذت اشجع اخا كاظم ليأخذ ريكاردو تحت جناحه. حتى اني كنت المّح له لو يجد لأبنك امرأة أو يعرفه بفتاة طويلة البال. حتى تفتح الصرر التي كان يعيش ريكاردو بداخلها. أردته ان يسحب ريكاردو من بين براثن كاظم الذي كان سعيداً بأن لديه اتباعاً من الشباب يحشون افكار ريكاردو، من غير أن يدري بحشوة السن المعدنية، بينما اسنان ريكاردو لم تزل اسنان حليب، لم يزل خامه كما ولدته الطبيعه. لأنه اقتلع منك كالأرنب الرضيع الذي انتشل من الغمامة الصوفية التي غلفته بها امه. رغم ان عمته فضيلة أمدته بالحب، إلا انه كان حباً غريبا تشوبه العصبية والأرق. إذ كان الجنون قد خيم على سقف العائلة وأخذ يفتك بعقل جدته وعمه. ولم يعش ريكاردو حياة دراسية طبيعية تقربه من الأولاد فيلتجأ الى دفئها بدل صقيع بيت جده. ولم يشعر بعاطفة أكيدة من الجيران ومن الحي. فهو من أم افريقيا مجهولة. ومع ذلك لم يكن ريكاردو يحقد على أحد بل حدس انه ليس في محيطه، فهو الابن اخي فضيله من الأم الأفريقية. وسيبقى

هكذا. حالما اخذ يستوعب ان الإنسان يولد لأم، لأب، لعائلة، لبلد. وعندما اخذ يعرف اين يقع بلده بين بلاد خريطة العالم، شعر ان إفريقيا تناديه وذهب اليها، ليعود متحسراً على أيام لبنان مفضلاً عدم مُبالاة بشرها إزاءه على قساوة البشر هناك التي فتكت به لتنبذه حاقداً. انه شاب حاقد لا يتشاور مع الأفكار فيلين معها أو يحتد حسب المنطق والظروف لذلك فإنه يأخذ كل ما يسمعه من كاظم كواقع. ولم يبال كاظم أن يكون ريكاردو بذلك التهور والعناد. ولم يحاول ان يتحاورُ معه او يدفع هذا التهور والعناد في الطريق الصحيح. حتى انقلب ريكاردو بعد مدة من قط فرعوني، جميل التقاسيم الى قط شرس ولد في مجاهل إفريقيا ولم يعرف سوى الأسود والنمور ليتعلم منها الشراسة حتى يحمي جلده. عدا إيمانه بالاستشهاد والجنة ويحور العين كان ريكاردو يتمنى لو يطير في سماء بيروت ويرمي بالقنابل على أعداء الله من السياسيين. لأن حلفاء اليوم هم اعداء الغد حسب السلاح والمادة. اما الدين فهو فوق كل شيء. لا حليف له ولا عدو: «القائد لازم يكون الله. مش بني آدم، الله. لأن بني آدم ضعيف وبيتحارب مع غيره. حتى المسلمين صاروا يتحاربو بين بعض ".

كنت أعرف أن كاظم لا يحمل هذه الأفكار. ايمانه بأن الدين هو الحل انما اتى ردة فعل لفشل الأحزاب السياسية التي انتمى اليها:" واجهناهم بالسلاح وبالوطنية والأعمال الفدائية، شو كانت النتيجة؟ اذا واجهناهم بالإيمان وبالدين تفوقنا عليهم. شوفي اسرائيل لأنها دين واحد هي القوية، لازم الدين هو اللي يصير الحكم ".

انظر اليه بل احدق فيه، انظر الى الشيخ الوسيم نزار، ولا اجدهما مكبوتين مظلومين كافرين بالمرأة. جائعين، وحيدين. كان الشيخ الوسيم نزار يلبس البنطلون الشبيه بالجينز وسترة جميلة الألوان. يفوح العطر من لحيته، يستذوق القهوة ويطري على سجادة الصالون العجمية ولينسبها من شكل ورودها الى قرية

في إيران اشتهرت بورودها وشذاها. وكان قد استهل حديثه بانه اتى للتعرف بي، وبأنه قد سمع عني كثيراً من كاظم الذي هو في مكانة اخيه، أجبت ببساطة. بينما اطرق كاظم رأسه الى الأرض: " ما بعرف شو كنت عملت بلا زيارات كاظم " ليجيب الشيخ " " شو قللي كنتو تعرفوا بعض من كذا سنة ".

-" أي نعم،لما كان الواحد يآمن بالسياسة وبالثورات ".

-"ها. هلق صار الحكي مظبوط، خاب امل الناس بالسياسة. حتى السياسيين شافوا ان الدين حاليا هو الجواب الأضمن لذلك هم يساعدوه. يمدوه بالسلاح، حتى اذا ربح، فكروا هني ربحوا.... بس».

أطرى قهوتنا، وأطرى الصوت الذي كانت تصدره حجلة زمزم وهي في قفصها.. وأطرى ايضا معرفته بأني مهندسة فن العمار، وأطرى شجرة الفتنة. وأطرى الماء ثم اطرى ريكاردو. قال ان الدين الإسلامي قد امتد الى إفريقيا السوداء " حيث ريكاردو وحيث العراة: " ويوما ما أميركا كلها بدها تصير مسلمة، شوي شوي بدها تلحق روسيا اللي صارت نصفها مسلمة. وأن شاء الله الست اسمهان صاحبة أجمل شعر تعود الى الإيمان".

خلال هذه السنوات التي قضاها ريكاردو في إفريقيا لم يبحث عنك. فهو كان يسبح في مياه سوداء لزجة، ما إن يرفع ذراعيه فوق سطحها مناديا حتى تعود تغطس من تلقاء نفسها. عندما شعر بأنه يغرق فكر بك كطوق نجاته الأخير. واستدان وقصدك لأنك كنت في بلد آخر. صعد مركباً مكشوفاً امتلأ بالبشر والحيوانات لمدة أيام. فتك اثناءها داء معوي بالمسافرين وأخذ البشر يتعاركون مع بعضهم ومع الحيوانات، يتزاحمون على الطعام والشراب، على القاء بعضهم الآخر في المياه التي كانت تعج بالتماسيح. لم يصدق ريكاردو ان هذا المركب سيرسو وسيغادره فعلا ليستقل بوسطة ويترجل منها بعد ساعات طويلة.. ويبتدئ بالسؤال عنك حتى اهتدى اليك من اللبنانيين، بينما انت تظنين وقتها وحتى الان بان ابنك

لم يزل في لبنان ولا بد أنه في الجامعه لا على مقربة منك، يلحق بأثرك وانت تتجهين إلى معمل البلاستيك وانت تنوئين تحت ثقل الأحمال وتنقلين بمسواك الأسنان من جهة إلى أخرى. لم يكن يتوقع ان يراك تسيرين بذلك البطء كأنك تحملين الدنيا كلها فوق كتفيك أو لعل قدميك لم تعودا تحملان جسمك.ركض خلفك وعندما تعثر بالتراب ورأى صندالة المقطع وبنطاله المهترىء وقميصه الذى امتص العرق واختلط لونه بالملح وبالرائحة النتنة حتى توقف. لم يجرؤ على مناداتك، لم يتحمل ان تنظري اليه غير مصدقة أنه ليس في الجامعة، بل انه نزل من تلك البوسطة بعد رحلة ذلك المركب. تركك تدخلين المصنع وعاد من حيث اتى، متشرداً. اذ اختفى والده مع زوجته اللبنانية التي كانت تشبه الممثلات والتي اخذت تنقل سريره من مكان الى آخر حتى وجد فراشه من غير غطاء أو وسادة على الشرفة. لم يستطع النوم في ذلك الحر الرطب، وكان لم يزل يساعد والده في شواء اللحم في المطعم. اخذ يشكو من آلام في معدته ويتمتم بان السبب ربما كان يقع على النوم في الرطوبة. لكن زوجة والده تدخلت ضاحكة، ولامت افكارها التي اوهمتها بأنه سيسعد في النوم على الشرفة، لتنقل فراشه الى غرفة كانت تستعملها للخياطة ولا بد أنها عبثت في مكيف الهواء حتى اصابه الخلل وتحولت الغرفة المريحة الى فرن. وفيما ريكاردو يقص علينا ما حدث له، لم تستطع عمته فضيله ان تسيطر على أعصابها مما تسمعه وتمنت لو ان كل ما يتفوه به ما هو اكاذيب، صاحت به وهي تحاول أن تغالب الإهانة: " كذّاب . ابن كذّاب، ولك من علمك الطيران مين دفعلك القسط؟".

أجاب ريكاردو وهو ما يزال مطرقا إلى الأرض: "عمهلك. سأكمل الحديث. سرقتلها خاتم الماس وبعته ورحت عالمدرسة ". ردّه هذا دوى كالقنبلة في صحن الدار. إذ ان هدوءه لم يمهد لمثل هذا الجواب. صدقته للتو وشعرت بأني اعرفه. انه يشبهني. هربت مني ضحكة اغاظت فضيلة اذ قالت معاتبة: " انت دايما هيك،

وقت البكاء بتضحكي ووقت الضحك بتبكي... هيك يا ريكاردو، سرقت خاتم مرت ابوك. يعني سرقت من ابوك؟" لكن فضولها لتعرف ما حصل افصح عن نفسه.

نسيت فضيله وجود ريكاردو وكان حقدها على أخيها يفوق التصور. لم تستطع إلا أن تفلت منها الكلمات." يا عيب الشوم مظبوط المثل شاف.... مرتو قام غمي عليه، والمثل الثاني: ما تقللي امي ولا اختي بس اللي يتدلع تحتي ".

ضحكت عاليا وعندما ضحك ريكاردو، أنبته فضيلة: " حاج تضحك اسمهان معلش تضحك، بس انت عيب ".

هز رأسه موافقاً، وكأن ثورتها على أخيها وزوجته فجأة جعلته يزيد من حديثه عنهما، وكانت طريقته في الحديث، بعينيه الذابلتين و كفيه اللتين تفركان بعضهما، ونبضه الذي يدق عند رقبته وصدغه، وملابسه القديمة وحذائه القديم، وياقة قميصه الوسخة وأذنيه الصغيرتين. هذه كلها جعلت دموع فضيلة تنهمر ثم دموعي. ما قاله جعلنا نكزكز اسناننا " وهو يخبرنا ان والده وزوجته اختفيا ذات يوم بعد ان باعا المعطم والبيت وبأن شيخ الجامع هناك قام بجمع التبرعات واشترى له تذكرة السفر.

صاحت فضيلة من قلبها: "لمه من المحسنين. هيك بصير بعيلتنا.مش معقول!».كانت تعرف تماماً ما يحدث لعائلتها، الحياة تتبدل لا في بيتها، بل في الأحياء وفي بيروت كلها، لكن كانت تظن ان لعائلتها وجها آخر، يكمن في اخيها المهاجر، وها هو ريكاردو يذيبه امامها كأنه قطعة ثلج. كان وجود اخيها المهاجر في خيالها هو الذي جعلها تتحمل هذا التبدل الذي يطرأ على البيت يوما بعد آخر تتخيله، في فيلا واسعة بين الخدم والحشم، المال في يديه يجري كالنهر، فهي قد اعتادت على تلقى هداياه الذهبية والمال . وعندما توقف عن فعل هذا لمدة فكرت في الأمر وخافت قليلاً، الا انها ألقت السبب على الظروف الأمنية، وعلى الإشاعات بان البنوك في لبنان ترجئ إعلام من تأتيهم التحويلات من العملة الأجنبية ريثما

يشغلونها ويستفيدون منها. وها هي الآن تعرف الحقيقة من ريكاردو، ووجدت نفسها خائفة من أن يعود أخوها يوماً ما الى هذا البيت، واكتشفت انها غير مشتاقة اليه. واكتشفت كم ان الخوف يزداد في كل لحظة من ان يعود الى هذا البيت فارغ الكفين، إذا حدث ذلك ستدفن نفسها حية. كانت تتشبث باسمه وكأنه طوق نجاة او درع لها امام زوجها الشيخ و امام الجميع حتى امام الذين تلتقي بهم سواء في التاكسي الذي يقلها لتزور امها في المنطقة الشرقية أو امام الجنود السوريين عند الحاجز قرب بيتها.

لن تصدقي يا ام ريكاردو، كيف تعيش فضيلة، وكيف هو بيت اهل الرجل اللبناني الذين لربما ايقنت انهم يعيشون في بناية ناطحة السحاب او في فيلا، حيث اشجار المشمش والنخيل في حديقتها، وابنك ريكاردو يمتطي الجواد العربي، يعود يبدل ملابس الركوب فيطرحها أرضاً، لتسرع الخادمة تنتشلها من الأرض، وهي تسمعه يدندن بأغنية اجنبية وهو تحت الدوش الساخن. بكاء أم فضيلة لأنه انجب منك وانت مسيحية، اصبح مضحكا. فريكاردو هو المتدين المؤمن يحث عمه على الصلاه. وعمه يدفعه عنه قائلا: " أنا مجنون. والمجنون لا يصلي ولا يصوم".

الحياة تتبدل في بيتهم حيث المياه مقطوعة، وريكاردو لم يأخذ حماما منذ ايام زوج فضيلة الذي سافر لمدة قصيرة امتدت فترة سفره وتوقفت المعونة التي كان يساعد بها فضيلة ريثما يعود، فأخذت تصرف المال الذي ادخرته لوقت الحاجة، رغم انها في قراره نفسها لم تكن تعتقد أن وقت الحاجة قد أطل ونحن نؤكد لها بأن هذا هو اليوم الأسود الذي ادخرت له قرشها الأبيض تصرفه على تكاليف إيداع امها في مستشفى الأمراض العقلية. وزيارتها لها، ثم على الأفواه التي تريد ان تأكل وتشرب. فبيت فضيله يغص الآن بالمهجرين من الأقارب، بخالها وعائلته التي احترق بيتهم وامتد الى معمل الحلويات خاصتهم والذي كان مكونا من غرفتين، ليجدوا انفسهم كما في القصص. السماء لحافهم والأرض

فراشهم والعشب طعامهم وماء المطر شرابهم. لكن في القصص لم يذكر ماذا يحل بالمرضى وأين يتمددون وكيف يتداوون؟ رغم ضيق فضيله بان ريكاردو يطوف الأحياء بائعاً الكعك ثم علب الدخان الرخيصة فإن هذا لم يحل مشكلة الأفواه الأخرى التى لم تزل تعتمد عليها، خاصة ان زوجة خالها اصبحت باشد الحاجه الى الدخول الى مستشفى. فاستنجدت بجدتي رغم ان جدتي لم تكن تحب فضيلة إلا انها شعرت بالأهمية وهي تمسك بالتلفون الذي كان يعمل حينها وتدير رقم تلفون القابلة القانونية ازدهار، التي كانت تعرفها منذ سنوات طويلة. لتسألها ان تأتي لها بابن اخيها الدكتور ليعاين مريضة تخصها ولا تستطيع مفارقة الفراش. وعندما اقفلت السماعة سألت جدتي اذا كانت ازدهار هي التي كانت تحقن جدي بالإبر، والتي كان جدي يغازلها، ضحكت جدتي وقالت: " هي بشحمها ولحمها وليتها مثل لية الخروف واصلة عكعب اجريها".

وكانت قد رفضت جميع المستشفيات الخيرية ادخال زوجة اخيها لانهافي طور النزاع، والتي عادت طفلة صغيرة تبول في فراشها ولا تأكل. لكن فضيلة كانت متأكدة من ان زوجة خالها ستشفى اذا هي اتبعت نصيحتها واكلت نقوع الخوخ المجفف. التعب ترك فضيلة كغصن شجرة يرتعش امام مرض زوجة خالها وامام نفقات امها والجميع الذين يعيشون في بيتها.

وما ان دخل الطبيب بيت فضيلة حتى فوجئ بمن حوله والتفت غير مصدق، الي جانب المرأة الطفلة التي لا يمت صوت احتضارها اليها كان اخو فضيلة يروح ويجيء سادا الدنيه صارخا بفضيلة لأن تطرد زوجة خالهما أو تسكتها بطريقة ما، هاجما على المرأة المريضة بين حين وآخر، بينما يطل ريكاردو بشعره المجعد المنفوش ويعود يختفي حين يحط نظر الطبيب عليه. اما خال فضيلة فكان جالساً يلف السيكارة وكأنه وحيد في الغرفة، وابنه الذي نهض حين دخل الطبيب وارتكز على عصاه لم يتوقف عن الإهتزاز. كانت قد اعتادت فضيلة على

تقليده وهي متأكدة من أن ابن خالها يزيد من حالة اهتزازه هذه لأنه يود ان يستدر الشفقة، وهو يدور على بيوت الأقرباء واحداً واحدا طالبا الصدقة.

استدار الطبيب وواجه فضيلة التي ابتسمت له وهي تقدم له القهوة، وسألها عن هؤلاء. ولما قصت له قصتهم واحداً واحداً، وشكت خالها الذي يتهمها بقساوة القلب لأنها لا تدعه يبول في قنينة بدلا من ان ينهض في الليل الى المطبخ ومنه الى الحمام قال لها الطبيب:" انت قديسة ولح انقل قريبتك الى المستشفى، زغردت فضيله وحضنت الطبيب الشاب ثم تركت رأسها على صدره مدة أكثر من اللازم ثم تراجعت قائلة: لا مؤاخذة، وانت مثل ابني بس مبسوطة جاء من يفهمني بها الدنيا الواسعة".

وتنفست فضيلة لذهاب زوجة خالها الى المستشفى ولبيعها سوار أمها الذهبي. ولشراء فستان جديد لأن الشيخ لا بد أن يجوز قريباً. لكن التشنج عاد يضغط على انفاسها. قد اكتشفت ان ريكاردو الذي كان ينتقل من العمل في مطعم الى بيع السكائر الى العمل في مصنع للغاز، قد انتسب الى حزب الله. والدليل رؤيتها للتراب الأحمر على بلاط البيت، كالذي في اكياس الرمل والحواجز. لم تستحمل هذا. ان المسلحين يحملون عقيدة، وهم يذكرونها بأحمد الذي كان في ثورة ٥٨ مع انصار صائب سلام يجلس عند الحائط يراقب الشارع من خلال الحدائق اذ كان يؤدي هذا الشارع الى آخر وآخر، وكانت قد أيقنت ان أحمد معجب بها فلم تفارق غرفتها التي تشارك بها امها والتي كانت تطل على الحائط حيث يتمركز أحمد. كان أحمد سمح الكلام، رقيق العينين، احبه كل الحي. وأخذت فضيلة تناوله صحون الغذاء وكوب الشاي مستأنسة به كما استأنست به امها وامي الى أن فقدت فضيلة سوارها الذهبي. وبكت وانقهرت واتهمت كل من يدخل بيتها بسرقته، الى أن جاء ذات صباح احد الجيران المنتمين الى انصار صائب سلام وسلمها السوار الذي وجدوه بحوزة أحمد.

" أزعر، أزعر، أزعر ". طفقت فضيلة تصيح بريكاردو " أزعر، أزعر، أزعر". ولا تسمع شيئا آخر.

دافع ريكاردو عن نفسه بأنه مش ازعر وبأن انتماءه للحزب هو واجب ديني وقومي. وأنه منذ ان استمع الى احاديث وخطب الشيخ في إفريقيا وهو يستعد للإنضمام اليهم.

صاحت فضيلة به لأن يجمع أغراضه ويأخذها " يللا روح، روحة بلا رجعة، لا انا عمتك ولا انت ابن خي " ولما ابتدأ ريكاردو يجمع اغراضه التي كانت عبارة عن قميص آخر وبنطلون وهو يبكي هجمت عليه عمته من جديد: " بدك تحلفلي عالقرآن، انك راح تتركهم والا ".

عندما اخبرهاالربما عينوه طيارا، أجابته بتهكم: "عندهم ليش طيارات، أي مظبوط، طيارات من ورق ".

ووجد ريكاردو نفسه يقسم لها عندما رأى ان غضبها يكاد يفقدها اتزانها بأنه لن يتعاطى مع الحزب بعد الآن. وبأنه لن يعمل إلا في الحي كبائع سكائر، وفعلا، لم يعد حذاؤه يحمل أي أثر للرمل الأحمر. لكنها عادت واكتشفت انه لم يزل مع الحزب، إذ أن عدة بنات من الحي ذهبن ليسجلن اسماءهن تحت طلبات زواج المتعة من المقاتلين، أسررن لها بأنهن لمحنه في مقر الحزب.

ابنك ريكاردو الآن في طريقه الى الشام، سيستقل طائرة الى إفريقيا. عندما شهقت لقراره هذا. عدت وفكرت بالامر مليا. إذا لم تكن إفريقيا، الى أين؟ فعلا الى أين.؟ لا مكان له هنا. لا مكان له في غير إفريقيا، ولا مكان له في إفريقيا ايضا. لكنه يحمل جواز سفرها. لن يسأل من جديد عن والده. بل عن شيخ الجامع. لربما أوجد له عملاً، أخبرني انه حالما يستقر ولو في سرير ينام فيه سيقصدك بالمركب ثم بالاوتوبيس. قال انه يعرف الحياة الآن ويعرف نفسه جيداً.

هو سيكون كبقيه المسافرين في المركب لا كما في السابق يرتكز على اصله وفصله متجاهلاً الواقع. خيبته في والده وخيبته في لبنان وعائلته جعلته يعرف اين محط قدمه اين محط انفه. سيكون كبائعي السحليات، كبائعي القرود في الأقفاص الذين كانوا على متن المركب. كالساقي الذي كان لا يقدم الماء سوى لقاء مال والذي لم يكف عن الصراخ بالمسافرين، سيصبح كالباقين الذين كانوا يشربون الماء وهم يعلمون انه لربما ملوثا لابد ان خوفه من السوريين هو خلف قراره هذا، اذ رآهم يدخلون البيوت، يبحثون عن المنتمين الى الحزب، اينما كان، تحت الأسرة، فوق السطوح، في التتخيته. وكانت عمته قد حبسته كما كانت تحبس اخاها المجنون، ولم يتململ ريكاردو في حبسه، بل تمنى لو تخفيه، لو تهرب به الى أي مكان، ما عدا الوقوع في أيدي السوريين. فقد القوا القبض على كاظم وعلى الشيخ الوسيم ولا بد ان دوره آت. فبسام، الذي كان يلازمهم من حين الى آخر ظهر على حقيقته " مخبراً سوريا". ولا بد أنه سوف يشي به.

وبلهجته القروية وعربيته الركيكة يخبرني ريكاردو ". نسوان خايفة... أولاد خايفة.عجوز فرحانة! صار السوري يرش عالحارك اللي عم يهرب. واحد اسمه مصطفى لبس بدلة عسكرية مثل السورية كمشوه وضابزوا يضحكوا. لقوا سلاح كثير. كثير... اخذوا أكثر من ٣٠٠ واحد. وفي واجد لبناني صبف مع السوريين، وكان بيروتي من البسطة وقال: " يللا. اهلا وسهلا بالسوريين. كانوا أولاد حاكمينا وهلق احسن جيش ودولة تحكمنا". لاحظت العصبية التي طغت على تقاسيم ريكاردو حتى وهو يشد على الكلمات وقد أطرق الى الأرض قبل أن يخفض صوته: " صارت عمتي تجن بدها تسفرني، وصارت تفتش على حق التذكرة، وانا وعدتها ببعتلها اياها لما جمع كم قرش، بس انا ما فكرت الا الحقكم".

خفت من ان يسألني بطريقة غير مباشرة لأن يبقى هنا ريثما تروق الأحوال في بيروت.ارتعبت من هذه الفكرة. فضيعتنا لم تعد كما من قبل تستقبل الغرباء. إذ كل غريب هو متهم.لكن ريكاردو مد يده الى جيب قميصه وأخرج ورقة

قدمها لي بتردد قائلاً: " هيدي من عمتي. قرأتْ خط فضيلة:" دخيلك يا اسمى سفريه بأي طريقة لن انسى فضلك واتعابك. عندي مبرومتين ذهب عيار ٢٢ وفهمك كفاية ".

أطوي الرسالة والمبرومتان تعودان الى فكري، تحيطان برسغها الممتلىء الأبيض الذهبيتان التي وعدتني فضيلة بهما اذا تزوجت، وعدت زوجة خالها لأن تبيعها وتجعل اشهر الأطباء يكشفون عليها، وعدت ابن خالتها بها، وعدت بها الطبيب في مستشفى الأمراض العقليه حيث امها.

" عمتي، لعبت عالسورية، قالتلهم" هلق بسام بدو يقول إنه ريكاردو هو من حزب الله، ياما جربوا يدهولو بعقلو، بس ريكاردو عقلو بإفريقية، حتى حكي مابيعرفش يحكي. وصارت تصرخ فيهم كل ما تشوفهم، كأنهم جايين يأخذوني.. حتى صاروا يروقوها أي والله ". وبعدين اشترت لهم بقلاوة وعملتهم عصير ليمون و قالتهم عشان ابوي فتح مطعم طويل وعريض في افريقيا. وبدها تبغتني غصب عنه لعندو. لأنه هو مجبور في." وهني صاور يخمسوها ويقولولها:" ابعتيه حتى مرته تجن." وفيما البيت كله متحلق حول ريكاردو وجاءت إمرأة بهرسبال من بيت الثلاثة بنات فوق الربوة ، تسأل اذا كان الأفغانستاني الذي يزورنا انما جاء إلى القريه من اجهلم وضلّ طريقه. ضحكنا جميعا فلون بشره ريكاردو هي التي اختلطت على أهالي القريه، واختلطت على صوما التى لم تفهم ماذا يكون ريكاردو لنا، ولماذا يتحدث العربيه وهو في لون البشره هذه. حتى جهينه اسرعت في المجيء لتفرغ فضولها او لتعبئه. وصدمت لملابسه الرثة، ولإطراقه بمعظم الوقت إلى الأرض ولم تصدق انه فعلا طيار. مع ذلك فقد اصطحبتني الى البلدة المجاورة حتى نستفسر عن قيمة التذكره ومواعيد الرحلات. رغم انه طال غيابنا وتأخر موعد رجوعنا، إلا ان جهينه اصرت ان نجوب الشارع الرئيسي قبل عودتنا. انصعت لها في باديء الأمر رغم خوفي على سلامة ريكاردو وهي تطمئنني بان

الجميع يعرف من هو الذي يتجسس على المعامل والصفقات، لو أن الشك قد اصابهم ازاء ريكاردو " لكان الان في خبر كان ".

-" ولو، شو حضراتهم شرلوك هوملز؟ "

-" شو؟ شو قلت؟

-" ليش هني بيفرقوا بين الجواسيس.

" لا، بس في كم واحد من هون يشتغلوا مع الأنتربول، وبيعرفوا مين باعث الأنتربول يتجسس عليهم ".

ولم أهدأ، ولم اقتنع إلا عندما وصلنا البيت، وبدلاً من أن أرى ما أراني اياه وهمي: بأن ريكاردو في الوسط، ومسلحون يشدونه بيد، وزمزم وجدتي وجدي في اليد الأخرى، رأيت ريكاردو يجلس على المصطبة يساعد زمزم في تنقية العدس من الأحجار. لم يفارق مصطبتنا أو بيتنا إلا في اليوم التالي برفقة زمزم متجها إلى مطار دمشق وبحوزته قمصان قديمة كانت لجدي وقمصان قطنية خاصتي ومبلغ من الدولارات: ورسالة من الضابط السوري المسؤول عن منطقتنا في بيروت يطلب من الأجهزة السوريه تسهيل أمر المدعو، يحيى ريكاردو، المعروف لديه شخصياً وألا يختلط عليهم لكنته غير العربية، وبأنه هو وعائلته من الموالين المخلصين للدوله السورية.

ودعته اليوم ورأيته يسير فوق التراب ببنطلونه القديم، بحذائه القديم، بقميصه القديم، وبحقيبته ذات الجروح. أرى ظهره، لكن اعرف ان عينيه تقدحان بي. اعرف اني سأمر في خياله عندما يختلى بأمرأة. لن يخبرها عني، بل لن يفتح فمه. سيفكر ان فتحه لعينيه كاف فهو قد اغمضهما طويلا. لن يتحدث اليها إلا بفكره. من قال ان ولدا من صلبك في إفريقيا ستخاف عليه امرأة لبنانية؟ هل سيعبر عن نفسه وهو في سورية او انه سيلوذ بالصمت. أني احمل همه كأنه جبل

فوق عظام قفصي الصدري. أخاف عليه اكثر من خوفك عليه هذا اليوم. ربما انت نسيته؟ لا اعتقد. الذي يعيش في رحم الام. يصبح من خلاياها، شاعت ام أبت.

ومن قال ان ولداً من صلبك البعيد، جاء ليحارب الذين يتآمرون ضد الشيعة وضد الله. فإذا به يكتشف هنا كيف ان الشيعي يتحد مع المسيحي والدرزي. وأن الجميع هنا على وفاق تام. لأنهم بحاجة الى المال والسلاح ليحاربوا بعضهم بعيداً عن الحرب، أذ ان الحرب تدور هنا، خلف الغرسه القرمزية والبيضاء، خلف النبته الذكيه الخضراء التي تطلع كالجنة.

إنني اندب حظ ابنك هذه المرة حقيقة، كما ندبت حظه امام روحية، حتى أفهم جواد بأن افكاري بعيدة عنه وبأني لست مهووسة به. وما كان من روحية إلا ان ندبت حظه صادقه:

من لما هرهر، ابوه على الافريقية السوداء

ولقط رحمها وانتفخ ببزرته البيضاء

زاد التعتير والشحار

وماطلع غير الشحبار

إلى الحـــرب..

لن أطلق عليك عزيزتى، إذ أنا لا افهمك.

كأنك تسحبين خيوط سجادة عجمية من تحت قدمي خيطاً خيطاً لتعيدي حياكتها بين لحظة وأخرى. أجدني أتدفأ بجوك، جو السكون المخيم حتى على السماء في أوقات الهدنة، أو في الأوقات التي كان يخلد اليها زعماء الحرب في انتظار تكتيك ما. كل روح، حتى عواميد الكهرباء، تبدو ساكنة أثناء هذه الأوقات، حتى أكوام النفايات كانت تخلو من طنين الذباب ومن البرغش. الطرقات ملك للذي يتجرأ ويدب فوقها سواء سيراً كالبرق أو في سيارة تنهب الأرض كما الصواعق. عندما تعودين الى مسرح العنف. نقترب نحن سكان بيروت من بعضنا، نلتف حتى تصبح أنفاسنا واحدة، ولا نعود نفكر بعيداً عن حلقتنا.

أنت لست عزيزتي. ومع ذلك عندما كانت تركد الحالة كالمستنقع، وعندما كان يدب الشعور بالانقشاع ويبتديء تدفق سيل الذين هاجروا أو اختبأوا، وتعود الأضواء معهم الى هذا المكان ترافقه ضحكاتهم، يتبدل مناخك. الاحظ تبدله حتى في المقهى – المطعم الذي وكأن بقدومهم لم يعد واحة في الخراب والعتمه وإذا بحلقتنا تتوقف عن التلذذ حتى بامساك كوب الماء ونحن حول مقاعده إذ يصبح مكانا للطعام ولعرض الملابس الجميلة.

أجدني أتردد الآن، لماذا لا أطلق عليك عزيزتي رغم أني أتحدث عنك بهذه الحرارة. لابد أني خائفة من أن افلت هذا الشعور الذي لن يستوعبه أحد غير القليلين، كناصر الذي لابد أن علاقتي معه حاكت نفسها من جراء مناخات

الحروب. في حرب ٦٧ فاحت رائحة الحرية من أرجاء بيته، لدرجة أني كنت أراها وكأنها خيمة من شاش تكومنا تحتها وكأننا محاطون بحديد صلب يرد عنا هجمات أو رواسب المجتمع.

لكن في هذه الأيام. وبعد هذه السنوات الطويلة تبدلت لهجتى ازاءك. فأنا اصبحت أسألك وأسأل نفسي ماذا أفعل؟ ماذا يجري؟ هل هذه هي الحياة التي خلقت من أجلها؟ أم ان هناك درباً آخر، عليّ أن اسلكه حتى أصل الى حياة أخرى؟ كنت أوجه اللوم إليك بأنك السبب. تضعينني في الحالة المتأرجحة هذه. تتركينني كأرض يباس ولا تدعين المستقبل يطل. فأنت قد سحبت مني الأوكسجين الذي كانت تعتاش منه العين حتى ترى، يعتاش منه الشريان الذي يرف في القلب. بهذا سددت ايتها الحرب أمامي ما كنت أتوق إليه منذ أن قررت أن أكون مهندسة في فن العمارة. ولقد ساهمت في تحطيم كل أفكاري التي كانت تدور حول ابتكار طريقة هندسية يتسنى للمرء العيش في انسجام بين فكره وجسمه. لقد حطمت أفكاري منذ أن جعلتني أرى الأخشاب وصفائح الصفيح تبنى على الأبنية المتهالكة وسمعت ضحكتك إزاء أفكاري التي بدت أكثر من مرة سريالية في هذه الأجواء.

كنت أعتاد على هذا الإحباط، الى أن تغيبي، عندها كنت أرحب كما يرحب الجميع بالحالة الأمنية. أهرع قاصدة الشواطئ والجبال، لكن، بدلا من الشعور بالسعادة، كنت ألحق بعيني اللتين انكمشتا في زاوية السيارة... بدلا من ان تلحقا بما يدور في الخارج. ذلك الخارج الذي يجعلني اشعر كم انا كسولة وهو يعرض حياة البناء وهى ما تزال تزدهر رغم قباحتها. كان تأنيب الضمير ينهشني، يجعلني أهزّ رأسي أسفاً أمام لافتات مكاتب الهندسة وأسماء المهندسين. وسط ورشات الإعمار.

عندما حاولت أن أعمل استاذة جامعية لم يغب عن بالي لحظة بأن كل كلمة اتفوه

بها هى كالهباء المتناثرة. و بأن كل ما هو منتصب في الخارج انما هو مهدد حتى غرفة هذا الصف هى أيضا مهددة. كنت والتلاميذ الذين يشاركون شعوري هذا ننظر الى بيوت الأسكيمو وأكواخ الإفريقيين المبنية من القش ونفكر بأنه ربما علينا أن نخترع مادة جديدة للبناء، أو ربما علينا أن نكتفي بهندسة الملاجيء.

تركت التعليم وأنضممت الى جمعية تود المحافظة على الأبنية القديمة في بيروت ذات القرميد الأحمر والطاقة المستديرة الزجاجية والواجهات الزجاجية الملونة والسقوف العالية و سلالم وافريزها من حديد أسود محزّم. كان علينا تصويرها قبل أن تخر على الأرض أو تتشوه بشظية كبيرة تأخذ قلبها أو اطرافها. تعرقل العمل من الغربية واللجنة في الشرقية من جراء المواصلات والاتصالات والحالة التي حدّت من إقامة الإجتماعات، ثم ليهاجر معظم المنتمين اليها الى خارج لبنان.

أخذت أتبع نصيحة الآخرين. لا نصيحة نفسي. لم أترك عملا إلا ودخلته.

كأني أمام خزانة من الصين فيها مئات الأدراج. أفتح درجا وأدخله وأخرج منه وأدخل درجاً آخر وأخرج منه وانا أشبه نفسي بقريب والدي. محمود الساعاتى، فهو قد دخل في مشاريع كثيرة: استيراد الساعات كوالده ثم استيراد الدجاج والعلف وافتتاح مطعم واستيراد فرش من الأسفنج و و.... ثم لا شيء. كان الاحباط يزورني كل يوم ببذلة جديدة، فيجلس على الكرسي قبالتي ويوافقني وأنا أصف له وقع الحياة اليومية في بيروت الذي أصبح بطيئا لا يحمل أي حماس لأى شيء يخرج عن نطاق تأمين الحاجات اليومية، لكنه أخذ يتجرأ ويعارضني. يذكرنى بأيام السلم الطويلة وبيروت التي تنغل كما في الماضى وبالأشخاص الذين يعملون وينتجون، فأعود الى النشاط وأنا جالسة فوق الكرسي فقط. أتصور نفسي افتح مكتباً لفن العمارة أو نادياً للأطفال أو أنشئ حديقة للحيوانات. ثم أجدني أتصالح مع إحباطي. أقنعه بأن مجرد تواجدي في بيروت طوال سنينك هذه معناه

أني أعمل ليلاً ونهاراً. فالاعتياد عليك يأخذ جهداً كذلك رؤيتي لبيروت وهى تنتقل من أياد الى أخرى وهى تشطر الى شطرين والى اقسام كثيرة. جهدي، للتأقلم للجديد، ومحاولة نسيان القديم. القبول بالموجود ولو كان قبيحا. انتظار الأمل ولو كان احياناً سراباً ثم إلغاء الانتظار والتعلق باللاشىء.

هل تحدثت عن هذا الشعور في رسائلي السابقة؟ لم أعد اذكر. ويبدو أن اَحاسيسي هذه الغريبة نوعاً ما تنبع من أنك حرب عجيبة. تختلفين عن كل الحروب، كأن لديك عينين تريحين واحدة وتنظرين بأخرى.

كنت أنهض في الصباح تحت وطأة الأحلام البعيدة عما يجري في الحياة أتمطى سعيدة بالنور. بلحن موسيقى،بلون تنوره، بموعد ما، لم يكن هذا الشعور يخطف منى الا بعد يوم أو يومين على تجدد المعارك، فيمحو كل آثار الانتعاش السابق الى أن ينظف الزجاج الذي هرّ على الأرض، ويصفق الناس اكفهم قائلين بحزن:خسارة من مات". حتى أعود فاتمطى سعيدة بالنور. بلحن موسيقى، بموعد ما حتى بلون بلوزة.

هذا الصباح صحوت على أغنية " عهدير البوسطة " تنبعث من زمور سيارة وبعدها على صوت علي وأصوات كثيرة وزعيق وضحكات. ثم سؤال زمزم لعلي لأن يعطيها علكة. وهى تمازحه قائلة »العلكه بتمك قد الجمل ". علي هنا؟ استطاع أن يخترق ما نسمعه عبر المذياع عن المعارك والسوريين والطرقات والمستقبل والمحادثات والمناوشات، ويصبح بيننا. أم لأنى ابتعدت عن المعمعة. نسيت كيف هي الحياة تتأرجح في ظلك وكيف اخرجنا علي من جحورنا وكأننا حلازين لم تعرف أن الربيع قد أتى وهرول بنا الى المصفحة، لنخوض بعدها رحلة العذاب الى القرية ريثما يعود الهدوء الى بيروت. يعلو صوت جدي وهو يتنحنح:" متى تركت بيروت يا علي كأنك طرت طيران؟".

" امبارح والله خفت اتأخر عالطريق، بتعرف مع انه عندي أربع تصاريح.

لكل حاجز احمل تصريح، بس الواحد يضمن ثقال الدم. وقلت يللا منسهر بمطاعم البردوني، ومن دغشة الصبح بكون عند الست اسمى، والله سهرة من العمر، يمكن انت سمعت ما انا تجوزت مرة ثانية." يضحك جدي: "اذا خجلان لدرجة وعامل حالك ابو اسرار ليش حتى تتجوز مرة ثالثة أو رابعة؟ بطلنا نعرف نعد ".

" هالمرة عن جد. أولادها، بدّلوني وطوّلوا روحي".

يمازحه جدي:" كنت أدعي انه ما يطلّ وجهك. والله مبسوط بأسمى قد الدنيا.انت آخذها عبيروت »

أخرج بكامل ملابسي فرحة برؤية علي، أحييه بكل حرارة، والتفت الى جدي قائلة:" يللا يا جدّو انزل معنا. جواد وروحية نازلين كمان معنا".

ولم يدعني علي أهرب بجملتى هذه، اذ أسرع يعاتبني وهو يصفق كفاً على كف:" شو عاملك يا ست اسمى هلق بدك تحطّي فأل عالسيارة ! مراثى وقهر وشحار وكمان سواكير وريحته "...

أعود أبدل الموضوع فأقول لجدي بلهفة:" شو قلت جدو نازل معنا؟".

«والأرضيات بتركها لسبحانه؟" ثم ضاحكاً:" ما أنا تاركها تحت بصره. شو يا علي ان شاء الله ركبت باب حديد لبيت بيروت؟".

انادي حفيد نعيمة مسلم:"اركض عبيت روحية خليها تحضر حالها عبيروت وخبرها نحنا مارقين خلليهم يعجلوا. وانت عجل، طير مثل الطيارة".

يبدو أن علي لم يشف بعد، منذ أن أوقعت عليه صاعقة روحية، إذ طلب من حفيد نعيمة ان يتمهل ريثما يسألني "شو يا ست اسمى أنا بعرضك".

أجيبه ضاحكة:" ولو! قلبك كبير، روحية محلفتني الف يمين حتى تنزل معي، خيفانة على جواد ببيروت وبدها تشوف حالها إنه عندها بيت ببيروت طويل عريض".

تدخل نعيمة: " طبعاً بدها تشوف حالها قدام ابن خالتها، قال.. بيتهم صار

خربة، وين بدو ينزل بالاوتيل؟".

" وشو خصني أنا؟ ما هي مثل عزرائيل بتبشر بالموت، حتى اسنانها صايرين سود، قال العالم مستغربة كيف مات جوزها وهو بعده شاب؟ ما هو كان عايش مع عزرائيل، كل يوم بتندب بمحل وبتشّحر حالها ".

يسرع حفيد نعيمة في الركض وانا اصيح به:" مثل الطيارة ".

تفوح رائحة البيض المقلي من المصطبة، حيث نعيمة تعد الفطور، بينما اجدني أعد انفاسي حتى أزيل اضطرابي، لكن صوت علي المرتفع يمازح زمزم ويمازح نعيمة وينايدني. وما ان اقترب منه حتى يهمس:" شو وين جهينة؟".

تسمعه نعيمة فتقول له ساخرة:" فوت شوف مين في جوا، لا جهينة ولا ما يحزنوه، الكل صار مظنطر بس اللى جوا لا بتشكي ولا بتنعي هي مثل القطة اللي آكله لسانها ".

" فكركم انا أهبل عم اسأل عن جد. عم امزح، الأخبار وصلت انطاكية، فكرت حالها ست البيت وصارت تتدخل بالصغير وبالكبيرة. وصارت بدها توسط وتأخذ وتعطى مع المسلحين، وقالت انه جدّك كاتب كتابه عليها. لما سمعت هالكلام قلت هيدي كذبة نيسان شو معقول جدّك يجن؟".

أعود الى غرفتي رغم تركيزي على تحضير نفسي، إلا أن تفكيري بأن روحية وجواد ربما عدلا عن المجيء معي أخذ يقلقني، اتعجب للعواطف التي هي كالمطاطة. فأنا توقفت عن الهدس به منذ ان اتى وروحية يطلبان مني النزول معي الى بيروت.

بسرعة أدخل غرفة جدتي التي لم تزل في الأجواء التي عهدتها بها. لا شيء يتبدل فيها وكأن الظروف لم تتبدل حولها. حصوص الرمان التي اعتادت على مضغها وقذفها في صحن الى جانبهاحرصت على أن تغطيه في قطعة من قماش الشاش الناصعة البياض.الروايات والترانزستور، الصندوق الذي يحوي

المساحيق، المسبحة، بروش امها، خصله من شعري وأنا صغيره واقصوصة من قماش لم تزل تبحث عن لونه وزجاجة عطر فارغة صغيرة، قديمة، لم تزل تحتفظ بها وتسأل كل دكان في بيروت عنها وتسأل كل من يسافر ان يجد لها مثلها. أهرع اليها الآن وكلي ندم لأني لم اسرع اليها لحظة ما أخذت أعد نفسي للذهاب الى بيروت. وكانت هي تعد في الاف الليرات. تغرق يدها في قفطانها من جديد. تخرج حبة من علكة المسك من علبة جميلة صغيرة كانت لبودرة وجهها:" وهيدي حبة مسك " انحني اضمها الى صدري. بل أضم نفسي أليها، من يفكر بحبة المسك هذه غير جدتي. كأني أعي لماذا بلغت هذا العمر ولم أزل في هذه الأجواء. كيف اغادرها وأنا لا أرى شبيها لها. تقوم بتوصيتي قائلة: " أعملي من قيمتنا مش تتركي النملية والبراد فاضيين".

اعتدنا ان يصبح بيتنا في الحرب كالملجأ. ولم يعد هناك فرق بين الضيوف رجالا أو نساء، الكل ينام في غرفة جدي. ثم تزيد وهي تتصنع اللامبالاة: "قال جواد عنده واحدة يعاشرها وبتعاشره بالحرام من سنين".

لم اجبها. آلمني الشعور بأنها قلقة على مستقبلي وبأن ذباباتي قد وصلت اليها رغم ادعائي العكس. حزرت هي ان تلهفي للرجل اخذت تشوبه العصبية والشعور بأني أريد ان اضع يدي على خشبة لأنقاذ، لان ماء العوانس لم تعد تغمر قدمي فقط. بل غطت حتى منتصف رقبتي وبقي رأسي في الهواء، احدق ببياض وجهها وبكفيها اللذين لايزالان بلا شرايين بارزة، كأنها كفا شابة تنتظر اصابعها خواتم الخطوبة والزواج. تزيح صحن حبيبات الرمان وأنا أود لو أسألها أن تحب أمي من جديد. لأن تفطن الى أنها وحيدتها. كما كانت جدتي وحيدة والديها وكما أنا وحيدة أمي من والدي وبأني متشوقة جداً لأن احمل ببنت وكلي إيمان بأنها سوف تسعد بمسبحة البنات هذه. وستتلو شخصيات هذه المسبحة على بناتها.

زمزم وعلي يتحدثان. يخبرها عن صوت زوجته: " والله العظيم واحد من

استديو الفن سمعها وهي تغني بمطعم ابوها وترجاها لتغني باستديو الفن لكن هي رفضت". ثم وهو يرى مسلم يبدل الموضوع:" ولك يا مسلم بشرني بالخير، أن شاء الله روحية كسرت رجلها ومش جاية ". لكن مسلم يصيح لاهثا:" جايين روحية وابن خالتها. جايين. قال أوعى تروحوا من غيرهم وهو بعت هالغرض للست اسمهان معي".

أخرج بسرعة أتناول منه شنطة جواد الجلدية، أسرع بها الى غرفتي وأقرّبها من صدري، من فمي وانا أفكر بخوف كيف ان الشعور يتبدل بين لحظة وأخرى وهـأنا قد عدت متلهفة له.

صوت علي ينادي:" يا مسكين يا علي كيف بدّك تستحمل روحية. دايما اتذكر لما حرقت اختى صفية حالها والكل صار مش بس يبكي عالمقبرة الكل صار يرمي حاله وراءها... صبية وحرقت حالها والست روحية صار تنعيها بقولها ساعة، بدك تأكلي، وساعة بدهم يطموك وساعة بدك تشربي".

ثم عند تساؤلات الجميع يخبرنا عما حدث بعد أن تركنا ببيروت عن الضحايا والخراب، الحرب بين اميركا وإيران بين أمل وحزب الله يعني سورية وإيران؟ مش معقول، بين أميركا وإيران. يخبرنا عن ابنه زوج فضيلة الذي احبها شاب في الملجأ وتزوجها في الليلة ذاتها:" جابوا المأذون اللي صار يأكل الكلمات أكل مشان يهرب». انهمك من جديد بوجهي، بمظهري، اضع الكريم والفون دوتان والبودرة ثم ادني المرآة من الشباك وعندما ابدو وكأنني لم أضع شيئاً. ابتسم. كانت جهينة تتلصص علي، وهي تلاحظ التبدل الذي يطرأ علي بين لحظة استيقاظي وعندما أجهز نفسي للخروج، فتبدو بشرتي كالعاج رغم انه لا يبدو عليها الألوان أو المساحيق. هذا هو سري أن أبدو طبيعية وكأنني غسلت وجهي للتو بالماء والصابون.

أسمع صوت جواد وروحية، وبدلاً من أن أركض اليهما. أفكر بأن عليّ أن

أبقي مسافة بيني وبينه فالساعات ستكون طويلة وأنا أملك بيروت. تتبخر أفكاري هذه وأنا ألحق بصراخ روحية:" مش أولاد الحرام هجموا بالليل علينا قال بدهم ياخذو جواد مشان يستنطقوه؟".

تنادي الأصوات:" مين، مين، مين؟" تشيح روحية بيدها:" من غيرهم؟ أولاد الاوادم. والله هجمت عليهم بالسكين وبفردة قبقابي وقلت... يللا قربوا يا شباب الشاطر يقرب. والسيد جواد صار يصرّخ ويقول حيدي ويدفشني، قال بدو يتفاهم معهم ! ليش بدك نتفاهم معهم اما في سبب الا انهم حاطين عينهم على ساعته أو الباسبور أو تذكرة السفر. الله أعلم مين بيعرف ! ولكم خرسوا لما قلتلهم ليش بدكم تستنطقوا جواد؟ صاروا يعووا أجلكم مثل الكلاب. واحد يقول شو بدو يكتب ونحنا ضيعتنا هلق حساسة بالنسبة للكوكا. والثاني صار بدو يقللو شو يكتب. كلاب وفلتانة، طردتهم وقلتلهم روحوا اعتمدوا وارجعوا لنا. منيح اللى كنا متواعدين مع اسمهان والا فكروا إنه هربنا والله مش راح يهرب شي فيهم مني.. بكرة بفرجيهم ".

يتنفس جواد كأنه هو الذي قص قصته، بهذا الأنفعال والصراخ ثم يتنهد عميقاً قبل أن يقول:" بسيطة ".

تعودين أنت أيتها الحرب، وأنت تلبسين حلة تناسب القرية وتدخلين أبوابنا، وتؤكدين لنا بأنك طبعاموجودة. رغم الشعور بأن القرى تبدو مستأنسة بنفسها، منفردة كأنها احاطت نفسها بسياج لا دخل للحرب بها. كل شيء هادىء بها سواء غصن شجرة، حفرة عميقة حفرها جرذ الحقول. حتى أننا اعتدنا على فكرة أراضي جدي المحتلة وقد بدا هذا الواقع وكأنه من جراء ثأر قديم أو عين حسود لا دخل لك بها. لكنك امتددت الى جذور بيت روحية الذي كان يحمل قبل دمعتك الزيت المقلي والطمأنينة الماضيه وصدى اشعارها التي حملت القهر والحب. لحظات وبدلت انت تاريخ هذا البيت. فوجئت بعقله الساكن وجعلته يفطن فجأة بأن

جسده اصبح يعيش تحت رحمة عقول شابة لا تجارب لها سوى العنف.

حتى جواد اصبح آخر هذا الصباح من جرائك، يجلس على حافة حائط المصطبه. اشعر بأنه اصبح منا. إنه فلان وابن فلان، مرت عليه قساوة الحرب والحياة وجاء، يستأنس بمؤازرتنا له. بمواساتنا، رغم أنه يبدو وكأنه ينتمي الى أجواء اخرى بهذا القميص السبور والجوارب المخططة. أشعر بالطمأنينة لما حصل له. أنه يضعه في أتون التردد هذا. في حكاية إبريق الزيت. في آلة المغناطيس التي اخذت تجذب اليها كل شيء حتى النسيم. الذي خاضه جواد مساء البارحة يعوضني عن شرحي له حالة التردد التي تنتج عنك. رؤيته لروحية وبيدها السكين وفردة الحذاء تقاومهم بينما لهجتها هى لهجتهم سوف تجعل كتاباته في مفكرته كتابات أخرى.

علّقت زمزم مازحة:" يللا الحمد لله عالسلامة، الله يسامحك يا روحية ويسامح لسانك،انت كنت تنتقدي فلان وفلان، لانهم مازاروك و هنّوك بوصول جواد بالسلامة، شفت حتى الأغراب سمعوا بانه جواد صار عندك ".

لم يضحك أحد لكلمات زمزم التي لم ترد بها إلا أن تطرد القلق عن بال روحية وجواد. لم يحاول جدي أو جدتي ثنيي عن عزمي للعودة الى بيروت. كأنا يعرفان كم أني عنيدة وكم أن هذه القصص تجذبني اليها، وكالعادة وجد علي الفرصة ليبرهن ان لديه اتصالات على مستوى عال وبأن الأضواء تسطع عليه من جديد، بينما ما حدث جعلني اعترف بأننا جميعا مرهونون، مهما أطلّت تباشير السكون والسلام.

لابد أن علي يفكر الآن إذ كان سيحمي جواد أم ان يصادق المعتدين أو يتربص بهم أو يهرب منهم:" يللا نهرب من الضيعة مثل شيل الشعرة من العجين". تحت روحية علي. بينما تأخذ جدتي مسبحتها لتستشير الخيرة. تستشيرها كالماضي: إذا كان لا بأس على زمزم أن تأخذني الى السينما رغم سعالي. أم أن

تتوجه الى القرية رغم المطر، وإذا كانت الدجاجة الحية الذي عاد بها جدي حلالا للأكل بعد أن سقطت من فم ابو ظهر الثعلب، خاصة أن اسنانه قد تركت اثارها على بطنها. علي هو الأشد واقعية بيننا يقول:" هلق يمكن يكونوا ناطرين لازم نفكر بطريق لا يفكر فيه الا الجن بسم الله الرحمن الرحيم".

بينما تلمح جدتى بأنه ربما علينا البقاء لمعرفة من هؤلاء. لكن صيحة روحية تعارض وتشدد للذهاب الى بيروت وسفر جواد عن طريق المطار.

الكل في لغط لاستعدادنا للذهاب، تطل إمرأة لا أتعرف عليها حتى عندما اقتربت من المصطبة إذ بدت وكأنها قد فّرت من مصح عقلي وهى تصيح:" صحيح رايحين عبيروت؟" ولم تهتم الى المنديل الذي سقط على كتفها واظهر شعرها الأشيب:." دخيل اجريكم، مين رايح؟ أولاد بنتي عم بيحاربو وقال واحد منهم مجروح، بروح معكم؟". يتولى علي الموضوع بسرعة:" لا، لاشو بدك تعملي انت ببيروت؟ خللي القصة عليّ". وهو يعدها بأن يبحث عن أولاد ابنتها مؤكدا أنه سيتصل الليلة بالضيعة بواسطة الألكترون.

. أرى جـــواد يهمس شيئاً في أذن زمزم ثم يســألها:" هيدي انت ياقوت القلوب. آخ شو كويتى قلوب. ولك شو صاير فيك؟" . تنظر اليه المرأة ولا تفهم ما يقوله. كانت قد شاخت وخف سمعها. يفهم الجميع ما قصده. فهي كانت تأخذ الليرة وتعيدها اثنتين خاصة من النساء والأرامل وكلما زدن الليرات كلما زادت لهن ربحهن، ثم لتتكر بعد وقت قصير أنها تسملت منهن شيئا.

ولم يرض أن تفوته الفرصة فيسألها مازحا:" صحيح عندك زنار محشي بالذهب؟".

تهز رأسها قائلة:" الله يصبحك بالخير يا حبيبى ".

يأخذنا علي عبر طريق الجن ينفذ بنا بين السهول والحشيش والملفوف بين أشجار التفاح والحنبليس وكلما مررنا على حائط أو من سفح استفهم جواد:"

كيف اللي بناه عرف اين تركب كل حجرة ". يستغرب لألوان الحجارة قائلا إنها لم تكن هكذا في المخيلة. وروحية تحاول اسكاته من كثرة عصبيتها وهي تصفه ببرودة الدم، بينما أشعر بدمه الدافئ يدخل دمي، وأنا لا أجد سوى الهدوء على وجهه، وفي نفسه. ما يشغل باله الآن هو لون الحجارة في الذاكرة، بدلا من أن يعاني ولو القليل من الاضطراب. عيناه الزائغتان كانتا على ما يرى فقط، لقد كنت شاهدة على كثير من الوجوه التي تبعثرت تكاوينها وارتبكت حواسها من جراء الخوف الذي فرضته ظروفك.فالفم الذي يرى والأعين التي تولول والشرايين التي تشم الذعر. كنت افهم هذه الحالة عند زمزم والآخرين في حينا. خاصة الأمهات المتشبثات بأطفالهن، المنتظرات اتوبيس المدرسة، ولم اكن اشعر سوى بالاشمئزاز ازاء الذين فقدوا توازنهم ومحوا ما آمنوا به على مدى سنوا ت لحظة ما واجهوا بها الخطر، وأخذوا يسفون المهدئات ويمزقون الأوراق التي تثبت شخصيتهم، وصورهم وهم صغار. أحدهم تمنى لو يمزق وجهه ويبدل اسمه ويقتلع لسانه حتى يرطن بلغة أخرى. تمنى أن يصاب بداء فقدان الذاكرة. مرغ نفسه على الأرض وخاف من صوت ضرب البوارج والطائرات وأيقن ان اسرائيل تعد جيوشها كلها من اجل ان تسحبه وبأن الأنوار المسلطة على بيروت من بوارجها انما لتحذره من بين الملايين، لم يكن خوفه يصحبه الشعور بالذل من أنهم سوف يقبضون عليه بل الشعور بأنه سوف يعذب، وبان الوقت قد حان ليترك المقاومة والنضال. يريد ان يبتعد عن لبنان الذي بالنسبة له كماشة ستكمشه بين براثنها. متمنيا لو يعيش اينما كان في أي بلد عربي رجعي.

يخبرنا جواد وهو يلتفت برأسه الى ضيعة مجاورة واقفة على تلة كأنها تنتظر طيرا كبيراً حتى يخطفها. عن حبه الاول.. عند راقية التي أشارت اليها الأصابع تتهمها بأنها السبب في وفاة والدها الذي عرف بأمر ارتدائها المايوه والسباحة في بحر بيروت. حاولت راقية اخفاء هذا الأمر طويلاً عن العائلة وهي

تنجح في تجفيف المايوه بتركه ملفوفا بالمنشفة على السطح. عندما كشف امر المايوه كذبت راقية قائلةبأنها ترتديه في حمام البيت بعد أن تملأ البانيو بالماء وتضيف الرمل حتى تشعر بأنها تسبح فعلا في البحر. وانطلت الكذبه على أمها، لكن اخوها رآها ذات ظهر في مسبح عام رغم محاولتها الاختباء منه. وفشى سرها هذا إلى الأم التي ولولت، وانهضت زوجها من نومه قائلة:" خلص رحنا على النار ".

يبدل علي الموضوع كأنه يجده تافها وهو يخبرني عند مفاجأة لقائي بزوجته للتو.

عرفنا ان طريق الجن الذي اختارها علي هو طريق قرية زوجته. التقت عيني بعين روحية وتبادلنا الإبتسام لتسأله روحية:" صحيح مرتك بدوية؟".

" شو قصدك يعني، أي نعم بدوية مش نورية !".

يسأله جواد بجدية عنها وعلي يجيبه باختصار:" اهلها بيجوا بيشتغلوا بالسهول، بعدهم أرخص واحسن من الباكستانية والافغانية والفلسطينية والاكراد... بيعطوهم بيت ومنافعه والأجرة بوفروها لأنهم اكلين شاربين ".

كلما توغلنا في هدوء الدروب كلما أخذت تقومين بحل عقدك، عقدة، عقدة، وتختفين شيئا فشيئا، الحجارة واشكالها تسرع لطمر أي أثر لك. بدت الطرق وكأنه لم يكن يعكر صفوها شيء سوى اسفلتها والتواء اكواعها وكأنه لا يمكن أن يعشعش فيها سوى الطمأنينة التي تمتد الى دواليب السيارة ومنها الى داخلها لتصلنا. فتهدهدني كأني طفلة أنعم بدفء أنفاس الكبار. فيداهمني النعاس من حركة السيارة. أبتسم لنفسي لأني لم اعد تحت سطوة جواد بل كأني عدت افكر واستمتع واتضايق وكأنه ليس موجوداً. كأن رؤيتي للسهل الذي بدا من وساعته كالأفق أخفي حادثة جواد والمسلحين ومحا بالوانه البديعة العنف. لم يعد الشعور يلحق ألا بألوان السهل ومن على جانبيه الجبال الجرداء التي اقيمت على سفوحها

أبنية من صفيح لزرع الخضار والأزهار. نساء يكببن على غرسات الحشيشة، بملابسهن الملونه يغطين رؤوسهن بالكوفيات والمناديل.

عند رؤيتي لجبل باللون الاسود اجدني محقة لأنى لم أطلق عليك عزيزتى فأنت دمار، وجوك قد فرض نفسه علي، أوهمني أن مناخك دافئ لتتطاير حرية العلاقات في فضائك وسحرك يكمن في ضمك للأنفاس والأرواح والأجسام فلا يجد المرء نفسه وحيداً، لكنه سحر كاذب يعي اللحظة فقط. أنه المخدر.

لكني اعود اشرق بالسعادة وبعد لحظات بالحب لأني أرى الأشجار التي افلتت من يدك. أشجار عالية، خضراء وارفة تعشعش فيها أصوات صراصير الغابات فوق الجبال الخضراء التي تبدو هادئة وكأنها مجموعة نساك، سئمت الحياة الصاخبة، والتفت باغطية تتلون مع تبدل الشمس وتستمد من الغسق ألوانه.

يأخذ علي طريقاً فرعيا تكاد تكون واقفة. لا أعتقد أنها طريق عمومية، ومع ذلك فقد وصلنا وكأننا دخلنا في مصعد يوصلنا بالسماء، ما ان ترجلنا عند الفسحة. حتى بدأ السهل كأنه حرام من صوف ذي مربعات ملونة، الأصفر والأحمر والأخضر، الطريق كأنها سحاب فستان طويل من غير حواجز أو عوائق. مساحات كأنها خالية من البشر أمامها. أختفيت أنت من الذاكرة ولم تعودي حتى شبحا وكأن الاستقرار لم يفارق الفكر مطلقا وكأنه لم يلمح رياحاً سوداء من قبل. ما ان توقفت السيارة وهدأت فراملها حتى انتبهنا الى ضجيج وتدفق الأولاد من البناء الوحيد، الذي لم تزل حجارته الأسمنتيه على حالها، نساء صغيرات يحطن بعلي غير ابهات بنا يمازحنه وهو يمازحهن رغم انشغاله بنا، ولم يفرح بكل هذا سوى جواد الذي هلل وجهه بكل ما حولنا، بينما اعتلاني انا وروحيه الشعور بالتملل، فلا القهوه ستكون ذكيه ولا الفناجين ستكون نظيفة، ولا الخبز سيكون شهيا.

يدخلنا علي الى غرفة الجلوس ثم ليختفي لحظات ويعود ويقدم لنا زوجته التي كانت باهرة الجمال. استغربت صغر سنها لمعرفتي انها كانت متزوجه قبلا من ابن عمها الذي مات وخلف لها ولدين.

الحر في هذه الغرفة العارية الا من الطراريح كان مخيفا، يزيده قماش الطراريح الخشنة الذي يحف تنورتي، ويصل الى لحمي فأشعر بأن حشرات تنهشني. زوجة علي تزيح الستائر التي كانت مسدلة وتفتح الشبابيك وهى تقول:" والله افتراء. علي يمنعنا من انه نفتح شيء».

يعلق جواد:" اللي بمثل جمالك لازم يخبوه بالصندوق. انا شايف انه علي معه حق ".

ضحكت الزوجة وخبأت فمها بيدها، وتركت الحمرة تعلو وجهها:" يا حسرة كنا حلوين، هلق الشغل عم يهدّنا هدّ ".

ما ان ينهض جواد مستأذناً للخروج حتى ألوم نفسي. فأنا تجاهلت الحر الذي كأنه يتصاعد من جسم مريض ويحط علي لأن جواد كان يجلس قبالتي. أتمنى لو انهض مثله لكن زوجة علي لا تزال تغدق علي عاطفتها ومودتها وهي تردد أنى كابنتها لاني بمثابة ابنة علي. فرحت لما سمعته اذ كانت تصغرني. واجبرت نفسي لأريح كل عضلاتي، وبت كأني أجلس على فقرات ظهري. يبدو اني بالغت في هذا الاسترخاء إذ سألتني ما بي لاجيبها كاذبة بأني دائمة الشعور بالغثيان من جراء ركوبي السيارة نتيجة ضغطي المنخفض، تنهض الى الشباك وتصيح بأعلى صوتها:" كباية مي للست اســمهان "، ثم تسـألني اذا اردت حبة اسبرو.

تتدخل روحية: " كم دقيقة وبترجع كلها حيوية ونشاط ".

عندما طال قدوم كوب الماء تنهض زوجة علي مستأذنة، لتلتفت الي روحية

مؤنبة:" يللا شدي حالك. شو يعني مين بدو يسليني؟ في غير هالدبانات اللى عم تون بأذني كأنها تولد الولد خلف اللاخر".

أضحك لتشبيهها هذا وأطمئنها: « راح سليك، بعدك بتتذكري كيف ندبت على أخت علي؟ دخلك شو كان اسمها؟

- صفية، الله يرحمها ويرحم أمواتنا... ». « هيك بدك تسليني بتنكشي سيرة الأموات؟... ».

« بعدك متذكره كيف ندبتيها حتى علي بعده متضايق الى اليوم؟ ».

« ليش أنا بنسى؟ كله مكتوب بالدفتر الفوقاني بخط نظيف على السطر، الله وكيلك ».

« طيب، يللا سمعيني »:

« هون يا مشحرة يا روحية؟ هلق بقولو عم جيب فال، عليهم مش شايفة قديش علي بيكرهني، بدك يقوم يخنقني ».

تغمض عينها ثم تعود فتفتحها وتهمس: « مش عارف ليش هو فهم غلط ولك شفتى الحجر والشجر؟ والله الشجر والحجر بكي لما رثيتها ».

تغمض عينها من جديد وبصوت منخفض تغني:

« يا حبيبتي لا ترمشى بعينيك مرتين ».

« يا حبيبتي مش راح تشربي مي بها الشفتين ».

« يا حبيبتي مش راح تاكلي وتحمدي الله مرتين ».

« يا حبيبتى خللي إيديك براه الشرشفين ».

« لا نو بدهن يطموك تحت التراب بعد دقيقتين ».

وكأنها لم تكن في جو آخر، تبدل صوتها وتغني:

يا أسمى ويا أسمهان   اسمك عطول دوم علسانى

وحبي لك حب عمياني   شوفك قبالى بفستان أزرق سماوي

اتدخل قائلة:

«ما بحبش اللون الأزرق، « شو مبين قفزت من ألحزن للفرح؟ ».

« الاتنين مثل بعض يا ست الفهم. للدنيا منضحك ومنبكي.. للآخرة منضحك ومنبكي ».

من غير أن تستشير أحدنا الأخرى نقف لنغادر هذا الأتون، لنرى زوجة علي تنتظر في الفسحة المغبرة من أرسلته ليأتى بليمونة حامضة. التفت حولي أبحث عن جواد فلا أجد له أثراً. ثم أيقنت أنه ذهب مع علي التي اختفت سيارته ليأتيا بالفراريج المشوية من البلدة المجاورة، إذ سمعت كلمة فراريج تتردد بين علي وزوجته حالما وصلنا.

أسأل زوجة علي عنه فتُجيب سوف يعود للتو، وأتمنى لو أملك الجرأة لأسألها عن جواد. لكن صيحة واحدة تتعالى من البناء وزوجة على تقول:

« الأستاذ عم يصّور بالمعمل والكلّ مفكّر عم يعمل سحر ».

تشير إلى البناء الأبيض ذي النوافذ البنية الذي سطحه من صفيح، وقد ركز عليه جذع شجرة وبعض الحجارة لتقويته.

أقول لروحية: « يللا نفوت شوي ».

تعترضني زوجة علي: « إذا بعدك تعبانة ما تفوتيش عالمعمل. هلق الريحة بتقتلكم قتل ».

« ريحة شو؟ ».

« اليوم عم يحضروا زيت الحشيشة ».

« أنا صرت كتير منيحه. بطلت دايخة لا تتعذبّي.. بالليمون الحامض ».

كان جواد يأخذ صوراً بآلة التصوير «البولارويد» لأم زوجة علي التي كانت في سني والنساء الكثيرات والأولاد. ما أن يلمحنا جواد حتى يستعيد منهم بعض

الصور مستأذنا: « بس لحظة حتى فرجيها لأسمهان »، وبحماس يقترب مني والصور بين أنامله العشرة: « شوفي بشرفك زر الكهرباء شو مودرن... وشوفي ثيابهم.. شوفي حديد الشباك، بشرفك شوفي الأرض، كيف نصفها مورّق ونصفها بلاط، بشرفك شوفي، بشرفك لاحظي ساعة أمها المودرن وعقدها البدوي ». ووجدتني أزيد على أفكاره وكلامه بهزأ ويضيق لم يتبينه في لهجتي: « شوف القشاط الذهبي وغطاء الرأس كأنه قماش النموسية بس مطروق بالفضة وبالذهب، شوف الوجوه مثل التفاح شوف كأنه ربطة رقبة كاوبوى عالتم، شوف الحلق على الانف، أنت ملاحظ الكحل العربي؟شوف الأظافر، وكيف الأيدي متشققة من فرك الحشيشة ».

طفلةٍ ارتدت كنزة تحت فستان طويل كأنه فستان عروس وبنطلوناً سميكاً وأساور من بلاستيك ملونة وفضية، بينما الكوفية البيضاء تدلت من على رأس والدها يحيطها العقال الأسودالذي أرتدى سترة أوروبية فوق القمباز البنى الذي يظهر من تحته كلسون صوفي من اللون الأبيض.

كانت الصيحات والقهقهات والكلام يتعالى وسط الغرفة الكبيرة التي تغصّ بالنساء، بالشابات وبالعجائز اللواتي لم يكن يظهر من وجوههن سوى أعينهن، يمسكن بكرات الحشيشة السوداء، يفركنها بأيديهن. اخريات يحركنها وهي تغلي فوق النار. هناك من يقوم بوزنها، من يتفحص لزاجتها، لونها.. بينما تناثر الغبار على علب الصفيح، على أساطل مضخات الحشيشة، التي كانت تصدر الاصوات.

ابتسامة جواد تظهر أسنانه التي كأنها لا تعلك الطعام. بل كأنها خلقت للإبتسام، تضحك النساء سعيدة به لتبادره إحداهن: « شو بدك تصوّر يا حبيبي، ما انت صورت الكل من عداي، وأنا ختيارة كركوبة. إذا بدك يعني تصوّر صوّر بنت بنتى ابتسام، صوّر ».

وابتسام كانت البنت التي أنزلت اللثمة من على فمها، وبقى الايشارب الملون

يحيط بوجهها تاركا غرة من الشعر الأحمر فوق العينين المكحلتين، تعدل ابتسام من سلسلة رقبتها الذهبية حتى تظهر وهي تنظر في عدسة الكاميرا، نظرة حالمة ثم نظرة ضاحكة وجواد ينتبه إلى هـذا ويصيح: « ياويلي على ابتسامة ابتسام ياويلى ».

أجدنى أخجل من صيحته هذه، وأحاول أن أكون موضوعية فأسأله وأنا أدير عيني في القاعة التي كل ما بها مقفل من زجاج الشبابيك، إلى الستائر السميكة المسدلة التي أرتفعت فوقها أكداس من غبار الحشيشة الأخضر، اذ كانت الدور لا يهمها انحجاب النور.

سيارة شحن «تراكتور» تتوقف خارج هذا البناء تكاد تطفح بالحشيشة، المزدحمة فوق بعضها تحت غطاء من نايلون إلى جانب السائق يظهر رجل آخر يكاد يجلس على الدولاب، تتوقف سيارة خلف هذا الشحن ويترجل منها ثلاثة رجال مدججين بالسلاح، لابد أنهم حراس الشاحنة، يفرغ رجال الشاحنة الحشيشة ويضعونها في الناحية الأخرى من البقعة المسيجة. صيحات الاطفال المعلنة مجيء علي ورؤية الرجال في شتى الملابس وابتساماتهم وسكائرهم المتدلية من أفواههم جعل الشك يخيم علي من جديد ويقنعني بأن ما حدث في بيت روحية مساء البارحة لابد انه كان من نسج الخيال، لا يمكن في هذه البلاد إلا أن يكون الرجال فيها اما يتبادلون الضحك. وإما يكدهم العرق وإما يقودون السيارات فخورين بها بينما سلاحهم الظاهر هذا يبدو وكأنه تقليعة، كموضة الظفر الطويل. المفروض أنهم ينتمون إلى أحزاب متعددة، يحملون السلاح لإبادة بعضهم بعضا أو لسيطرة أحداهم على الآخر. لكن في هذا السهل يوجهون فوهات أسلحتهم لحماية بعضهم. فكل حزب هنا كان بحاجة إلى الحزب الآخر، وكل مذهب إلى المذهب الآخر. من يصرف أكياس الحشيشة هذه غير المسحيين لاتصالاتهم مع الخارج حيث طرق العالم مفتوحة أمامهم. ومن يزرعها ويرويها، ويحصدها غير أيادي الشيعة؟ ومن يهتم بأمر الكوكايين غير الدروز.ليعلق جواد: « شو بدك يا

علوش الوحدة الوطنية هي الجيبة! من الجواسيس إلى جنود الله إلى إسرائيل في السماء. »

تدخل زوجة علي ببطء وفي يديها كوب من عصير الليمون وهي تحذّر من ان لا يقترب منها احد.

أسرع إليها وأتناول منها الكوب وأنا أشكرها وأشربها ببطء، إذ كمية الملح التي كانت فيه طغت على حموضته.

نعود إلى الغرفة الخانقة بالحر ومع ذلك نفتك بالفراريج التي أتى بها علي فتكاً ونحن نغمس بصحن الثوم. وزوجة علي تدعو للمشاركة كل وجه تراه يسترق إلينا من النافذ، خاصة الأولاد. عندما لم يجرؤ أحد على دخول الغرفة عدا أبنها تحزر روحية السبب: « كيف بدهم يفوتوا؟ خيفانين نأكلهم؟ شوفو يا ويلاه ماخليناش من الفراريج إلا العظام الكبيرة ».

نضحك جميعاً، ويبدو أن رائحة الثوم قد علقت في كل منا إذ أخذت اشم الثوم ينبعث حتى من الماء الذي اشربه بينمايفرد جواد الصور أمامنا وهو يحاول أن يختار بعضها. ليحتفظ بها بعد أن يفرق البقية على أصحابها. يكتفي علي برؤية الصور من بعيد بين أيدي الجميع ويطلب من جواد أن يأخذ له صورة مع زوجته ثم ليأخذ الصورة بين يديه معلقاعلى جمال زوجته. نتركها وهي تعدني بزيارتي ما ان تلحق بعلي في بيروت بعد انتهاء الموسم.

يدب النعاس بى وبروحية من جديد بينما أججت الزيارة الحماس في جواد وأخذت أسئلته وأشواقه وسروره لهذا الغذاء يتواكب مع حديثه الموجه إلى علي.

توقفت السيارة عند حاجز. نسمع بين اليقظة والنوم: « الأخ جواد تفضل شرّف معنا ». برمشة عين عادت روحك تسيطر وتلغي عدمها. يلتفت علي إلينا،ووجه رجل الحاجز داخل السيارة يتأملنا ويده تطبق على جواز سفر جواد واوراق سيارة علي. رجل آخر يحشر نفسه أيضا وينظر إلينا: » السيد جواد تفضل معنا». تصيح روحية وهى تمسك بذراع جواد غير مصدقة: « يا شحاري

نحنا جينا من طريق ما بيعرفها الا الجن، كيف عرفونا كيف ناطرينا على الدعسة؟ ليسكتها علي صائحا بها. لابد أنها تشك بعلي، أنا الآن اشك بعلي أيضا.بينما يهدئها جواد. وكأن بسماعنا لصوته زعزع منبت عقلها وعقلي. واخذنا نصيح بالرجلين صياحا فاجرا رغم صراخ علي بنا لان نسكت قبل ان يستأذن الرجل قائلاً: عن أذنك بدي أنزل من السيارة وأحكي معك كلمتين ». يجيب الرجل ووجهه لم يزل عندنا: » تفضل أنزل ».

يفتح علي باب السيارة وقبل أن يترجل يلتفت إلينا قائلا: «لا تخافوا». يأخذ الرجل من ذراعه ويسير معه، بينما يقترب آخر ويمد رأسه هنيهة ثم يعود يقف ويده على السيارة. نطل برؤوسنا، كأنما رؤيتنا لعلي والسيكارة لم تزل في يده وهو يتحدث جعلتنا نأخذ نفسا لأول مرة. عندما سحب علي من السيكارة أخذنا نفساً آخر، لكن عندما اقترب من النافذة ببطء عرفنا أنه لم يستطع أن يسيطر على الموقف. وحدست أن في الأمر خطورة فعلاً وهو يقول بصوت مستسلم: « أستاذ جواد الهيئة بدهم يحكوا معك الشباب ».

ينزل جواد بصعوبة من جراء روحية وصراخها وتشبثهابخصره. رغم أن علي فتح الباب وأخذ يبعدها عنه وجواد يحاول أن يحضنها بذراعه مهدئا، لكنها لم تتوقف عن الولولة: « خذوني أنا اقتلوني أعملوا شو ما بدّكم في. ما هومن دينكم مع أنه عايش بره ».

أترجل من السيارة بدوري. وألحق بهما وكان أحد المسلحين يحاول أن يتحدث معها ولما ازداد هيجانها حتى صرخ بها: « ولك اسمعي، كلمة واحدة بدنا نسقيه فنجان قهوة بالمكتب وبيرجع ».

أنصتت روحية اللحظة لتعود وتولول وتصرخ وتلحق بجواد. تشدّ به وهو يطمئنها ويربت يده فوق كتفها. ولم تقتنع،الا عندما اقترب أحدهم مني واقسم لها بانهم سيعيدونه بعد قليل، طالبا مني تهدئتها.

ولم يدخلاه إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة للحاجز. بل ساروا به إلى جيب عسكري لتعود عندها روحية إلى الصياح: « ولك يا أسمهان عم يخطفوه ولك خطفوه ونحنا عم نتفرج. ولك خطفوه مفكرينه أجنبي جاسوس »، لكن الرجل الذي لم نستطع الإفلات منه أخذ يطمئنها: « لا مخطوف ولا ما يحزنون، يرجع بعد خمس دقائق ».

نرى علي يدخل بسيارة الجيب قبل جواد لنصيح عاليا رغم أن المسلح لم يزل يؤكد لي ولروحية: «لا تخافوا أنا معكم هلق بيرجعوا ». اصواتنا وافكاره تشابكت في رأسي، وامتدت إلى رأس روحية. ومنه إلي، حتى أصبحنا أكمة اشجار لم تعد تعرف كل شجرة أين أغصانها وثمارها.

« تفضلوا عالسيارة أحسن ما تنتظروا عالطريق ».

وكأن كلمة المسلح هذه أشعلت النار التي نحاول إخمادها. فأصرخ بروحية لأن تصعد السيارة ما أن لمحت مفاتيحها مازالت داخلها حتى أهب بها والحق بالجيب الذي لم يزل تحت أنظارنا، وروحية التي تتلوى كفرسة عطشى، دبّت الحياة في عروقها فجأة. وأخذت تحمسني، وأنا أطير في السيارة دون أن أرفع يدي عن البوق إلى أن حانت من ركاب الجيب التفاتة. وأخذ علي يصدر لنا الإشارات. رؤيتنا لرأس جواد من الخلف منحنا الطمأنينة، تمنيت لو أن الدنيا بألف خير. ونحن نلحق بالسيارة التي ستأخذنا إلى نبع جديد لا نعرفه لنفرد التبولة ونضع البطيخة في النبع حتى تبرد. لأجدني أصيح واشتم. أصيح وأبكى وأضحك. أنا مجنونة أعيش بين هؤلاء المجانين الذين يدفعهم عقمهم لإحداث ضوضاء وحركة كهذه. ماذا سوف ينتج تحقيقهم مع جواد غير اللاشىء. أعود أصيح واشتم وأصيح، وأبكى، نحن في الحرب نعم، نحن في حرب مدافع، حرب عصابات حرب أديان، حرب سياسة، حرب أموال.

ألتمس كم أن لحيرتي صوتاً وكم هى تنز الما يكاد يخنق الحنجرة.سرعتي

اصبحت كخيط يلتف على نول. كنت أقود آلة لا أعرف نتائج ضغطي على قطعتها تلك وتلك. اخاف على روحية من ردة فعلي هذه، ولدهشتي أجدها تستأنس بجنوني هذا وتزيد على صياحي وتزيد على بكائي وتشنجي.

وما أن أصبحنا في بلدة حيث الناس والسيارات والدكاكين حتى أزيلت عنا وحشة السهل وصمت الطبيعة، وأخذت الطمأنينة تسري في كياننا، وما أن توقف الجيب عند إحدى البنايات المتعددة الطوابق حتى ازداد تفاؤلنا.

يترجلون من السيارة واحداً واحداً وكأنهم أصدقاء. ينظر إلينا علي ويشير بيده مبتسما. يفعل مثله جواد. ليدخلوا جميعا البناية التي عند جهة من مدخلها تقبع صيدلية والى الجهة الأخرى جزار وفي الطابق الأول مكاتب لبنك كبير. يظهر المسلح الذي تركناه في السهل، يطل وجهه من نافذة سيارتنا حتى يكاد يلاصق وجهي ويوجه الينا العتاب لهروبنا منه، ثم يسألنا اذا اردنا ان نشرب البارد معه.

أتمنع أنا بينما تجيبه روحية: بسرعة دخيلك. شي قازوزة تبرد لي قلبي، الله يرد عنك ».

يهز رأسه ويحدجني بنظرة كلها معنى. ما أن ابتعد حتى تلتفت إلي روحية تقول بعصبية: « خلليه يصير بيننا وبينهم خبز وملح. دخيلك لن ارضى ان اسمع كلمة لا من الان حتى يرجع حبيب القلب».

« هالزلة محشش ».

« ياريت فوق يكونوا محششين يارب دخيلك ».

يرجع الشاب بالمشروب البارد ويبقيها في يده يسألني من اين اتيت بلون عيني.

اجيبه: « من ستي ام أمي ».

يمد يده بالزجاجة الباردة وأنا آخذها منه يشد على يدي التي شدت بدورها

على القنينة، وأخذت البرودة تسري في كفي.

تقول روحية وكأننا ولدان صغيران: « يللا يا سندي، شربة ماء، راح موت عطش ».

افلت يدي وأدنى القنينة منها. يقول المسلح كلاما غير موزون يردد الاسطوانة ذاتها: « الجهاد والبطولة والرقي والنصر ».

وروحية تجيبـــــه: « اى يا روحي الله ينصركم، وينصر أمة محمـــد وعلي يارب »، ثم تقاطعه سائلة: مين بدو يحقق معه يا حبيبي. « ثم: « فوت يا حبيبى عالســيارة أحســن ما تضـربك الشمـس، شــو قلـت، مين بدو يحقــق معــه يا سندي ».

يجيبها: « الشباب فوق ».

« منعرف شباب مش عجايز. مين اي جهة الشباب؟ نحنا لنا علاقة بفلان، وفلان.. « لتضيف: « والله فلان يمكن يعلق المشانق إذا حدا لمس شعره من جواد. شو مفكرين هو ايا كان؟ ».

يجب: « ماتخافوا ولو نحنا وحوش؟ ».

تخاف روحية لان تكون قد اهانته فتتراجع: « بعيد من هون... حاشا قيمتك تقبرني... اطلع فوق وشوف شو عم يصير..ارجوك خبّرنا ».

يرضخ لكلامها وهو يتمتم: « طيب ».

يسير بتثاقل إلى داخل البناية. عيناي على المدخل وكذلك عينا روحية التي وكأنها تقززت فجأة، فهى لم تعد ترمش أو تتنفس، تسمّر وجهها. وحدقة عينيها، مدة أتململ. أنظر إليها وهي لا تأبه بى. بل تقطب ما بين حاجبيها بين حين وأخر. الوح كفي أمام وجهها. ومع ذلك فهي تتجاهلني بل لا تراني. ألاحظ أن حدقة عينيها توسعت لدرجة الانفجار في لحظة. ثم وكأن انفاسنا وصلت إلى حيث يجتمعون لنرى علي ينزل وحيدا.

يقاطع علي روحية ما أن فتحت فمها: «جواد نازل، نازل ».

وتنفرج ابتسامته لي عن أسنان صفراء وذقن كأنها جب شوك. لكن روحية تصيح به: «دخيلك ارجع له.. انا عارفه انه نازل».

« شو يا ست اسمى، عندك معجبين، في شاب جاي يخطبك مني قلتللوا مخطوبة ».

تصيح روحية معاتبة: « ليش تقول مخطوبة. دخيلك قللوا أهلا وسهلا منعطيك ياها، وبعدين لما يصير جواد معنا منمدلهم اجرينا ولسانا ومنقول: هيدا عشاكم وهيدا غداكم ».

أضحك بينما يهزّ علي رأسه يمينا وشمالاً: « والله انك مجنونة ».

« لا مجنونة ولا شيء. أنا نزلتك من فوق. خليت أفكاري تسيطر عليهم. . لما صار رأسي يطن ويرن قلت الذي اريده وصل. ولو كنت وحدي من غير السعدانه اسمى ومن غير الضجة لكنت جبرتك تنزل قبل بكثير ».

« والله أنت مجنونة عن حق وحقيق ».

وما أن نلمح جواد حتى نهب بالنزول من السيارة، راكضين الى جواد الذي اخذ يصافح كل من هم في رفقته... واحدا واحدا، بينما يشده علي وهو يلقي التحية على المسلحين قائلاً « كثر خيركم يا شباب ».

تهجم روحية على جواد ثم تجره حتى يجلس قربها لكنه يجلس قرب علي وما أن ابتعدت السيارة نوعاً ما، حتى انفرجت روحية باكية: « الله لا يعطيهم العافية ولا القوة ».

ثم احتضنت رأس جواد من الخلف وأخذت تجهش بالبكاء، كأنها لم تع جيدا قضية اختطافه إلا الآن.ولم يبعدها عنه بل أراح رأسه على يديها. ثم التفت إليها وأخذ يتحسس بيده على غطاء شعرها مواسيا.

ولم يعلق شـيئا حتى عندما تماسكت روحية وسألته عن سبب تحقيقهم معه.

وعندما حان دور علي لسـؤال جـواد تتدخل روحية: « يعنى عامل حالك مش عارف يا سيد علي».

ليترك علي يداً واحدة على المقود ويتجه بالأخرى وبرأسه إلى الخلف: « لا والله، خصيمي محمد والإمام علي، أسألي الأستاذ جواد حطوني برة. والله وقفت حد الباب وما رضيت حيد حتى شعره مع أن المسؤول عن المكتب وعدني أنه الأستاذ جواد بأمان ».

لا يريد جواد التحدث عما جرى. لابد أنهم هددوه. كأن وقتاً طويلاً قد مضى قبل أن يعود كل منا إلى طبيعته. تأملنا عبر النوافذ ساعدنا جميعاً إلى الأخذ من جديد خيط الهدوء كما قبل هذه الحادثة.

لم نزل بين شربكاتك ولم نزل تحت وطأتك رغم ما نراه الآن من جبال هادئة وصخور هادئة وعيدان حطب متجمعة هادئة. قطيع غنم وراعى في عمر دون العاشرة، عندما التقت عيناي بعينه، رفع خروفاً ذا اذنين سوداوين يحيينى به، بائعة تبيع البطيخ الأصفر. افتح عيني كما فتحتهما روحية واحدق في كل شيء، ثم اغلقهما حتى ينتظم الصوت وعندما يصبح رتيباً أفكر بما حدث خطوة خطوة وأصل إلى السؤال والجواب اللذين هما موجودان بيننا، ومع ذلك لم نكن لنعيرهما أي اهتمام من قبل:

لماذا تكملين ايتها الحرب عملك رغم اكتشافك للموت وللدمار ورغم استنتاجك ان السياسة ليست فريقاً بل رمزاً. اعرف الجواب: لأن الرجل بحاجة ماسة للدخول في أي صراع يعتاد ويصبح معروفا لديه، حتى لا يعود يبحث هنا أو هناك عن صراعات واسرار الحياة والموت وما تنتج عنها من نظريات فلسفة لذلك يدع صراعك ايتها الحرب يأخذه كيفما شاء بكل قوته. كأنه رغم خطورته يجد الرجل نفسه قد توقف عن البحث والتردد. انك رغم خطورتك تضعينه في حالة اطمئنان، فيكشف هذا الاكتشاف الثمين ويمضي في لعبتك.

ماذا افعل أزاء هذه الأفكار؟ أبعث بها الى النور، فيصطادها جواد، وينشرها للملأ ام اناقش بها كاظم والشيخ المودرن وريكاردو. رحت استعيد نظرات الشهوة في أعين الشباب، ريكاود واخ كاظم وآخرين من هم دون العشرين وهم يحلمون ويتأملون السلاح ويتباحثون حول الذي بين ايديهم. وكأن ليس آلة الموت. بل شيئا يرغبه ويتمناه كل من في سنهم. كأنها إمرأة شعروا بالرغبة تجاهها منذ أن ولدوا وهاهم في حضرتها وإن لم يعانقوها جميعهم.

اعترف بأني أعيش حياة قلقة في مدينة قلقة من جرائك لكن ألم تبرزي الجوهر إلى العيان وتعززي هذا الجوهر الذي كان من الصعب ايجاده والبلد يدور حول نفسه متباهيا بغزل قشرة براقة حوله.

لكن ها أنا من جديد اصفك وكأنك ماء كرر نفسه حتى اصبح صافياً رغم الجراثيم التي استقرت في القعر. كيف اقارن بين وصولي إلى جوهر الأشياء من جرائك وهمسات صديقتي زوجة الرسام وقولها لي وأنا أتامل رسوم زوجها: « كله كذب ». ولم افهم سر جملتها هذه الا بعد أن قصت على كيف ان بعض المسلحين اخذوا يعتدون على جارهم صاحب براد الفراء بالرصاص وكيف شقت زوجته نفسها إلى شقين وأخرجت صوتاً ارتعدت له البناية، وهى تستغيث بالجيران، انزوت صديقتى وزوجها الرسام خلف الباب بعد ان اسرعا إلى إطفاء الأنوار. صوت الزوجة ينهش لحمها كذلك الرغبة في الحفاظ على سلامتهما يردهما عن التحرك والمساعدة.

يتكلم جواد بوجهه الذي كاد يطير عبر نافذة السيارة. أرى نبض رقبته الأسمر. لم أشعر بذلك القرب منه كما أشعر الآن. سيظل يجهل ما يحدث رغم انه سمع، وقرأ عنك وحاول أن يعاني مع الذين يعانون منك لكن مخيلته لم تستطع أن تحوي الخرائب والأماكن المهجورة التي يراها الآن ويبدو أنه بلع جملته التي كانت تقول: « طالما في ناس ما في خراب ».

انه يشهق كما نشهق جميعنا الان. ونحن نرى بيوتاً بلا أبواب بلا نوافذ

كأنها مغاور. كأنها مأوى الصقور والإنسان الحجري. فقط رؤيتنا لدالية العنب لأنتين تلفزيون وحبل غسيل هو ما كان يؤكد لنا أنها ليست بيوتاً مهجورة. حتى من الصوت والهواء والطير. أتعرف على هذا المنعطف، هذه بقايا مدرسة. أعرف أين، أبحث عن بيت دلال. ثم اصيح: بيت دلال؟ بيت اهل دلال، ثم ولانه وطئة جواد لم تزل متسلطة على. واسأل علي ان يتوقف رغم اعتراض روحية، بينما يحثني جواد لان انزل وادخل بيت صديقتي دلال. عندما اتردد يحثني بفتحه لي باب السيارة وهو ينزل بعدي.

لابد أني مخطئة، بيت دلال كان له باب آخر من الحديد الأسود القديم، لكن هذا بيت دلال رغم هذا الباب الحديدي الرخيص. هذه النوافذ الجديدة من الحديد. أدق الباب الموصد وأنا أفكر بسخافة ما نفعله. وما ان فتحت لنا امرأة يطل من خلفها صغارها حتى شهق فمي وقلبي: « هذه جدران بيت دلال وبلاطه ». أقول للتى وقفت أمامنا صامته: «عم طل عبيت صديقتى دلال، أنا مسافرة وبدي خبّرها انه شفت بيتها ».

ترحب المرأة: وهي تدعونا للدخول ولشرب فنجان قهوة، يحثني جواد قائلا: « ولو فوتي واشربي فنجان قهوة وتفتلي بالبيت. لتخبري بعدين دلال ».

الجدران والبلاط والمعسفة الطويلة. هذا كل ما تبينته في بيت دلال. كذلك شجرة الصفصاف التي كانت ترى من غرفة الطعام. هذا البيت يكاد يكون فارغاً إلا من بعض الفرش والمقاعد الخشبية وأكياس ومتاع. والاشجار التي كانت تطل عبر النوافذ.

وانا اتمشى في الحديقة مع جواد وولديها اسمع صوت المرأة تخبر أحداً: «جاي تشوف بيت صاحبتها، أخ يمكن في احباب عم يطلوا على بيوتنا ».

يقطف جواد ورقتين من الشجرة: « واحدة إلك، والثانية لدلال ». أتذكر فجأة قن الدجاج. أدير رأسي حيث كان وأجد أثاره على الأرض. ندخل ونشرب القهوة

بسرعة وأنا أشكر المرأة التي سألتني عن صاحبة البيت ولماذا لا تأتي لزيارته وبأنه عليّ اخبارها بانه بلا نوافذ وبلا باب وبلا اثاث عندما احتموا به؟

أرتبك ولا أعرف بما أجيبها، لكن جواد يقدم إليها عاطفته: « إن شاء الله بترجعي على بيتك عن قريب. سننقل الخبر لدلال وان و بيتها مسكون من ست الله يبارك فيها ».

الورقتان في كفي ودلال عادت تحتل فكري، يقول جواد إن البيوت لا يمكن أن تكون مهجورة أو محتلة ما دامت أرجاؤها تسمع الأصوات. فقط الأصوات هي التي تتبدل.

لا أوافق جواد، البيوت لا تبقى واحدة إنما تتبدل بها الأصوات. لم يكن يبدو الاطمئنان على هذه العائلة المهجرة في بيت دلال، بل كأنها قبعت في محطة انتظار تنغل بالقطارات ولا يتوقف أي قطار في محطتهم. حوائجهم في ركن من غرفة الجلوس الفارغةحتى من صوت واحد. لم تنتبه المرأة حتى إلى الشجرة وجمال أوراقها. بدا بيت أهل دلال لم يكن عن أب لجد، بل كأنه استؤجر مفروشاً وانتهت مدته. لابد أن العائلة المهجرة سوف تشعر هذا الشعور نفسه اذا ما عادت إلى بيتها ستعرف أنه لم يعد لها كما في الماضي اقارن لعلي هذه العائلة المهجرة بالشابين اللذين احتلا بيت صديقتي سهام التي عندما قصدت بيتها المحتل أول مرة حتى تقول لهم أنها عادت من السفر وعليهم ترك البيت.ترددت ما ان رأتهم في بيتها، المنشفة على كتف احدهم والذي ركز على مسح ذقنه.أكثر مما على كلامها بينما تمدد الاخر فوق الصوفا يشرب من قنينة مرطبات. شعرت بأن هذا ليس بيتها رغم *الغرسات الخضراء التي* لابد أنهم واظبوا على سقيها.حزنت وهي ترى خصوصياتها مبعثرة هنا وهناك على الأرض أو في أكياس وهي تلاحظ أن الكتب التي احتفظت بها من مكتب والدها قد اختفت من الرفوف التي تكاد تكون فارغة. وتأكدت بلمحة بصر أن الكتب السميكة هى التي فقدت، عندما سألتهم

عنها قال الرجل المتمدد دون أن ينظر إليها: « بدك الكتب تفضلي ما في حاجة لهم. بس الكتب الغليظة حرقناهم، كان في برد وبدنا نتدفأ ».

صاحت بهما هددتهما كرهتهما. بدا الاشمئزاز على وجهها. وهى تخبرني ما حدث وتطلب مساعدتي لأنى شيعية، قلت لها لربما كان عليها أن تستعمل طريقة أخرى في الحديث معهم. لاتوجه معها وليقفل احدهما الباب في وجهنا ما ان يلمح سهام ثم يعود ليعود يفتحه تحت الحاحي..

كرهت شفتيه المتدليتين الشرهتين وشاربه الكث وقلت باقتضاب: « مش جايين مشان البيت معليش صاحبته تنام عندى والناس لبعضها. بس الكنبة ورثتها من جدها ونقلتها معها من بلد لبلد ».

أجاب: « وانا جدي ورثني شوال بصل ».

ولانه ابتسم لى ايقنت انه يتجاوب معى ويفتح حواراً. لكنه سد علي الطريق وهو يصر انهما بحاجة للكنبة من اجل الشرفة وأخذ يقلد سهام: « هيدى بالشمس بتنتزع هيدى خشب ابانوس.. شو ابانوس. خبّريها عن لساني مدموزيل أو مدام... ما بعرف. خيفانة على شقفة خشبة البنى آدمين عم يهتروا ». وعندما افصحت عن استعدادها لشراء مقاعدا بدلا منها للشرفة رفض الفكرة مجيبا: هي حرة تشتري لنفسها مثل ما بتريد... ثم علق قبل ان يقف الباب: اسمعي اقنعيها انه جدها لن يعرف شيء عن مصير الكنبة القديمة.

تقهقرت لأن غيظى كان ربما سيميتني. فهمت كيف تحدث الجرائم الفورية. وددت لو أتصرف كزمزم. أن ابصق في وجهه. اشتمه وأشتم أهلهِ. اخلع حذائى وأهددها في وجهه، لكنى تقهقرت وقلت « شو عم يصير غريب عجيب. انقذتها من القدس وفقدتها في بيروت ».

نفترب من بيروت، يقرأ جواد على الحائط، « لا خبز ولا مازوت، صار بدنا نموت ». وكأنى أرى روح بيروت وأمعاءها مدلوقة، ثم أراها قوية صلبة وأشعر بحنين تجاهها. تبدو الحياة طبيعية رغم ديكورها المنهار. قبل أن أتركها بيومين

أخذت اكتب الرسائل إلى حياة وإلى المخطوفين لا من أجل ندرة الأصدقاء فقط بل لأنني ومع من حولي لم نعد نتحدث، لم نعد نسمح للأفكار أن تؤرجحنا. كففنا عن ملاحقة ما يجري كأنه لا يتعلق بنا. فالأصوات في النهاية تتلاشى كفقاعات مهما كبرت وحوت مرآتها الشفافة من ألوان وصور.عند وصولنا إلى هذه الحالة لم نلتف إلى داخلنا ونغوص فيه حتى تنقشع رؤيتنا عما نود أن نفعله ازاء حياتنا وعيشنا، بل غلفنا انفسنا بالصمت وأخذنا ننهش حتى من الشرايين المحيطة بالدماغ للحفاظ على نقاوته، ومن الأوردة التي يصب فيها دم القلب. نتساءل بندم كيف الهتنا المصاصة - عما يدور في أفكارنا وما يدور حولنا بعيدا عن امكانياتنا. لتجعلنا نرصد الأخبار من يوم إلى آخر، ننتظر ريثما تجمعين حوائجك وترحلين عنا.

عزيزتي بيروت

انتبهت أن لديك سماءين لأني أخذت أراك بعيني جواد. سماء من أشرطة الهاتف والكهرباء الممتدة من كل صوب، كأنها خيمة من خيوط العناكب. وسماء أخرى عالية فيها النجوم متلألئة. لا أذكر أننا كنا نرى نجوما كهذه في سمائك. هل لأن الرطوبة بها قد تلاشت ام انها العتمة التي تخفي تجاعيد الوجه في الليل وتظهر النجوم الباهرة؟ والقمر الذي بدأ أكثر وساعة واستدارة وكأنه يلتحق بوظيفته لأول مرة عندنا فيحيد عن البحر وينير الطرقات. أرى البنايات معتمة، عدا ضوءاً هنا وهناك. يقول جواد: " كان يا ما كان في... وشاف الشاطر حسن نور من بعيد "... كأن العتمة اخفضت من أصوات الناس، فخفّتْ ضجة التلفزيونات. دخلنا الى المطعم الإيطالي ليرى جواد إذا كان الغرسون صاحب الّيدين الطويلتين اللتين تكادان تصلان أعلى قدميه بقليل، لا يزال هناك. وفعلا وجدناه في المطعم الذي كان بقربه كوم الزبالة. يشير جواد الى النساء: " وهو مستغربا أنهنّ يمسكن بحقائب اليد، بدلا من غالونات الماء التي اصبحت من معالم بيروت. ولم نعلق على الموائد الأخرى التي ومن قلة عددها بدت كأنها غير موجودة. لنسير بعدها عند كورنيش البحر ونجلس على كرسيين تابعين الى مقهى نقال حيث يقدم صاحبه الشاي والقهوة والسندوتشات في سيارة ستيشن. جلسنا مواجهين لجونيه وللجبال التي كانت تبدو مطفأة. بينما طغى صوت أمواج البحر على ضجيج الموتور الذي اصبحت استأنس لوجوده أو حتى لسماع اسمه. إذ كان يعد بالنور وبدوران

غسالة الملابس وبأن الثلاجة لا تزال تمد البرودة للماء وللطعام. نشرب الشاي ونراقب الضباب الذي امتد من الأفق وصعد من البحر وزحف علينا. يزداد الضباب كثافة. يمسك جواد بالحديد الرمادي المزنجر. يزداد الضباب لدرجة وكأنه يود أخذنا في طريقٍ الى قلبك ليشعر جواد بأنه لم يغادرك قط قائلاً أن المدن لا تموت. الطبيعة فقط هي التي كانت توحي بما يقوله. يجلس شارداً وبعيداً عن رغبتي فيه. هذا الليل يقربني منه ولا أعرف إذا كان يقربه مني، فجو العتمة قد تسلل الى السيارة والأبنية والترقب عندالحواجز وإلى فراغ الشوارع من السيارات والناس. حتى من القطط والكلاب، التي لا أعرف من اين كان يأتي عواؤها ومواؤها خاصة عند الفجر والذي ما إن تعتاد عليها الأذن، حتى تعود الحواس فتستيقظ على أصوات الشباب الجنود في تمارينهم الصباحيّة في الثكنة القريبة من بيتنا. أفكر ان هذا الليل لن يعد بشيء. فجواد يجلس صامتاً وشارداً، ليعتذر بأنه يريد النوم باكــراً.يحيرني بين مرافقته في تجواله في الغد او بين اخذه تاكسيا.

يستقل تاكسيا، كأنه يقصد شاطئ البحر أو مقاهي الجبل؟أضحك وأهز رأسي ولا اخبره عن سبب ضحكي. أخذته الى " البلد " الكلمة التي لم تكن تفارق لسان جواد الى أن رأى الأطلال وحبس أنفاسه خوفاً من أن يفقد أيا من أجزائه، ونظر الى السماء ربما ليتأكد من أن هناك حياة. اصدم انا الأخرى بما أراه رغم أني زرت الأسواق والخراب منذ سنوات عندما اصطحبت حياة. أسير وجواد والصمت يخيم على الحشائش والنباتات العالية التي لو أنها كانت أشجاراً ذات جذور تخينة وعلى حدة لما استغربت لها العين إذ هي حول وفي قلب أرض وجدران المحلات التجارية التي اصبحت جوانبا وسقوفاً تئن من الوحدة.

يغمض جواد عينيه يريد أن يفكر بأن الدنيا لم تزل كما هي وأنه مصاب

بالصمم وباهتزاز الرؤية إذ لا يمكن في هذا الشارع إلا أن تكون شقة الرسام الذي زاره مع صديق له ورآه مع حبيبه الدركي الذي كلامه وتصرفاته لم تكن تنسجم مع الرسام. ولا مع لوحاته وصورة أمه وخالاته اللواتي كن في تنانير واسعة. إلى جانب صورة حبيبته قبل أن يقرر أنه لم يعد يعشق النساء. لا ينسجم معه ولا مع الموسيقى الكلاسيكية التي كانت تتردد في الأجواء. لكن الرسام اصبح مجهول المكان، والبناية لم تعد سوى فراغ ومع ذلك اعتلى الضجيج المخيلة وانبت أناساً كانت تلافيف العقل قد طمرتها بأسماء ووجوه أخرى. في هذه البناية التي بدت كفيل يرتاح على الأرض. تذكر جواد بائعاً عصبيا، كان يدخل دكانه حتى يستمع اليه ويضحك من طريقة كلامه. في ذلك الطابق العالي حيث هو الآن بلا جدران، كانت عيادة طبيب العيون حيث أرته امه على حائط العيادة صورتين لجدته قبل وبعد إجراء عملية حول عينها اليمنى. التفتت جدته التي كانت تزور بيروت للمرة الأولى، وهي تدخل المصعد للمرة الأولى تسأل أمه بكل لوم:" دخلك شو طعميتني حتى جاي تقبنيني بالقبان ". " بالوما" مزين الشعر الذي وضع باروكة على شعر أمي يحمسها لشـرائها قائـلاً إن " نجاح سلام " اشترت واحدة. تعبق رائحة السبراي ورائحة البيرة التي كان يستعملها حتى يصبح الشعر واقفاً كالورق. وهناك في ذلك الزاروب حيث كنت احلم ان نهايتي ستكون حتما في احدى هذه الغرف منذ أن كنت ممسكة بيد زمزم عندما توقف السرفيس في زقاق، بالقرب من مرآب وفرن ومحطة لسيارات الأجرة. ما ان توقف السرفيس حتى علا صوت زمزم محتجاً لدى السائق الذي أصر وأنزلنا هناك بدلاً من ساحة البرج حيث طلبت. وقتها امسكت زمزم بيدي وهي تقول:" شو هالمصيبة يا ربي ". ثم سألتني أن لا أنظر يميناً أو شمالاً، وهي تكاد تصل بالأشارب حتى عينيها وتصرخ بي:" عجلي " لأني كنت أركض وألتفت حولي لربما اكتشفت سر خوفها.

لكني لم أكن أرى سوى عمال المرآب وكأنهم غطسوا في براميل سوداء. أسألها:" ليش شو في هون؟ " ورائحة الخبز تنفذ الى أنفي. " سوق الأوادم ". لم أفهم أنها تقصد العكس الا بعد أن سمعتها تقص الخبر على جدتي وهي ترتجف قائلة متوسلة إلى سقف الغرفة: " إن شاء الله ما شافني حدا يا رب ". لترد جدتي باستهزاء:" ولو؟ ما معك اسمى..! شوها القصص؟".

عندما تفتحت على وجود الجنس الآخر، وعلى كلمة الحب، أخذت بدلا أن أحلم بشاب من عمري أو بممثل، أخذت الكوابيس تزورني بأني في غرفة في سوق البغاء وبأني لم أكن أجرؤ على مغادرتها خوفاً من أن يذبحني أحد رجال العائلة... الحلم يتكرر يزيدني خوفاً من أن أسير في ساحة البرج من ناحية السوق.

لابد أن جواد فهم سر ضحكي البارحة عندما خيرني لاصطحابه أو لآخذ له تاكسيا. فهذه الأطلال لا بد أن تصدم، وعلى المرء أن يكون مستعداً: عليه أن يكون في صحبة وجه يعرفه وصوت قد اعتاد عليه. أنها دائماً صادمة،مهما ظنّ المرء أنه اعتاد على وحشيتها. عندما اصطحبت حياة للطواف بها شهقت وقتها كما شهقت اليوم للنباتات التي علت حتى اصبحت كأنها غابة. " لوما يافطة بوظة ستيك وليامس، لما حزرنا اين نحن". أذكر وحياة تشهق وتزفر أمام الأطلال كيف نهض مسلح من خلف طاولة، في هذا الفراغ وسألنا اذا كنا نريد فنجان قهوة. ترددت حياة بينما رحبتُ وأنا أهز رأسي بالإيجاب. امام عينيه الطيبتين والموحشتين في هذا الدمار. وحولي الغرسات الطويلة التي كانت تفرض جوا غامضاً وكئيباً والتي جعلتني أسأله إذا كان يشعر بالخوف في الليل. ضحك وهو يخبط على بندقيته: «معقول؟» ثم وليهمس في أذني ما ان وقفنا نغادر، انه يخاف من البوم أذ كان طير البوم في العشرات ثم وكمن يود أن يكون صريحاً لدرجة أضاف: "و من الكلاب الهائشة". ثم ولدهشتي سألني أن يأخذ خصلة من شعري وأنا افكر بأنه

ربما لم ير امرأة منذ مدة طويلة أو لا بد أنه تحت تأثير مخدر سحب سكينة سويسرية فيها مقص يكاد يكون كالظفر من صغره. مددت يدي حتى آخذها منه لكنه يقترب مني ويقص خصلة من طرف شعري ثم يمزّق طرف جريدة قديمة كانت تحت صحن وزجاجة بيرة فارغة. ويضع الخصلة داخلها في كل تأن ليودعها في جيب قميصه.. لم استطع محو هذا المشهد من فكري لأيام وأخذت تتراءى لي الخصلة في اقصوصة الجريدة مخبأة في ظلام جيبه كلما لمست شعري، هناك في ظلام الحجرة الواسعة والعالية السقف حيث المسلح يخاف من نعيق البوم.

اشعر الآن بالتعب والضجر من هذه الأطلال. لكني لم أشأ أن أحث جواد على تركها فما حولنا لم يكن يستوعبه العقل، ولا تألفه العين. مهما كانت المخيلة عقيمة، مغبشة فانها لا بد أن تستحضر الأيام الماضية ولو لثوان، فتضج الأطلال بالحياة، بأشجار النخيل الإفرنجية، بالمهرولين، بالمزمامير بالرائحة. هذا ما حدث لي في المرة الأولى لنزولي الأسواق منذ سنوات بعد أن صحوت في صباح يوم في شقة المصور الصحافي الجذاب، فتحت عيني عليه وهو يسرع في انتشال ملابسه عن الأرض ويرتديها. قبلني على جبيني وسألني أن أنتظره أو أن أراه في الفندق بعد الظهر، وكنا قد تجرأنا لمحادثه بعضنا البارحة فقط، بعد أن كنا نتبادل النظرات، ونحن على معرفة تماماً بماذا سوف يحدث بيننا. رغم النبيد الذي كان قد خدر عقلي وجسمي إلا أني وجدتني أنهض بدوري أسرع في ارتداء ملابسي، حتى أرافقه الى ساحة البرج التي بين ليلة وضحاها اصبحت مرضاً خبيثا يمتد بخاطره. حيث انكمشت الطرق على نفسها وأصبحت تدعى بالمنافذ. كان انبهاري وحماسي عظيماً الى أن رأيت كوزاً من التين الأسود وحيداً تحمله شجرة تين منحنية كأنها تئن من التعب، تفرد أوراقها العريضة الصامتة المتعثرة بالغبار. شعرت بأنها تنظر لي بحزن من غير اتهام. لكني فهمت اني خائنة لأني لا أنفر من

الحرب، بل لأنها ايقظت حواسي، ولأني جئت للتفرج عليها. ولم يكن هناك مجال لأفصح عما أعانيه، فسيمون يحدق في عدسته بكل جدّية. تماما كما في الليلة الماضية قبل أن يطفئ النور على شفاهنا وجسمينا. كان يسرع في التكتكة ويسرع في القفز يسرع في أخذ يدي، يعرفني على مقاتلي المتاريس. يعرفني بأحمد الذي يقف وراء رشاشه كأنه يمسك بيده نربيش ماء يرش الرصاصات وهو يضحك لشيطنته:" آهلاً أهلاً بسيمون، نورت خندقنا،.. نصف ساعة بدنا نتقدم،. بس المدموزيل صحفية "؟. عندما أحاطني سيمون بذراعه وشدني اليه صاح احمد ضاحكا:" ولو؟ بدك تخلص منها الظاهر جايبها لهون". ركضنا للتقدم عبر فتحة كبيرة في الحائط. إذ باتت الطرق أرضاً للرصاص الفارغ وللصراخ. صعدنا بناء العازارية رغم قلبي الذي كان يرد على ضجيج السلاح بخفقاته، وأحياناً يبدأ قبلهم بالتجاوب.

ومن على سطحها رأيت بيروت تتهاوى تماما كالدومينو المصفوف الذي يتهاوى حجراً حجرا من جراء ضربة واحدة. بينما الصامد منها وكأنه ينتظر دوره وهو يتأمل بالمتهاوى الجميل. كأن الصامد لم يزل يحمل بين اضلاعه ذكر الماضي في لون الدهان والبلاط وأشرطة الكهرباء واللافتات. ذكرى المدينة حية يوم كانت تبلع الأضواء وتنفثها كدراغون – اعلان عن فيلم سينمائي لم يزل. بقايا سهم من نيون يشير الى بن عازار، البنايات المتهاوية كانها نمور مرقطة، ألوان غريبة لا يعرف اللسان ماذا يطلق عليها. إذ تراها العين لأول مرة فيقف المتفرج مبهوراً أمام ما يرى من أشلاء كانت تكوِّنْ الحياة اليومية. وأجدني أفكر في بيتنا هل سيصبح يوماً ما هكذا؟ اندفعت مع سيمون أيضاً الى قلب الموت، لأجلس مرة أتناول ساندويتشا مع ثلاثة قناصين وطرف من البحر الأزرق يظهر خلفنا شديد الزرقة. اراد سيمون افهامي ان القنص هو تكتيك عسكري لا عملاق في قلب

السماء، طعامه يتكون من كل متحرك على الأرض.

كانوا ثلاثة. أحدهم يكب على المكبر محدّقاً في العدسة يبحث عن طريدة، يراها. يقول للآخر بهدوء:" شايف حبل الغسيل، هالمرا اللي عم تسكب القهوة... ولك لا... حد البناية اللي شبابيكها خضر، اي هونيك " يجيبه الآخر:" اي اي قول من الأول فوق يافطة الببسي كولا ". يجيب الأول: مضبوط المرا بالفستان المعرق " "وانا اتعجب لسكوتهم المفاجئ. ارى نتعة البندقية ترتد الى الخلف في يد أحدهم فجأة، ثم ليريحها على الأرض وهو يقول:" كانت المرا بالفستان الازرق ".

وكأن شيئاً لم يحدث فيوجه احدهم الحديث لسيمون:" سمعت هالقصة.. وحياة سيمون صار قصة... حقيقية... قناص فات عالمستشفي حتى يعمل عملية الزائدة وسجل في خانة المهنة قناص ". ولما المدموزيل بالمستشفي سألته بمزاح "صحيح قناص؟ كم واحد بتقنص باليوم؟ ": رد " عالتسهيل " أكملت مزاحها:" تقريباً " " أربعة أو خمسة ". عندما صاحت:" مش معقول ". أجابها وهو يمد يده الى صدره " ولو مش مصدقة مدموزيل شو عم كذب، يعني لم يعد في كرامة بالنص؟»

حتى أحمد الذي كان هو ورفاقه يسيطرون على ساحة البرج مات برصاصة قناص من أجل كرعة ماء منعشة. عندما رفع رقبته وقرب فمه من الابريق، قائلاً قبل أن يشرب:" يلعن هالشغلة، الواحد بدو يضلو مقرفص وما يلتذ بشربة مي بدي التذ واللي بدو يصير يصير ". ما رأيته مع سيمون جعلني أفكر في الحرب بطريقة تختلف تماما عن الذين كانوا لا يفارقون منازلهم وإنما.يستمدون ما يجري من الإذاعات والجرائد ورعب المعارك. لم أعتد على فكرة الحرب فقط بل أن فكرة الحياة والموت اصبحت راسخة أمام عيني، عند حنجرتي. بعد أن أوحى لي بها سيمون الذي اصبح شخصين: شخص مطمئن الى أنه محميٌ من الموت لأنه في

قلب الأحداث وشخص آخر يعاني من الخوف. لم يكن خوفاً يستطيع طرده، إنما خوف مستأصل به يبتدئ ما ان يطل الليل ليشعر بأنه قد دخل لتوه غرفة السونا. ليغطس في عرق بارد، دافئ. رغم أنه كان يشعل أكبر عددا ممكنا من الشموع إلا أنها كانت تزيده وحشة، خيالها كان يولد اشباحاً تجعله يشعر بأنه مراقب. وما ان يطفئ هذه الشموع حتى كانت تهب افكاره المتشابكة والمريضة حتى يصبح الليل آلة تضغط على صفحة سواده وبالتالي، يتسلل الى حيث هو ويضغط على صدره فيصبح تنفسه صعباً وكأنه يعاني من مرض صدري، يحاول ان يرفع هذا الثقل عنه ولا يستطيع، إذ كل ما يتنفسه في البيت هو ذرات من حديد ثقيل. لابد أن تستقر الآن رصاصة في رأسه بعد أن تنفذ من الشباك الخشبي، شظية ستنفجر في وسط الدار بعد أن تخرق الحائط – يذهب الى السرير لكنه لا ينام يريد عاطفة ما. يريد الجنس الآخر. يريد أن ينسى العنف. لكن حتى هذا الشعور الجنسي لم يكن ليمحو شعوره بالخوف المتأصل والذي اصبح مرادفا لروحه، الذي لم يكن يفارقه سوى عند الصباح، عندما كان ينهض والنور يعم الغرفة. فيرى ان ملابسه والأثاث وكل ما حوله مألوفاً لديه، يذكره برتابة الحياة. عندما يصبح في الشارع يجد نفسه يستأنس لقرص الشمس الأحمر ثم الأصفر الذي كان يدخل انسجة قلقه ويمدها بدفء باهر ينسيه حتى وجود الليل ويحمسه للبدء في النهار من جديد. واقع الحرب يعود يثبت نفسه شيئا فشيئا فيعدو هو وعدسته حول رقبته. يسجل خوفه المرتجئ حتى الليل.

اصبح سيمون القوة التي استمد منها ما يكفي يومي. اصبح نشرة الأخبار التي مهما كان فيها من سموم إلا أنها كانت واضحة تشغل العقل، تجعلني اقرب من الأحداث، ألمسها. لكن سيمون قرر الهجرة رغم الشمس وعدسته. لم اهتم لقراره هذا في البداية لأن هذه الجملة كانت تتردد على لسانه طوال الوقت. فهو

اخبرني منذ لقائنا الأول كيف انه قرر الهجرة إبان مجزرة الكرنتينا عندما ايقن أنه سوف يقتل. في الكرنتينا رأى الجثث كومت في زاوية تماماً كما تكوم النفايات بعد كنس وتنظيف الأمكنة. الجثث كأنها هرم. انما هرم ملون، غير متساوي الزوايا من جراء قدم أو رأس أو كف أو صدر ما ان تبين حارسها الذي كان يقف قربها ولا يدع المصورين حتى يقتربوا منها حتى ايقن ان الحظ يقف الى جانبه. وكان الحارس النجار "ابو الزوز" الذي كان نجار العائلة، يقوم بصنع كل ما تحتاجه من اثاث خشبي. " بدي آخذ صورة؟" قلت لأبو الزوز الذي عمه الفرح لأني أراه في هذا المركز المهم فأجابني: "على راسي. صَوِّرْ كل شي ما عدا هالكوم؛ اجبته بلامبالاة من غير ان انظر الى هرم البشر: " ولو؟ انا اصلاً مش ممكن صورها . ما حدا بينشرها "لكني قمت بتك الصورة عنه تقديمه لي كأسا من شمبانيا وهو يسألني عن الأهل. ونشرت الصورة بالصحف العالمية.رغم ان اسمي لم ينشر تحتها، لكن خوفي من ابو الزوز فاق الوصف. لم ادع احدا من العائلة يقطع خطوط التماس لمدة طويلة. فقط عندما راقت الحالة عاد ابو الزوز الى سابق مهنته. دعته امي الى بيتنا حتى تتأكدمن حسن نيته تجاهي وكانت تعبئ صحنه كلما انجز عليه حتى لا تسمع منه كلمة واحدة عني".

لكن سيمون بكى عازماً على الرحيل. اكتشف كم كان واهما عندما ظن أن كونه مسيحيا لن يقف بينه وبين علاقته الحميمة مع المقاتلين سواء من الفلسطينيين او الشيوعيين أو الشيعة او الدروز. لم يصدق ان اسمه وقف بينه وبين الحياة والموت في يوم كان الانتقام يشحن نفسه ويتضخم بعد معارك وخطف من كلتا الجهتين. ذلك اليوم ايقن سيمون كالعادة أن اسمه ودينه هو صدفة لا علاقة له بهما. وأنه سيبقى صدفة رغم هذه الحرب التي أحياناً هي كالساقية في بستان يجعلها الفلاح تتشعب وتتعرج كما يشاء.

مقاتل عند الحاجز اوقف سيمون ومصوراً فرنسيا آخر. كان الرجل في حالة جنون يبطش بلسانه وبعينيه. يوقف كل من هو مسيحي. عندما حاول سيمون أن يمد له بتصريح من مجلة مركزها في المنطقه الغربية مزّقها المقاتل ورفسها بقدمه، سد اذنيه امام محاولة سيمون بالتوضيح له بأنه يقيم في الغربية وأنه مصور صحفي بلا فائدة. لم ييأس سيمون بل اخبر المقاتل انه معروف لدى المراكز العليا وسأله،لماذا اختفى الود فجأة للصحافيين والمصورين.ليكتشف أنه كلما توسل اليه كلما زاد مسلح الحاجز من غضبه، كلما حاول سيمون تمالك نفسه كلما طمأنه المسلح ان حتفه سيكون كالعشرة الآخرين الواقفين عند الجدار " رشة من الكلاشنكوف " وإذا باليأس والاستسلام يعرفان طريقهما اليه. يتمنى لو كنت معه ليراني قبل أن يموت، رغم اني اتهمته بعدها أنه أراد أن أمد له طوق النجاة واسحبه كالمسلة من الخيط لأني مسلمة، ولأني اصرخ، ولأني اتدلع ولأن حجة الإقناع دائما مستعدة لدي. وسأل المقاتل إذا كان يستطيع ان يودع خطيبته ولفظ اسمي. ليّرد المقاتل هازئاً " شو يعني؟ وإذا خاطب واحدة مسلمة" واستسلم سيمون لفكرة الموت وأخذ يودع أمه وأباه اللذين توسلا اليه اكثر من مرة حتى يترك الغربية، ثم يعود ينتفض ويبحث عن مخرج وهكذا إلى أن جاء مسؤول لم يستبشر سيمون بوجهه وهو يراه يفتش بكل دقة المخطوفين المستندين الى الحائط. وما أن حان دور سيمون حتى انتزع المسؤول آله التصوير من حول رقبته و سيمون ينظر اليها كمن يودعها وبالتالي كمن يلومها لأنها استوت وحيدة في يد المحارب كأنها لا تعرفه، وكأنه ليس بسببها وقف ينتظر الموت، يتحسس المسؤول صدر سيمون ثم يرفع قميصه ويصيح:" قلبي دليلي. تفضل معي أنت وهالفرنساوي... جاكيتة· للرصاص... لمين عم تتجسس". عندها ارتاح سيمون برغم ان كل شيء حدث بسرعة غريبة. شعر بأن الذي كان يقف على الجدار منذ

لحظات ليس هو وإنما شخص آخر وأن الذي حدث له قبل دقائق إنما حدث منذ زمن بعيد. عندما اقتيد الى مكتب ورأى هاتفاً، وفنجان قهوة إلى جانبه حتى تأكد من شعور الطمأنينة الذي ساوره ما أن اكتشف المسلح الجديد بأنه يعتمر الجاكيتة المانعة من الرصاص. يتحسسها كالأطفال ويتمتم لها:"يا حبيبتي" كأنه يعتذر منها لتردده في شرائها إذ سعرها كان أربعمئة دولار. إضافة أنها كانت ثقيلة... يصاب بالتعب حتى قبل أن يحاول وضعها عليه.أزعم على الانتقال الى الشرقية ثم الهجرة. وهو ينتظر التحقيق بهويته أراه يبكي ويشهق ماذا يعمل؟ كيف يعيش بعيداً عن الحرب التي اصبحت عنده وظيفة؟ مكتبه الخنادق والمتاريس والبنايات المهجورة. الأمن والذخائر والمسلحين اشعر وقتها بأني لا أعرفه ولا أعرف طعم شفتيه ووقع جسمه فوق جسمي. رغم اكتفائنا أحياناً بامساك ايادينا في العتمة التي كانت احياناً بقوتها ونعومتها تطغي على صوت المتفجرات. كنا نبث الدفء والحنان لسماع انفاس احدنا في الآخر كعجوزين التزما ليكونا معا، لأنهما يشاركان بعضهما بوجبة أسنان اصطناعية. ووجدتني وأنا اودعه اضمه الى صدري رغم وضوح النهار في بهو الفندق واعدة بأني سوف أزوره في الشرقية وبأني من وقت الى آخر سأقيم معه اياماً، وبأني... لكن ما ان غادرت عتبة الفندق، حتى غاب عن بالي تماماً لأعود أفكر به من وقت إلى آخر، كلما أردت شيئاً من العاطفة، شيئاً من الالتصاق لأقطع الغربية والشرقية وكأني امشي على حبل، أتأرجح بين رغبتي لأن أكون معه وبين عدمها. إلى أن تفتت الخيط الذي كان بيننا. وأصبح اتصالنا معا نادراً من جراء انفصال مدينتينا.

بعد السوق الحرة وجدران الحجر الجميل والأطلال والغابات نأخذ طريقاً يقودنا الى نسوة ملتفات بقمطات الرأس السوداء. لا نعرف ماذا يفعلن كما لم نفهم لماذا رأينا قبل قليل عند منعطف الأسواق.امرأة تدلك ابنتها الصغيرة في

الصابون وتصب عليها الماء من قسطل ماء. كان في كف إحدى النساء شمعة لابد أنها تواظب على زيارة أطلال هذه الكنيسة... أختفيت من يد والدي ودخلت ذات مرة هذه الكنيسة الصغيرة المفعمة برائحة الشموع والبخور، المضاءة بثريات تلتمع وبوجه مريم العذراء المحاط بأساور الذهب والفضة خلف الزجاج الذي كان يحفظه والتي كلما لصقت صفحته ارباع الليرة تأكد من أهداها للقديسة أن امنيته وصلاته سوف تتحقق. أذكر أنه ما ان خرجت اعدو الى والدي حيث كان يشترى الخضار حتى مثلت الجوع والغثيان لربما أعطاني ربع ليرة ألصقها على زجاج الكنيسة السحري، لربما بدلت القديسة المتوهجة بالذهب والدي بآخر. لكنه لم يعطني ربع الليرة، بل ادخلني الى سوق آخر وآخر وآخر. الى ان وصلنا مكاناً صغيراً دخلناه من قنطرة ضيقة تذكر بظلمة جحر الفأر ومنها الى فسحة طويلة كأنها سوق اخر تنبعث منه رائحة اللحم المشوي حيث جلسنا بين رجال على الطاولات الخشبية. عندما سمعت احدهم يطلب ثلاثه جمال. سألت والدي إذا كنت سآكل جملاً بكامله؟

لم يكن محل والدي بعيداً عن هذه الأسواق والذي اضطر عمي الى بيعه لأن خسارته اصبحت لا تعوض منذ أن قرر والدي ان يعمل لله، ويبيع الأجواخ في السعر الذي يشتريه من المعامل، مبرراً أنه لن يربح قرشاً احدا رغم ان أخيه وبعض افراد العائلة اصطحبوه لاستشارة رجل الدين الذي حثه على ان يعود الى البيع والشراء كالسابق حاصراً أرباحه حسب الشرع. لكن والدي كان قد زهد في كل شيء. اخذ يبيع سجاد بيتنا العجمي، ومصاغ أمي بالخفاء، ليتبرع بها الى جوامع في العراق غير مبال بصراخها وولولتها إذ كانت أمي فخورة بأن محل والدي كان في منطقة المحلات التجارية وعلى لسان الكثير. حاولت ان تعيده الى ما كان عليه، تارة بالتهديد بتركه، وتارة بحياكة الحيل حوله لكن والدي كان قد

انتقل الى عالم خاص به بعيداً عن الحياة اليومية العادية، وودّ لو باستطاعته منع اسعاف وامي حتى من التحدث عن الاشياء الحياتية بدلاً من صرف الوقت والطاقة على الصلاة والأدعية. أخذ يهمل حلق ذقنه. ولم يعد يرتدي سوى طقم واحد وحذاء واحد وعاد يعتمر الطربوش الأحمر على رأسه. واخذ يحلق حتى شعر رأسه حتى يزداد نظافة وطهارة. اخذت زيارات اقربائه لنا تنقرض شيئاً فشيئاً اذ احاديثه معهم لم تتعد سوى يوم القيامة والتوبة، ينصح قريبا له بأن لا يسجل ابنه في كلية الطب لأن الطبيب هو الله وان عليه ارساله الى العراق حتى يدرس الفقه والشريعة... هكذا لنجد انفسنا قد توقفنا عن انتظاره حتى لتناول الطعام معنا. بل اصبح تواجده معنا عبئاً علينا. فأخذت امي تحول البيت الى وكر نمل يعج بالحركة كلما ابتدأ بأداء صلاته متمنية أن يذهب الى الجامع ليؤدي هناك حتى صلاة العشاء.

انتقل مع جواد من المنطقة الحره وأسواق سوق سرسق الى رائحة الكتب في العازارية. كان والده يصر على أن يأتيه بالكتب المستعملة وخاصة من مكتبة تخص عائلة قريبه، ولم يكن يقتنع بشراء كتاب جديد مهما كان رخيصاً. بينماأفكر بفندق الكابيتول وعمر الشريف. اخبره اني دخلته مع عايدة التي كانت في الثالثة عشرة من عمرها تأخذ وجبة غذاء لوالدها الذي يعمل في سوق القماش عندما رأت عمر الشريف يدخل باباً، لحقت به وإذا بها في صالة. عرفت انها في فندق وأسرعت تخبره عن المعجبات به في مدرستها. واستظرف عمر الشريف هذه الفتاه الصغيرة الذكية التي سألته إذا كان يود ان يأكل من غذاء والدها وقال لها مازحاً " حاسبي على غدا والدك يا شاطرة وخلينا نشوفك يا بطة ". لتعود عائدة في عصر اليوم نفسه تزوره وقد اصطحبت معها ثلاث بنات جميلات من الصفوف العالية وقادتهن الى غرفته. ففتح عمر الشريف الباب خجلاً إذ كان قد كبس شعره

المجعد بشبكة.

كان عمري اربع سنوات وكانت الدنيا تغلي في حرب السويس والناس تنصت الى الاذاعات. اصبح عمري عشرة سنوات والدنيا لم تزل تغلي بحوادث ٥٨ وأنا انصت إلى إذاعة صوت العرب واذاعة القاهرة عبر برامجها ونشرة اخبارها. يتحدثون عن معارك وانتصارات في بيروت ونحن لا نسمع دوي المعارك وتقدم فئة على أخرى، بل كنا نسمع اغاني مبهمة. شادية ومها صبري وعبد الحليم حافظ وشريفة فاضل وصباح يغنون:" شوفوا بيروت بعد العدوان، فين الاستعمار والطغيان ". ورغم فستان صباح الباهر وتسريحة شعر شادية إلا أننا تساءلنا ونحن نتلفت حولنا. باننا لا نسمع طائرات. لم يكن هناك عدوان. هناك حرب بيار الجميل الذي هو ضد صائب سلام وحزب النجادة وشمعون لا يريد ان يتنازل عن الرئاسة. لم يتبدل شيء في حينا ولا في الأحياء الأخرى، لا نتعرف على الأستعمار ولا نراه يختفي. فالشوارع معظمها هادئ ونحن نلعب حتى عند الحواجز. عندما حفرت الخنادق قلنا إن هذه أكبر حفرة للعبة بزر المشمش. لكن مصر هي التي تغني، وأنا كنت قد بدأت اتكلم المصرية وأتمنى لو ولدت مصرية، مصر هي التي فتحت عيني على حياة ما بعد البيت والشارع والعائلة بمجلات سندباد البحري وسمير وكتب كامل كيلاني.`كما فتحت من قبل عيني أمي على افلامها وموسيقاها ورقصها ونجومها. لم نفهم الأحداث السياسية وحرب ٥٨ كما تبثها الاذاعات. كانت اللعبة الجديدة السرية التي تفوق اي لعبة أخرى.

عدنا الى سماء الإذاعات في حرب ٦٧ لا من أجهزة الراديوهات التي من ضخامتها وكأنها كانت تخبيء المذيعين داخل خيوط قماشها التخين فإذا سعلت الممثلة رجت الخيوط... انما من ترانزستورات نحكمها على آذاننا التي اصبحت وكأنها قطعة من الأذن. لا نستطيع التخلص منها، رغم عدم ايماننا بما كانت تبثه.

بل ذهبنا بعيداً لاكتشاف كم كنا متخلفين حتى أن نكون في حرب، فلا وقائع صحيحة نسمعها ولا تحاليل ولا معلقين ولا نشرات اخبارية، انما زغاريد وأغان حماسية تصدح، وخطابات وكلمات تهر كأنها أوراق شجر. وأخذنا نسمع كل الإذاعات ومن بينها إذاعة اسرائيل ايضاً. التي لم نكن نتصورها انها فعلا حقيقية وفي قلب الشرق الأوسط، حدودها كما في الخرائط العالمية، وأنها ليست كلمة محرمة في كتب التاريخ والجغرافية فقط. الحزن عم لبنان كله.هذه الحرب صفعت حتى الذين لا يحبون السياسة والغارقين في بيوتهم وأعمالهم. حتى كفا طباخة صديقتي حياة التي صاحت شامتة يوماً بالرجل الذي كان يعدل الأنوار حول صورة عبد الناصر وصدمه التيار الكهربائي وأخذ يهتز من صدمة الكهرباء، بكت عندما اعلنت خسارة حرب ٦٧ وخبطت صدرها حزنا على الخسارة.

بعد أن فركنا اعيننا وصدقنا ما يجري في صباح الخامس من حزيران تحولت صدمتنا وحزننا الى غضب، أخذنا نركض الى الجامعة، الى أي تجمع، أي بناء فيه كلمة فلسطيني ثم تركنا صديقاً يتدرج في الصحافة لدى جريدة تنطق بالإنكليزية يطوف بنا الى حيث يريد. فعمله بالجريدة أضفى عليه صيغة العارف واصبحنا كالخاتم في إصبعه يحركنا كما يشاء ونحن له شاكرين. بينما بدت سماء الصيف ذات نجوم واسعة لأن العتمه هبطت على بيروت. ثم وكأن زميلنا الصحافي شعر اننا بحاجة الى دفء ما، وما كان منه إلا أن سحبنا من بحر الأحذية وبحر الملابس وبحر التبرعات التي كانت تنبسط في حديقة جمعية فلسطينية ومن طعام المنازل الذي مدته لنا امرأة مسنة ونحن نمد لها صندوق التبرعات ليقترح علينا زيارة صديقه، وكأننا أهل ميت بحاجة لرؤية اصدقاء فقيدهم بينهم حتى يشعروا بعزاء ما، وكأن الأصدقاء يعيدونه اليهم من فقدوه ولو للحظة. لكن ما ان ادخلت بيت صديق الصحفي، حتى وجدتني أدخل قلبي الذي

فتح لي الباب حتى استرق منه واكتشف ان الأمكنة تتحدث عن الأشخاص،تميل مع الأشخاص، تفرقهم او تجمعهم. كان هذا البيت الوحيد ذا القرميد والدرج عالي بين البنايات الشاهقة في آخر شارع " بلس" مواجهاً للبحر والأشجار، حيث الباب الخارجي بقي مدهوناً باللون الأخضر وهو يذكر بأبواب بيوت القرى والحي الذي نشأت فيه. بعد خبطنا باب تتوسطه يد نحاسية. ندخل الغرفة الواسعة الفسيحة الجدران والأرض التي وكأنها مسحت لتوها والسقف والكنبة القديمة التي كان غطاؤها من المخمل المطبع القديم الذي كأنه مرسوم في إحدى اللوحات القديمة، صوفا عليها بساط عراقي ملون، قماش مطرز علّق على الحائط، كتب هنا وهناك صور فوتوغرافية لامرأة، لحصان غطى جسمه بلوح من التنك، قرويات يفردن شرشفاً عليه حبات زيتون. بالإضافة الى الشعور الذي منحني اياه هذا البيت لم اكن اتوقع ان التقي بشخص كهذا في هذا اليوم الحزين وان يكون بهذه الثقة وهذه الجرأة وهو يسألنا ماذا نشرب وأن يسأل صديقنا من أين جاء بنا من بلاد الواق واق؟ إذ لا بد أن إرهاق اليوم والبارحة وقبله كان بادياً لا على وجوهنا فقط بل على أحذيتنا المغبرة، وعلى اجسامنا التي كادت تتهالك، وعلى نظراتنا التي لابد أنها كانت يابسة. شعرت بان عينيه التمعتا وهو يتأملنا وكنا ثلاث بنات، ويقول " ثلاث بنات، سكر نبات " كأننا في أحوال عادية ولسنا تحت وطأة جو الحرب.أقفل الراديو قائلاً:"بلا كثرة كلام... الفداء والنصر». وبدلاً من أن نضحك لهذه الجملة وللطريقة التي نطق بها اصابنا الجمود. كان اسمه ناصر وكان الوحيد الذي لا يتأوه بل يبتسم بين حين وآخر إذا لم يكن يضحك. وكنا قد توقفنا عن الإبتسام حتى لا يفارقنا الألم. وحتى لا يبدو أننا اعتدنا على ما حدث. ثقته بنفسه هذه والراحة التي كانت تلفه رغم قهره جعلني أشعر انه باستطاعتي ان أتلو عليه قصة فستان الستان الأحمر الذي رأيته هذا الصباح بين اكوام الفساتين

البالية التي جمعت من البيوت، والذي امسكته بيدي أقلبه، أفكر بأخذه وأتراجع امام نزوتي هذه. أية لاجئة سوف تلبسه؟ أتخيلها صغيرة تشد على خصرها حزاماً وترفعه عن الوسط حتى يتسنى لها السير، تسير مختالة وهي ترى نفسها كالعارضه التي رأتها في المجلة. "أو أنها تتمنى" لو تنزل على درج من رخام بدلا من الأحجار والتراب. لكني لبثت صامتة. هل هو بهذا النضوج لأنه يكبرنا بسنوات قليلة أو لأنه يعمل؟ وعدت أراقبه وهو يتحدث ويعيش، ثم أراقب تحول شعوري الذي كان يتأرجح بين الحزن واليأس والتأوه ليدخل محله الشعور بالألفة والدفء والاقتراب من الآخرين. إذ تحولت الغرفة الى شرنقة مغلقة بدخان سكائر البافرا، بعد أن اقلعنا جميعنا عن تدخين السكائر الاميريكية منذ الساعة الأولى لبدء الحرب. قربنا انفسنا من صحون الأكل التي اتي بها ناصر وزميلنا من مطعم قريب. الصحون الكثيرة التي امتدت امامنا بينها كؤوس العرق والبطحات الفارغة ذكرت بالولائم والجشع والاحتفالات. أخذنا نكرع المشروب، وكأننا مصابون بظمأ أبدي. ونأكل لا بشهية بل بشراهة وكأننا لم نأكل منذ مدة طويلة تاركين فتات الخبز تتناثر فوق ملابسنا، على الطاولة، على احضاننا على الأرض. ولم تهمد عزائمنا رغم مشروب العرق الذي كنا نكرعه.

سرعان ما اخذت بيروت تغلي. تكونت جمعيات ولجان: من اقامة غذاء «المجدرة» في احدى المدارس ليعود ريعه الى الضفة المحتلة. إلى جمعية لمساندة أهالي القدس المحتلة، إلى جمعية أفرادها من الأميريكيين للعدل في الشرق الأوسط وجمعية تدعى الخامس من حزيران.اما لبنان الذي كان قد قسم نفسه إلى قسمين– مع مصر وضد مصر – اتحد ضد الحكومة، رغم تناقض الميول مما تمثله السلطة اللبنانية وانبثق الشعور الوطني في المدارس وفي افتتاحيات الصحف وفي إنشاء تجمعات ومنظمات، كزميل في الجامعة الذي أنشأ منظمة

اسمها أبدا، أبدا، أبدا. أبدا ثلاث مرات حتى تعلق في الذاكرة. إذ المنتمون على حد قوله مصابون بكثرة الكلام والعمل القليل. الاحتجاج على نظام دولتنا الاجتماعي الذي بدأ قبل حرب ٦٧ بسنوات والتي لم تساهم الاذاعات بتغذية نار حربه كما في ٥٨ بل لم يكن هناك من نار تشتعل، بل كلمات شاعر كانت تغذي البذرة المطمورة التي أخذت تكبر وتقذف عنها الرمل وتعلو وتزهر كلما سقاها. كانت كلماته تنشلني من وقع قبقاب زمزم ورائحة الكزبرة والثوم،ومن نظريات جدتي. كلامه يسري في القلب والفكر كالأوكسجين. إنه يخاطبنا عبر الجريدة، عبر الصفحه البيضاء التي كان أحيانا يريدها بيضاء إذ كان مقص الرقيب يقطع معظم جمله وكلامه ومع ذلك كنا نعلق الصفحة البيضاء التي تحمل اسمه فقط وكأنه الملاك العاري الذي يحمل اسهم القلوب ومع ذلك فهو يكتب جملاً كهذه:" الوطن عاش بالصدفة. كلمة الشعب فضفاضة عليه ". لذلك كانت حرب ٦٧ ما هي إلا ردة فعل لانهزام احلامنا، التي علقناها بالدول العربية الأخرى، بعد أن يئسنا من أن نجعل دماء جديدة تسري في وطننا،حتى اننا لم نكن نحسبه وطناً وإذا الانهزام العربي يفتح أعيننا فجأة بأن مصر ما هي وطننا "ونلتفت بكل غضبنا الى وطننا نود محاسبته لفوضويته ولضعفه، انه كالتلميذ الضعيف الذي يشترك في كل النشاطات المدرسية يستفيد من رحلاتها فيسافر ويغني ويرقص ويدرس ويلعب رياضة وحين يجيء وقت الإمتحانات أو المباراة ينسحب معللاً الوهن والمرض لهرمه المبني على العشائرية والطائفية وانظمة اجتماعية لا تشجع الا على التفكك.

وبدلا من أن يبادلني جواد مناخ هذه الذكريات فإذا به يخبرني عن تجربة بعيدة كل البعد عن تجربتي، عن هوسه بفرنسا الذي ابتدأ منذ اطلاعه على الأدب الفرنسي يقرأ ويشعر بالغيرة، قدر اعجابه بما يقرأه متمنياً لو انه هذا الكاتب أو ذاك. إذ الكثير من شعوره وأفكاره كان يراها في هذه الكتب وخاصة في الكاتب

بروست وهو يصف طعم كعكعة عمته التي لم تكن تفارق حاسة الشم أو الذوق لديه. انتقل جواد في حبه للكتب الفرنسية الى شغفه بالشعراء والمفكّرين الذين كانوا يداومون على ارتياد المقاهي الباريسية. يرى نفسه الطالب الذي كان يعيش في غرفة في بناية عالية السلالم في منطقة جرمان دى بريه حيث كانت بريجيت باردو تأتي وتعانقه. كان يجمع القرش فوق الآخر ليشتري علب سكائر الجيتان والغلواز والمجلات الفرنسية واسطوانات جاك بريل واديت بياف وجوليت غريكو، ما يجرى في البلاد العربية وفي لبنان لم يكن يتدخل بأفكاره لوما كان سير ايامه يتعرقل من جراء المظاهرات والاضطرابات التي لم يكن ينتقدها وبالوقت نفسه لا يؤمن بها. لكنه كان يجد نفسه يعيد التفكير بها امام خبر اشتراك جان بول سارتر في المظاهرات، وصوره تتصدر الجرائد. وهنا لان يعيد التفكير بما يحدث في العالم حوله، إذ ان جان بول سارتر هو الكاتب الذي يطمع لأن يعيش مثله، أن يحب كاتبة ويعيش معها من غير زواج، لكنه كان يتناسى جان بول سارتر وهو يرى نفسه يهزّ كتفيه امام ما يجري حوله غير مبال. ويلحق بأفكاره التي كانت تدور حول كلمات كانت تعلق في ذهنه: كالطحالب، السديم. الأكمة. قوس الغمام، ثم وهو مفتون مهووس يحاول ان يلتقط كيف تتكون الأحاسيس التي تلح عليه، لأن ترى نفسها على الورق وبالتالى كيف يكتبها، مستعيناً بالصفات وكيف هي تخطر بباله، كيف تتبع هذه التشابيه، كيف تتم عملية الخلق هذه، أهي من تلفيق الدماغ فعلاً؟ من الأذن والعين لتمتد في شرايين الرقبة، الذراع الرسغ ثم الأنامل. أم هي مختزنة في الأصابع. كان يجلس يمتحن ما يجرى ويتأكد انها تأتي من الرأس إذ كان الرأس يتخبط، انه يرى شريانا أزرق ينفر عند جهة اليمين من رأسه. كانت هذه الصور التي ترافق افكاره تمده بالسحر. كان يأتي بالجمل التي كتبها في دفتره، يقرأها بصوت عال ثم يتخيلها مطبوعة على الآلة الكاتبة. وأخذ يجمع

الأفكار، الأوصاف، الجمل، الكلمات. يجمع المقاطع والحوارات في ذهنه، يجمع كل شيئ كتبه هنا وهناك سواء في مفكرته أم في الدفاتر، على هذه كلها ان تكون على لسان شخصيات في رواية. فهي في باله، وهو شخص.

وأخذت الكتابة تسيطر عليه، يكتب اينما كان، أثناء انتظاره للأتوبيس و أثناء نومه، بل ان النوم كان يحل له باباً مسدوداً، كان يتوقف عنده في النهار وإذ بالليل يشحنه بتفاصيل صغيرة كان قد نساها ليراها في أحلامه كبيرة بارزة. وهو يكتب كان يكتشف الأصوات والرائحة ودقات القلب المسرعة والمواقف، ثم كأنه أخذ يدخل في هذا العالم الجديد الذي يتمنى لو يعيش به في الحقيقة ، كان يتمنى لو أن هناك فعلاً ستائر معدنية مسدلة في الحمام، وأن الواح الصابون مختلطة بالغرسات والأصداف عند حافة البانيو. يتمنى لو أن في حمام بيته البارد بانيو كالذي يصفه. ثم أخذ شيئا فشيئاً يعيش في هذا العالم الذي كونه. يطل على حياته ثم يعود اليه كأنه طير احتار بين شجرتين، ليستقر على احدى اغصانها ويبني عشه.

ولم تعد الصور التي كانت تأتيه بعيدة عن عالمه تزدحم وتتداخل، بل أصوات اهله، شخصيات أقاربه، ضجيج شارعه. كان التناقض في عوالمه كبير. أحب هذا التناقض وأخذ يعمل من أجله. عندما انتهى من كتابة روايته الأولى، وطرق أبواب دور النشر يعرضها عليها، لم يصادف عدم التشجيع فقط. بل عرف أن حتى الذين اخذوها منه في دور النشر لم يقرءوها بل ان سؤالهم الأول دار حول اذا كان هو على استعداد لدفع تكاليف نشرها . كبت لسانه، اذ كان قد وضع في ذهنه مبلغاً معيناً لقاء لروايته، وتمنى لو يخبرهم بهذا، لكنه اقلع عن الفكرة، إذ دور النشر ليست كهذه في خياله ولا الجالسون خلف مكاتبها .

كان يبلع خيبة أمله وهو يعيد مخطوطته تحت ابطه. يخالطه الشعور بأنه قد

أزاح هما عنه، فهو لا يحب ان يبدأ في دور النشر المحدودة كهذه بل يطمح الى العالمية وعليه أن يغادر هنا. ولم يعد يكتب بل وضع كل طاقته في الأدب و دراسته ثم في علم الاجتماع وفي كتابة الرسائل للهيئات التعليمية في معظم بلاد أوروبا حتى الشيوعية منها من اجل اعطائه منحة دراسية. وحصل عليها وكان البلد فرنسا، والكلية في باريس. يقرأ رسالة المنحة في القنصلية الفرنسية ولا يصدق، رغم انه حدس وهو يملأ طلبه بأن طريقته الأدبية في كتابة الطلب الى جانب علامته هي التي ربما ساعدت في نيله المنحة الدراسية. فهو قد وصف لهم بيئة بيته، غرفة النوم التي كان يشارك فيها إخوته الستة، الضجيج الذي كان يلهيه عن الدراسة والتأمل،. كتبه التي كان عليه ان يبحث عنها كل يوم، ويحرسها خوفاً من أن تمتد أيدي اخوته الصغار اليها. مخطوطة روايته التي كاد يفقدها لأنها لم تكن دفتراً ام كتـــابا حتى الجريدة التي كان يشتريها كانت طعـــمالنار الحمام. كانت عائلته تفســـر ولعه في القـــراءة بانه كسول لا يحب الدراســـة. ولم ينس أن يشير في طلبه للمنحـــه.. مكذباً، ان عائلته المتدينة كانت تجبره على اتبـاع الدين وتعاليـــمه بينما هو يحلق في دنيـــا اخرى، دنيا العلم والمعرفة.

و لم يشارك هو غضبنا على اسرائيل الذي اصبح بالنسبة لنا عملاً روتينيا، كشعارات: ازالة حرب العدوان. لم يصل كجميعنا طرقا مفترقة ليأخذ بعضنا الدرب الثوري الالتزامي والبعض الآخر درب الحماس فقط الذي وكأنه قد وصم على الجبين، علامة دائمه تبهت تاره وتشتد الوانها تارة اخرى. أما انا فقد انتشلت نفسي شيئا فشيئا من الأوراق والأقاصيص والترجمات.مفضلة الذهاب الى دور السينما.. والجلوس في المقاهي، في رحاب الجامعة، الطواف بين الدرجات، يدي في يد زميل، نختلس قبلة خلف شجرة الصنوبر أو أزور زميلاتي في غرفهن واستاذاً في مكتبه الواسع.

أجلس مع جواد في مطعم يطل على البحر. خلفنا بيروت المتهدمة. نسمع هسهسة الأمواج الناعمة تضرب برفق خشب اساس المقهى وكأنها تقول ان كل شيئ لم يزل على ما هو. أجلس وكأني لم أفارق هذا الكرسي منذ سنوات يوم كنت اجلس بين مجموعة من طلاب الجامعة وكأننا خيوط متشابكة من الأفكار والطموحات. أمحو من ذهني الآن رؤيتي لنفسي عارية بين ذراعيه. أشكر الظروف التي حالت بيني وبين تحقيق ذلك الهاجس. وإذا بالشعور هذا يمدني بالقوة ثم يتحول الى سعادة تجعلني أطير فوق طاولة هذا المطعم مستأنسة بنفسي وكأنها عادت اليّ بعد غياب طويل. أتأمل اصابعي وكفي التي اصبحت كما كانت في الماضي ذات اهمية. ما ان قررنا النهوض حتى عاد الخراب أمامنا رغم البحر، رغم السماء والشمس، رغم أوراق الشجر رغم الطيور البعيدة، فإذا العين لم تكن ترتاح بعيداً عن رؤية الحرب ونفايات الحرب، حتى منظر الجنود سواء كانوا من السوريين أو اللبنانيين هنا وهناك كان لا يستدر سوى العطف.

حتى انت تقولين "شرقية وغربية ".

الشرقية والغربية. كيف امحت الأسماء القديمة التي وكأنها ولدت مع الذاكرة. جونيه، جبيل، الدورة، وحلت محلها طريق الفرنسيسكان، السوديكو، والمتحف الوحل والسيول، رائحة البول ومنظر العابرين، وهم يحملون الأسى على وجوهم، والثقل بين ايديهم والكبت الذي سوف يتعالى إذا ما اقفلت هذه الدرب بغتة، بأن المرء يحتار بين طريق السوديكو حيث القنص. اوطريق المتحف، الطريق الأصعب التي تتطلب التحضير والإجراءات المسبقة.

وجه جواد من جديد على الطرقات التي لابد انه يتبينها. يحاكيني صمته أو تنهيدته، أفكاره تلسع جبهتي. تحدث فجوة. تدخل عقلي مباشرة إلى خلايا الذاكره تعبث بها. أنا انظر الى شارع محمد الحوت وهو يصيح:" هيدا السبق

دخيلك يا علي هــيدي بوابة السبق"." السبق، كيف راح عن بالي كل هذه السنين؟". البوابة الحديدية السوداء التي انشق حديدها وانتشرت عليها بقع الصدأ وكأنها مرض البرص متفشياً عند الدوائر الذهبية التي كانت منتشرة في اعلاها. ندخل السبق تحت إصرار جواد، وكانت الناس تنحني تدخل كوة في الجدار كأنهم يفلتون من فسحات خضراء بين الأشجار والوحل كأنها واحة رغم المستنقع الذي لم تجف مياهه بعد، ورغم رائحة البول الشديدة يتدفق الناس بالعشرات بالمئات، يمشون صامتين، لابد انهم يحاكون افكارهم، كما نفعلُ الآن. كل منهم يود أن تمر هذه الدقائق حتى يصل الى الشق الآخر من غير ان يسمع اطلاق الرصاص لذلك يسيرون وكأنهم في مهمة.

يفكر جواد ما داموا قد سمحوا بهذا المعبر لماذا لا يفتحون كل الطرق". وأفكر: " لو يعود الماضي كما كان ". لابد أن هؤلاء الناس يفكرون اذا كانوا سيجدون من يقلهم عند وصولهم الى الجهة الشرقية.

الناس تهرول والأفق يحيطهم. يهرولون بين شقي مدينة. الى أين يسرعون؟ كأنهم يفلتون من بين أيدى ملوك الجان. يقدمون التهنئة بفوزهم بمعركة حطين. أم أنهم قبائل عطشى عرفت بوجود واحة فيها عشب وماء؟.

اضحك لتشابيه جواد الفصحى رغم ضيقي منه لأنه لا يزال يرى كل شيئ وكأنه عمل أدبي.

يتجه البعض الى اعمالهم في الشق الآخر حاملين أوراقهم وطعامهم. سيدة انيقة تنحني وتغطى حذاءها بجاربين من البلاستيك لوقايتهما. لا بد أنها اتت بهما من أوروبا. فتاتان تتمختران غير آبهتين، بكعوب احذيتهما العالية التي كانت تغطس في الوحل. إنهما على موعد غرامي. واحدة تزيد من أحمر شفاهها وأخرى تسرح شعرها.

كان جواد يقصد السبق مع العائلة ويلعب في حدائقها الواسعة وكانت حديقة السبق لا مثيل لرائحتها: الصنوبر يختلط مع البابونج والورود البرية. يذكر ان روحية أخذته مرة وأشعلت النار في أعواد الصنوبر الرفيعة والتي كانت تشبه الإبر ومكحلة العين، يغرزها بيده بينما تقربها روحية من وجهه حتى يستنشق دخانها لأنه كان يعاني من السعال الديكى. يذكر أنه رأى رجلاً اقترب منهماوروحية تدفش وجهه الى الدخان.، وقال ان النار ممنوعة ثم جلس على حجر وأخذا يتحدث مع روحية ويسمح لها بجمع الحميضة قائلاً:" ان السفير الفرنسي الذي كان يسكن قصر الصنوبر قال ان هذه الحميضة للبقر.

علي أن اخطف انظاري حتى أرى اول شارع محمد الحوت حيث ولدت والذي هو متفرع من شارع السبق هذا. أنظر اليه، الى شارع هيروشيما وأرى صورتي وأنا اسير على رصيفه، حيث المطعم وأنا الحق بوالدي. صورتي وأنا أثب السلالم حيث البنت وامها. وأرى أمي ترتدي ربطة شعر كالقبعة في العشرينات بعيدة عن عينيها. أرى عينين واسعتين تضحكان. وأرى أمي تشهق وتقول لعمي:" صحيح هيك قالتلها البصارة ". وهو يقرأ لها سيرة المطربة اسمهان " ولدت في الماء وفي الماء تموتين ".

أرى أمي ولا أرى نفسي. فأنا اسمهان وأسمى. أرى امي المرأة الجميلة والفتاة الصغيرة والتي فجأة التفتت ورأتني موجودة في الحياة وفي البيت. اناديها " ماما " فتتذكر اني لست المطربة الصغيرة اسمهان بل ابنتها وبالتالي ابنة الرجل الذي لا يمكنه ان يكون زوجها أو حبيبها. فهو لا يشبه انور وجدي ولا محسن سرحان. لا يدندن بأغنية، لا يغازل، لا ينتمي الى عصرها. لذلك عندما تمدد بلا حراك. ولعلعت اسعاف، هجمت امي تريد إحراق ذكراه حتى تعود هي الى عصرها كاملة. اسمهان. ينادى صوتي الآن. اسمهان. اسمى. وأرى نفسي في

ذلك الشارع عند اليمين والسيارة كانت تكاد تخطف دواليبها استعداداً للقطع الى المنطقة الشرقية. الشارع الذي يبدو الآن وكأنه اقيم من أجل لقطة واحدة في فيلم سينمائي. لذلك شيدت واجهاته بأرخص الحجارة والأخشاب بينماخلعت يافطات دكاكينه أو تآكلت. أكاد لا أتبين الفرن وخمارة الموز والكواء. بناية والدي محتلة عدا شقتنا حيث كنت اقف قبالة" البورت شابو" ويدي على برودة رخامها انظر في المرآه وأردد: " انا نادين، ابنة الممثلة المشهورة ". اقف عند الرصيف المقابل أراقب والدي وهو يكب فوق الكوم ثم وهو في طريقه إلى المطعم، بينما اشترى لوحاً من الشوكولا واقف امصّه ببطء حتى لا تذوب الشوكولا في حلقي بسرعة. أسمع من في المطعم ينادي والدي:" اهلا بالحاج مصطفى ". اشتري لوحاً آخر واقف امصه ريثما يخرج والدي من المطعم ومع ذلك لم أكن ألحق وأتوسل اليه كما يظن الجميع. كنت اردد بينى وبين نفسي: " انت؟ أنا لا أعرفك ".

امرأة وابنتها تنظران الي، تهمسان، تهمان بالتحدث الي، لابد أنهما تعرفان أني ابنة هذا الرجل الذي يمسك بتلك الخرق البالية. حضرت حجتي بلمح البصر. الحاج هو جار لنا وقد أرسلتني زوجته لاعادته الى البيت. وإذا ناداني بكلمة يا بابا، سوف أغمزهما، قائلة بأنه ينادي الجميع بكلمة بابا" لكن سؤال البنت بغتني:" عم نقول شو بتشبهي الممثلة... كأنك اختها ". وبسرعة طار الجواب لا من لساني بل من قلبي:" انا ابنتها " شع وجه البنت بالفرح وصاحت:" يا الله، صحيح، أنا قلت للماما. الشبه غريب". وتتدخل أمها باستغراب:"تسألني اذا كنت من سكان هذا الحي؟" قرأت تفكيرها بسرعة: "هذه الاحياء لا يسكن فيها الممثلون او المخرجون"، أجبت بصوت واثق وبلهجة غريبة حتى عن أذني: "انا؟ لا، بالحمراء، آتي هنا من اجل دروس خصوصية بالعربية عند معلمة". وأشرت إلى بناية عند مفترق الطرق.

هذه الأحياء هي بيروت قبل الحرب. قبلها بكثير كنت أراها أحياء ودكان فلافل وشتاء وخيطاً من غبار يتسرب عبر باب بيتنا المفتوح. كانت شجرة بوسفير في حديقة، بيت جيراننا وبزر مشمش، وأولاداً وبناتاً لا يربطني بهم سوى اللعب. ضحكة أمي مرتفعه، صراخها العصبي باسعاف وبوالدي، شريطة مدرستي البيضاء التي كانت اسعاف تلفها بدلا من كيها. سيارة جدتي، رائحة كمبيد الميكروبات في مراحيض مدرستنا الخيرية، المديرة الطويله السمراء، فاديه وامها، والدي من جديد والطرقات التي اقترنت بخطواتي وبهيئته. كنت اتجسس عليه كل يوم، الحق به، أقرب منه، ثم ابتعد، ولا أعود أرى الا شكل ما يتوقف عند أكياس مرماة. لا سيارات ولا ناس فقط صناديق زبالة ووالدي. ثم أراه ينحني يلتقط شيئاً، خشبة أو كرسياً مهشمة الأطراف يسحبها. الحق به غير مهتمه بالأعين. بات والدي مكملاً لشخصيات فولكلورية في حينا كحكمت ويسكي مع أنه لم يعد يشربها في الآونه الأخيرة بل يكتفي بشرب السبيرتو المخلوط بالكينا. ورجل العطور الازرق العينين الذي كان يحمل في جيبه قناني صغيرة ما أن يرانا حتى يمد يده الى جيبه يخرج منها زجاجة العطور، حتى نكون قد فتحنا اكفنا أمامه، فيرشها بالعطر الذي كان يطير في ثوان.القزم عفيف، بائع الفلافل الذي يلبس قبقابا عاليا ومع ذلك لم يكن يصل الى خصر زوجته الطويله والتي ما أن سمعت خشونة صوتها حتى فكرت اذا كان يخاف منها. كان القزم يستأذن ابنه اذا اراد ضربه: «عن إذنك دقيقه. " ليأتي بكرسي يقف عليها حتى يتمكن من ضربه.

.نتمشى في السبق. آثار الحياة لم تزل وكأنها شجرة لوحتها العاصفة واقتلعت معظم جذوره. ومع ذلك فإن ثمرها لم يزل ينضج ويتلون، من الأصفر الى الأحمر. أشجار الصنوبر ميته ومحترقة. نرى المُضّمِرْ في قبعة آل كابون جالساً كالباشا، خلف موقد من خشب يحترق وفوقه ركوة قهوة تغلي. يتذكر جواد الربيع

وكلمة السندس الأخضر الجميل، الذي كان يقرأها في مجلة الثقافة وهو يحضر للسرتفيكا. يتذكر مجلة الثقافة والطريقة التي كان يكتب عنوانها. المضمريدخن سيكاره. يعرف ان جواد ينظر اليه، فيتحاشاه. لكن جواد يقترب منه ليتحدث معه عن السبق ويخبره كم انه سعيد لرؤيته إذ كان وجود المضّمر. ينفي الحرب. وكأن حياة السباق لم تزل كما هي. الأحصنه تمد رؤوسها من اسطبلاتها. مدرب الخيل يجلس قرب المضّمر، ببنطلون وقميص قصير الأكمام يرشف القهوة. لا يزال الجميع يعامل المضمر، كأنه ملك السباق. في يده كل شيء. إنه يحتسي القهوة، والبخار يتصاعد من كوبه. يتأمل الأحصنه التي تسرح بشعرها الطويل وتتمهل في الفسحه المسيجة بلا سائس.

عدنا الى السيارة الى شارع فؤاد الأول. يعلق نظري به ممتداً ليغيب عني بسرعة البرق. نقف من جديد عند حاجز الجيش الرسمي. قال رجل الحاحز إن اسماءنا غير موجودة وهو ينظر في الورقة، يترجل علي من السيارة مستطلعاً الخبر، رغم قلقنا لعدم العبور اخذنا نتأمل في البيوت والفلل المهشمه والتي كانت مشيدة بالحجر الجبلي الصخري متناسقة مع بناء المحكمة العسكرية، ونصب الجندي المجهول، حيث المتحف من جهة اليمين، والأشجار من على الجهتين. وأوراقها كالدنتلا خضراء تحمل لونا برتقاليا في فصل الربيع والصيف واشجار اخرى كانت تطل من حديقة المتحف بكل جذعها على الطريق العام، فتتساقط منها أزهارها البنفسجيه الفاتحة التي كانت على شكل قناديل صغيرة ندوس عليهـــا وتحدث صوتاً.

يد جواد في يد والده. يصعد سطوح هذه البنايات والبيوت التي يعرفونها، ليشاهد أحتفال استعراض الجيش بمناسبة عيد الاستقلال. يسمعان موسيقى فرقة فليفل اخوان.

ثوان وتوقفنا حيث الحاجز الأخير. وأصبحنا أمام المتحف وجهاً لوجه. كان يقف كما من زمان، يقف هادئاً، بهدوء القبور فيه والتماثيل، وكان يوحي بالبرودة دائماً، وبأنه منسي، قبالة مستشفى الأطفال والأولاد، الذي لم يعد يظهر من إسمه سوى حرفين.

يقول جواد إنه كلما مرّ بالبوسطة وهو صغير كان يفكر لماذا لم يكتفوا باسم الأطفال فقط. وكان يتمنى لو يكون مريضاً في سرير هذه المستشفى . حوله الألعاب ثم اخذ يبحث عن البناية التوأم، يلتفت حوله ويزفر، يضع يده فوق جبهته الى أن رآها مهجورة. أرى دموعاً تعكر عينيه ولون أنفه وأفكر بأني لم أر رجلاً من قبل يذرف دموعاً .

في المرة الأولى التي عبرت بها هذا الحاجز شهقت بالبكاء أيضاً، كانت اديت بياف تغني: برام، برام برام " والجندي الأسمر تسمر بعينيه الكبيرتين في المطلق. كان ساهماً، كأن الأغنية اخذته بعيداً عن هذا المكان الذي كان عبارة عن سلاح واسلاك والأسماء وكلمتي الشرقيه والغربية. لاحظت يده السمراء القوية، ومع ذلك لم تكن تلائم البندقية التي يستند عليها. ترى أين تأخذه موسيقى برام برام برام، وصوت اديت بياف. لابد أنه الان في سن العشرين وعندما ابتدأت الحرب كان هو في الثامنة، لا يعرف سوى هذه الأجواء: السلاح، النصر. الموت. وبأنه يحارب الشق الآخر في بيروت ومن لبنان. ربما نظره لم يكن يمتد عبر خطوط التماس، كذلك عاطفته فكيف يحب من في الشق الآخر. وشقه لا يتلقى منه سوى المتفجرات والقنابل المؤقته والصواريخ. لا يعرف بحر بيروت ولا المنارة ولا أسواقها القديمة. ولا حتى هياكلها.لا يعرف بعاطفتي تجاهه ولا يرى نظراتي، وإذ أخبرته بها سيظنني مجنونة. عيناه جميلتان. هنا بكيت.أحبه واحب ان اتحدث معه.في خيمة حاجزه هذه. لنتحدث في الخصوصيات وعن أديت بياف. عاطفتي تجعلني أبكي،

الموسيقى لم تزل تآخذه الى أجواء يعرفها باللاوعي فقط. اتكهن من نظرته الساهمة بأنه يريد أن يكون أينما كان ماعدا في لبنان. تمنيت لو ينظر اليّ، حتى أقول له هذه الكلمات القليلة. قبل ان تمضي سيارتنا. حانت منه التفاته إلينا أعرف أني مررت عبر بؤبؤ عينيه كبقيه الوجوه التي يراها. لا بد أنه فكر ان هذا الوجه يبكي على من مات. اضطررنا الى النزول من السيارة لأن اسم علي لم يكن مسجلاً الى جانب اسمي واسم جواد. ودعنا علي وأنا اصرّ عليه ان لا ينسى انتظار مكالمتي، وان لا يفقد الورقة التي دونت بها أرقام الأصدقاء في الشق الآخر.عينا جواد تسبقان ذاكرته. تمدانها بالأوكسجين. ونحن نمر مشياً من درك السيارة. حيث البناء بلون الرمل، ولباس الدرك بلون الرمل، كان يأتي في آخر كل شهر مع جدته لرؤية عمه الدركي الذي كان يظهر بعد دقائق من طلبهما له، ومعه دواء امه إذ كان يأتي به مخفضاً. عينا جواد لا تفارقان كرافاة عمه، والتي هي جزء من اللباس الرسمي ليتمعن بها ويقول لعمه: اعطني هذه الكرافاة.

انتبه إلى أني لم أعد أتوق لزيارة المنطقة الشرقية كما قبل. ولم يعد يدق قلبي وكأنه سماء تبرق وترعد ولا تهدأ إلا عندما ألمح من كان ينتظرني. وأتأكد من أني أرى السيارة الى جانبه حتى أشعر بالأمان. رغم حملي لنمر التلفونات وعناوين المساكن، الا أن خواطراً كثيرة كانت تتناقلني. خاصة الخاطر المتسائل دائما: " وإذا بدأ القتال فجأة؟ " ونسي الشخص موعد قدومي ولقائي؟. أو أن رجل الحاجز قد قرر منعي من المرور؟". كأني ما ان اقترب بأنفي من وردة فإذا بيد تبعد هذه الوردة عني.

كانت هناك الحواجز المنظمة والحواجز التلقائيه، وكان العبور احياناً يعتمد على مزاج من هم عند الحاجز. أو وجهة نظر الميليشيا أو على السياسة التي كانت تختلف من يوم الى آخر.

سألني رجل الحاجز مرة ماذا أريد من زيارتي للشق الآخر؟ لماذا أريد العبور اليه؟.

عندما تسلحت بكذبة وسمح لي، سألني الحاجز الأخر عن سبب مجيئي وهو ينظر في هويتي وبيني وبين الطرقات التي لم اعد اتبينها كالسابق، خطوات.

اجبته مازحه: " مشتاقه لبحر جونيه." : أذا مشتاقة ليش ما انت عايشة هون وبتفرجي عاطفتك، وبتفرجيهم قديش هني غلطانين، بيروت الغربية صارت للإيرانيه "، ولم اجبه سوى بابتسامة ولدهشتي منعني من العبور.

رغم انه منعني من العبور، وسحب الوردة قبل أن تصل انفي لم اسحب ابتسامتي، أنه في ضيق لهذا الأنقسام كضيقي، انه يود أن يظهر ضيقه، لا بأس هو شاب وانا شابة، يريد التحاور وأنا أيضاً لكن حوارنا لن يجدي.اقترب سائق التاكسي مني وهو يراني أتراجع، فتح لي الباب، وهو يشتمهم، وقد أخذ على عاتقه ان يجعلني أمر الى الجهة الشرقية مهما يكن السبب.

رغم ترددي عندما ألم بالسبب زاد شتمه بهم، قال لي انهم تصرفوا مع ابنه التصرف نفسه عندما اصر بأن عبوره الى الغربية هو من أشد الضرورة وهم يرفضون طلبه حتى اعتراه اليأس وهم بالرجوع، حدث في هذه الأثناء ان انهالت زخات رصاص مفاجيء من الجهة الغربية، عندها ناداه رجل الحاجز وقال له مبتسماً "إذا عايز تقطع تفضّل." أسأل السائق: " هل قطع؟." اجاب:"المجنون قطع نكاية فيهم." زاد السائق من سرعته وأخذ يدخل في طرق ملتوية الى شوارع مزدحمة الى شوارع مقفرة حتى وصل الى أرض يباب مهجورة، يطلب مني النزول والسير حتى آخرها موصيا " لما تشوفي علامة البيبسي كولا يعني صرت عندهم " وهونيك حد البورة في تاكسيات كثيرة بياخدوك اي مكان.

ولم اكن خائفة عندما تركني السائق في البورة القاحلة، اذ رؤيتي لشمس

النهار ولعمارة بعيدة الغسيل المنشور فوقها شجعني. سرت في البورة قدماي في الرمل تاره وفوق الأرض اليابسة تارة أخرى. استأنس لرؤية بضعة شجرات زيتون ذات جذوع على شكل وجوه قاست الحرب. رغم ان الطريق المعبدة حيث السيارات بدت قريبة إلا أني وجدت نفسي أسير وأسير. هل هذا فعلا يحدث لي حقيقة؟ هل اسير في الكرم لألتقي باسعاف وبجدتي او بزمزم وهن يفترشن العشب في نزهة أم اني في بيروت والدنيا حرب، لذلك احاول العبور حتى ألتقي مع أصدقائي الذين يجب ان يكونوا في متناول اليد، يسيرون الآن معي، نتحدث معاً عما أمر به هذه اللحظات لا أن أرويها لهم.

وعندما حانت لافتة البيبسي كولا شعرت بأنه بيني وبينها علاقة خاصة، كأنها تقول لي: " عليك الأمان لقد وصلت».

هل سأجد أصدقائي وأعانقهم " أم أن غوصي في التراب المجبول بالبول واللاشيء سوف يذهب سدى. مجرد تفكيري باني وحدي في هذا الشق كان يزيدني حزناً يخالطه عدم الراحة. فهذا هو بلدي ايضاً والذي بدأت انسى معالمه، رغم شكل البيوت والأصوات التي لم تزل توحي بالألفة. نمت وقتها ليله واحدة في جونية في غرفة تطل على البحر. زارني البرغش رغم قرص الكاتول الذي انطفأ من غير سبب. نهضت باكراً. أخرج الى الشرفة امسك بحديدها الاسود.

اقف قبالة الجبال البعيدة التي كان لها أذنين تسمعان وعينين تبصران. فكرت لماذا لا أعيش هنا رغم أن الشعور تسلل اليّ بأن اصدقائي غرباء حتى في شقهم هذا لم يعوا على أسفلت طريقها، ولا على اشجارها وصياح ديوكها.

إنهم مهجرون، يعيشون مع مهجرين من مناطق اخرى رأوا ويلات الحرب، وقاسوا وتشردوا، فتغبشت رؤيتهم وانسانيتهم فأخذوا ينقضون على فرص العمل ويزاحموا سكانها الأصليين. دخلت عائدة الى غرفة الجلوس. رؤيتي لأطباق فارغة

جعلتني أغصّ. ذكرتني بعشاء البارحة عندما جمعت صديقتي من كانوا معنا في الجامعة وقد انتقل معظمهم الى هذه المناطق إبان الأشهر الأخيره، بعد أن بات عيشهم في المنطقة الغربية مستحيلاً. أعاتب احدهم كان قد وعد بزيارتي في الغربية " هل قطعت المصران؟".

"أعوذ بالله. لكن..انتظار ومشقة.. الواحد لازم يعتاد على حياته في هذا الشق».

كنت قد اتصلت بهم واحداً واحداِ والحزن يعمني لأن عناوينهم اصبحت جسر نهر الكلب وبين الضبية وسد البوشرية، ثم انتبهت الى أن أماكننا تبدلت اسماؤها ايضاً أصبحت: الضاحيه، الحاجز... المقبرة.. مع ذلك بقي الإتصال الهاتفي جارياً وكان شيئا لم يكن في شقي المدينتين. اتصلت بجدتي وأتى صوتها بعيداً، لا رنة صوتها فقط بل كيانها. سألتني هل الشرقية حقاً جوهرة تلمع في المطاعم والملاهي، درت انظر بوجوه اصدقائي الباردة الملامح واجبتها: «جواهر بعدين بخبرك " لابد أن وجودي معهم ذكرهم بالواقع الذي يتناسونه. فنحن كمن اقتلعنا بعيداً عن تربتنا وعلينا العيش مع الذين لا يعنون لنا شيئاً سوى بوجودهم حولنا.

كل شي جديد عناوين وظائفهم، بيوتهم ما عدا سياراتهم، اعترف اصدقائي هنا بحقيقة ما يجري في البلد. لذلك اتخذوا هذه البيوت الجديدة وهذه الأحياء التي لا تعني لهم شيئاً حتى وأن نشأوا فيها. إذ قلب بيروت كان في ساحة البرج وشارع الحمراء.بين طنطنه الترام في الذاكرة، وصوت جارتهم البيروتيه وكركعه نرجيلتها وتفتح شجرة الفتنة بين ليلة وأخرى. حاولوا البقاء حيثما كانوا تشبثوا بأظافرهم خوفاً من أن ينفذ ويفلت الصبر لكن الضغوط عليهم كانت كبيرة من الجهتين.

وكما حدث في التاريخ الغابر ولجأ الإنسان الحجري الى كهفه والدجاج الى القن عند سماع خطوات الثعلب، والنسور الى الأعالي خوفاً من الأيدي الممتدة الى بيضة. وجدوا اصدقائي انفسهم يعودون كما عاد اجدادهم من قبل الى الحظيرة لم يعد الأمل لأن يحلق الشباب باجنحتهم ما أن تصبح وجوههم ندية أو تنبت شواربهم بل ليركدوا في رحم الأم والأب والعم والخال والجدّ. يستمدون روح الأمان من العائلة حتى أصبح الفرد لا يشعر بالراحة إلا مع محيطه. معهم لا يراقب كلامه يعتذر أو يبرر ما أرتكبه أفراد طائفته أو العكس.

لم يزل اصدقائي يلمون ويهتمون بما يأتي اليهم من الشق الآخر، وعندما كانت تأتي اليهم الأخبار التاعسة فقط كانوا يذهبون بخيالهم وبحدسهم الى أن الذي عرفوه وتركوه خلفهم لم يزل على ما كان عليه. لا كما تأتي به الأخباربأن الطرقات تغص بالرجال ذوي اللحي والنساء الملتفات بالعباءات السوداء،وبأن بيروت اصبحت تعج بالإيرانيين وبالجوامع وتراتيل القرآن تنبعث من كل مكان وبأن الشوارع اصبحت كلها أزقه، حظائر للأغنام وقنناً للدجاج. عندكل منعطف في كل مرآب بنايه، سجنا للأجانب وللمسيحيين ، وبأن أي مسيحي يدخل المنطقة ينقض عليه رجلان كشياطين سليمان، ينغزانه بشوكه جهنم،وبأن وكل طائرة تحط انما لتفرغ المقاتلين والأسلحة. الهوة تزداد بين الشقين، لا في سد المنافذ بالردم وبالحديد، بل لان كل شق اختار طريقه وابتعد به عن الآخر.

وفي الشق الذي اسكن فيه كانوا يفكرون بأن المنطقة الشرقية جوهرة معلقه بين السماء والأرض تربطها، جسور بيضاء جميلة حيث الفخامه في كل شئ، المطاعم، المسابح، الدكاكين. يشيرون بأصابعهم وبكلماتهم الفرنسية على الغربية كما يشيرون الى حيوان مخيف ومقرف. ارزة الكتائب على كل الصدور. البنادق على كل الأكتاف، سيارات السبور أو الدبابات تسرع على الأسفلت السفن تفرغ

في المرافئ ذهبا واسلحة، أسوار عالية تحيط البحر والجبال والشوارع حتى السماء.

كبّر اصدقائي طولة بالي، لأني لم أزل اعيش في الغربية بينما كنت افكر بأنني وغيري من الذين يأتون من الغربية نضفي صبغة جديدة ملونه لهذا الشق، بدلا من أن تكون مقتصرة على صبغة واحدة ودين واحد.

يلفت جواد نظري الى الغاردينيا البيضاء، والتي هي في كل مكان حتى في أيدي بائعي العلكة. في أيدي المستعطيين على طاولة صغيرة تتوسط الرصيف حيث الرجال يلعبون بطاولة النرد على بعد امتار من اكوام الزبالة. هي عند مرآة السائق ترتجف ما أن يزعق بالزمور. هي فوق عربات الباعة. هي في ايدي المتجمعين الذين اطلق عليهم جواد بالمآتم. المآتم الأول كان من الرجال الذين التفوا بأنفاسهم. ودخان سكائرهم وكانوا كلهم غرباء عن بيروت. يبيعون ويشترون كأنهم في سوق الدلالة. يتكئون على المحلات التي كانت انيقة والتي لا يظهر من اناقتها شيء سوى ذكراها. المأتم الآخر كان حول مجلات وكتب قديمه وجديدة.المأتم الثالث كان بوقوفهم حول تنكات البنزين يعبئونها من محطة نقالة أرخص ثمناً من المحطات الثابتة وإذا هناك المأتم الرابع وهم يقفون عند باب احدى دور السينما.

أشير بيدي الآن الى البحر المفتوح، والسماء التي لا مثيل لها، وأتحسر على إرتفاع البنايات التي هي من الأسمنت والتي سدت منظر البحر، ليبحث جواد عن البيوت القديمة ذات القرميد الأحمر والشبابيك الخشبية الخضراء، والحمراء. يفكر لماذا يقع الإختيار دائماً على هذين اللونين. ثم يصرخ: "يا ويلاه أسنان غولة اكلت قطعة من البحر. يا ويلاه، اسنان غولة بلعت من الجبال كدشة كبيرة. " اضحك للهجة جواد القروية، ومن تشبيهه حيث هو كتشابيه جدتي. أشعر بألفه وبحب تجاهه وأتمنى لو يلقي برأسه عند فخذي.

كأن الحرب لم تقع، لكنها سبقت سنواتها، سبقت زيادة سكانها. دور السينما العديدة. الأكل السريع، الفيديو. موسيقى الروك، ومراكز التسويق، محلات بيع السبور. لافتات من كل حجم ولون. واسمنت وحديد باطون، ينزل من الجبل الى البحر " يا صباح الشوم.. قال عاملين ريفيرا..، شواطئ ريفيرا. يا صباح الشوم. وهونيك خالقين كربلاء. هيدا بيفرجي انو الأثنين هني واحد. بشق واحد والدنيا بشق ثاني. الأثنين يعانوا الشيء ذاته. يناقشوا أو لا يناقشوا الحرب. بيركضوا ليأمنوا الطحين والغاز والدواء والأثنين ماسكين سلاح. والأثنين عم يضيعوا وقتهم واعصابهم في عدم الإستقرار ومعمعة الحرب. شوفي. شوفي كيف سياراتهم صارت معدن عم يطرطق. المهجرين هونيك ناقمين وهون ناقمين».

ابتسم وأنا ألحق بما يطوف في عقلي. تجاعيدهم واحدة. تعابير وجوههم واحدة. الصغار كصغارنا يتحسسون آثار لبنان في صور كتب الجغرافية فقط. وعوا على أكياس الرمل والبنادق الخشبية. يبررون للسارق وللمجرم فعلته. ويلصقونها بالفقر والحاجة.بينما يتحسر العجائز على الأيام الماضيه. كأن ما يحدث الآن هو لاذلالهم .

في طريقنا الى الإرز نمر بالبحر، اجدني انظر الى جهة الشمال وأقول لجواد اني ابحث عن مطعم «تزيغان» ولم يسألني لماذا ولم يستغرب ان عدواه قد انتقلت الي. بل كأنه مد لي بصور واضحة كانت قد حفظت في صندوق ورق الإلبوم لم يأخذ بريقها .أويسد عنها منفذ الهواء لذلك بقيت بألوانها بلمعانها . كأن سنوات الحرب هذه لم تدفن الماضي بركامه.! وكأن الحاضر يتقبل جروحها ويداويها حتى يستطيع تحمل الجروح الأخرى.

تلحق عيناي بالملاحات، حيث السباحه فيها كانت تجعل لوننا برونزيا في يوم واحد وكان الملح فيها يجعلني أعوم من غير مجهود. يتساءل جواد كما في الطفولة

عن نواطيرها؟ هل هي دواليب هواء عملاقه؟ يسألني جواد عن جسر البرباره حيث المفروض ان يلاقينا سيمون، عند حاجز الجيش.

يجلس سيمون خلف عجلة القيادة. أفكاري تلحق بالمروج الخضراء والهضاب الشاحبة الجرداء. هل مشت البوسطة من هنا ونحن نصرخ:" عجّل عجّل يا شوفير. موتيرك أحسن موتير. أدعس علي الخمسين ونحن بنات الشاطرين". عندما كنت استعد للرحلة.وزمزم تسلق لي البيض والبطاطا، كانت الحاجة" نظر" تزور جدتي الضجرة من هذه الزيارة. خاصة عندما صاحت الحاجة نظر " أوعى تخلي بنت بنتك تروح عالثلج.. انه يطمر البني آدميين. أجابتها جدتي بانفراج صدر:" ولو ياحاجة نظر، اسمهان بتذوب الثلج حتى قبل ما يهر عليها. هي بمدرسة كلها بنات عائلات، فيها بنات سرسق". لم أرض أن آخذ ما سلقته زمزم من البيض الغريب اللون لسلقها له مع البطاطا. بل انصاعت لرغبتي عادت تسلق لي البيض من جديد وهي تخبط الوعاء وتشتمه.

هطل الغروب ونحن لم نزل نقصد الأرز. عندما توقفنا عند الحاجز السوري. انقبضت، رغم اني فهمت من سيمون اننا سنلحق بسيارة اوفدها قريبه ذو الرتبة العالية في الجيش وفعلا اخذت سيارة سيمون طريقا غير طريق السيارات المنتظرة ثم لتتوقف عند الحاجز. اطل الجندي السوري لينظر باتجاهنا ثم يشير لنا بالمرور. بعد مدة لاحظنا أن في كل قرية بيوتا مضاءة قليلة وبيوتا مطفأة أو مهدّمة. صوت المطربة صباح ينبعث من بلكون من بين ضحكات واحاديث يخبرنا سيمون ان البيت المضيء يعني سياسته مع الوضع والبيت المطفي ء وعلى الأرض هو ضد الوضع.

يهبط الليل على هذه القرى التي اخذنا من أنوارها نميز ميول أهاليها. قرى هادئة كانت في الماضي. نزعاتها بسيطة ربما لمنافسة على عين أو شجرة.

أشعر بغبطة لأني هنا أنظر إلى جواد، أعرف أني أرى كل شئ بعينيه، اشكره بيني وبين نفسي، لأنه انتشلني من الصدأ. رغم أني لم احسم بيني وبين نفسي من سوف اشارك غرفته الليلة. قبل أن تهبط العتمة بقليل وصلنا " بشرّي" والمطعـم الذي قرر أن يأخـذنا سيمون اليه كــان قريبا من متحف جبران خليــل جبران، جلســـنا في المطعم وتبين جواد مقهاه من خرير الماء والشـــلالات. هنا جلس مع المدرسة يأكل ما أتى به من البيت. شرط أن يشتري من المطــعم المرطبات. لا يزال يذكر انه كتب عن هذا المقهى في الموضوع الإنشائي:" جلـــسنا في مقهى حيث انفاس جــبران تأتينا من بيته ". ليعلق الاستاذ:" شو جبران غول يسن اسنانه في بيته ؟".

ننهض إلى متحف جبران خليل جبران تحت درج هذا المطعم الذي ينبعث منه صوت وديع الصافي " أوف، أوف، أوف"، ندق على الباب ولا مجيب. ندور حول البناء، نعود وندق على الباب. صوت المذياع يشجعنا لأن ننتظر. نسمع صوتا من نافذة جانبية:"المتحف مغلوق." يصيح جواد:" جايين من بعيد من الصين". يأتي الصوت:" من وين؟ من وين؟ ثم: " يلا يلا جاي افتح".

يهلهل وجه جواد بالفرح:" الظاهر الصين نفعت".

يظهر لنا عجوز يرتدي اللبادة والشروال، يلف الحزام حول خصره ويبادرنا مبتسما" مسكرين يا أهلي مسكرين". يداعبه سيمون:" شوف هالمدموزيل شو حلوة، افتح كرمال شعرها".

يبتسم العجوز ويمد يديه الينا ويهمس:" الكلام بسركم. المتحف فاضي هرّبوا كل شي خيفانين من السرقة".

يحثه جواد"خللينا نشوفوا فاضي".

أتدخل قائلة:" ياعم نحنا مصدّقينك، بدنا ناخذ فكرة عن المتحف".

يقودنا إلى غرفة يفتح بابها. لنصاب بالندم لحظة تلتقي أعيننا بالجدران الفارغة، إلا من المسامير الوحيدة، ومن الرطوبة والبرد.

عدت من الرحـلة المدرسـيـة وأنا أردد:" أبناؤكم ليسـوا أبناءكم انهم أولاد الحياة".

فانبرت زمزم وقتها قائلة:" ومن يطّعمهم؟ ومن يشرّبهم،الحياة؟".

نشرب العرق ونأكل ونضحك، اجدني أميل إلى جواد وأميل إلى سيمون، أشعر بأني استطيع أن أكون بين صدريهما وبين انفاسهما، وأنا في حالة سعادة. تبدو الأرزات من بعيد رغم العتمة التي هبطت وغلفت كل شيئ، أفكر بها قليلا وأعود إلى نفسي. أنا في حالة سعادة. ندخل الديسكو، الذي كان اسمه الستريو. رغم أنه يكاد يكون فارغا إلا أن جوّه يذكر بحياة السلم سرعان ما تتلاشى الفكرة هذه عند رؤيتي لرجال في ركنه يتحدثون في السياسة ثم أحيانا يتهامسون ويتناقشون. يقربون رؤوسهم من بعضهم، أحدهم صرخ حتى يعبر عن رأيه.كانوا حراس شجر الارز ومصاعد الثلج. تلفت نظري في بهو الفندق صورة لشاه ايران وثريا أثناء زيارتهما للأرز. رغم وحدتي هذه نمت ونهضت في اليوم التالي وكلي سعادة. نسير إلى الأرزات التي بانت من بعيد وكأنها كقطيع يحب بعضه. يلتصق ببعضه.. يحافظ كل منه عن الاخر. كلما اقتربنا منها كلما تراءى لنا السياج الذي نصب حولها. لماذا هذا السياج، هل الخوف من أن يقتلعها أحد بعد إختفاء بعض آثار القلاع القديمة وأحجار مغارة قاديشا.

" سوسة ضاربة بالخشب وعم يعالجوها"

"سوسة؟ هل هي ضرس ؟" لكن الأشجار تموت واقفة، تصاب بالمرض ولا أحد يكتشف مرضها في البداية. شجرتنا البلوط التي مرضت اخذت تنز دبقا على

الغسيل المنشور تحتها، ولطالما هي شغلت بال جدتي وجدي، فكانا يتحدثان عنها وكأنها بنو آدم.

"لمست شجرة الأرز وأنا صغيرة حتى الآن لا أعرف ماذا تسمى أغصانه فهو ليس ورقا ولا كأبر الصنوبر".

«هناك من يريد ان يسمم الارز ان لا يعود الارز رمز لبنان»ثم كأنما تبنى جواد الفكرة بعد أن كانت خاطراً فيكمل نظريته:" والله مش بعيدة، يريدوا يمحو قلب لبنان؟".

يهز سيمون رأسه مستنكراً ثم ضاحكاً:" لا تروح بعيد..كثير نحنا منفكر العالم أذكياء ويفكروا لبعيد وعندهم مخطط، انهم مثلنا كل شي عالسريع وعالعمياني ". عند سفح الجبل غرسات خضراء كأنها توأم أقول إنها تشبه " أم قلبيانه خضراء وملانه" يضحك سيمون على كلمتي هذه، يحيطني بذراعيه:" بدك نظارات يا حبيبتي،من وين انت جاية؟وما انت جايه من بلادها. هيدي حشيشة"."بس كمان هون؟" ليش مش هون؟ البقاع وهون وكل مكان. شفتي اصحابنا شاطرين بها الشيئ مش بالسوس وبالأرز".

نتحدث بحزن عما نرى ثم مستفظعين ما يجري، حتى يعلق سيمون: «عندنا اهوال شو رايح عليكم، انتو بالغربية ما بتعرفو شي. زورونا اكثر.. " اجيب ضاحكة:"نحنا من غيركم مافينا نعيش.. كل شي عندكم بالغربيه. القمح والطحين والمازوت وقطع غيار الغسالات والثلاجات. نحنا منموت اقتصاديا من غيركم».

يعلق جواد:" ونسيت يا سيمون أهم شغلة، اسمهان؟ مافي اسمهان إلا في الغربية".

أفهم لماذا يعلق جواد بهذا، لابد أن مناداة سيمون لي بحبيبتي واحاطته لي بذراعيه من حين لآخر. انظر إلى سيمون، لم يعد بيننا أي شعور. انظر إلى جواد

لبرهة وأعود فأحيد بنظري عنه وأحطها على شجيرات الأرز الساكنه ثم على سفح الجبل. الى جانب شعوري بأن الرغبات والعواطف تتبدل كانت عيناي على شجيرات الأرز الساكنه وعلى« السفح والحشيشة. الاثنتان خضراوان ينبتان من صلب الأرض. نعود إلى بيروت الغربية تاركين خلفنا الحواجز الأخرى والجبال والنسيم، لحظات وكأننا لم نكن سوى في هذه الرطوبة، كأننا بعودتنا يعود جواد إلى كنفي وعالمي. فأتساءل هل هو كالباقين، ما أن يحلّوا على بيروت حتى اصبح أنا بيروتهم ليتعلقوا حتى في الطريقة التي أرمش بها عيني وليستمدوا منها مسحة أمان واطمئنان وأما القلق خاصة اذا توتر الجو فجأة، وطغت الاشاعات على صفو الأيام وكأنها مستعارة من الوقت. طلقات هنا وهناك، وروحية تتصرف وكأننا كنا في غيبة طويلة ونجهل واقع الحياة هنا. لذلك فهي تمسك بيد جواد تماما كما أفعل مع زائري بيروت وتصيح:" يللا يا حبيبي سافر هلق قبل بكرة، وبكره قبل بعد بكرة، بدها تعلق عن قريب".

يجيبها جواد وهو يحاول أن يكون غير مبال:" بسيطة". لكن قلقه يفضحه. يسألني: " شو يا ست اسمى ؟ منسمع كلمة بنت خالتي المرعوبة؟".

أعرف اني دائما اصدم بالزائرين. لكن هذه الأيام التي قربتنا من بعضنا الآخر جعلته ينفي الواقع بأنه زائر. لكن ها هو الآن يتعامل مع حياته وكأنها أغلى من أي حياة أخرى تعيش في لبنان. ربما لديه ولدى الذين تركوا هنا كامل الحق. لذلك هم فروا من هنا ليدافعوا ويخافوا على الحياة الغالية بينما يروننا ندب على أرض مليئة بالألغام. اتمنى لو أقول له:" انت خايف اكثر منها"، لكني اجبته:" القرار راجع لك". كل الذين يودون زيارة لبنان من الأصدقاء كانوا يستشيرونني قبل مجيئهم كأنني النشرة الحربية وما ان يحطوا برحالهم ويندمجوا بواقع الحياة هنا حتى ينسو خوفهم، قلقهم ويكتشفوا ان الوهم فقط كان يحمل لهم الرعب

والحزن إزاء بيروت إلى أن يتبلبل الوضع ولو في الإشاعات حتى يلغوا سعادتهم لأنهم كسروا طوق الخوف وجاءوا إلي لبنان ولمسوا ذكرياتهم وأماكنهم والتقوابمن يحبونهم وبالتالي لأنهم التقوا مع انفسهم. يغيب عن بالهم كل هذا اليصبحوا كتلة من القلق والتردد وليصبح حلمهم الوحيد أن يروا انفسهم في طائرة سريعة تقلهم إلى حيث هاجروا.

ندخل المقهى الذي يكاد يكون وحيدا لاستيعاب من هم مثلنا. نلاحظ الوجوه المتسائلة وهي تراقب فتاتين جلستا معاً. هل هما سهلتان؟ لماذا تجلسان وحيدتين تضحكان تدخنان تشربان الجين والتونيك؟

أتحسر على مقاهي ايام زمان وضجيجها عندما كنت انظر في وجه من يحادثني ولا اسمع ما يقوله. كانت الحرية آنذاك ترفرف حتى على البخار المتصاعد من آلة اعداد القهوة، ولم يكن هناك وقت لابتلاع كل ما يجري. حتى نساء ورجال البلاد العربية كانوا يجلسون معاً عند مقاهي الأرصفة بعباءاتهن وبراقعهن. جو هذا المقهى لم يكن يوافق شعوري وجواد بالألفة، نعدو عنه وكأننا بخروجنا منه سوف نلتم معً. ونلقي انفسنا في بحر من الدفء والشوق، خلاف ما كانت تعكسه الطرقات والشوارع.

أسير أنا وجواد غير آبهين بأننا نمسك بأيدي بعضنا، كنا خائفين من أن يفلت أحدنا من الآخر، رغم الشوارع ذاتها لم تعد تتقبل حتى الوجوه الجميلة البسيطة.ولا الملابس الخارجة عن المألوف، إلا إذا كانت قبيحة، النظرات من الجنسين تحدق بنا. مما جعلني اشد على يده أكثر. لا أعرف كيف أمرالآن في فكره. بل أعرف أني أتمنى لو أنه لا يسافر إذ التعود على وقع الحياة هنا من غيره سيكون قاسياً. نتمنى أن نجلس معاً في مكان هادئ. نقصد بار فندق قريب ونجلس مع سوانا من الذين لجئوا إلى العتمة الخفيفة في وضوح النهار.

ـ «السفر قريب، وقلبك صار قريب مني».

اضحك مجيبة:

ـ «ما تسافر»..

يتجاهل ضحكتي ويرد:بدي اخدك معي..بدي اجبرك تسافري معي". أسأله بهلفة:" بدك ترجع تزورنا؟" يرد وفي صوته رنه حزن:بعد كم سنة". أجد نفسي أمسك بكفه فجأة وأخفض رأسي حتى تصل شفاهي اليها وأقبلها ثم امسكها بين يدي ثم اعصر وجهي عليها. ثم اقبلها من جديد ثم احبها وأتمنى لو اضعها على شعري وعلى رقبتي وأتمني لو أتهاوى حتى يربت بها علي تماماكما يفعل مع روحية.

أرفع رأسي قليلا. كيف سأتحاشى نظراته لي بعد الآن، وأنظار من في البار.لابد أنه كان ينظر في وجهي. إذ ما إن رفعته، حتى لمسني بوجهه وأحاط كتفي بيديه وشد على شفتي حتى كاد يقتلعها مني. لم نتوقف إلا لنأخذ نفساً ضئيلاً كسابحين ماهرين.

أتململ وأحدق في الطاولة قبل أن أرفع نظري إلى من حولي. وكنا نجلس في ركن بينما الغرسون وراء البار يلّمع الأقداح.

تطغى الحيرة على سعادتي بهده القبلات التي حركت بي الشعور الآخر. لكن هذه المرة أعرف أنه امتداد لعاطفتي، امتداد حتى لصوته ولكلماته، لكني كنت خائفة من أن يركز الشعور. الغريزي نفسه بي. هل أترك نفسي طوع شعوري وأفكر باللحظة ولا شيء سواها.. وأتساءل لماذا عليّ عدم الاسترسال وراء رغبتي، هل لأن الحرب لم تعد بالمعارك النارية، بل بمخلفاتها، وأن في حالة الانتظار هذه لا يجب ان يحثنا الشعور للمضي إلى آخر الحدود. أم ان علي ان اطرد الأفكار واستأنس بشعوري هذا ولو كانت علاقتنا مؤقته؟وأجدني احارج هذه التسمية اذ

لا يمكن للشعور ان يكون مؤقتاً مادام هو صادقاً.

أجلس في سيارتي بينما يجلس هو في مقعد القيادة. كان الغروب قد ابتدأ يحل على بيروت تاركا على أطراف السماء شفقاً أحمر، وكأنه حز بطيخ. أتلفت حولي وأتساءل والضجيج لم يزل يكتنف المدينة. لماذا هؤلاء البشر ليسوا مثلي ومثله؟.

أشير إليه لأن يتجه حيث صنوبرة أخرى عالية. تظلل شرفة بناية قديمة. طلبت منه التوقف لننزل ونصعد الدرجات وهو يتساءل:" الى اين ".

أصعد به إلى سطح بيت صديقتي التي اكتفيت بأن ألفظ اسميهما أمام كل منهما. عجلته خلفي رغم مناداة صديقتي لي:" درجات واصبحنا في واحة من سطوح لا يستطيع إزاءها المرء، إلا أن يفكر بالأيام الماضية وبالسلم. وبالحياة اليومية الطبيعية حيث حبال الغسيل، والملاقط المتساقط بعضها على الأرض، وخزان المياه الذي كان يبني على سطوح البنايات، تبدو بيروت مسالمة قريبة للقلب، فيها روح وطفولة، فيها مساء ونهار وغروب وفجر: لم تزل مدينتنا.

بدت بيروت متماسكة. قام لون الغروب بتغطية دمارها وجعلها مستأنسه بأصوات أهاليها الخافتة الآتية من بعيد، وكأن الحرب لم تخدشها قط.

يمسك بيدي ويدنيها الي فمه ثم يضعها في جيبه. "أنا عارف ليش جبتيني لهون، بدك ياني ابقى هون". أقول كاذبة:" اعوذ بالله. اذا زرتنا بصير افرح لما تزورنا مثل ماكنت افرح انا وصغيرة بالعيد ".

يشد على يدي:" بدي كون معك لوحدي".

رغم توقي لأشده إلي واترك رأسي على صدره، إلا أني أردّ مازحة:"ومين مانعك؟".

نصبح آله من مغناطيس متشابكي الآيدي واللهفة والرغبة " مين يمنعني؟

الست روحية والست ستك ورسام الشهداء وفضيلة،وشو بدّي عدّ تعدّ".

" وانت"؟.

"في واحدة، بس شعوري اقوى مني".

"لمحت صورتهامع روحية".

ننزل السلالم وندخل بيت صديقتي التي كانت تحاول الاتصال بمكتبها في نيويورك عن طريق قبرص، وقد تجمعت حولها صناديق الكتب العربية والاكسسوارات الشرقية التي اخذت تتاجر بها. بصياحها عبر الهاتف عن الأرقام الجمركية التي ارسلتها مع الأغراض ألغت الشعور الطائر الذي شعرنا به ونحن على السطح واعادتنا الى واقع بيروت التي اصبحت صلة وصل فقط. الجمال فيها يُصَدّر. أتمنى ونحن في طريقنا الى البيت ان أجد روحية حتى لا انفرد به. عندما سمعت صوتها ماإن صعدنا الدرج حتى تمنيت العكس. اسرعت تفرد قفطانا اتت به من الضاحية لصديقة جواد التي سبق وأهدت روحية زجاجة عطر."شوف هاللون لح تجن. فيه قولك مقاسها؟!".

لا، لم انتفض غيرة. هي قبلي ولم تزل قبلي. علي أن اكون سعيدة. ما يضاقني هو اعتراف روحية بها. خياطة القفطان كانت سيئة لدرجة كأن عقل من خاطته لم يعط الأوامر للعينين ولليدين، قماشه الرخيص ولونه لم يشفعا به ايضا.

• أقول وقد حزمت أن أبقي علاقتنا هكذا. حتى لا يفارقني الشعور بالرضا.فالتوق إلى الغائب يسيطر عليه الخيال ويلتبس على الآخر ويظنه عشقاً " أنا عندي قفطان بستغني عنه".

أسرع الى غرفتي قبل أن أبدل رأيي أو يلحظا ارتباكي، افتح الخزانه وآتي بقفطان من بين القفاطين الكثيرة التي اشتريتها سواء كانت جديدة أو قديمة، فموضة القفطان انتشرت في أواخر الستينات. قفاطين مشغولة باليد، قديمة بالية

جديدة ومشغولة على المكنات، يتأمله جواد ويثني على جماله.

تقول روحية والندم والخيبة على وجهها:" يا حرام المصاري".

"لا حرام ولا حلال انا بدفع ثمنه".

ثم يلتفت الي ويقول:"مش راح آخد قفطانك فوتي قيسي. خللينا نشوف جان دارك لبنان بها القفطان".

أكملت عنه:" اسمهان رئيسة الشعبة السياحية. اسمهان المضيفة الدليلة الترجمان..." ادخل غرفتي، اضع القفطان عليّ ولا اشبك الصدر بالبروش كما كنت أفعل. افكر كم كنت عاقلة لأني لم أكن اظهر أعلى صدري كالآن. أو أن الموضه انذاك كانت اخفاء الصدر؟يفارقني ارتباكي، ربما لأني قررت أن علاقتنا ستبقى على حالتها هده،وأنا أُمني نفسي برسائل منه. هذا ما احتاجه في هذا البلد،أن تصلني رسائل،أن أجلس وأكتب الرسائل وأتلقاها، بدلاً من أن اكتب رسائلِ في مخيلتي، أحدثه فيها كبطلات الروايات عما يحدث في جو الحرب والهدنه. كأني شهيدة أو شاهدة، معه حق بأن أطلق عليّ جان دارك لبنان.

أنطلق خارجة كأن الحر يكاد يميتني، أفتح الشباك وأمد صدري ووجهي للهواء. لم يعلق وهو يراني مرتدية القفطان بينما تعالى صوت روحية" ان شاء الله بتلبسي كل يوم قفطان جديد. ما تعطيش لحدا..".

ثم لتردف" انتو ناضجين، دخلكم ليش ما تتجوزو بعض. مش احسن يا جواد؟ ما انت عارف المثل: تاخذ من غير ملتك توقع بعلة غير علتك؟".

اجبتها بمزاح:" يعني عم تفكري فيه وبمصلحته». مش في. لا والله، فيك بجدّية تصيح:«عم يحز قلبي كل ما بشوفك وبتأمل بجمالك وبتعرف على اخلاقك اكثر وأكثر وقول مين هالغشيم اللي ماقطف بعد هالوردة".

"اسمهان مابدّها تتزوجني، اسئليها يللا، ترجيّها.

رددته عنها بكل ضيق صدر:" يللا روح من هون، حاج تحكي،الرجال بحبّ ال واحدة تتحركش فيهم وما فيش غير الأجنبيات اللي بنادوا على بضاعتهن، معنا صحون معانا كبايات". تلتقي نظراتنا ونضحك على الذي طاف بخيال كلينا. كيف امسكت بيديه وقبلتما قبل ساعات ودفنت بهما وجهي ومصصت شفتيه بشراسة وتركت قدمه تحف قدمي، ويده عندي وهو يقود السيارة بيد واحدة.

تدق روحية الكبه النيه وتبقى في جلستها هذه خلف البلاطة تنتظر فضيلة حتى تأتي لها بالمردكوش والحبق، إذ كانت هذه قد يبست كلها في الأصاصي اثناء غيابنا، وهي تصدح باشعارها المضحكة" خذني ياجواد بالشنطة خذني وبرمش عيونك ياجواد لفني". فيجيبها:" الشنطة ضيقة..".لكنه يطلب مني الذهاب الى البحر:" منطل عالبحر ومنشتري نبيذ".

نطل على البحرو؟يود أن يرى البحر، يود أن يغرف منه قبل أن يولي، إذ السائحون فقط هم الذين يشعرون بتأنيب الضمير إن لم يروا كل شيء إذا لم يسمح لهم الوقت بالقاء حتى نظرة واحدة على الأماكن التي لم يروها.

كانت الوسائد الفلسطينية المطرزة بالأبرة على لائحة جواد. لم يكن التطريز الجميل والألوان هي الحافز لنقصدها له بل الجنون الذي رآه المخيم ابان مجزرته. لا تزال الدكانه الموجودة عند مدخله حيث تباع فيها هذه الوسائد. عندما دخلناها كانت رائحة القهوة المغلية تفوح منه والمسؤولة ترشف من الفنجان، وتنفض سيكارتها وهي تفرش الوسائد وتساعد في الاختيار، وصوت جورج وصوف يتعالى من احدى الأكواخ.

كنت قد ظننت أن هذه المدّة التي قضاها في بيروت، محت كونه زائراً بعد ان كان يتمنى لو يسجل حتى ذبذبات البرغش وهو في الضيعة. لكن يبدو أني كنت مخطئة، فهو لم يزل يسجل: ضجة السيارات والناس الواقفة على

الكورنيش،يتساءل لماذا صدور النساء هنا عامرة بفساتينهن القبيحة.

سيتساءل وهو يرى ولداً فوق الدراجة الصغيرة إن كان هو أخ العاشقة التي تنظر في عين العاشق أو أنه ابنها. سيلمس الأنبوب الحديدي المبروم المجنزر ويقول:كأن الدرابزين بارد ولم يزل. تعجب لرؤية الرجل الذي يرتدي القمباز البلدي والخيزرانة. سيشمئز من هذه الاصوات، المختلطة بأصوات بائعي العلكة، لكن جواد يكتفي بالقول:" أهل بيروت محاصرين ماعندهم خيار إلا البحر". لابد أن الذي أوحى له بهذا الخاطر خمسة أولاد كانوا يرتكزون على سور البحر، وأعينهم على الأمواج، ينظرون اليها بحسرة. لا اعتقد آنهم كانوا يرونها في العتمة أنما كأنهم أداروا وجوههم عن الحقيقة التي بانتظارهم.

"بتعرف هالناس عن الغولف كلوب؟".

وكنت قد أخذته إلى قمة التناقض في بيروت. إلى نادي الغولف كلوب، المكان الثاني بعد الجامعة الأمريكية الذي يتساءل عنده المرء: هل هو فعلاً في بيروت؟ وهو يرى العصافير الكثيرة تزقزق. تنتقل من شجرة الى أخرى، من صحن إلى آخر. من الأرض إلى الطاولة تلحق بفتات الطعام. ولتؤكد أن وجودها طليقة في بيروت هو معجزة بينما تظهر الأشجار الخضراء، السماء أشد ازرقاقاً، رغم اننا سمعنا من حين إلى آخر صوت مدفع أو رنة رصاصة ترتطم اينماكان، إلا أن الجو لم يتعكر سوى مدة قليلة، لهبوب الأمهات المستلقيات اللواتي أسرعن يلملن اطفالهن، ولاعبو الغولف يعودون بحقائبهم ويجلسون في المقهى ينتظرون حتى يعم السكون من جديد في النادي الذي لم يكن ليوحي لأحد بأنه من الممكن حدوث المعارك من حوله. ينتظر الجميع في الممرات الداخلية، حتى تعود الحياة إلى الملاعب وإلى بركة السباحة شيئا فشيئا.ا وعندما عادت العصافير عاد الجميع وعاد المتفرجون من الجنود السوريين يراقبون اللاعبين باستهجان.

نعود الى السيارة نبحث عن دكان يبيع النبيذ، ونجده في واجهة فيها كلما يتمناه الحلق من مشروبات روحية. في شارع ضيق على رصيف نصفه متأكل تظلله الأوساخ وبقايا الاشجار، وجدنا أنفسنا وحيدين إلا من رغبة أحدنا في الأخر،لنجد أنفسنا نعانق بعضنا بشدة، كأن مقياس العاطفة هو من يشد ويؤلم الآخر، حتى نصل الى روح كلينا.

ولم نتوقف الا عندما سمعنا صوت محرك سيارة خلفنا. لأدير مفتاح السيارة متمنية لو أرفع يدي عن مقودها وأتركها تسير بنا على هواها.لا أعرف كيف وصلنا إلى البيت من غير أن نرتطم بأي عمود كهربائي، حيث أصبح شبحاً لا يضيىء أو بجدار أو بأكوام الزبالة، أو بحاجز إذ أصابعنا أصبحت كأنها عقد تشابكت به خيوطه.

دخلنا الجنينة، وما ان رأيت تنكات الماء مصفوفة حتى صحت من الفرح.أدخل إلى الحمام سعيدة بالماء الذي اشتراه لنا علي. أدلق على نفسي الماء، كلما دلقت عاودتني الرغبة لأن أكون مع جواد ولأن يراني عارية. أسمع صوته في الردهة بين الغرف، حيث رفوف الكتب، أفرح لأنه سوف يراني والمنشفة تلف جسمي، ومنشفة أخرى تلف شعري، أركض مندفعة الى غرفتي وأنا أفكر اذا كان ينتظرني، أو أنه يقلب الكتب عن حماسة حقيقية. أنـادي مـن غرفتـي.

" بدك تهديني كتبك ؟".

" والله، معك الواحد ما بيعرف كيف يتصرف " يمكن ما بتحبي كتبي؟".

أسمع صوت روحية يتعالى " في شاب يسأل عنك".

هل أطلق سراح كاظم ؟ وأجدنى لا أهتم لمن جاء يسأل عني بل أضع القفطان عليّ بينما اترك نقاط الماء تتساقط من شعري. أدور على نفسي من السعادة ومن الترقب. آلامس المرآة وأتفوه بكلمة. أبتعد عنها وأتأمل نفسي. أجمع

شعري إلى جهة واحدة. وأتنهد كأن جواد يراقبني من عدسة خفية. وكان أخ كاظم الذي أصبح ممرضاً لدى العجائز والأثرياء ينتظرني. أبادره بالسؤال عن كاظم فيطمئنني: " كم يوم والسورية بيتركوه. معقول يتكلفوا على الأكل والشرب والحراسة أكثر من شهر ؟".

جاء يطلب معونتي، يريد من صديقتي حياة أن ترسل له خمسين صوصاً. أضحك وأنا أحاول أن أفهم النكتة أو القصد وراء هذا الطلب. لكن كان أخ كاظم في منتهي الجدية، وهو يقلش أمامي مجلةالكتاكيت والديوك الأوروبية حتى الأميريكية، ووجدتني أفتح صفحات هذه المجلة وأرى ديوكاً ودجاجاً بالوان وأشكال غريبة لا تخطر إلا على بال رسام الشهداء. ويبدو أن تصفحي الطويل لهذه الديكة العجيبة وحماس روحية لأن تشتري أيضاً منها فسره أخو كاظم بأني موافقة إذ يقول سعيداً: " أنا قلت فيك تساعديني. صارت البيضة بتفقس بالإيد. قشرتها مثل ورقة السيكارة خبريني، كيف بدّو يطلع صوص من هيك بيضة ؟ ويدو يصير دجاجة او ديك أو بنى آدم ؟".

لا أضحك. لا أريد أن أقع في فخّه. أجدنى استجمع شجاعتى وأطرد الموضوع".

" ما بعرف إمتى حياة جاية وعلى كل حال غير معقول اطلب منها تحمل صيصان ".

لأستدرك و أصيح ضاحكة: " ولك جنّيت ؟ بدكم تحمولها صيصان ؟".

عندها يكتشف تصميمي على الرفض، يصرف موضوع طلبه مداعـــباً " «أنا ما جنّيت بعد. بس الرجل اللي حمل معه خمسين صوص جن من الصوت. كل الطريق، من لندن لبيروت. الركاب فكروا انو براغي الطيارة عم تتفكك وتعمل

هالصوت. ويعدين فوق الصوت طلعت الريحة... كم صوص عطاك عمره عالطريق".

كم كنت أجلس في هذا المطبخ ومطبخ البيت الذي ولدت فيه، أستأنس لهذه الأحاديث، التي كان يتخللها الصراخ والضحك والغضب. هاهو المطبخ كما هو، عدا حيطانه المتشققة وروحه التي فارقته. لم يعد لديه ذراعان تلفانني كأنه اسعاف أو جدتي. بل أصبح وجوده الآن لشدة الضرورة و إعداد الطعام، وسببا للمعاناة التي تبتديء. بالحنفية التي لم تعد تنساب منها المياه بحنان بل تحدث صفيراً من فراغها، أصبحت بعد أن توقفت عن تمثيل دورها كأنها عرف ديك بشع. وليس ملك، ذو تاج. فرن الغاز الكبير ايضاً.والذي كان مفخرة المطبخ.بعد أن أصرت زمزم على شرائه أسوة بابنة الجيران البيروتية التي كانت تحضر قوالب الكاتوه. يقف الآن ساكناً حسب توفر الغاز. وإذا فتحناه يتعالى صريره وتظهر قذارته إذ لم تعد زمزم تشتري المسحوق الخاص الغالي لتنظيفه. بينما وفي زاوية المطبخ تركنا ثقباً خلفته قذيفة ونافذة هرّ زجاجها فسددناه بالنايلون. بعد أن يئسنا من إصلاحه أكثر من مرة. لم يعد المطبخ واسعاً، مفرود البلاط، عالي الجدران لا تصل أغصان الملوخية الخضراء إلى نصف جداره مهما علت كومها. فيجلس الجميع ما عدا جدتي. بين أوراقها الخضراء نفرطها عن الأغصان ونكومها فوق شرشف فستقي اللون، لم يعد مطبخنايلحق بالشمس التي كانت تضرب بزجاج شباكه في الشتاء بينما نجلس على مقاعد منخفضة، قبالتنا حديد الشباك تدلت منه قشور البرتقال التي دأبت زمزم على تجفيفها لتضيفها مع الجمر في الشتاء. رغم أن الثلاجة احتلت دور النملية لحفظ الطعام قبل الحرب، عادت النملية تمثل دورها كما في الماضى، أجدني الآن أود أن أكون كما في الماضي. لذلك كنت أستمع إلى روحية وفضيلة وكأنهما بصوتيهما تضفيان شعورا منعشا يمدني

بالطمأنينة، بينما رائحة الكبة تملأ أنفي والبيت كله. "

شعرك مبلل، هلق بيلفحك الهواء. تبادرني روحية:" وين الست زمزم مخبية الزيت؟ " اندفعت بكل قوة الى النملية فأنا لم أزل تحت وطأة رغبتى بجواد وتمثيلي العكس، اتصرف وكأنه أسند الى مهمة مستعصية. إذ أجدنى أركع على ركبتي أفتح باب النملية السفلى ولا أجد إلا قنينة زيت فارغة، ولأن النملية كانت مكتظة، أخذت أخرج بعض الأكياس والمراطبين حتى أفرج من عتمتها. ولم أعرف أني كنت أفشي سراً بفعلي هذا. فتصيح فضيلة وكانت تتحدث مع جواد تخبره عن زوجها الشيخ وتسرع تمسك بما أخرجته للتو: " زمزم كذابة. حلفت يمين إنها لم تستلم من الإعاشة التي فرقوها الإيرانية".

"ربما يمكن خافت من ستي؟".

" ليش تخاف، شو هي ايران جهنم سوداء".

"أفظع من جهنم السوداء".

تنبرى فضيلة:" وليش يا حبيبة القلب، بالقليلة صار عندنا مستشفى للتوليد، ياعين ياليل، قديش نظيفة، الواحد بيلحس أرضها لحس، وصار فيها دكاترة نسوان... مش أي دكتور بينزل نكش ذراعه بالمرأة ".

"هيك يا ست فضيلة الدكاترة بينزلوا نكش وزراعة فيكم؟".

نضحك جميعنا لتعليق جواد وأتصنع باني لا أتمالك نفسي من الضحك، بينما كنت أتصور نفسي حاملاً منه وهو يأخذني الى الدكتور.

"هذا إفتراء على الإيرانية، ونحنا ما شفنا منهم شي".

"ولو شوفي كيف، حزب الله عمل بريكاردو، أو نسيت ؟".

"شو عملوا بريكاردو؟ هو بدو يعمل بحالو هيك. أجا طيار من افريقيا. بالعكس، حزب الله، مع العلم فتحوا مدارس وعم يعلموا".

"مدارس عظيمة !!بيعطوا الأولاد دفاتر وكتب عليها صور الخميني ".

"ليش لا. الحكومة مش عم تطلع بحدا ".

يدخل جواد طرفاً بيني وبين فضيلة.

" الله يساعد الحكومة بعدكم بتسموها حكومة ؟".

"والله شباب الإيرانية سألوني إذا عايزه مصاري مشان إمي، قلت متشكرة بس إدفعوا قسط مدرسة إبن الجيران... والشباب ايضا عم يصلحوا البيوت ".

ولم تهتم روحية، بحوارنا كانت منهمكة بجبل الفراكة، تذوقها بطرف لسانها «ناقصها مردكوش وحبق". لتعلق فضيلة:« لو سلموني المفتاح، الله يسامحهم كنت غليت المي وبردّتها وبعدين سقيت المساكب».

يبدو الاشمئزاز على وجه روحية فبانت تجاعيد وجهها اكثر:" يعني عم نأكل فراكة فيها مية بحر وقرف وجيه ". تشهق فضيلة:" ليش تاركة وجهك يا روحية بلا كريمات، صار جبينك مثل جلد السحلية مثل ما كان جبيني بالأول، اسألي أسمى كيف كان وكيف صار بعد الكريمات ". كأنه ليلة القدر. استغفر الله. مشت عليه حتى كل التجاعيد اختفت.يضحك جواد وكأنه اصبح هو نفسه امتدادا لفضيلة وروحية. رغم ملابسه التي كانت تظهره اوروبيا يكتشف في فضيلة كائنا يبحث عنه في اختباراته. يستأنس لهكذا شخصية وهكذا احاديث.. تنتقل فضيلة بالحديث عن حناجر الكريمات الى مستشفى المجانين حيث امها واخيها الذي حسد امه لانها دخلت المستشفى اذ لا بد انها تأكل زبدة ومربى وخبز فرنجي.

ثم تخبرنا عن الجندي السوري الذي احبها رغم صغر سنه والذي تم نقله من جراء ذلك. تقاطعها روحية: «طبعا حبك لانه حب الكوسى باللبن».

- كذب ونفاق.. الكوسى كان للحاجز كله.. على كل اي ساعة السهرة الليلة؟

تخاف فضيلة من أن تفسد ليلتها عندما اقترح ان يصحبنا علي وتعارض روحية. وكنت أعرف أنها تود أن يأخذنا جواد لأنه سوف يدفع عنا جميعاً فزوار بيروت لا يعدون نقودهم. أحاول إقناع روحية بأننا سنشعر بالراحة والاطمئنان إذا كان علي معنا،دون فائدة بينما يشتد خوف فضيلة من أن أفسد لها سهرتها الليلة، فتوجه حديثها الى جواد:" الليل ببيروت لا يوصف. شم هواء ورقص وفقش،. وجواد ينظر الي كأنه يستشيرني بما علينا عمله فتمنعه فضيلة قائلة:" ما تطلعش بأسمى، أسمى آخر شخص لازم تطلع عليه، هي ضد شم الهوا. إذا لحقت بافكارها بنقعد بالأودة... يللا. مناخد موسى معنا، وموسى مسالما".

"موسى ؟ اللى عشقانتيه؟» تبادرها روحية. لم تجبها فضيلة بل أخرجت حنجراً من كيس البلاستيك الذي كان معها تضعه أمام روحية وتقول بالفصحى: " التجربة أكبر برهان " ثم ترقص حول نفسها وتمسك جواد من وجنتيه:" ولك تقبرني، تقبرني على هالوجه وعلى هالجسم، بالليل بدي أرقصلك وغنيلك ". تعلق روحية ما أن تختفي دعسات فضيلة:" مجنونة يا حرام الهيئة لاحقة أمها، وامها لحقت ستها ". بينما علقت أنا وأخوها:" عالطريق " وتمتمت روحية لنفسها:" وأخوها عالطريق ".

فقدت أم فضيلة عقلها شيئا فشيئا ومع ذلك لم تصدق فضيلة هذا الجنون إلا بعدما ضربت أمها ذات مرة لأنها نادت زوجها بالراعي، وسألته كم بقرة حلب اليوم ومدت يدها الى حقيبته تحذره، خوفا من أن يقع الحليب على الأرض وكانت قد هربت في الصباح من البيت وسارت متجهة الى الحاجز تشكو لهم فضيلة، وزوجها الراعي الذي أغلق الباب حتى يتسنى له خنق البقرات، وما ان اعادها شباب الحاجز إلى البيت حتى صاحت فضيلة بأنها جائعة ثم لتبصق بالطعام الذي وضع أمامها. عندها انهالت فضيلة عليها ضرباً بيديها وكلها ثقة

بأن أمها تعذبها لأنها تغار من زوجها، ولم تكتشف فضيلة الواقع الذي لطالما هربت منه بأن أمها هي فعلا بهذا القدر من الجنون إلا عندما أخذت تمسح لها الدماء التي تساقطت من أنفها بخرقة مبلولة وهي تسألها بحنان:" مين ضربك يا ماما، إن شاء الله تنكسر الايد اللى ضربتك". لتجيبها أمها بصوت ضعيف:" واحدة مرا، مش شايفتها من قبل أجت ضربتني وهربت ". بدخول أم فضيلة مستشفى الأمراض العقلية تبين لنا أن فضيلة تعيش في عالم من نسيجها تحاول أن تطرحه كواقع. فهي لم تتوقف عن مراسلة أمي طيلة هذه السنين لتصلها رسائل أمي بظروف ملونة تحمل الورد المطبوع وصور عاشق وعاشقة وغروب الشمس، بينما فضيلة تطبع على ظروفها البيضاء العادية أحمر الشفاه. مراسلتها هذه كانت تبعث الضيق في صدر جدتي فتعلق: " الاثنين عاملين حالهم قارئات، كاتبات، أخ بس لو بحط إيدي على رسالة ".

زمزم هي التي اصطادت رسالة كتبتها فضيلة لأمي. ولدهشتنا كانت في اللغة الفصحى والأخبار في منتهي الجدية: " أدخلنا الأم العزيزة مستشفى الأمراض العقلية بناء على مشورة الطبيب، وهي الآن بعناية أشهر الأطباء وأبرعهم».

وكان المفروض ان تعود الينا فضيلة بعد أن تبدل ملابسها لنذهب معاً إلى النوادي الليلية. وعندما تأخرت إقترح جواد ان نقصدها في بيتها. استقبلتنا وكل ما بها يحدث خشخشة، من السلاسل الذهبية حول عنقها والتي تتدلى حول خصرها فترتطم بالحزام الذهبي الى حلقانها الطويلة التي تكاد تصل رقبتها القصيرة. كأنها كانت تتوقع قدومنا رغم لفافات الشعر التي كانت تلف بها غرتها. فهي لم تعتذر عن تأخرها. بل رحبت بنا، خاصة بجواد وأسرعت تنادي أخاها حسون ليشترى سفن آب. أتانا صوته:" انا عارف عم تتحايلي علي حتى تروحوا تتركوني بالبيت ".

يعلو صوتها وهي تشتمه ثم لتقسم له بأنها ترسله من أجل جواد الذي يحب السفن آب وهو سوف يأخذه معه الى فرنسا ويزوجه من عروس فرنسية.

يقترح جواد أن نأخذه معنا هذه الليلة قبل أن يصحبه معه الى فرنسا. نضحك على نصيحة جواد حتى فضيلة تغص في الضحك، رغم أنها شهقت مستبعدة فكرة جواد:؛"مش معقول نأخذه معنا".

يأتينا صوت أخيها الذي يبدو أنه لم يغادر ليشتري السفن آب بعد:

" عم تقولي مش معقول، شو انا ديك عالمشحرة ؟".

وكنا ننتظر موسى الذي تناديه فضيلة بابنها وهو يناديها بالماما أخبرنا عنه ريكاردو عندما كان على المصطبة الحارقة وزمزم تتأسف على فضيلة وتقول مشفقة " ياحرام ما عندهاش فضيلة هلق الا أخوها المجنون ".

تتجاهل فضيلة إصرار حسون، فتختفي في الداخل ثم تطل من غرفتها وهي تحمل صورتها مع ريغان التي تخبئها مع جواز سفرها في شنطة يدها، لتحملها ومعطفها الشتوي كلما ابتدأت المعارك. تفشي لجواد سر هذه الصورة التي اخذتها مع صورة لريغان اثناء زيارتها لأمي في أمريكا منذ سنوات، وخوفها من أن يراها السوريون أو حزب الله ويظنوها صورة حقيقية ويتهمونها بالجاسوسية ".يسألها جواد لماذا تحتفظ بها إذن:"ما انا بفرجيها لخفاف العقل وبيصدقوني وبقولولي إحكيلنا صاحبك ريغان مشان الفيزا». ووجدتني أتأمل بيت فضيلة الذي لم يعد كما كان رغم ان البلاط والكنبات والطاولات والعمودين الخشبيين وكل شيءلم يزل موجوداً عدا غياب صور الممثلين من تحت زجاج الطاولات. كذلك غياب امها وامي. والضحكات ورائحة القهوة والحنين إلى سيرة الرجال الذين كانوا يشبهون الممثلين والتي كانت كلها تتأرجح في كل زيارة. و أجدني أقتلع نفسي من صوت فضيلة الآن وضحكات جواد وسؤال روحية لي اذا

كان عليها ان تبدل بلوزتها ببلوزةاقترحتها عليها فضيلة. هنا جلست ايضا مرة في المرة الاخيرة مع أمي لكن الفرق كان شاسعاً بين تلك الزيارة والزيارات السابقة. فوالدي لم يعد في الطرقات ولا في الاحاديث. وأمي قد ألبستني فستاناً جميلاً من غير أكمام، وكنا قد سرحنا شعرنا عند المزين. بينما أرتدت أمي فستاناً جديداً من الحرير الأزرق اللون. كأننا بصورتنا الجديدة هذه، قد فرضنا القوة والجاه على بيت فضيلة. لتقع المرأتان في الحيرة. ماذا تقدمان لنا، كيف تتوددان لنا. أين تجلساننا. تقسم أم فضيلة بالله وبأنبيائه أن تبدل أمي مكانها لأن ورقة الغرسة كانت تلامس شعرها من وقت لآخر. تضع فضيلة الوسائد خلف ظهرها حتى بدت امي بلا رقبة ثم تأتي بالقهوة بينما تحمل امها علبة الشوكولا. تضع أمي ساقا فوق الأخرى تتناول السيكارة من صحن السكائر وتنفث فيها وتدعوها للذهاب الى السينما.

لتنفجر فضيلة باكية:" لا انا صاحبتك ولا بعرفك يعنى بسمع من الناس انك بدك تتجوزي... يعنى انا مش قد المقام ؟".

مالت امى برأسها اليّ وغنت بهدوء: " هالصغتورة بنتي هالحبوبة..".

لكني كنت على علم بأن امي ستتزوج. وتدخلت الأم. " والله انا فرحتلك، بس ما بخبيش عليك انو زعلت شوي، أرملة وعندك بنت واجا مين يطلب ايديك، ليش فضيلة حظها مش مثل حظك ؟". هجمت فضيلة تحاول ان تسد فم أمها بيدها، لاتدخل سائلة: «يعني خالتي فضيلة مش متجوزة». صاحت فضيلة:" هيك بدك البنت تقول." وهجمت على أمها من جديد تشدها من منديلها الأبيض وأمها تتملص من يدها وأمي تساعد الأم للهرب من بين يدي فضيلة، لتسرع الى الغرفة، وما أناستعادت فضيلة أنفاسها بلحظات حتى سمعنا صوت الأم يصيح من داخل الغرفة: «هيدا مش زواج».

تسرع فضيلة متجهة الى الغرفة لكن امي تردها قائلة: " أمك صايرة عم توقع بالنقطة عم بتجن، مش شايفه كيف صايرة".

وكانت تلك زيارة امى الأخيرة لبيت فضيلة قبل أن تتزوج وتسافر الى أميركا ولم تكن الأخيرة لي، اذ ما إن انتقلت لأعيش مع جدتي حتى عدت أزور فضيلة في سيارة جدتي لأسألها بكل اعتزاز الى أين ترغب في الذهاب.فتهرع فضيلة وتسبقها امها وتقفزان داخل السيارة كأنهما ضفدعتان، هربتا من أخ فضيلة الذي كان يعدو إلى السيارة يخبط على زجاجها ويبكي مما يجعل علي يوقف السيارة وينزل ويأتي به، يجلسه الى جانبه، ويعطيه ورقة حتى يجفف دموعه، لكن أخ فضيلة كان يطوي ورقة الكلينكس ثلاث طيات ويخبئها في سترته قبل أن يشمها ويقول " اللهم صلي على النبي ورائحة النبي".

صوت فضيلة يتأهل بالطارق، يدخل موسى، طويلاً عريضا كثيف الشاربين يقف وفضيلة الى جانبه وهي تكاد تصل الى خصره. إذ حضنته كآم سمعت صرير معدته بدلاً من دقات قلبه.بقى واقفا بعد أن صافح كلا منا ليسألها إذا هي بحاجة الى شيء، فشهقت: " مش جاي معنا مين بدو يوصلنا ليش ؟".

يقترح بأنه سيرافقنا حتى ندخل ليعود فيأتي بنا بعد انتهاء السهرة، لكن فضيلة تصر على اصـــطحابه لنا، كذلك يصر جواد، ليعـــود موسى فيرضى، ولم تأخـــذه أكثر من ثوان ليشعر بأنه فعـــلاً هو ابن فضيلة، وفضيلة هي في منزلة أمي، فإذا أنا في منزلة أخته، إذ يقول:" لا مؤاخذة ست اســـمهان، أنت مثل أختي وأعز، بس بدك تســـهري بها الثوب، لح يفكروك بدوية". أجيبه ضاحكة:" وما بها البدوية؟".

يسأله جواد لماذا اتخذ من فضيلة أمه ليجيبه "سبحان الله، الدم حن".

أشكر فضيلة بيني وبين نفسي لفكرة اتيانها بموسى فهو كان يلم، بكل

الأماكن، بمغنيها وراقصيها وكم هي تكلفة العشاء على موائدها. ابتداء بالفندق الواقع على البحر الذى كان فارغاً يئن من الوحدة رغم أعضاء الفرقة الموسيقية الذين كان يعتمرون القبعات الاسبانية.

قيل لنا أن المكان يزدحم بعد الساعة الواحدة. وعندما أراد موسى التأكد خاف المدير من تحمل المسؤولية وقال وهو ينظر إلى موسى الطويل، العريض "أحسن ارجعوا ليلة السبت". ثم لنتوقف عند ملهى آخر وكان مقفلاً، أما الثالث فكانت قد حجزته عائلة تنتسب إلى أحد زعماء الحرب. كانت هذه الملاهي بعيدة عن بعضها لذلك اقترح جواد أن يدفع لموسى ثمن البنزين، لكن موسى يتراجع: "بان سيارته مؤمنة التكاليف" ولم يفهم جواد ما يقصده موسى بهذه الجملة.

لابد أن موسى كان مسلحاً يحمى الأغنياء من جرذان الليل، لا الجرذان التي كانت تلهو وتقفز عند اكوام النفايات كلما سمعت ضجة السيارات. بل الجرذان اللاطية عند مدخل نوادي الليل وعند المنعطفات.

دخلنا الملهى الرابع حيث الهيصة والأغاني الفرنكو عربية، والنساء يصدحن والرجال يتمايلون من خلف الطاولات، دقائق مرت لتصبح طاولتنا كالطاولات الأخرى رقص وفقش وغناء. فضيلة وموسى وروحية يتمايلون على أنغام الطقاطيق.بينما اجلس وجواد مبهورين بما نراه حولنا. من يفكر ان الدنيا مقلوبة في لبنان، وأن الناس خائفة.

يدلنا موسى على الرجل الذي كان يرقص ويعلق بانه كان نكرة قبل ارتفاع الدولار، اذ انه استسنح الفرصة واصبح من الاغنياء. الساهرون خلف الطاولات يأكلون، يرقصون، يغنون مع المغنين الشباب وأسماؤهم الجديدة تدل على أنها من القرى. يمحون اسطورة الليل في بيروت والذي أثناءه يتب الأمن أو عدمه. الرجل صاحب أكياس الورق المحشوة بآلاف الدولارات يرقص، ويهز بطنه أمام زوجته

المتحجبة وهي تتمايل ويميل معها حلق أذنيها الذهبي. هي تبعد كؤوس الخمر عن عدسة الكاميرا حالما يلتقط المصور لطاولتهما صورة بينما تجلس فضيلة سعيدة قرب موسى، تشد الإيشارب المفضض الملتمع كلما هبط عن رأسها تنظر بإعجاب وحرقصة إلى ساهرة، تصعد على الطاولة لترقص فوقها بعد أن أزيحت الأطباق والكؤوس على حدة.

لماذا الديكور؟ لماذا هذه العناقيد الاصطناعية؟ ألوان هذه الجدران وأيدي هذه المقاعد؟ ان عيني متصلة بعصب الغضب وبكلمة "لماذا". ما علاقة الذوق وعدمه بالحرب؟ لماذا تلعلع الأغاني التي لا معنى لها، التي لابد أن الحانها أتت من جراء دندنة في الحمام.

لا يصنع المدينة إلا ناسها، وهؤلاء غرباء عن بيروت. رغم تفرقهم هنا وهناك، لا أرى إلا زوايا فارغة.

شعرت وجواد بأننا على اتصال دائم بما نفكر به دون أن نتكلم في هذه المعمعة، هؤلاء الرجال الذين يرقصون وينادون ويعربدون بعضهم يعمل من منازلهم. فتحوا محلات تجارية ووضعوا فيها ما سرقوه من أموال البنوك والتحف الثمينة من البيوت والمتاجر. بعضهم اختلط مع الشخصيات ذات الأدوار الفعالة في الأحزاب، والتجار القدماء الذين وجدوا منفذاً دينيا لاستباحة الربا كما يريدون. انتشر بينهم تجار المخدرات.. المهاجرون قبل الحرب العائدون بالأموال الطامعون بالجاه والشهرة، بعد أن خلت الساحة من الذين يستحقونها. يدل موسى من جديد على رجل يشتغل واسطة بين جهات كثيرة وأهالي المخطوفين " حياته على كفة ". خلف بعض الطاولات، أشخاص مثلي ومثل جواد جاءوا ليروا ماذا حل بالناس وبيروت. واشخاص مثل روحية وفضيلة تودان أن تنتسبا إلى عالم الأغنياء ولو لليلة.

بعد وقت قليل شعرنا معاً أننا نود لو نعود إلى البيت فما نراه ونسمعه لا يسعدنا ولا يضحكنا، بل أنه يصيبنا بالتعاسة، الوصف الصادق عن ليل بيروت كانت جملة جواد: جرادين وبودرة. شعرنا بالاتكال على موسى ليعيدنا *إلى البيت*. فبيروت لم تعد تعطينا حريتنا من غير مقابل. ومع ذلك ننهض ونترك روحية وفضيلة على أن يعود موسى إليهما. لم تفهما لماذا نود المغادرة "والدنيا قايمة وقاعدة".

منذ أن وقفنا في باحة الجنينة ماذا سوف يحدث بيننا حالما نصعد الدرجات، كانت انفاسنا ذات وقع واحد. لابد أن كلامنا سمع الآخر. ويبدو أن الشعور بالحاجة إلى الاقتراب والالتصاق في جو بيروت، تسرب إلى كلينا الآن. نحن جزيرة ومن حولنا البحر الهائج المليء بالتماسيح وبالمفاجآت على شاكلة التماسيح، الكهرباء مقطوعة والدنيا ظلام. التفكير يُشَل في هكذا جو، كأني ساحرة ساقت الولد البريء إلى قصرها واللعبة السحرية التي أجرتها عليه هي أن تركته وحيداً لأيام طويلة، فيشعر الغريب بأنه بحاجة إلى الالتصاق بمن شروشه ممتدة في الأرض.

أغرقه الفضول واستجلاب الماضي، فأغمض عينيه لمدة ليعود يفتحهما على الحاضر فيرى الطرقات المظلمة وقمامات الزبالة، وصوت الموتورات تنفذ إلى صبره في ضيق صدره بضجتها وبجوها القاتم. وأخذ يتابع الأخبار، ويجد نفسه إنما يتابع لغزاً. حتى التلفزيون بدأ يزعجه، سواء بما يلبسه المذيعون أو بأفكار البرامج ورخص كلمات الأغنيات وألحانها. ولم تعد الجرائد مصيدة لنكاته وسخريته بل كأنها أخذت تفقأ عينيه بلا معقولية ما يجري: "تتذكري اسمهان لما خبرتك عن البنت اللى كنت بحبها وقتها مسكت بشعرها بالقلعة، والكلمات علساني: ما تنتظريني، ما بدي اوقف بطريقك لما ارجع منشوف اذا كنت بعدك بتحبيني ".

ويمسك بشعري وهو يقول: " كمشت شعرها وحطيت تمي على تمها وشديت عليها يمكن خنقتها ".

يلمس بشفتيه شفتي ويشد عليّ ولم يخنقني. أبادله قبلته هذه.

نقف عند البركة في الحديقة نستنشق رائحة المازوت التي كانت تأتي من المحركات قبل أن يسألني لماذا ردمناها بالحجارة؟ وجدتني أفكر كيف كنت لا أخلد إلى النوم إلا وأنا اسمع صوت الماء وهو ينساب من حنفيتها الصغيرة، استعيد شكل الحنفية التي خلعها ابن الجيران بهيج الذي لم يكن يتعدى الثانية عشرة بعد أن أصبح الحديد حياته وأمله. يخلع الحديد من أي مكان يراه حتى يبيعه، حتى أصبح لقبه بهيج الحديد. يحيطني بذراعه وأنا أخبره عن البركة وبهيج الحديد. يشد على كتفي كأني كنت انتظر هذه الإحاطة. أشعر بأني أريد أن ارتمي عليه، لا يهم اين. فقط أرتمي بكل ثقلي عليه. لكني لبثت جامدة رغم أن شعوري الآن جديداً لا يشابه شعوري لأي أحد من قبل ماعدا المراهق الذى رقصت معه أول مرة.

لكنه سيسافر بعد يومين، لماذا على العلاقات أن تكتمل بالوجود اللمسي، لماذا لا تكتمل ونحن بعيدان؟ أتصور نفسى أكتب الرسائل وأنتظر الرسائل، حالما افكر ماذا اكتب، أكاد لا أجد شيئاً. فهو قد حفظ الأيام هنا. وحفظ امتداد السهل عرائش العنب واللون الأسود والقمم. عرف التنافض عندما وقف أمام المركز البريدي في الضيعة المجاورة ليطلب صديقته في فرنسا. لم يصدق أن في تلك الأرض الخربة على تلك القمة قد شيد مركز للبريد فيه المكاتب والموظفون. بينما لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب من علوه خوفاً من قفير النحل. الذى دأب على اختيار هذه الخربة ليحيك قرصاً من الشهد. فقط ابو العقيص هو الذي كان يربط نفسه بالحبال ويصل القرص من حيث لا ينتظره النحل. وكل مرة كانت أجزاء من

القرص تتفتت وتتساقط ويسقط في شراشف كانت تفردها زوجته وبناته بينما يصفق أهالي الضيعة. المتطلعون إلى أعلى والتي لابد أن رقابهم زادت سنتيمترات من كثرة ماتمطّت عالياً. وكان النحل يلحق به دائما مدافعاً عن القرص، حتى النهاية.

اسحب شفتي من بين شفتيه وأدخل غرفتي من غير أن أقول له شيئا وأرتمي فوق سريري وأنا امسك بمرآة كانت مطروحة على السرير قد اتيت بها قبل العشاء احاول أن أرى ما يرى في وجهي . أما الآن فالأمر لا يهمني فالكهرباء مقطوعة وأنا لن اشغل المحرك الذي لا أطيق ضجيجه خاصة وأني الآن كالخلد استمع إلى أي حركة تصدر عن جواد. وكانت محركات الحي قد خفت بتقدم الساعة رغم أن أصوات صخب الملهى لم تزل في اذني. ووجدتني اطرد مشاهد الملهى وأعود إلى اللامبالاة تجاه ما رأيته وأنا أقول بصوت اسمعه:" الناس بدها تعيش". ربما أنا لا أفرح في الرقص والفقش وهذه مشكلتي وحدي، لكن لم أكن أفكر بالملهى بل بسؤالي لنفسي: هل يهب جسمي من الحب أم النبيذ؟ ولماذا لا يدق هو باب غرفتي، لماذا لا تصدر عنه أي جلبة سواء من المطبخ أو من غرفة الجلوس. اجدنى فجأةً أقفز كأني كنت على موعد معه ونسيته، وما ان افتح باب غرفتي حتى يجيء صوته من غرفة الجلوس يسألني اين الكهرباء. التفكير بأن روحية لابد أن تعود في أي دقيقة طار ما ان اقترب مني حتى دخلت العتمة كلينا واختفينا كالأشياء التي من حولنا والتي تظهر فقط خطوطها العامة. أو أنها موجودة لأننا اعتدنا عليها، لكننا فعلاً لا نراها. وشعرت فجأة بفقداني لنفسي وللخيط الذي يربطني في الحياة، فأرتخائي كان طائراً. وامتد حديثنا جريئا وكأنه هلوسة، كأني لا أسمعه ولا يسمعني، لأننا في العتمة. واقتحم جسمي نفسه كالعادة وبدأت اشعر به ينبض وابتسم لأن جواد لا يرى ما يحدث لي. ليصبح كل

منا أشد جرأة، وانفاسنا كأنها النور الذي أضيء فجأة، وكشفت عن كل ما هو في العتمة. يمد اصابعه يتحسس بها وجهي ، وكأني كنت كل هذه السنوات انتظر لمس هذه الأصابع التي أطفآت كل فلاشات من التفكير الى صدى الموسيقى والصخب والمساحيق والأفواه المليئة بالطعام والبطون المهتزة. وكأنه لم يعد في الحياة سوى هذه اللمسات، وهذا الحنان. ثم ليبتعد عني حالما اصبحنا معاً ووجدنا انفسنا نلحق طريق اللمسات والحنان هذا، ليسألني بهمس ان امكن الاسترسال؟ وماذا عن حالتي . أحببت هذا التردد الذي لم اتلمسه من الآخرين وهذه الحيطة وقوة الإرادة. وشعرت ان الحرب هنا وعيشه في أوروبا لم تجعله يشعر بأن كل شيء مباح منهار. وأجدني اشعر بان استلقائي هذا، لا علاقة له بالحرب أو بالانهيارات. بل اني اصبحت بعيدة عن أرض غرفة الجلوس وعن الكهرباء المطفأة وعن بيت جدي . وعن بيروت الغربية. الرغبة في الالتصاق به. لم تكن كالمخدر، وبأن الحياة لم تزل تمارس نفسها في غرفة ما سواء بالولادة أو الموت أو المضاجعة، وبالتالي لم يكن تنفساً منا لشعور بالوحدة. أتمدد فوق الأرض التي لعبت فوق مربعات سجادتها والتي ركضت فوقها في مراهقتي، لأذهب إلى المدرسة أو لاستقبال صديقة. أمارس لأول مرة ما هو امتداد لعاطفتي ولفكري في بيتي. لا كما في السابق عندما كنت أقطع أو أحول شعور العاطفة والحب ما أن أدخل إلى البيت إلى أحلام اليقظة.

أعرف الآن ان الحب ليس بالسهولة التي كنت أمارسه بها. أنا الآن بعيدة رغم توقي إليه، انتظر أكثر من هذه القبلات وهذه اللمسات وهذا الالتصاق. اكمش افكاري الكثيرة وكأنها طير ثقيل الحجم اخذ ينتقل بسرعة على أحجار البيانو السوداء والبيضاء لتصدر عنها نوتات متفاوته. أشعر أن هذا الاقتراب قد ادخل فقاعة في شراييني فأخذت تزيح نقطة الدم المتجمدة التي كانت تعوق من سير

الدماء والتنفس. الاقتراب يعود بي إلى الحياة التي كنت أعيشها عن تصميم لا بتلقائية غريزية. رغم توقي إلى شفاهه ويداي المتشبثتين بكتفيه، رغم ان صدره فوق صدري ووجهه الذى يغرق في وجهي إلا أنها لم تكن مضاجعة انما كانت الطريق للوصول إلى السلام الداخلي. وكأن الكون قد وقف على قدم واحدة واستحوذ أخيراً على نقطة ارتكازه. يركز جواد عينيه بعيداً ثم عليّ. وأنا اشده إلي وأنا أكاد اصرخ: "بحبك بحبك" وهو يتساءل بينه وبين نفسه، لماذا إذن لا أرتجف لذة. ما الذى يعوقني حتى اصل إليها إذا كنت احبه كما انادي. هل كل ما بى مسدود عقيم كعملي، كمستقبلي، كمحرك سيارتي الذي ينطفيء ما ان أدير المفتاح في الثقب. هل انفاسي هي انفاس عانس؟ هل جسمي جسم عانس جاف؟ رغم انى أشعر بأن ملمسي زلق كأني دلقت في داخله الرطوبة. طبعاً كنت أحاوره وأنا ألحق بالطير الذى يقفز فوق احجار البيانو متنقلاً من الحجر الأسود إلى الأبيض، أحاوره بنفسي بينما هو لا يزال مكباً فوقي يعانقني مستغرباً انه رغم كل هذا الدفء الذي يمده بي ومع كل الحرارة التي انفث عنها فأنا لا انسجم معه. وتمنيت لو أقول له اني أشعر به كثيراً. لا في داخلي فحسب بل إلى نهاية جسمي وما حوله لكني أريد أكثر من هذا الالتحام، وإذا بي اتمتم "اكثر أكثر، اكثر أكثر" لينهض عندها ويتمشى وبعد صمت طويل اقول: "تصور لو تيجي الكهرباء هلق وبتشوفك روحية؟ "وإذ اتصنع العادية في لهجتي يقول " ياريت فيني افهم سرك". كنت أعرف أني سأندلق على جواد كالحبر على شرشف أبيض، أمتد وأتشعب حتى أصبح من النسيج لكن ماذا يحدث لي. هل ما رأيته في النادي الليلي وما سمعته هذا الليل جعلني أذبل كغصن انقصف، رغم أن الوردة لم تزل متفتحة في أخره، بعد أن رأت الحياة تتلاشى لتنبذ مكانها الكائنات المرعبة التي كانت ترقص؟

ولم نستطع أن نقيم حواراً، وكأن الشرح صعب اذ لا أعرف ماذا يحدث لي. لكنه عاد يمسك وجهي بحنان، كذلك شعري، يسألني إن كنت أرضى أن يرفعني ويحملني إلى سريري.

أمسكت برقبته وهو يرفعني ويكاد يوقعني أرضاً، أتذكر آلام ظهر ناصر. ثم أبعد الصورة كعادتي كلما فكرت بناصر، بل ابتسمت وأنا اسمع جواد يردد:"يالطيف شو ثقيلة، مثل الباطون ".

لأسأله مداعبة: " هي ثقيلة مثلي ".

"... قريب بدك تحملها ".

يرميني على السرير، شعرت بالرفاص الحديدي يقذفني عالياً، تغمرني السعادة. سريري هذا يتبدل، إنه يضحك وهو يتلقاني مع الذى احب. اننا في البيت الذى يظن أن عليه أن يؤدي جميع وظائفه ما عدا وظيفة الحب. ان يشهد الولادة، الزواج والموت والإنتقال منه وإليه ما عدا الحب. لم يعتد أن يضم العاشقين في غرفة الطفولة والمراهقة. بل بعيداً عنها وعن البيت كله، حتى يترك العاشقان شفاهما وجسمهما على سجيتها.

عند افكاري هذه اشعر بأن البيت يعانقني فجأة، يبث دفئه بى. يعانقني الأثاث، يتمعن يهلهل بسعادة للالتحام الذى يراه، كأن له انفاساً تحيطني بنعومة. أفكر أن هذه الراحة لم اشعر بها مع أي رجل من قبل. كانت لقاءاتي المتنقلة مع ناصر تكاد لا تثبت العلاقة بيننا فلا سرير نعتاد عليه ولا كنبة يعلق لونها في الذاكرة ولا صدى كلمات تنزل في الغرفة. بل كان الرعب ينتظر في مؤخرة بالي وعند طرف شفتي لربما انقضّ علينا أعداؤه في هذه اللحظات الحميمة.

يدا جواد تتحسس شفتي من جدي ثم تمتدان إلى ذراعي ثم إلى الأفكار والصور

المتدفقة. فيريحني منها ويجعلها تنام.

أجد نفسي الحق به ثوان بعد أن غادر إلى فراشه وكان ينتظرني. إذ أفسح لي مكانا ما إن سمع خطواتي وأحاط خصري بيده وسألني:" هون البنات بيتركوا حالهم عالطبيعة أو بياخذوا شي ". ولم اجبه سوى بضحكة، وعندما اخذت انفاسه تنتظم، عرفت انه نام. وجدتني اتمعن في وجهه، وأفكر هل أنا صغيرة أنام في سرير جدي. وهذا جدي الذى يتنفس في طيبة واطمئنان وأن كل شيء على ما يرام. وان الثقب الذى تركته المتفجرة عند النافذة العالية التي تساقط زجاجها. ما هي إلا نقيفة أولاد الحي الشياطين. ثم اسمع صوته وكأنه يأتي من حلم. يخبرني انى اشبه أمي كثيراً، لذلك تعرف عليّ رغم السنوات الطويلة.

كان صغيراً عندما زارتهم أمي في بيروت. وعلى كتفها فرو ثعلب، وتنورتها مكسرة طويلة بنية وحمرة شفاهها نبيذية. تدخن سيكارة وتخفيها كلما سمعت دعسات. تضحك عالياً وتغني وتضحك. صورتها هذه لم تفارق خياله لوقت طويل.

يحضنني بذراعيه يهمس لي " مش معقول، أنا مع بنتها الظاهر، كل شيء مكتوب ". لبثت بلا حراك، رغم انى تمنيت لو اتقلّب من جهة إلى أخرى كعادتي لكنى خفت أن اقلق نومه، ويبدو اني نمت أخيراً. إذ استيقظت والنور قد تسلل إلى الغرفة ووقع خطوات روحية في المطبخ. يداهمني شعور بالحزن ما ان رأيت حقيبته. أحاول أن انتشل نفسي من بين ذراعيه وفخذه لكنه شدّ علي وهو مغمض العين «ممنوع "، قلت اتصنع الارتباك "روحية؟ ".

" خلليها تشوفنا مع بعض حتى تألف كم بيت شعر.. ".

اتردد وأنا أحاول النهوض من أن اسأله سؤالاً لكن اجدني اتجرأ وانا أرى تشابكنا تحت الغطاء فأتعجب كيف اخجل من أن أسأله: إن كان يحبني؟

الرسالة الأخيرة

عزيزتي حياة....

رغم هذه الأيام الطويلة التي اصبحت بحراً بينى وبينك، إلا أنك مازلت صديقتي حياة، الحائط الذي أرمي عليه بالطابات، السعيدة والمؤلمة، حتى الفاجرة منها. ومع ذلك لا الح في وجهك الازدراء،؟ لا أعتقد. أرى الحب فقط. كم كنت مخطئة وأنا أقنع نفسي بأن كلا منا قد سلك طريقاً موازياً وبأن هذين الخطين لن يلتقيا أبداً. فمجرد أن يتململ الشعور في داخلي ولا ينصرف إلا بتحليلي لظروفك ولظروفي معناه انك موجودة، أنت معي حتى الآن في صالة الإنتظار في مطار بيروت الدولي، هل تذكرين كلمة الدولي. التي كانت ضخمه وباللون الأسود على جدرانه؟ المهم أني أحاول استشارتك، لكنك تغيبين عني كلما هممت أن أسمع جوابك. أو أني لا أريد سماعه. أنا جالسة الآن وكأني كتلة من التخبط، حائرة بين جواد ونفسي والغرسون والمسافرين. أراك تدفعين الجميع جانباً وتقتربين مني غريب، أنت البعيدة تحتلين أفكاري الآن لا الذين تركتهم، قبل قليل والذي لا بد أنهم ما زالو في مكان ما حول المطار، ينتظرون اقلاع طائرتي. هل لأن المطار والسفر والطائرة ارتبطت جميعها بك. فأنا إذا أتيت الى المطار فلاستقبالك أو لتوديعك. وكأن كل المسافرين الذين يغادرون هنا انما ليحملوا أشياء لك. عدا أنك لم تتركي اية مناسبة إلا وحثثتني لأرحل أنا الأخرى. أسمع صوتك وأقرأ رسائلك وتلغرافاتك، كأنك مديرة مدرسة تُرغّبين التلميذات بمدرستك فتعرضين خدماتك الشخصية، بحماسة تصل احياناً الى اللجوج، فأشعر اني ملاحقة منك، ولم أكن

لاتساءل لماذا هذا الإلحاح. اعرف انك لا تستوعبين بقائي في ألسنة النار بينما الهدوء والأمان حيث تقيمين لا يترك حتى صدى للأصوات. أعرف انك خائفة عليّ لكن لا بد أن تأنيب الضمير كان يرافق هذا الخوف، كأن ألسنة النار تمتد حتى تقيم جداراً كثيفاً بين الذين بقوا والذين غادروا. لابد أن هذا الشعور كان يقلق اقامتك فتتمنين لو كنت بعيدة عن الصخب، حتى تنعمي بالهدوء حيث أنت من غير ان يعكره سوى صوت الرعد والتماع البرق. حتى في الأيام التي كانت تنعم بيروت بالأمان وتزداد زرقة السماء، كنت تلمحين لي بتركها عندها كنت أفهم من رنة الصوت انك لست خائفة علي من الموت، ولا من ان تمر السنين وتتركني بلا زواج وبلا مستقبل ما دمت اعيش في بيروت. بل انك خائفة على نفسك إذ لم يدخل خط السير حياتك من قبل في سراديب ومتاهات. فإنك ولدت في عائلة منظّمة، مثالية. وعيت على أن الملعقة التي كانوا يطعمونك بها هي من الفضة وبأنها كانت لأمك من قبل، وبأن عليك ان تحافظي عليها، لانها ستصبح يوماً ما لأولادك. لذلك كانت مواعيدك مع الشباب الذين لا مستقبل لهم هي للمنافسة بين البنات، لمعرفة ما إذا كان وجهك جميلاً، جسمك شهياً.لا للزواج. حتى العلم لم يكن من أجل المعرفة بل فقط للالتحاق بوظيفة تخولك مكانة عالية في المجتمع. فأنت كنت قد آمنت بأن الدنيا مكونه من السماء والأرض، يعيش البشر في المنازل الجميله. يجمّلونها إذا كانت عادية ثم يتكاثرون ويتكاثرون الى الأبد. إذ الموت لن يتجرأ بالدخول على متانة بيت عائلتك ونظامه حتى جماله. لذا ما ان اشتعلت الحرب حتى شددت رحالك من غير أن تتوقفي لحظة وتسألي ماذا يحدث؟ من يُفجّر هذا العنف؟ بل كان همك أنه بات الصخب اينما كان وبراميل الغاز اصبحت نادرة، ولربما نسف المطار. الآن يا عزيزتي يمزج أهل بيروت الرماد بالماء، لأن الصابون اصبح غالي الثمن، الماء الذي كنت اغافل به زمزم واغسل به شعري يوما بعد آخر رغم توصيتها لي لأن اذلقه على جسمي فقط. لاتحجج قائلة عندما يفضحني شعري

المبتل، بأني تلقفت المياه التي رميتها على جسمي وأسرعت بها أرميهاعلى شعري.

كنت استمع اليك وانت تجيبين بانك جدّ سعيدة، كذلك اطفالك ثم تكشرين لدعوتي لزيارتك. عندما كنت احاول ان استفهم منك كيف تعيشين حقيقة كانت الحيرة تخيم عليك واستنتج من صمتك جواباً، ثم لتتابعي:" انا؟ مثل العادة، البارحة زرت معرض لوحات وتعرفت على.... وحضرت فيلم سينما وتسجلت بصف اليوغا" مع السنين اصبحت رنة صوتك أخرى. فالهجرة قد طالت ولا بد أنك اكتشفت انك لا تعيشين في هذا البلد الغربي إلا على الهامش.لم تكن تهمك التطورات السياسية به، ولم تكن تخدشك المشاكل الإجتماعية. الطقس يكاد يكون الوحيد الذي كنت تعلقين عليه. كان يقربك من اهاليه، رغم انك لم تستطيعي ان تتعاملي معه مثلهم. فأنت مازلت متكمشة بالفصول الأربعة، وإذا داهمت منفاك موجة من الحر، في أوائل الربيع اصابتك الحيرة، فأنت قد أودعت ملابس الصيف في صناديق كما في لبنان. حتى عندما التحقت بعمل حتى تصبحي فرداً من ذلك البلد، لم يبدلك هذا بل انه لم يطرأ على رنة صوتك، سوى التعب والإجهاد. ومع ذلك بقيت كلماتك:" انا؟ مثل العادة؟ شغل وشغل.افلام ومعارض ويوغا.

لكن عندما كثرت تنهداتك اصبحت تحسدينني على «كبة اللبن» مع انك سبق واخبرتني بأنك تعرفت على اولغا الطباخة اللبنانية وأنها تزورك مرة كل اسبوع وتطبخ لك كل شيء. حتى كبة الكشك، عندما اخذت تتصلين بي عبر السنترال وتكذبين وانت تحجزين المكالمه قائلة إن الغاية من المكالمة حياة أو موت. وتكتبى لي الرسائل المتقطعة وكأنك طبيب تحاولين جس نبض المريض المصاب بالقلق، من غير ان يشعر بك. فتسألين عن الحياة اليومية في لبنان. عن الأمن، عن الكهرباء، عن المدارس، حزرت انك كنت تستكشفين العودة، كطيار يود أن يعرف أسرار الجزيرة قبل أن يهبط عليها، فأجدني أخمد رغبتك قائلة وأنا اشهق:" انت؟ ببيروت؟ مش ممكن تعيشي يوم واحد. واولادك؟ ولا دقيقة. بعدها الحالة صعبة

كثير. مش هلق ".

كأني بردة فعلي هذا كنت اضفي على نفسي هالة الهيبة بأنى الوحيدة التي أتحمل الاضطراب والكوارث. كأني بالتالى مكونة من فولاذ. واني قدريه اذا لمسني الموت اطعته. لم اعرف وقتها لماذا لم اكن اشجعك على العودة، مع ان ظروفاً جيدة كانت تهيمن على بيروت والأمل كان يطفو بأن الحرب لم تعد سوى ذكرى. يبدو لى الآن اني كنت فعلاً أفكر بأننا خطان متوازيان، وبأنى اود أن اكون حرة في بيروت الجديدة. في البدء مع ناصر، ثم مع آخرين. لا روابط قديمة تهيمن روحها من غير ان تدري على الماضي. وتتركز عليه حتى تكمل الحاضر. كنت أوجه اللوم الى نفسي لعدم تشجيعي لك بالعودة كلما جلست امام البحر ورأيت السابحات يستمتعن بالشمس وبالأمواج. كلما بدت بيروت مدينة تواظب على عملها. كنت اشعر بانشلاع قلبك وأنت تغادرينها ومع ذلك لم اوجه لك تشجيعاً للبقاء، بل كنت اشدّ من عزائمك قائلة كاذبة.محظوظة.. مسافرة ". شوقك الى الدفء وحاجتك اليه كان يزداد يوماً بعد يوم. كنت تتمنين لو أحط عليك حيث انت حتى تنعمي بعيشك، حتى تتدفئي كما لو كنا حول الموقد في ضيعتك، تماما كما في عيد العنصرة. بعد أن اصطحبتني معك الى الكنيسه حيث في باحتها اصطفت المراجيح والعربات والألعاب وبائعو الحلويات والبائع الذي قيل عنه انه بدوي وكانت اسنانه كلها ذهبية، ينادي:" اشترو عصفور العيد اللي ما عندو عصفور ما عندو عيد " قطفنا وقتها ليمون البوسفير وأكلنا البسكوت والحلقوم وعندما عدت الى بيتنا كنت قد حولت لهجتي الى لهجة اهلك وقريتك.

لا أعتقد انه خطر ببالك ان وجودي في غربتك. لن يجعلك تنعمي بالدفء سوى لمدة قصيرة. لأنى بعد مدة سأشعر بالبرد مثلك. والصوف الذي ترينه يغلفني والذي يمتد مني اليك سرعان ما يتفكك عني. وجودي قربك سيكون كإبرة البنج الموضعي يزول مفعولها واذا بالإبرة ذاتها ستحتاج الى كمية من البنج. ما

كتبت لي مرة حفرته كالوشم على جلدي.:" تبدو خطورة اليوم وانا اكبر وأولادي يكبرون، كأن هذة الأيام اصعب من أيام الحرب. أية ظلمة أنا وأولادي قادمون اليها.ففي الخارج التعايش سطحي وغيره محرّض، الأيام لا تحفر سطراً في الذاكرة، كأني انهض في الصباح لأقضي حاجاتي. ولا أعرف التوهج إلا بمقدار بسيط وضئيل، وهذا لا يكفي للعيش " مع كل هذا اجلس الآن في غرفة الانتظار في مطار بيروت الدولي. إذ قلت لك اني لم افكر بموضوع تركي لبيروت جيداً بل اتخذته وانا تحت تأثير جواد لن تصدقي. وإذا صدقت فلسوف تلومينني بينك وبين نفسك، بأن صداقة قديمة طويلة لم تحثني على السفر. بينما رجل ومرتبط بامرأة اخرى جعلني اجلس فوق هذا المقعد الجلدي الذي يلصق بملابسي. ستقولين بينك وبين نفسك:" كانت اسمى تنتظر الرجل، فمشكلتها كانت الحب وايجاد الرجل، بينما اختلطت الأمور علينا وأيقنا بأنها لا تستطيع مفارقة بيروت خوفاً من أن تموت إذا عاشت بعيداً عنها».. أعرف أنه كان علي أن اخبرك عن جواد قبل الآن. فكرت بذلك لكن ما هي الوسيلة؟ الحديث عن الحب والأسرار بين صديقتين لا يصرح به إلا والوجهان متقاربان في ركن ما بعيداً عن الآذان والأعين. هل تذكرين؟ عندما كنا نود التأكد إن كانت زمزم أو امك تتصتان الينا فنتحدث بالألغاز ونضيف تاء التأنيث ونقلب اسماء الشباب الى اسماء بنات ونضحك ونغرق في الضحك. هل معقول ان احجز مخابرة دولية وأجلس بين المنتظرين الذين على وجوههم اما الألم واما الحيرة، فهذه المخابرات الدولية اصبحت غالية وضرورية للاخبار عن الموت أو الزواج أو السفر أو الحاجة المادية. وعندما يحين دوري أهتف من الكابين: " حياة انا بحب واحد اسمه جواد، لما مسك اصبعي، تصوري إصبع واحد غشى على قلبي، لما مسك رأسي كأنه وضع يده على كل شيء، أفكار وخربطات وماضي وجمال. ولما مسك صدري شفت فلاش بعيني وصرت مثل الفرن. وفكرت انه هو أول واحد بيمسك صدري. الكل كانوا مش

منتبهين انه عندي صدر لأنه صغير".

الأسرار بين صديقتين لا عمر لها. سمعت من زمزم أن زينب العجوز اخبرت نعيمة كيف اخذ زوجها العجوز يضرب رأسه بيده عندما افتقد العشرة ليرات ولم يجدها في جيبه. وعندما قالت له زينب بلا مبالاة:" شو صار؟ انا اخذتها، اشتريت فيها ضمة نعنع " انبها على فعلتها:" شو هالقصة، هيك بتحطي ايدك بالجيبة بلا أحم احم وبلا دستور وبتاخذي المصاري." اجابته زينب باللا مبالاة ذاتها:" بعمري ما سمعتك بتقول احم احم أو دستور لما بتحط ايدك على... ". اعرف انك ستفكرين بناصر وأنا اخبرك عن جواد. لا تسأليني كيف يسلك الحب غصناً آخر ويستوى فوقه رغم موته مع الأحباء السابقين لدرجة ان ذكراهم لم تعد تؤلم أو حتى تسعد، بل أن استرجاع ما جرى اثناءه لا يجلب معه سوى شريط سينمائي. لا يؤثر على المتفرج مطلقاً، سوى بأنه يراه. واذا تحرك به شيء فهو ليستغرب أو ليستهجن ذلك الحب الذي مضى، كأن الحب هو مخطوطة وضاع غلافها فبقيت مطمورة في النفس حتى يجد الغلاف نفسه ويشق طريقه عبر امواج من البشر والأشياء والأزمات ويلتقى بالمخطوطة.

أتوقف عن كتابة الرسالة اليك، يا عزيزتى حياة، فالمقطع الأخير هو خاص. لن تستوعبيه، ولا اقصد هنا اني اشك في ذكائك أو استيعابك للمواقف وللخواطر، لكن هذا المقطع يأخذني عميقاً الى نفسي يريدني أن انكش تربتها كآلة زراعية. لا يفوتها ذرة رمل. والاسترسال في الكتابة اليك يحولني عن دربي هذا رغم ان رسالتي اليك نبشت ما هو مطمور، اذ هو الحافز الحقيقي الذي جعلنى الآن فوق هذا الكرسي. اشعر الآن وكأني تلميذة تستعد لامتحان قريب وعليها ان تستعيد الكلمات وشكل الصفحات والصور.

بعدما تبقى له يومان في بيروت وجدتني اتحدث اليه بلهجة جافة وبرود. لم اكن افتعل هذا. بل كنت قد تحدثت مع نفسي كثيراً ووصلت الى هذه النتيجة بأنه

ما دام سيسافر بعد يومين لماذا لا أعتبره قد سافر وانتهى بدلا من هذا التمزق. اذ استحوذ السفر علينا كلما ابتعدنا عن فكرته كلما وجدنا انفسنا نعود الى قلبه ونتحدث عنه.كلما غاص كل منا بجسم الآخر، كلما تشبثنا ببعضنا خوفاً. أخذ السفر يأكل الساعات اكلاً، فالوقت البطيء الذي كان يزحف خلاف اي وقت فوق الكرة الأرضية اخذ يدور بنا. فما نوشك ان نلامس موضوعاً حتى يهب بنا في دوران من جديد. اذا غافلت فكره سفره عادت ونبتت امامي من جديد وسط استعداده للسفر الطائر في انحاء البيت، المحصور في غرفة جدي. المح أوراقه وحاجياته وحقيبته الكحلية. وتذكره السفرو قمصانه التي قامت بكيها روحية، وأرى الصور التي أخذها لنا، في الطبيعة. صور اظهر بها وحدي ومع جهينة، ومع روحية. روحية تقطف كوز الرمان، روحية تدخن، روحية تغنى، و روحية تبكي.

كأنه باستعداده للسفر لم اعد أرى ما أراني اياه في بيروت من ماض وذكريات بل من الأوساخ. ولم اعد استنشق سوى الزبالة ولم اعد أرى سواها. انه يأخذني مع الوسائد المطرزة والزجاج بلون الفيروز والبسط الملونه وصينية روحية القش. حبي لبيروت والذي كان قد اعاده الي بقدومه. رغم اني حاولت عدم الإستسلام لهذه المشاعر السلبيه، مذكره نفسي بأن هذا يحدث لي كلما فارق اصدقائي لبنان.فتستحوذ على الكآبة لأيام قبل أن اعود الى روتيني. لكن اختلف الأمر هذه المره منذ أن دق على باب غرفتي ولم يدفشه كروحيه او فضيلة. دخل قبل أن يمهلني لأنهض من على السرير وأطرق الى الأرض:"عطيني نمرة تلفون حياة وممات والله اعلم.. ماذا اخبرهم؟ ". إذ كنت قد طلبت منه الاتصال باصدقائي حال وصوله الى تلفون، أجيء بمفكرتي الحمراء الصغيرة، بعد أن بحثت عنها في الأدراج وانا أقلب صفحاتها قال: " مش مفكرة قديمة؟ "

اجبته ضاحكة:" من خمس سنين، شو أنا مثلك؟".

منذ خمس سنوات. كتبت على أوراق ايامها وتواريخها وأرقام تلفونات في

لبنان وفي كل بلاد العالم. اقلب صفحاتها وأقرأ الأسماء وأرقام الهاتف. حياة، ناصر، ايمان، سهام، امي، وأرقام كثيرة، في تونس في القاهرة في الولايات المتحدة. يمر هؤلاء في ذهني، صورا مشوشة. تفرقعوا تفرقوا تماما كالألعاب النارية التي ند عنها توهج.سرعان ما انطفأت والمطر يدخل فيها. كلهم بعيدون كل منهم له حياته. سأل: " من خمس سنين؟ لم تشتر مفكرة جديدة؟ يعني المستقبل عندك غير موجود؟."

قلت:" الماضي عندي مهم. مثلك".

قال:" مش الظاهر والا هالمفكرة كانت محفوظة عندك حتى ما تنقطعي عن الأصحاب، عثرت عليها بعد جهد جهيد. انت مش فارق معك شيء، بتعرفي اذا ضاعت مفكرتي، كأنه ضاع قطعة مني."

– " انا بحفظ بعقلي وبقلبي، وانت لازم تكتب كل شى حتى تتذكره".

لم يبال بجملتى الأخيرة بل اخفض من صوته: " مش قادر اتركك وأسافر".

جملته هـــذه زعزعت داخلي جلعتني ارتعش، لكن اجيبـــه بكل برود:" «بكرة بتتـعود".

" قلبى بيوجعني عليك إذا بقيت هون ".

–"هون احسن دنيا !! حرام انت ليش تارك "

لكنه اخذني من رأسي وكبس بكلتا يديه على صدغي، لدرجة اني لم أعد بوسعي فتح عيني. شعرت وكأني دلقت في جوفي ليترات من النبيذ الدافئ، فتركني خفيفة الوزن والرأس وثقيلة الأجفان وكأنها ممتلئة بانابيب من الدموع تود الانفجار. قال: " ليش انت باردة معي أو ندمانه شو صار بيني وبينك؟ أو بدك ياني ابقى هون أو بدك تسافري معى.أي واحد من هالثلاثة؟."

كلماته لي جعلت كل الحوارات التي أجريتها واقنعت نفسي بها تتهالك وتسقط لحظتها امام وجوده.

أشعر أني لا أريد فراقه. لأجد نفسي خفيفة. كالأولاد في سن الصغر. ينعمون في الحاضر، لا يفكرون إلا في اللحظة.إذ الماضي لا يعرفونه والمستقبل ما هو إلا فعل من الأفعال الثلاثة ما ان يطبقوا كتاب القواعد حتى ينسوه. فأصبح طفلة صغيرة. يضعني تحت ابطه ويسير بي، أو يحملني بين ذراعيه. لأرى الدنيا من علوها . وجدتني استسلم معه لتكملة التيار الجارف الذي بدأناه كأنه لم يعد في الصباح أو في الليل أي ترقب أو ذعر أو ابتهال لأن يطول او ينجلي. الليل هو كيف أذوب في المخدة وفي جسمه وفي صوته وفي قصصه الماضية البعيدة عن الحرب. عن هذه السنوات الطويله. والنهار لكي اقفز معه ومع افكاري في الطرقات، وفي الأماكن تسرع كلماتي تؤكد له العكس عندما يهمس:" بانه عليّ السفر معه."

" انا؟ ابدا، أبدا انا مش ممكن، ابدا ، ابدا، ابدا " لا مش ممكن اترك. بدى موت هون. لكن يبدو اني لم اقصد ما كنت اقوله، إذ وأنا أرى حاجياته هنا وهناك اخذت تذكرنّي بأجواء جديده، ذات ابعاد. اخذت أتصور نفسي في شقة اسمع عبر نافذتها الأغاني الفرنسية وأنا البس القفطان اياه، حولي اصدقاؤه الأجانب نسمع الموشحات وأم كلثوم. اسرع الخطى تحت المطر، كما من زمان في بيروت افتح المظلة وأضواء المقاهي تجذبني اليها بما فيها من رائحة الدفء والقهوه والسكائر، أسير في الليل الذي يعد بشئ. التسكع في النهار على الأرصفه. اعتمر قبعة. أو اصبغ خصلة من شعرى باللون البنفسجي، أرى الأفلام التي أقرأ عنها، اشتري المجلات، احف عن نفسي الصدأ. ابعدت هذه التصورات ونظرت حولي. كيف اترك كل هذه. ولم تكن سوى البيت الذي كاد يهرّ دهانه فوقي.

"عطينى سبب؟"

"سبب؟ تسألنى عن سبب؟"

وكدت اضحك، قراري بالبقاء في بيروت يكاد يكون قطعة من الفولاذ لا ينفذ

اليها ام منها أي شيء لذلك لم يعد احد يجرؤ على طرح هذه الفكره عليّ ولو كانت الدنيا تزلزل في بيروت، وها هو يسألني عن سبب؟ سبب؟ سبب؟.

" عمهلك شوي إذا متأكده من حالك. انت خايفة تأخذي وتعطي بالموضوع؟ عطيني سبب واحد ليش ما بدك تسافري؟"

" حياتي هون؟"

" هون حياتك؟ مع ستك وزمزم وفضيله وروحية؟ حتى ريكاردو راح. نسيت بكره بيطلع كاظم. ونسيت كمان خي كاظم، مين بدّو يؤمن له الصيصان".

أضحك. ثم أتصنع الضحك. حتى أمهل نفسي بما سوف اجيبه. كلما فكرت بسبب لبقائي في بيروت وهممت بقوله. تراءى لي سبب مائع . ليس بحجم شعوري تجاه بقائي وتجاه بيروت.

" مش ضروري أعطى سبب "

ولدهشتي لم يلح على. بل أمسك بيدي:" تصوري بعد بكره. لما أنا بسافر. تخيلي حالك من غيري. وتذكري قديش انبسطنا مع بعض، قديش منكون مهتمين ببعض حتى لما كان في حرب بيني وبينك بالضيعه. حتى لما كان في سبب للضيق. تضايقنا من بعض وواسينا بعضاً البعض. فكرك الإنسان سهل يلاقي حدا يحس معه كأنه مع نفسه؟ فكري. غمضي عيونك فكري."

أردفت بسرعة عجيبة من غير أن أغمض عيني:" ما فيني سافر بعد بكره. خلليني فكر. لازم حضّر حالي."

وكأن التي تتحدث لا علاقة لها ببيروت، بالراحه التي تمدني بها وأنا أعيش أيامها. رغم خلوها من الأماكن.

" هلق ضبي اغراضك وتلفني واحجزي محل، ومنروح منشتري التذكره واذا ما معك انا بدفعلك "

" بدّي حضر حالي " أي إني أريد ان اتراجع. لا، أنا أريد ان أسافر، وأريد

تهيئة نفسي. وأخذت ابكي فجأة. لم أكن اتصور أن أعصابي بهذا الإرتجاج. وقلت:" ما عندي فيزا . " وعدت أبكي وأشهق كأني كنت اخطط لسفري منذ مدة طويله.اصبت فجأة بخيبة أمل وكأن جواز سفري اعيد الي من غير دمغة التأشيره وكأنه اتاني خبر ضياعه. أو تخيلت اني في كل مرة أذهب بها لاصدر جواز جديد تبدأ المعارك وتمتد الحرائق الى سجلات العادلية. لتنفي كل ما يؤكد وجودي وتجبرني على البقاء هنا. لكن أشعر وكأني لص أريد أن أهرب قبل أن يقبض علي. أن اهرب من هنا والحنين الذي ظننته يتغلغلني والذي يمنعني من الرحيل لم يعد له مكان في قلبي. تأتي روحية مهرولة من المطبخ على صوتي وأنا اخبئ وجهي بين يدي وأبكي بتهدج. بينمايحاول جواد ان يهدئني وهو يأخذني أمامها بين ذراعيه، وأنا رغم ارتباكي من روحية اجدني أريح وجهي على صدره وانا مازلت اشهق رغم تأكيده لي " خلص! اجري وإجرك، راح اؤجل السفر وبنطرك حتى تجيبي الفيزا».

أزحت رأسي من على صدره مكتشفة أني لوثت قميصه بكحل عيني. خائفة من روحية لأنها تلومني في قلبها، لكنها تلومني بملئ صوتها:"شو القصة يا اسمهان " وليش يا حبيبي بدك تنتظر شو القصة؟ دخيلك تسهّل. " لكنه تجاهلها وشدّ على رأسي عندما تململت، اسمع صوته يتكون في صدره، لم اكن قريبه من صوت أحد كهذه اللحظة.وهو يؤكد لي بان علي او ابن فضيلة يتوليا المهمة عني.

«بطّلت الوسايط تنفع بالسفارات».

» منروح انا وأياك، منأخذ باسبوري معي وأنا بحكي القنصل".

صاحت روحية من جديد:" شو يا حبيبي. شو في هلق بتحط باسبورك بالسفاره وبركي السفارة اجتها شي قنبله، شو بتعمل وشو منعمل، بدك ياني قطّع حالي من القهر؟؟"

إرتدي ملابسي بعجلة، انتعل حذائي، أحاول أن لا اسمع ما يجري من

حديث بين جواد وروحية. افتح قنينه ماء الورد ادلق منهاعلى يدي ثم امسح بها وجهي. انهما يتحدثان عني، أنها تسأله وهو يجيبها، لا أعرف ماذا يقول لها، لكني اسمعها تناديني وما أن اهم بالخروج من غرفتي حتى كانت في وسطها:" وين بدك توديني على جهنم، والله ستك بدها تشويني وتقليني، وجدك بدو يأكلني أكل "

" إن شاء الله مفكرة اذا سافرت مع جواد يعني بدي عيش معه هو اصلا عايش مع كاترين نسيتي؟" قاطعتنى:" هاالله هاالله، يا دنيا هيك صرنا بنقول بدي عيش وعايشه، مش بدنا نتزوج..؟"

قاطعتها بدوري " خلييني كملّ، أنا مسافرة، مثل ما كل هالعالم عم بتسافر. يمكن بعدين سافر لعند امي، لعند صاحبتي حياة، مش عارفة!!"

لأن جواد لم يتعجب من جوابي هذا، فكرت اني لن افارقه، اشار الى روحية ضاحكا: " ليش واقفه وكأنك في عزاء..؟".

ولم اتصل بالضيعة، كيف أوكد السفر والتأشيرة ليست في حوزتي والحلم المشؤوم الذي حلمت به البارحة، الثعبان الذي كان يلحق بابنه حياة ليقبلها او ليعضها، وكان حدسي بأنى لن استطيع الحصول على تأشيرة قد تحققت. فنمرة علي لا تجيب. احاول الإتصال به على نمرة هاتف مختلفه تكاد تتخطى الخمس، اترك له الخبر والرسالة. والجواب يأتيني دائما " مدموزيل اسمهان، كيف الواحد بينسى اسم اسمهان."

مرّ الصباح والظهر والغروب والمساء ولم اسمع منه. بل سمعت فضيله تسأل ما الخبر. وإذا كان ابنها موسى يستطيع مساعدتي بدلا من علي، فموسى كان في صحبة من اجابني على إحدى النمر الخمس. اعجب جواد بما سمعه وقال:" مش عارف ليش بعد في حرب والعالم كلها بتتنصت بأذان مثل اذان الغولة."

وكان أسرع مني واخبر موسى عن التأشيره. أهتم موسى وكأنه اسندت اليه مهمه عسكرية.:" عن اذنكم " لينزوى بالتلفون النقّال الذي كان يحمله وسمعناه

يتمتم ويقهقه ويشتم ضاحكا. ويعود يطلب من جواد جواز سفره مع رسالة منه تؤكد باني قريبته وبانه يدعوني لقضاء اجازة في باريس.

تمر الساعات، يمر يوم، يوم آخر، ويدي على قلبي. يد روحية على حلقها، مستعده لأن تسحب منه روحها اذا لم يعد جواز سفر جواد اليه. بينما يحاول جواد ان يقنع نفسه بأنه حتى لو اختفى جواز سفره، فإن السفاره تستطيع ان تعوضه له بآخر. رغم انه استسلم للقلق الذي استولى عليّ وعلى روحية إلا انه استخدم هذه الحالة ليصل الى لب الحياة الآن في بيروت التي تعكس قلقها على أشخاصها. اخبرني عن الخاطر الذي اخذ يتحرش به ويعكر صفاء سفري معه، بحجة لربما عليه تركي وشأني في الماء الخطرة التي اتقنت العوم بها والتي لا بد أنى استمد من خطورتها شعوراً خاصاً يمدنى بالثقة وبالسعادة. ليجد أن هذا الخاطر ينفي نفسه ونحن ننتظر جوازي سفرنا ليكتشف ان الإنسان هنا لا يملك حتى حرية الإختيار. حتى في السفر، وبأن البلدان تصبح لديه عبارة عن خرائط، يمد المرء اصابعه يشير الى الوانها وخطوطها فقط: اقول له بأن البلدان لم تعد تهمني فعلاً وبانه لا يجب ان يرى الحياة من منظاره الخاص. كنت في دوامه من تشابك الأفكار بين علي الذي سوف يعرف باني أنجزت هذه المهمه عن طريق موسى وبين شعور اللامبالاة إزاء ما يحدث حولي من تعطل محرك الكهرباء الى أصوات المتفجرات في المنطقة الشرقية الى المهندس الذي خطف حديثا لتنصبّ كل افكاري على جوار سفري وإذا كنت سامنح التأشيرة آم لا، حتى اصبحت كقطيع غنم تقاد في اتجاه واحد، تعززه حواسي التي تجعلني أرى موسى بين دقيقة وأخرى. اسمع صوته الهش اسمع بوق السياره، أرى يده تحمل جواز السفر خاصتي، أسمع قصة الجيمس بونديه التي رافقت اتيانه بالتأشيره، كنت قد اعتدت على علي وهو يقص علينا قصة شطارته وحربقته الفريدة في إلاتيان بأي تأشيره الى أن ضبطناه مرة متلبساً بجريمه الكذب.

كأني نقلت قلقي الى جواد الذي أخذ يستفسر عن السفاره وعن الوقت وعن نمرتها . تفكيره بالإتصال هاتفيا بها معناه انه لم يعد يفهم العقليه التي تركها خلفه، لكني لم اتوقف عند هذا الإتكشاف داخل لعبة تمنى عكس ما أريده. كرهت جواد وها انا احبه، أكره السفر معه وها انا انتظر بفارغ الصبر، ان الح جواز سفري وها انا اسمع بوق سياره واصوات ابن فضيله وطقطقه كعب فضيله:" خذي باسبورك يا ست اسمى "

قالتها فضيله بفخر. كأن موسى قادر على كل شئ، ثم اضافت " والله هو لازم من هلق ورايح ينتبه عليك، علي لم يعد فاضي، صار بخبر كان ".

بينما زغردت روحية وأرادت ان تطلع بموال لكنها عادت وأسرعت تمسك جواز سفر جواد تقلبه لتتأكد منه. وموسى يقاطع الجميع يخبرنا عن الاهتمام بجوز سفر جواد، وعن قرار الموظف لمنحه لي تأشيرة في غضون ساعة لينهي جملته بانه حتى رئيس جمهورية لايتوقع هذه المعاملة من السفارات الاجنبية في هذه الاحوال. رحت افكر بأن الأيام الماضيه قد ولت. الوسائط تأتي الآن من اللذين في الخارج اذ هم مصدر القوه.

" شكر جواد موسى الذي أراد ان يصل الى لب الموضوع:" استاذ جواد بتعملي شى كَم رسالة للطوارىء ومنصّور باسبورك لربما امي ارادت السفر، كذلك بنت خالتي؟».

أتأمل التأشيرة الفرنسية مطبوعه على جواز سفري وافكر آننا بالتالي نعيش حياه طبيعيه، تُدمغ التأشيرات على جواز السفر ومن ثم نملك جواز سفر ونطير في الطائرة، اقلب صفحات الجواز. تأشيرات من مصر واسبانيا وتونس وعمان. طفت كل هذه البلاد من اجل ناصر، الى جانب هذه تتربع التأشيرة الفرنسية الملونة بعد سنوات طويلة من التأشيرات الماضيه. ترى أهي من اجلي ام من اجل جواد أم من اجلنا معاً؟".

وكانت فضيله تعرف ان مكافأتي لموسى ستكون كبيره. خاصه انه اصطحبني الى البنك والى صديقة ادّوعها والى الارتيزانا لاشتري صابون زيت زيتون والى شركة الطيران وكنت قد تخليت عن صبري، أردت أن أعجل في السفر، خفت ان يغلق المطار من غير سبب، وكانت عجقة السير غير طبيعيه ووجدتني اردد بدلا من أن أصبح عصبيه:" خي... خي... تاركه كل شيء ورائي."

عندما أخذت جواد الى مدرسة ليليه كان يتعلم بها الفرنسيه قبل سفره وحيث تسكنها الآن صديقه لي وجدتني اجلس معها غير مباليه، متعجبه كيف لا اهتم لأحجار الشطرنج، التي كنت اتكوم حولها. أردت ان اعجل وأسافر قبل ان يطرأ شيء أذ اقرأ في جريده رأسي: «رصاصة طائشة اصابت شابه كانت تستعد للسفر». تمنيت لو اخبئ رأسي في كعب السيارة للمحافظة عليه، سرت بمحاذاة الجدران، صعدت الى جانب موسى وكلي توثب، أحيد من اليمين الى الشمال حتى إذا خرقت رصاصه، اضاعت هدفها. اعدو الى البيت اقبل روحية. وعندما تبادرني:" جواد مش هون " اضع يدي على قلبي، يعود خبر الجريدة الى رأسي " كاتب فرنسي من أصل لبناني يصاب برصاصة طائشة، أسألها بلهفة: «راح وحده؟»

قالت:" ياريت لوحده ألست فضيله اخذته عند قريبه رسام انيس... بس لما لفظت اسمه فضيله حتى جن وما عاد صدق». وقفت في وسط الحديقة افتح الباب من وقت لأخر. القي نظرة على الشارع أعود الى البيت وقلقي على جواد يزداد ثم أقرر التحدث مع جدتي مهما طال عذابي لادير رقم مصنع الشوكولا في الضيعة. الذي ما ان سمعني من هناك اطلب زمزم او نعيمة حتى نادى:" تحت امرك " لكن انقطع الخط وأنا انتظر. لأعود فأجربه بعد ربع ساعه واسمع صوت زمزم اخبرها عن امر سفري واحاول ان اطمئنها وانا اسمع ردة فعلها العصبية والخائفة، اعدها بان لا اتأخر، وبأن تبلغ حبي لجدتي مؤكدة لها اني لن اسافر امريكا،

وانهيت مكالمتي قائلة: «أي روحية تقفل البيت بالمفتاح وبتعطيه لفضيله، وفضيله بتعطيه لعلي. البيت كثير منيح نضيف ومرتب والحديقة عال.».

كنت اكذب طبعا بالنسبه للحديقه وأغمز روحيه، وأبتسم.، لكن ما ان اعدت السماعه حتى أخذت أبكي ثم هرعت احضن روحيه وابكي، تجمع أولاد البيت والأم تحاول ابعادهم واقول:" قالت زمزم انو ستي كان حاسسها قلبها انه مش لح تشوفني او خيفانة.،وزمزم وصتني حتى لا تغسلي الشراشف لما سافر».

سألتنى الجاره: " يعنى رايحه ياست اسمى وتاركتينا"

قلت وأنا اشعر بوخز الضمير: عندى شويه شغل وبرجع اكيد بعد شهر."

ثم لاهمس في إذن المرأة بأنى سوف ادفع لها ثمن المخابرة، رغم قولها بسيطة " في طريقنا الى البيت استدرجتني روحية لأن انقل اليها حديثي مع زمزم كلمة كلمة. ثم صرفت الموضوع لتسألني:" يللا، قبل ما يجي الأزعر، شو الهيئة بتحبو بعض. وليش ما بتتجوزوا قبل ما تسافرو. أو بس عم تتزعرنوا؟ "

قلت وأنا افكر بناصر:" أنا بحبه، بس مش عارفه اذا هو بحبني "

شهقت روحية:" يعنى ما فتحش سيرة الجواز».

قلت: " بالمزح والضحك ".

ولم ادهش عندما قالت لي:" يا اسمى العيون، مش ابن خالتي ويعبد الطريق اللي بيمشي عليها. أوعى ترخّصي حالك قبل ما تتفقوا، اوعي تخلي ايده تمشى عدرب الصدر، اسأليني شو كنت غلطانه. كنت مجذوبة يوم ما عطيت جسمي، هلق متزوجة اخوه"

" بتعرفي زمزم انبسطت انه أنا رايحة مع جواد "

وأفقتنى روحيه:" ليش ما بدهاش تنبسط شو هي ستك مفكرتو مثل الدلال، ما هو صار اهم من اولاد العيل».

"صارت حاسه انو لازم اتجوز. ولو شافتنا مع بعض امبارح يمكن ما كانت زعلت يمكن كانت جوزتنا ".

" يعني تزعرنتو آه بعد السهره قليلي تزعرنتو يا زعران؟"

كمشت نفسي وأنا أود أن صف لها ما حدث بيننا، كمشت نفسي بأني اصبحت كفضيله، كصديقات امي».

" طيب يللا قولي قبل ما يجي. من الاول شوقلك حتى قبلت وان شاء الله عرف حدوده أوعى يكون مسك صدرك." ثم ضاحكه:" قلتيلو: هالننوش مش مثل هيداك النتوش ويا ضيعان العشر قروش."

تنسى روحيه خوفها علي وتخبرني قصه عن أحد رجال الضيعه عندما تزوج من إمرأة أخرى شقراء الشعر على زوجته ليندب حظه بعد ليله الدخله قائلاً:" هالننوش مثل هيداك النتوش ويا ضيعان فيها حتى العشرة قروش. " آه يا جواد يا أزعرالزعران."

عرفت أني أصبحت أتقدم في السن وأني مكبوتة إذ أني اتباهى بما حدث بيني وبينه. ولم ابتديء باعداد شنطتي الا عندما عاد جواد.كنت اختار الكثير ثم القليل واتخبط في الحيره وأسأل روحيه، وأسأل فضيله التي أرادت أن ترسل رساله الى أمي واخرى الى ريكاردو، وكان جواد يفضل ملابس الارتيزانا والقفاطين الشرقيه وملابس جدتي، يقول عن ما هو عصري: بطل عالموضة او اللون مش حلو او أوكازيون النايلون." ومن حولي تجمعت تلال الملابس تلال الحلقان الوانها تدعوني تجعلني افضلها على غيرها لكن الذكريات التي ترافقها كانت تحثني أن لا أتركها. أتلفت حولي واتخبط. أنا فعلا مسافرة. أترك كل هذا، وأخذ بعض هذا وأسافر، أجدني اتمنى لو أعدل عن السفر. فأنا اشتاق لكل ما أراه. واريد أن أبقي كل شيء على حاله.كأنى أردت أن آخذ كل ما املكه حتى من الملابس التي كنت وضعتها في أكياس والتي لا ارتديها بل اشعر بالحنين لها. ولم تكن الملابس فقط التي اشتهيت ان ترافقني بل أشياء اخرى من صحن سيكاره، الى صورة وبعض أشياء جدتي، من بينها علبه بودرة فارغة. بل أردت ان آخذ

جدتي معي. ثم اجدني ادور كالكلب الذي اراد اللحاق بذنبه فجأة، أدور حول نفسي وألمس الأشياء وأتركها وأعود فالمس غيرها. كانت الأشياء الجامده تأخذني الى أمي وإلى اسعاف والى والدي وإلى طفولتي حيث في ذهني صورة لطائرة في الجو وكأنها قلم برتقالي يخط على السماء الزرقاء خط سرعان ما يمحى. كيف تحتوى حقيبه سفري كل هذا؟ كيف اترك كل هذا. بدوت كقطة في سوق السمك. من اشتمامي للرائحة النافذة تاهت حواسي. لم اعرف من اين بدأ وأنا احاول أن أحزم متاعي. أريد هذه الغرسة. أكره الباب هذه، التي لامست يدى ألاف المرات، كيف احزم شقوق السقف التي كانت تريني ظلالاً وأشكالاً؟ بعد أن ظننت أني اعددت شنطتي وأعددت بالتالي نفسي. اكتشفت أني كلما أزلت عثرة من طريق سفري اقلقتني عادت فنبتت عثرة أخرى. وها انا افكر بأن جواد سيخطف في الغد. لأنه يحمل جواز سفر فرنسيا. ولأنه قد حقق معه ونحن في طريقنا الى بيروت عائدين من الضيعة. لما اطلعته على هواجسي قربني منه يطمئنني ويحيطني بذراعيه ويسألني وكأني طفله صغيرة يعرف أنها لن تستوعب سؤاله إذ أنها محاطة بوسائل اللهو من كل صوب.

" كيف عشت كل هالسنين وما خفت "

" كنت أفكر أني طرف في الحرب شاهده بغبطة أم بحزن على من يدخلها ومن ينتصر ومن يتقهقر. كالمقاتل الذي لا يخاف من الرصاص المنهمر باتجاه حاجزه. أما الآن فانّي أشعر بأن الطاعون قد دبّ في المدينه فجأة. وها انا افر بجلدي. يبدو اني زرعت بذرة القلق في جواد، فهو اخذ يقص علي ما حدث مبتهلاً بأن يكون امر خطفه لساعات انما ترحيباً به كما قال له المحقق، تمجيداً لأدبه، لأسمه في أوروبا والعالم،، أراد لفت نظر جواد عما تبذله سوريا من اجل لبنان، وعن اجحاف اللبنانيين بحقهم، فدمشق هي التي تفرج عن المخطوفين وهي التي تحرص على إعادة السياده إلى لبنان وهر تعرف بمخطط اسرائيل تجاه لبنان،

قبل أن يدخل السوريون بيروت الغربية ليوقفوا نزف الدماء بين الأحزاب. كانت المنطقة الغربية يحكمها ابليس. لم يكن احد يتجرأ لمدّ رأسه خارج نافذه بيته او شرفته والآن يخرج الإجنبي من وكره في عز النهار، ومع ذلك لا ينوه اللبنانيون عن الحقيقه. بأن سوريا قد أعادت لهم نسيم الحرية. " باختصار طلبوا ان اكتب هذا الكلام..».

" يعنى بده ياك تكون من اتباعهم والسلام."

" مضبوط، جاويت الضابط ولو كل شيء عم تعملوه كرمال سواد عيوننا. كل هالشيء مشان عيون اللبنانيه وحبكم باللبنانية؟ القضايا السياسة والمحلية والعالمية.. اين..»

حيرتى تجاه ما يقوله جعلتني لا أعلق بل اشرد. ومع ذلك اقترب جواد مني بوجهه يريد شفتي وأنا افكر بأننا ربما لن نسافر في الغد. كنت آخر من يريد شفتيه، كانت شفتا علي هما اللتان أود ان اسمعها تردان عليّ وتعدانني بأنه سيأخذنا الى المطار بعد أن اتصلت به وتركت له خبراً فأنا لااعرف مدى نفوذ اصدقاء موسى في المطار. همست لجواد وأنا أتململ حتى آخذ نفساً، تماماً كالحيتان التي وجدت نفسها في بحيرة من جليلد ذات ثقب صغيرلتتنفس منه: " عقلي مش معي."

رغم أنه همس بدوره:" وأنا كمان ". إلا أنه وضع يده فوق صدري، ثم مال رأسه فوقه، ثم استرق النظر الى ثديي من خلال فتحة القميص وكأنه لص. وقال اني املك صدراً جميلا ثم بصوت منخفض أضاف أن حلمته تذكره بحلمات نساء عائلته. انها واسعه وزهرية سألته اذا كان يسترق النظر اليهن؟ أجاب بصوت منخفض: كيف عرفتِ ".

قال ان امه أرضعته طيلة خمس سنوات لأنه كان نهماً. كان ينادي أمه اذا كانت تجلس في الدار مع الأخريات ويشير الى صدرها ثم إلى غرفته وأذا بي

اشده واقبله بنهم وأقول له:" من وين جيتني بها الآخرة؟."

ثم اخبرته اني كنت قد يئست من أن أحب احداً من محيطي، فطريقتهم في الحب كانت تضحكني واخبرته كيف احبني مراهق من الضيعة بعد أن جذبتني اليه قصص الشيطنه التي سمعتها عنه، وبعد محاولات كثيره ومتعدده لنختلي معا لحظات في خيمه القش، في الصحراء ، بينما ابو الحن يقطف القثاء والبطيخ. قال المراهق:" دخيلك يا أسمى، دخيلك مش عارف من وين بدي بوسك وكجمجك وعضوضك."

نفرت عنه وعدوت خارج الخيمة الى حيث المجموعه وأنا اجهش بالضحك من جملته هذه، عندما حاول ان يكلمني. قلت وأنا أكاد يغمى علي من الضحك:" بدك الهيئة شي عضمه."

حكايتي هذه اشعلت الفضول في جواد: «يا حرام هالمسكين شو صار فيه؟ صحيح يا اسمى شو صار فيه؟».

" صار مهندس زراعي "

لبثنا صامتين لفترة في كلينا مئات من الأفكار، العتمه تتكاثر ثم تنجلي كفقاعات من الصابون. عتمه النهار هي التي لا شك انها تولد هذا الشعور. بينما ظلام الليل تحفر افكارها في النفس وفي العقل حتى تكاد تذيبهما. يبدو انه استسلم لنوم خفيف. اذ اصبحت اسمع انفاسه الخفيفه المنتظمه. انسحبت على مهل اخرج من غرفة جدي، كانت روحية ممددة على الكنبه. تدخن سيكاره وما أن سمعت وقع خطواتي حتى بادرتني: « ولكم ما بتشبعوش من بعض، والله غلطانين والله بدو ياك يللا يطلبك من ستك وجدك هلق قبل بكره. أوعى تكوني المصاصه يمص عافيتها ثم يرميها». اكتفيت بالإبتسام وانا افهم أنه رغم تطورها عن كل نساء الضيعه وحتى عن الكثير من هن في قلب بيروت، إلا انها لا تزال روحية التي عاشت في فكرة أن الرجال ملهومش أمان " قصدت معي بيت الجيران بعد أن

حثتني لأتصل بعلي من جديد فهي لا تتصور ان موسى ابن فضيله لديه معارف يعتمد المرءعليهم في المطار، وهي تود ان تطمئن على جواد الى أن تقلع الطائرة وتراها في الجو، بعيده عن سماء بيروت. امسكت بالمفتاح ويغرسه القله وخرجنا بهدوء دققنا باب الجيران لنسمع صوتا ينادي: " مين؟" لتجيب روحية بصوت ساخر ومنخفض: «ابو امين عندكم بصه نار "

لكن رفعت صوتي:" انا اسمهان الجاره "

وفتح الباب بسرعة لتتجمع عائله جيراننا من كبيرهم إلى صغيرهم عند الباب. اودع عندها الفلّة لريثما جدتي تعود وانا أشعر بالحنين فجأة وعيني تدور في الغرفة شبه المألوفه ارى عبر زجاجها جدار بيتنا واحدى شجيرات حديقتنا واعين الصغار الجريئة مفتوحه تتأملنى بكل حب..

وجودي كان مهما في فترة ما، كنت اساعدهم بتأمين الضروريات اليوميه من غاز وماء وخبز وأطباء حتى بالمواصلات مع ذلك لم يكن ينسبونني الى اي جهة. مساعداتي لهم لم تكن تأتي عن طريق أي من الجهات. عاد الزوج والصبيان الى الشرفة المعتمه. أسمع صياح الاولاد مع أولاد البنايه المقابله وهم يتحارجون يتفقون على تبادل الرصاص وقطع الشظايا. تماما كما كنا نتبادل الطوابع وديدان الحرير. بينما اسمع الأب يؤدى النصائح الى قريبه الشاب مطولاً باله على تمردّ الآخر اتيا بذكر أفراد العائلة وقصصهم:" العائلة هي اهم شيء أوعي تفكر غير شكل. إذا الواحد فّكر بحالو وفكر شو عم يصير بره ضاع وضيع حالو وغيرو".

خافت روحية ان اكون قد نسيت سبب دخولنا بيت الجيران.فنبهتني قائله:" وعلي؟ نسيت علي؟ " سألت الجاره:" فيني أعمل تلفون؟".

أجابت: " تكرم عيونك " وهي تتجه اليه. سرنا خلفها، نقصده وكأنه شخص علينا تاديه احترامنا وواجبنا تجاهه. من العجب أنه ما زال يصدر صوتاً ورنيناً

ولدهشتي أجاب:"طبعا عرفت» ثم يخبرني بانه هو الذي توسط لموسى من اجل التأشيرة الفرنسية، وبانه سوف ينتقم من فضيلة في القريب العاجل وبان موسى لايستاهل قرش مني.

فرحت لأن الوسائط لم تزل تأتي من الداخل لا من الخارج ولاني لم اعط موس مكافأته بعد. ثم كمشت نفسي متلبسه بصفة البخل، وعدم العرفان بالجميل، خاصه ان التنافس كان من جهة موس فقط. هو يطمع ان يكون كعلي حارساً وحامياً للشخصيات.لاليأكل جيداً وليشرب جيداً. فلبنان لم يكن على درب المجاعة كما يُصوّر، بل من اجل النفوذ. فهذه الظروف تلائم الشطّار. ان تكون مرافقاً أي أن تفتح لك الدروب والأبواب، أي أن تشق بسيارتك وبسلاحك غمام السحاب، انت المسؤول، أنت الأهم حتى من الذي تحرسه إذ يصبح هو خاتماً في اصبعك، مصيره يتعلق بقوتك وذكائك ثم تتعرف من خلال هذا المركز على مفاتيح المال، الأشخاص، من هم اسياد المعارك، كأسياد المال، وسرعان ما تحمل انت هذه المفاتيح وتبتديء الرشوات والعمولات، الى أن تنفرج الأمور وتصبح انت في مركز قوه تستقدم الحاشيه حولك حتى ومن يقوم يحراستك. فهذا ظرف استثماري يجب الإنقضاض عليه. هذا ما يطمح اليه موسى، ان يصبح مرافقا قبضايا لشخصية مهمه. لا للمهاجر الغني النكره الذي اوكله لحمياته من السارقين. ويبدو أن فضيله عظّمت من شأن معارفي، عدا أن موسى لابد أنه يفكر إذا وصل الى علي من خلالي فأن علي سوف يسند اليه المهمات عندما لا يسمح له وقته بالقيام بها ويصبح شيئاً فشيئا في مركز علي ثم ليتخطاه.

" جواد مسافر وانا كمان وانت بتعرف انا شوي خيفانه."

اجابني باختصار:" أنا عارف انت دائما بتخافي من السفر قوي قلبك بكره من دغشه الله بكون عندكم. يللا بتوصينا شى ست اسمى "

" لا سلامتك، تصبح على خير."

عرفت انه يعرف سر خوفي وانه لا يريد ان يتحدث عنه عبر التلفون ودعت الجاره واعطيتها مالاً لقاء مخابرتي عدنا الى البيت. نفتح الباب بهدوء لتصرخ روحيه وأصرخ خلفها بكل رعب. اخافنا وقوف جواد في العتمه «ريا وسكينه وين كنتو؟ أو ست اسمى راحت تودع الحبيب؟.»

أجابت روحيه:" يللا شبكها بخاتم خطبه حتى اجريها ما تشوف السما الا معك".

قال:" بكره مثل هالوقت منكون بباريس، يمكن تكون الدنيا عم تشتي. بتذكر قبل ما اجي هالمره علبنان قلت قبل بليله وأنا عم نام مثل هلق بكون بالضيعة عند روحية، وما صدقت الا لما ليلتها عقصتني برغشة "

لا أفكر بالغد أو بليله الغد واين سوف اكون، بل اشعر وكأنني داخل محرك سيارة يضج وكل آله تضغط على الأخرى حتى تتحرك وتحرك سواها. باريس بعيده لا تهمني. يبدو أن عدم تحدثي فسره جواد على شكل اخر، اذ سألني " عم تفكري اذا بكره بالليل راح نكون مع بعض مثل هلق؟ يمكن صعب " انفي بسرعة: " أبداً، أبداً " وعيت باننا حتماً لن نبات معاً في الليل. ولم يزعجني هذا واستغربت من عدم انزعاجي وتساءلت ربما لا احبه بل أنه وسيلتي للسفر. "

يكمل هامساً:" ما بّدي اصدمها من اول ليلة " صوته لا وقع جملته عليّ هو الذي جعلني اتراجع عن فكره بأني لربما لم اعد احبه. لم انم، ربما نمت كالأرنب البري الذي ينام وعيناه مفتوحتان، وحلمت بأني في مقهى الجامعة، وجواد قبالي، رأيت وجوهاً لم تخطر على بالي من قبل لأشخاص كنت أراهم ولابد انهم رحلوا عن بيروت من زمان: المصور، صاحب محل الأسطوانات، الحلاق، استاذ الجامعه. صيدلي كان يبيعني الكريمات لتغذيه رموش الأعين، وكريم آخر كان يعده لصديقتي ايمان حتى لا يتهدّل صدرها. ثم رأيت وفاء التي كانت تداوم في الجامعه ونراها في المقاهي وتحت الشجيرات واثناء الامتحانات. لنعرف أنها لم

تكن مسجله بالجامعه، كلنا نبكي في المقهى ونقبل بعضنا، رغم ان هذا الحلم اخافني لكني لم اعد افكر به لحظة أو اتلوه كما هى عادتي. اذ وبسرعه دخلت لعبه السفر لاكتشف ان التي أيقظتني كانت هي دقات قلبي. ما ان لمس النور أجفاني حتى وجدتني اسرع والبس داخل الحمام وأسرح شعري بينما يحضر جواد نفسه على مهل. أصوات روحية وفضيله تجعلني استفقد جواز سفري، تذكره السفر، نمره تلفون امي، تلفون حياة استفقد الشنطة. استفقد عقلي. أدور في البيت. اترك ورائي الأشياء التي اريدها. كأن زمزم سوف تجمعها من خلفي، عندما المح فرشاه اسناني التي لابد اني وضعتها على الطاوله ريثما افتح الباب حتى عرفت انه علي ان اركز كل أفكاري وأضع كل شيء في شنطتي للتو. لأن الوقت يجري مني "و بأني سوف ابتعد عن هذا البيت بعد قليل، وعندما نزلت السلالم لم اشعر بأني لن اعود اراه وعندما دخلت السياره لم اشعر بأني مسافره. عندما ودعت جيراننا بتلويح يدي لم اشعر بغصّه كما توهمت قبلا، لم اهتم لسماعي أدعية روحيه الخاصة بالسفر. قبلات فضيله لم تترك أثراً على وجنتي. واستلامي لرسائل من موسى حتى أودعها في بريد باريس جعلتني أفكر لابد انه يحلم. فأنا لم اتصور اصابعي تلصق عليها الطوابع، ولا يدي تدخلها في صندوق البريد في باريس. لكن ابتدأ شعوري بآني مسافره عندما رأيت احياء نسيت انها موجوده، وابنيه كانت عالقه في الذاكرة وقد تشوهتُ اصبحت خربه والصنوبر المحروق والتحف القبيحه وباعه الخضر. ليعود يختفي الشعور بالسفر امام الحواجز. الحاجز الأول هو للإطلاع على شنط السفر. يسرّ علي باذنهم شيئاً ثم يريهم بطاقة. عندما يبتسم لنا الجندي ويقدم لكل منا لوحاً من الشوكولا يقول علي:" أول مبارح كانو عم يعطوا موز"

يلوح المطار من بعيد، بلونه المدموغ في الذاكره، بساعته المألوفه التي فقدت كل عقاربها وبدت كأنها حشره ميته علقت على الحائط. أطلال من الأسمنت؟ أم انها

جسور من باطون مقطوعه. تتوقف السيارات الكثيره بعيداً. تفرغ حمولتها من الحقائب والمسافرين والمودعين.

يصيح علي بروحيه، لانها اتت معنا وهو يريد ان يدخل معنا الى الامن العام ثم الجمارك.؟

ولم تجبه روحيه بل عانقت جواد عناقاً شديداً وضحكت وهى تبكي وشتمته وهى تمسح دموعها وقرصته في وجنتيه وعادت تعانقه وتناديه:" يا حبيب الفؤاد " وضمتني الى صدرها، ولم تتركني الا عندما أزحت نفسي عنها. يوقف علي السياره، ثم يحمل حقيبتي بينما يحمل جواد حقيبته. انتهى علي بدفش الرجال والصغار الذين أرادوا الأستنفاع اما بالدعاء بسلامه سفرنا او بمحاوله اخذ حقيبه جواد من يده بينما كان قلبي مع جواز سفر جواد. الذي امسك به جندي قبل ان يعيده الى علي قائلا:" مع السلامه " ولم تفتح حقائبنا " لأن المال عرف طريقه الى الأيدي، وعلي يعرف الجميع، حانت منا التفاته الى الجهة الأخرى حيث رجال في اللباس المدني يحملون رفاصات آسرة ليعلق علي: " اسرة المخابرات السورية؟ نرى اقفاص دجاج في المطار، فيؤكد على ان تربية الدجاج في ازدهار».

المطار يئن من الوحده، رغم الجموع، البلاط الوسخ واللافتات المعلقة. مجموعات سياحيه، جميع الأتجاهات. قسم من الكلمات في الاجنبيه. المسافرون من غير حقائب اير وفلوت. انترفلوك. ك. ل. م. عاليه. بلغاريه، الجويه البريطانيه، اير فرانس. بان اميركان.

كل هذه كانت موجوده قبل الحرب تنادي ونحن لا نراها، لا نحتاجها اذ كانت تمت الى عالم اخر. لا يمت لنا بصله، عالم متصل بالعوالم الأخرى وعالمنا كان في لبنان وفي بيروت بالذات. أمامنا الآن صفوف المسافرين طويله، بل تجمعات المسافرين مع شنطهم وأولادهم. كان علينا ان نفتح حقائبنا رغم ان علي اسر في أذن الجندى اللبناني شيئا لكن الجندي اللبناني اشار الى جندي سوري

ثم امسك بقميصه. بنفضه كمن يقول:"ما عندي علاقه ليتفقد شنطنا ويدسّ بيده الخبز المرقوق وكيس الصعتر حتى مجمع الحلاوه. قبل أن يردد:" مع السلامه " ثم اخذ الجندي السوري جواز سفرنا ثم اعاده لنا قائلا: " ليش مع بعض؟" اجبت::" قرايب ". ثم وقفنا في معمعه فوضى الشنط والناس وصياح فضيله وروحيه اللتين وقفتا مع موسى خلف الحاجز الحديد كبقيه المودعين الذين دخلوا بإذن خاص يقف المودعون وراء الحديد الأصفر والزجاج وكأنهم ينتظرون ان تدار عليهم مأكولات الاغاثة خاصه الماء. حتى ترطب الشفاه وتجد طريقها الى القلب، فتسنده. لم يعد المسافر مسافراً ما قبل الحرب للسياحه، للزيارة او حتى للعمل المؤقت. والمهاجر لم يعد مهاجرا كما في الماضي يسافر على متن البواخر والطائرات. المسافر الآن هو راحل ليبتديء باسم جديد. بعقل جديد حتى بجسم جديد. انه كمن يصبح دخان قبل أن يدخل في قمقم الجان وليختفي في بلاد بعيده، والمودع الواقف يشعر بحرقه وبغيره في آن وبضياع ازاء المسافر الذي قد نسي من أمره حتى وهو ما زال في المطار وانصرف عند اظهار العاطفة بانهماكه في تدبير الحقائب ومعاملات السفر.

أرض المطار التي كانت بلون السكر وطالما كانت تذكر بهندسه الستينات، أصبحت ذات بقع سوداء، كأن معامل تكرير الزيوت والنفط اقيمت فوقها. أعقاب السكائر اينما كان. كأن الأرض هى منفضه واسعة. كان دخان السكائر اعتلى الجدران ولم يفارقها أو انها العتمه؟ هل يحتاج الإنسان الى ان يكون وسط الطبيعه ولا يحتاج الى النور والديكور من حوله حتى يبدو هو مقبولاً منسجما مع نفسه وما حوله. لا كهرباء في المطارالسقف المنخفض لم يكن من الأسمنت، بل من مربعات بلاستيك. قلعت بعض مربعاتها. كأن المهندس الذي وضع هندسته عرف بأنه سيكون مطاراً مؤقتا. على حائط فقير. صوره رجل من غير اسم. من غير لقب. فقط الأرزة هى التي تشير الى من هو. كانت صور رؤوساء جمهورية لبنان

تؤثر على من يراها. وتحفر نفسها في الذاكره، ربما للنيشان الذي كان يشق الصدركأنه يوحي بالحزم والقوة، صور حافظ الأسد اينما كان وتحتها اسمه. اراد على لفت انتباه جواد بأننا واقفان عند الدرجة الأولى ثم تراجع قائلاً:" يللا هلق عندي واسطة.انا بدبر".

لكن جواد اصر على ان يدفع لي الفرق حتى اطير معه. ثم التفت الى حيث روحية وفضيله وموسى وقال:" بس ما تنتبه روحيه وإلا بصير عندها نوبه قلبيه " عندما المت روحية بان جواد يسافر درجة اولى توسلت اليه ان يطير درجة سياحية ويمنحها الفرق. ثم انتبه جواد انه يضع السمكة في فم القطة، توسل لعلي ان لا يفتح الموضوع امامها.

ضحك علي فرحاً لأن جواد يفهمه جيداً وقال:" ولا يهمك " ثم نظر الى حيث تقف روحيه واشار الى لافته الدرجة الأولى، لكنها لم تفهم وحاولت الاستفهام رغم ضحكهم. المطار كأنه قدر يغلي بحبات الذره رؤوس تعلو، رؤوس تنحني، الضجيج على قدم وساق. ودّعناعلي عندما دخلنا الى الأمن العام رغم انه بقي واقفا ينتظرنا تقدمنا من أمن الجوازات، قلبي يغوص من جديد عندما أعطى جواد جواز سفره للجندي السوري في اللباس المدني:." جواد مولود في....وفرنسي". أجاب جـــواد ضاحكا: " شو بدنا نعمل عطونا الجنســـيه والباسبور منقول لا». ثم اخذ الجندي جواز سفري ونظر في وجهي " شعرك هلق أحلى يا صبيه ". وكان شعري في الصوره قصيراً. اشرنا بيدنا الى علي ثم الى روحيه وفضيله وموسى قبل ان نختفي عنهم.

عندما دخلنا صاله الإنتظار انكمشت. اعتدت على العتمه في البيوت لا في المطا.ر ثريا تتدلى من السقف كانت من الزجاج الأزرق المنفوخ الذي يذكر بفندق الفينسيا. بلون البحر والصفاء. كأني التقي باللبنانيين وجهاً لوجه لأول مره. كان المطار هو ميزان اشعه. السفر يفضح المسافر ويبدو الإنسان على حاله. بلا

جوانب. لذلك اكتشف الآن كم ان اللبنانيين قصيرو القامه. ربما لذلك صمم المهندس هذا السقف المنخفض الذي يكاد يطبق على الرؤوس المنتصبه. هذا البلد عادي. لا حرب فيه. أنما بلد فقير. يختلط العجائز والشباب والأطفال مع طاولات الستانليس ستيل العتيقه وطفايات السكائر التي هي من السيتانليس ستيل أيضا. سنوات طويله مرّت على هذه السجادة الخضراء الزرقاء ذات الثقوب الكبيره والصغيره " قهوة ساده، أى سادة. من غير سكر."

سمعنا مواء ولم نعره أي اهتمام، نتجه الى الدكان المعفي من الضرائب. وكأنه في بلد في مجاهل الأرض. كل ما هو معروض بدا قديماً. توقفنا عند دكان الأرتيزانا التي بدت في عتمه المطار واحه في صحراء. اشترى جواد حمالات للمفاتيح تنتهى بأعين زرقاء. عدنا الى صالة الانتظار قطة وأولادها كمكبات صوف تلعب تحت الكراسى وفوقها تلاعب امها وتسحب من قش المقاعد المهترئه طفله تلعب مع إحدى القطط التي هى بحجم الكف، ثم تلتفت حواليها قبل أن تضعها في شنطه يد كانت قرب اهلها، ثم تقفل عليها وتسير بها قليلا قبل أن تعيدها يد الأم وتفتح الشنطة في يد وتصفع البنت في اليد الأخرى بينما تفر القطة وتعدو هاربه كالمجنونه بعينيها اللتين اصيبتا بالحول. لم استرخ، شيء ما كان يقلقني ولم اعرف مصدره، بل اشعر كأني في مطار موسكو وبأنه سمح لى اخيرا بالسفر، وباني اترقب ركوب الطائرة بين لحظة وأخرى وأترقب ايضا منعي بين لحظة وأخرى. شيء ابيض يقترب الهاني عن نفسي، لعبة كبيره محمره الوجنتين والشفتين تقترب. انها من بني ادم، عروس في بذله عرس بيضاء طويله وعلى رأسها الطرحه. لم تكن تنظر الى احد، بل الى حقيبة يد كبيرة يمسكها لها موظف في المطار. تجلس العروس وتقرب الحقيبه من حذائها الأبيض ذى الكعب العالي. تعبق الرطوبه والحر من كثره الزحام ومن دخان السجائر، استحوذت العروس على كل اهتمامنا وقلت:" يا حرام راح تفطس " وانا اراها تهوي وجهها بجزدان

من البلاستيك تناولته من حقيبتها . قال جواد:" دائما انت سلبيه.هي مبسوطه الكل يهتم فيها ويطلع عليها.انا ندمان وجبتك معي، في أحلى منها انك تنزلي بمطار شارل ديغول بها البدله البيضاء ».

ضايقنى مزاحه رغم انه أضحكني أيضاً.: شو هي خروف طبعو عليه دمغه الذبح. يعني ضروري الكل يعرف انها عذراء ورايحة عند خطيبها، اللى راح يصير زوجها اليوم هي الطاهره الشريفه لابسه ابيض، وهاالمكياج على وجهها مثل كأنها بعيد البربارة "

" كل شى بتاخديه بشكل شخصي. هي حرّه العالم حر، ونحن حرّين بدنا نتفرج " ثم فتح حقيبته يخرج منها فيلما يعبئه في الكاميرا ».

جئنا بامي الى المطار في اليوم المقرر لسفرها الى الولايات المتحده مع زوجها . كنت فرحه لارتدائي فستاناً مخرماً أزرق اللون، ولركوبي السياره ولذهابي الى المطار، رغم أن اسعاف بكت كثيراً ولكزتني حتى أبكي، ولم استطع، فكرت باشياء كثيره حتى تسقط دموعى، فكرت باليوم الذي توفي فيه والدي ولم أبك، حتى عندما استدارت اسعاف تحضنني باكيه: ما تبكيش يا حبيتى انا معك، معك، حتى لما تتزوجى لم ابك، ابعدتنى رائحة عرقها القويه وضببت كل اهتمامى وانا على شرفة المطار على الطائرة المسافرة الى أمريكا. دهشت لهذا الشيء ذي النوافذ الصغيرة الذي كان يحوي هذا العدد الكبير من المسافرين الذين ترجلوا من الأتوبيس، وكان همي لو ارى الطائرة من الداخل. ولم ابك حتى وأنا ارى امي تقترب من سلم الطائرة، وترفع يدها الى شرفة المطار، بل فكرت انها كالممثلات بالفستان الجديد الجميل التي كانت ترتديه، حتى الاشارب كان في لون الفستان، وقد امسكت في يدها حقيبه جديده صغيره كحقيبه الممثلات عندما يسافرن، خاتم من الماس في اصبعها وخواتم أخرى جديده، كل شيء جديد، فهى قبل ان تنتقل الى بيت جدتي لعقد قرانها هناك، جلست على الأرض بين اكوام الملابس والأحذيه

والحمالات وعلب الشوكولا الفارغة، وفيها كل سلاسلها وعقودها وحلقان اذنيها. بينما التففن حولها. فضيله والجارات ومريم التي كانت تبيع الملابس المستعمله في دكان زوجها. وأخذت توزع كل شيء. واسعاف تغلي كلما رمت امى بفستان الى فضيله أو الى امرأة أخرى فتهرع الى الفستان تمسك به قائله: " سنتان وبيصير ها لفتسان على مقياس اسمهان. تضحك امي بسعاده:" اسمهان لن تلبس ملابس احد.. بس فساتين الأميرات ».

" كنت مثل غصن الزنبق الأبيض بس، لأنه امي كانت زعلانه عليّ حلفت يمين ما تدفعش قرش على بذله العروس وقاموا اهل بيك واستأجروا لي فستان عرس طالعه ريحتو، والطرحه مثل خرقه التموسيه. كانه المصارى للفرجة."

وكانت الفساتين التي توزعها أمي لا بأس بها. انما ينقصها الكبسون او السحاب أو زر مقطوع أو ذيل غير متساو وذيل تفكك ولم تعد امي خياطته. بل شبكته بدبوس. فساتين انكمشت لأنها اما غسلت بالماء الساخن أو أن الوانها باخت،. وكانت حصتى حذاء عفاف الأحمر وبعض الحلق. ثم تبينت كيساً كانت زوجه احدى النواب قد اعطته لأمي في يوم استقبال حتى توزعه امي على الفقراء ولم اعد اراه واخذت امي ترمي بأشيائه، والكل يثنى على جمال القطع الى ان رأينا تنوره تبينا قماشها انا وأسعاف وحزرنا انها تكملة الجاكيت التي دأبت على إرتدائها امي بعد ان اخبرتنا ان خياطاً مشهورا قد خاطها لها. عندما فرغت امي من كل شئ ونهضت كل من النساء تحمل في حجرها قطعه او قطعتين، قالت امي لأسعاف:" انت راح يطلعلك اكثر شي، العدس والصابون والمؤونه وكل شي." لكن اسعاف كانت تبكي بحراره لأنى سأعيش مع جدتي لأنها ستفارق البيت الذي اعتادت عليه،لأنى سأكبر يوماً ما ولن أمد لها طوق النجاه، بل ساجلس كما الآن أذكرها من موقف لآخر وأسأل اين هى يا ترى؟ اين هى آسعاف، لماذا تركت امرها معلقاً. لا يستجلب سوى الأسى والتساؤل، أين هى اسعاف؟ الطائرات

تتأخر عن الإقلاع وعن الهبوط. تعالت تنهدات في الصاله، الحر يزداد، والعروس اصبحت ميزان الحراره الجويّ. انها تعرق رغم الكازوزه التي اتى بهاموظف المطار. تمسح رقبتها ووجهها بورقات الكلينكس. القطط الصغيره تكتفي تستأنس فستان العروس الطويل فتأخذ في التمرغ به وتحـاول اللعب بذيله والعروس تبعدها عنها ضاحكة بخجل. وكانت قد بدأت تعتاد على فستان عرسها وترفع نظرها الى الجالسين بعد أن تركتها انظارهم. وأخذو يفارقون مقاعدهم بملل وبنفاد صبر. ابتسم للعروس أكثر من مرة وعندما بادلتني الإبتسامه نهضت وسرت باتجاهها:" مبروك " اجابتني:" شكراً، بس في حرّ كثير كان العرق يتصبب من جبينها، وياقه الفستان تشد على رقبتها. قلت:" الله يساعدك " اقترب جـواد وسـألهـا " بتسمحي اخذلك صورة؟"

شعرت بالضيق لرغبته هذه تمنيت لو ترفض العروس ان يأخذ لها صوراً لكن وجهها ضحك.

" صورة واحده بس؟"

" ثلاث أفلام "

يأخذ لها الصور. يطلب منهاان تمسك القطة التي لم تترك ذيل فستانها لحظة. إنحنت تأخذها بين يديها ثم ولدهشتي تقربها الى وجهها وتقبلها وتقبلها مره أخرى ريثما تؤخذ لها الصورة وعندما طلب منها جواد ان تقف قرب الزجاج المثقوب بالرصاص، وقفت وبدّلت نظرتها الى نظرة أسى. أقول بسخرية:" عروس في رصاص مطار بيروت "

تجاهلا جملتي ليعلق جواد " خساره انت عروس، عندك اخت بتشبهلك؟"

وأجابت وعيناها تغمزان عفرته وملعنه:" عندي، لكن انتو؟"

" بدو يتجوّز عليّ "

قال:" ما تصديقها. عم فتش لخي على عروس "

فعلا انحنت العروس، رغم طرحتها التي مالت، وفتحت حقيبتها وكان فيه جزدان وتناولت منها صورة لشقيقتها. تأملناها وما كان من جواد إلا أن هزّ رأسه تأسفاً وهو يعيدها اليها:

" لا أنت احلى "

فأجابته غامزة:" يللا تفضل "

اخذت الصوره من يدها وانا اعيدها قرأت على الجهة البيضاء " هل يا ترى نلتقي بعد؟"

اسألها لماذا كتبت لها شقيقتها هذه الجملة، فتجيبني: لاني مسافرة.

هل المسافر عن لبنان يختفي،، يزول، في الدنيا الواسعه ويصبح ذكرى. ولم تتوقف يدها عن التهويه، بينما اخذ العرق ينتشر، بقعه كبيره فوق الساتان الإصطناعي:" يا ريت بتشتري تنوره وبلوزة وفستان من دكانة المطار "

أجابت بلهفه:" عندي. ما انا مسافره على أفريقيا وقلت بالطياره برتاح وبشلح الفستان "

" يللا شو ناطره انا بساعدك "

ندمت وأنا ادخل معها الى الحمام لربما اعلن عن قيام رحلتها أو رحلتي لكنها خلعت فستانها والطرحه وأبدلتها بتنورة وبلوزه بلمح البصر لتتنهد " خي ".

الغرسون في البدله السوداء وأن كانت قديمه، ينحني يجمع الكؤوس الفارغة، يضع البقشيش في جيبه يأخذ الطلبات، يقول بالفرنسيه مرسى، أو بردون بكل أدب. لماذا انا هنا انتظر موعد اقلاع الطائرة. لماذا أريد حياة أخرى،. بينما الحياة من حولي والضحكات والمسافرون وبرج المراقبه يعج بالموظفين وموظفي شركات الطيران هنا وهناك. طائرات تحط، طائرات تقلع، والغرسون يعود فيضع الطلبات بكل تأن وأدب.

اقول لجواد." هل تصدق قبل شهر ونصف كان في معارك وقصص، شوف الدنيا شو عاديه طبيعيه؟""

" شوف الدنيا شو عاديه طبيعيه؟المسافرين من حولك لا يشبهوا اي مسافرين بأى بلد. صاروا أغراب ببلدهم. شوفي كيف عم يشتروا وكيف عم يحكوا كأنهم سواح. عم يحكوا كمان بالأجنبي مع الأولاد. بكل البلاد المسافرين بيستمدوا من الأخرين الفة، بيصيروا كأنهم ينتموا الى ناد واحد الى ان يصيروا بالبلد اللى رايحين عليه، الا هون. شو في كل واحد عم يتضايق وينتقد الثاني."

أفكر:" في الملاجئ في البنايات اثناءالضرب هم في ناد واحد. لابد انهم يصبحون في ناد واحد خارج هنا ايضا. كما كنت أرى عند باب كنيسه الأشوريين في منطقة الحدث، حيث كان يجتمع عند بابها العجائز والشباب والأطفال، والكل يبدو وجها واحدا و قامة واحدة. وحركات واحده. لكن رأيت اللبنانيين صوره واحده، قامه واحد عبر نشرة الأخبار التلفزيونيه. عندما وصلت الباخره الى قبرص كان باستقبالهم جمعيه نسائيه قبرصيه، شعارها التضامن مع الشعب اللبناني. رأيت العيون الدامعه واحده والأفواه واحده. عندما فرقت عليهم الحلوى والمشروب ازددت غضباً ووجدتنى الومهم وأنا مسترخيه على الكنبه اشاهد نشره الأخبار، اتساءل لماذا هم ليسوا مثلي في بيوتهم الآن او في بيوت اقاربهم أو اصدقائهم أو في بيوت احتلوها، بدلا من هذه الدموع امام الباخره التي اقلتهم ولم تزل تهتز في البحر الهائج.

باقتراب جواد مني تقترب الدنيا الأخرى التي لا بد اني مشرفه عليها. هو الطعم الدافئ الذي جرنى من كسلي المتخدر، من النعومه التي ترافق ايامي الهادئه من حاله اللاشيء يهم الى هذا الكرسي في المطار حيث انا متوثبة اتفقد جواز سفري من وقت لآخر انصت الى نداء الطائرات، أحاول ان ارسم صوره للحياه التي سأتبعها.ا وكلما ابتدئ بالتفكير باني أنهض في الصباح في غير هذه البلاد وبأنى احتاج الى النشاط الجسماني من اجل الإعتياد على نمط حياة آخر حتى اغوص في الكرسي من جديد. لن أرى احداً قبل ان اشتري ملابس وأذهب

الى الحلاق لن اغادر البيت قبل يومين. أود أن أتأقلم في الجو الفرنسي هل سيتوفر لي سرير في البداية، هل ستستقبلنا كاترين أم اننا سنصل في الساعات الأولى من الصباح. هل سأنزل في فندق أو أنهما سوف يأخذانني الى بيتهم ويدخلان غرفه نومهما يتركانني أشد على اسناني، وهما يتمنيان لي ليلة سعيدة، بعد ان يتصدقا علي بحرام صوفي. سوف اتمدد على الكنبه واحاول البكاء، لكن التعب سيجعلني اغمض عيني مستأنسه لأفكاري التي ستوحي لي بهذا الموال:

أوف أوف أوف

جبتني عفرنسا وجبتني

ومشان هالبرصه فتتني

وبردانه عالكنبايه تركتني

أسألها شو عم غني وشو عم قول

وبقص ايدي اذا هي عرفت المصيطبه من ابو الهول

والبليله من الفول

عاد الشعور بالإنتظار يهيمن علي وعلى جواد باختفاء العروس البيضاء الى ان سمعنا اسم جواد يذاع. غصت في قلبي وعرفت ان من الفوضى ينبع النظام والنظام يجر الى الفوضى، كيف حزروه من بين حقائب وجوازات السفر والبطاقات والأمن العام وشركه الطيران والوقت المسترخي والمستعجل؟ لماذا هذا البلد هو هكذا، يعنى بأدق التفاصيل فجأة و يهمل اهمها فجأة اخرى. هل يريدون اخافته؟ أم توديعه وحثه على التحدث عن السوريين ودورهم بلبنان، ام....أم....

«استاذ جواد المسؤولين متأسفين على هالتأخير. صالون الشرف تحت أمرك. "

ارتاح جواد عندما سمع هذه الجملة، لكنه وجد ان هذه اللفته عبء عليه، أخذ يعتذر والمسؤل يصر ملمحاً الى ان هذا سوف يغيظ رجال المخابرات السورية الذين انتشروا هنا وهناك.. ولكن جواد يردد:" صللى عالنبى يا خي لا صالون

شرف ولا هم يحزنون والله مبسوط هون ومرتاح ومتشكر ".

رغم الجلبه الذي احدثها هذا العرض الا اني فكرت بان الدنيا تتبدل، الكتاب يصبحون من المهمين كالسياسيين والنجوم.اجبرونا على الدخول الى احد صالوني الشرف، الكنبات الجلديه المنخفضة المتشققه. سجاده من الغبار فوق السجاده الملونه، الطاولات الزجاجية وكأنها دلقت عليها ماده لزجة فعلقت على سطحها. صرصار ميت في زاوية. صالون الشرف هذا كان مختلفاً عن المخيله. فيه الضوء لا الصراصير وبيوت العناكب. فيه الشعور بالإستعلاء وبأن الوطن انسان. باستطاعه المرء مصافحه يده. مسافرون يدخلون هذا الصالون بعد ان توسطت من اجلهم " العلاقات العامه أو الميليشيات أو السياسيون او السوريون. هذا الصالون أو غرفة الخيبة والحسرة والتي أرتني فعلا بأن ما كنت اتشبث به هو يسبح مثلي. ثم اكتشفنا ان الذي ادخلنا لم يكن اسم جواد بل واسطه من علي، إذ جاء من يقول لنا، ان علي يهدينا احر السلام والوداع.

وجدنا انفسنا نرتاح فجأة على هذه الكنبات، لن نفشل علي. سنشرب الليموناضه ونتصرف كأنما تليق بنا صالونات الشرف، وأخذ جواد يبحث عن نظارته الطبيه التي يطلق عليها " الأصليه " التي لم تكن تفارق حقيبة يده. بينما يترك الأخرى في جيب قميص. واليوم تركها في جيب جاكتيه." لازم نسيتها بالبيت، لما كنت عم اكتب بمفكرتي كاسيتات اليوغا وصور الناس اللى بيطيروا من التأمل حتى اشتريها لابن جيرانكم.. لابد اني تركتها عطاولة الدار ".

قلت" موسى قال بيطلع بيده يأخر الطياره والظاهر فعلا أخرها."

لم أجد نفسي مرتاحه كالمسافر الذي يستوي على كرسي في المطار لا يشغل باله سوى ان يسمع الإعلان عن قيام طائرته. بعد أن يترك البيت على عجل ويصل المطار على عجل وينجز معاملات السفر على عجل. أفكر بفارق ثمن تذكره الدرجه الأولى التي دفعها عني جواد من غير ان اهتم اصبحت الليره أرخص من ورق

الدفاتر وعلى أني احسب ليراتي. ثم اخذت افكر بجدي وجدتي افكر انهما سيصبحان وحيدين لو كان جدي اصغر سنا لكنت أقنعته بالزواج من أخرى حتى ينجب اطفالا، أو ان يتبنى اعرف ان جدتي كانت ستوافق على فكرتي هذه بين دهشه واستنكار الجميع. لا احد يعرف انها وتراب الأرض والحقيقه واحد.

لماذا لم افعل شيئا من اجل اسعاف المختفية؟ المخطوفة؟ المقتولة؟. لماذا لم افكر بها من قبل بهذا الالحاح الشديد. المسافر غريب الأطوار. عندما يبتعد يأخذه الحنين، لكن هل هو حنين صادق. افكر باصدقائي القلائل الذين لم اودعهم حتى الذين كنت اهرب منهم احيانا، أفكر بأني لم أزر قبر والدي طوال الحرب. كان علي أن احافظ على ملكه من اجل ذكراه ايضا، وأن أجد حلاً وأدفع للمهجرين بما اقترحه علي الذي كان صلة الوصل بيني وبينهم. كان يجب ان اكتب الى ريكاردو رداً على رسالته غير المفهومه، التي كانت تنتظرني ما أن وصلت بيروت، كيف وصلت لا أعرف. أراقب النساء بملابسهن التي تبدو وكأنها تقليعات أوروبيه الألوان الغربيه كذلك ملمس القماش، جعلني اؤكد من انهن يعشن في الخارج. يمتلكنى شعو ر بالغربه والتمني لأن اكون في هذا الفستان أو في هذه البلوزة أو أنى انتعل هذا الصندال كأني اقف وجها لوجه امام الحياة في العالم الخارجي. والتي دخلت عصراً جديداً من دوني.

يصرّ جواد على أن نعود الى صاله الإنتظار العاديه. بعد أن خجل من كثره استفهامه للموظف عن وقت اقلاع طائرتنا وها هو يريد أن يسأل غيره.

خليط من الناس في صاله الإنتظار الأخيرة، حيث البوسطات تنقل المسافرين الى الطائرات. بدا ؛كل شيء بعيدا. لا لون له. ولم تكن السماء زرقاء. بل رماديه تغلفها طبقه من الضباب. الجبال ممتده، تلال من الرمل الأحمر لا يذكر جواد انها كانت بهذا الأحمرار وبهذا الجمال، الموظفون في حركه دائمة، بدا كل شيء طبيعيا، كأننى ساسمع بعد قليل اغنيه المروج، وأغنية «زرعنا جزره في

أرض البستان سقاها ابى وعاشت في أمان أو اغنيه «نشيد الشجرة»، إذ كان هذا اليوم يذكر بعيد الشجرة.

كان الجميع في سعاده، ما عدا العجائز وعداي. اكتشف بأنى لست سعيده بل تعيسة. يتمازح الشباب من حولي فيما بينهم بينما تبدو الشابات فخورات بملابسهن بالكحل حول اعينهن، بحلقانهن، يختلن بكل ثقه وراحة.. يضج الصغار يتعالى بكاؤهم وهم ينادون التيتا والبابا الغائبين. يبدو لي ان كل فرد يعرف مافي انتظاره عندما تقلع الطائره وتحط في البلاد الأخرى لذلك هم سعداء. خاصة المرأةذات الشعر الاشقر، ذات النظارات الواسعة،. لابد انها ستعود الى منزلها الذي اسسته بعد "الحرب. حتى الشباب الذين اسمع من طرشقة كلامهم ان هذا هو سفرهم الأول كانو سعداء لأنهم سيزيحون الستاره عن المجهول، وينفذون اليه ويعتادون على حياة أخرى.

اشعر بكراهية تجاه جميع من أرى، حتى تجاه الأطفال الذين ما فتئوا اما يبكون او يضحجون. لا اسمع سوى أحاديث عن التأشيرات وعن لفظه كندا، كندا، يأتي جواد وينقل الي اخبار من تحدث معهم. يشير الى الرجل البارز الصدر يقول انه سيهرب من ديترويت الى كندا . اخوه سبقه في الهرب الى سويسرا عن طريق ايطاليا والان يعمل غرسون في مطعم. هاجر. يهاجر. هجرة. أفكر لماذا يصر هذان العجوزان لأن تقلهما الطائره الى حياة بعيده. بينما هما في ضياع تام لم يكفا عن سؤال الجالسين او اذا كانت الطائره الى لندن قد اقلعت ام لا. يجب ان لا انظر الى هذه الهجره بنظرة رومانسيه معظمهم يهاجر سعياً وراء العمل والرزق، لامن أجل الإرتياح من العنف: انا تركت من.. " بس انا من " هلق انا تارك ".. كانوا جميعهم يتمتعون بالصحة، يبتسمون. ليست هذه الهجرة كما اعتدنا على قراءتها في التاريخ والتي نراها في الأفلام الوثائقيه حيث الوجوه الهاربه من أزيز الطائرات. الوجوه البائسه من المجاعه وهي تتدفق على البواخر

وعلى الطرقات. هجرتنا نحن اخرى. نعد الشنط، نقفل منازلنا. نحجز الأماكن في الطائرات والقمرات في البواخر. لم تكن الطريقه التي يهاجر بها اللبنانيون والمقيمون فيه هي التي تدعو الى التعجب من قبل العالم. بل الأماكن التي كانو يهاجرون اليها. فاليساري الذي اصبح مواطناً تحت قيد التجربه في أميركا اختارها مكرها لأن البلاد العربيه لم تعد تسمح لليساري بالدخول اليها. بينما المثقف رضي ان يعيش في بلاد الخليج التي طالما انتقد حياتها وشعوبها وحكامها. كأنني اخاف من هذه المرأة الشقراء التي يبدو انها تعرف ماذا سوف تفعل، في المكان الذي ستسافر اليه لحظة ما تحط الطائرة عن الارض. أفهم بأني أقف على حجر يزلزل من تحت قدمي. اخاف من هذين العجوزين الضائعين لأني اشبههما. انهما يتكلمان بقلق وبصوت عال وأنا بصوت مستتر. سوف يلقيان بهمومهما على ولدهم الذي ينتظرهما هناك. وأنا سوف احتمي بجواد الذي يأخذ أمر تركي بيروت بصوره بسيطة. طبيعية. سوف القي بنفسي عليه ولو لأيام. فأنا منذ ان وعيت لم القها على احد سوى على أسعاف بينما اعتدت على تلقي اثقال الآخرين. كان يسعدني هذا. شعوري الآن ازاء الإعتماد على جواد كأني اتعرى من ملابسي. ولم يكن شعور العراء هذا منعشاً بل وكأنني احمل جسماً خفيفا فارغاً. من أعضاء داخلية متشابكه. وأنفاس كأنها رأس نَبتة لا أعرف اسمها انما شفافه. تطير وتتفتت عندما تهب عليها نسمه هواء بل كان هذا العراء تصحبه بروده لاذعه. فيستمع الطبيب بسماعته البارده الى نبضي حتى يكشف عن سر ألمي. هنا وهنا وهنا.

كان المقعد هنا ليس مريحاً والحر يلصق ملابسي بجلد الكرسي المشقق المهترىء عندما اخذت افكر جديا بكيفية العيش في فرنسا. شعرت اني كنت في حلم أخذت اخرج منه شيئا فشيئا. ماذا افعل هناك. هل يكفي ان يقول لي:" ما تخافي الأمور بتدبر " هل سيبحث لي عن عمل ممل في احدى المؤسسات العربية

الفرنسية؟ سأتكل عليه في البداية اتكالا شاملاً. معناه اني سأبالي حتى باللقمة التي سوف تمتد يدي الى تناولها. لماذا آمن أهلي بالأراضي والأملاك بدلا من المال بين الأصابع؟ ووجدتني استحضر ما حدث لصديقتي الرسامة عندما وصلت الى الولايات المتحدة ابان الحرب. لتعمل وتنتسب الى الجامعة. الطموح لأن تعيش وحيده جعلها تشارك طالبة اخرى في غرفة رطبه في شارع تكاد حيطانه تتداعى من كثرة ما سمعت من بؤس وفقر وعنف. مستعمله الكنبة الوحيدة من جهة لتضع ملابسها بينما كانت الجهة الأخرى من نصيب الطالبة الأخرى. كان خشب الغرفه يعج بالصراصير البنيه الكبيره ذات الأجنحة التي اخذت تتكاثر لأن صديقتي لم تواظب على ابادتها اذ ثمن مسحوق ابادة الصراصير بات غالياً وفي الغربة لا تعد الأشياء والحاجيات كأنها خلقت مع الشخص ووجدت مع جدران البيت. حتى شرب الماء كان يكلف ثمنه. وكيس الشاي يستعمل اكثر من مرة. لذلك لم تجد صديقتي بدا من الإنتقال بعد اشهر الى شقيقتها في ولاية أخرى حتى يتسنى لها ان تشرب الماء من غير ثمن لتكتشف ان النوم عند اختها كان له ثمن. إذ انتقدتها لهذا النوم العميق الذي كان يمتد حتى الساعة العاشرة صباحاً. تحججت صديقتي انها لم تكن تنام في بيروت من جراء صدى المعارك. والإنتقال الى الملجأ. بينما في الحقيقة كانت تتذرع بالنوم والبقاء في فراشها لتحاول لملمة شتات نفسها ونسيان ما خلفته وراءها من دمار وخيبه امل وسط اصوات التلفزيون الأميركي وقنواته العشرين ولان صديقتي لم تستأنس بالأسواق المسقوفة ولا بمراقبه ابن اختها وهو يلعب النوتول ولا بزيارة الجارة وجهت اختها لها اللوم وهي تصفها بحب الذات. بينما فكرت صديقتي اين هي ذاتي حتى أحبها او اكرهها. لتنهض صباح ذات يوم على طرقات خشب كان زوج اختها يصنع لها طاولة. فرحت صديقتي ستكون هذه الطاولة لتعاود الرسم من جديد رغم هذه الحديقة التي لا تذكر سوى بالشيخوخه وبالوحده. اذ من على جانبيها كانت ترى

العجائز الأميركيين يقومون بتشذيب حشيشها الأخضر ببطء لكن فرحتها لأن اختها وزوج اختها الما اخيراً بما تعانيه طغى على كل شئ، وها هما يحاولان أن يعيداها إلى فنها الذي رغم حبها له لم تعد تمارسه هنا. ولم تتم فرحتها، إذ اكتشفت ان هذه الطاوله صنعت لها حتى تصبح واقعيه على حد قول شقيقتها وتقوم بخبز المناقيش والفطائر بالسبانخ اسوه بالجارات المكسيكيات اللواتي كن يحضرن التورتيا ليعرضنها للبيع صباح كل سبت. حبست صديقتي دمعة كبيرة بحجم الطاولة. جمعت حوائجها وتركت اختها وكل اميركا وجلست تخبرني بكل هذا ونحن جالستان في بيتها في غرفة الجلوس قباله غرفه الرسم حيث اصص النباتات والحبق وامها تنحني وتسقيها بابريق نحاسي يستعمل للوضوء وسجاد الكليم اينما كان على الجدران وعلى الكنبات يبعث الشعور بالماضي المتين الجميل.يمتد التأخير الى ساعتين أخريين وجواد الذي كان لا يزال يصوّر كل شي. جامدا أو متحركا. من الزجاج القذر الى حجر البناءالذي سد النوافد اخذ ينظر الى ساعته بقلق:" هلق ست بدور بتكون قلقانه. " ابتسم له وأنا اتساءل كيف يستطيع هو ان يحب إمرأتين في وقت واحد. هل كنت رضيت بهذا إذا لم أكن عملة تخطاها الزمن ولم تعد تتداول لكنها موجودة، على ورقها طبعت الآثار الجميله، التي تحمل ماضياً لا يستطيع نفيه احد. اتيت بمرآه حقيبه يدي. أتأمل وجهي واعدل عن وصفي لنفسي بالعمله القديمه، وايقن بأني اصبحت اكثر واقعيه. ووجدتني اقول مواسية: « لازم يكون فيه سنترال " وكان قلقه عليها لا يهمني. فأنا قد سبق واخذته البارحة الى محطة الهاتف اللاسلكيه التي انشأها احد تجار المأكولات الذي حول قسماً من مخزنه الى مركز للهاتف في غرف خلفيه حيث يتلقى المكالمات عن طريق قبرص وأقام محطة كهربائيه واخذ يبيع الكهرباء من محول كهربائي كبير بعد أن الصق صوره " عن التسعيره الرسميه للكهرباء التي اصدرها احد الأحزاب.

«من حظي هالتأخير» يقول جواد الذي كان قد بدا ينتقل في المطار يتحدث

مع موظفي شركات الطيران مع بعض الدرك. مع المسافرين، يذهب ليستفهم اذا كان باستطاعته الإتصال بفرنسا. اخذت اشعر بتعب يمتد الى مفاصلي. أضبط نفسي وأنا اتمنى لو أني في سريري او في البيت متمدده بارتياح استمع الى مواء قطة الجيران. كأن التوق واللجوج الى السفر لم يعد كما كان وأنا انتظر التإشيره اذ وقتها كان يخالطه العناد لأن السفر بدا مستعصياً علي. لابد ان المسافرين الذين أراهم الآن خاصه المرأة الشقراء هم الذين يهدّون من عزيمتي. ولن ادعهم يفعلون هذا بي. اقنع نفسي باني لاعرف ما يتوجب علي القيام به. ان اصبح في فرنسا. سأهتّم من جديد بنفسي سأعمل وسأدرس حتى الكمبيوتر. سوف اجد غرفه تروق لي. اسأل جواد عن الناس اللذين يعاشرهم هناك يجيبنى بانهم قلائل فنانون افكر بأنى سأرفض التعرف باللبنانيين هناك. لا أريد ان اصبح مثلهم اتحسر حتى على كبه البندوره كما كانت تتحسر حياة. وأنا اقول لها مازحه:" يللا قومى وتعى كلي كبه بندوره لتكتفي بالتنهد قائله " يا ريت." لألومها وأنا أفكر لماذا لا تأت وتأكل معنا البندورة وتستأنس بما تفتقده و تجعل منها وقوداً للتحمل اذا ما اشتعلت السماء وتكهربت الأرض في المعارك. تدنو مني نظره الى جواد. لن أكون مثله همي الكبير ان الس الذكريات وان كان قد احترق بعضها. أراه يثب بكل حيويه سعيداً لأنه سيفارق بيروت ويعود الى بيته. بعد ان نجحت مهمته في لبنان. لابد انه تخلص من شعور تأنيب الضمير أزاء روحية، اشبع اشتياقه لها أعطاها نقودا يداً بيد. فرك لها كتفيها المتعبين. استمع لها وجفف دموعها وفرح بذكرياتها عنه التي لم تزل حيه لديها وأشترى المنتوجات اللبنانيه.

علي أن اوقف هذا التخبط. سفري الآن من الضرورة لماذا اتناسى الآن شعورى بالغربة حتى وأنا في بيتي وبين محيطي الذي كاد يصل الى حد العدائية؟ الم ابتدئ رسائلي هذه قائله انني اشعر كأني مخطوفه. في مكان لم اعد افهم لغته ما الذي تبدل حتى أخذ يتراءى لي الجميع الآن كالنعاج المساله. لو أنى لست

مسافره لكان انتقادي يشمل كل ما أراه وما اسمعه الان، من العروس المسافره الى موظف الطيران هذا الى... الى. اجدنى لا أشعر بالخجل اذ اعترف الآن بأني في الآونه الأخيره اخذت انظر في حسد الى الذين استطاعوا ترك الوطن والهجرة. والنوم والاستيقاظ في بلاد أخرى فأنا قد وصلت بقلب مجروح الى الإعتراف بأن الأمل في الحياه الطبيعيه هنا يتضائل والأمل باعاده الروح اليها قد همد حتى اصبح كالخشبه الميته، والبرهان اني كنت اموت هنا شيئا فشيئا. اتأرجح بين الإنتظار وعدمه من غير ان اتوقف عن توجيه لومي الى الحاله من غير ان افعل شيئا ولا يبدو اني كنت قد توصلت الى كرسي المطار هذا لو أن جواد لم يكن الحجه غير المباشرة التي جعلتني التفت حول نفسي وأتساءل لماذا انا باقية في بيروت. أذكر في طريق عودتنا من الشرقيه وكنا قد عرجنا مع اخت سيمون الى بيتها في منطقه المتحف الذي كان في الشارع المهجور حتى من الزباله والقطط.. وقتها صعدنا السلالم المهجورة في البنايه المهجورة لتسرع هي تفتح الخزائن للتهوية إذ كان هذا هو الغرض الوحيد من ذهابها الى بيتها بينما اخذ جواد ينتقل في البيت. وقد تحول كله الى اعين تقول بدهشه:" مش معقول صدق في بيت مثل هالبيت بين هالخراب." ونحن نساعدها في فتح الخزائن لتهويتها وكانت قد نقلت الينا سرعتها رغم أنه كان يسمع من بعيد تراشق النيران وأخذت اتأمل ما في الخزائن واشهق للمعاطف وللقبعات والفساتين والقفازات من الساتان والدانتيل. للتطريز حول صوره للأحذيه القديمه انما المصفوفه لصوره العائله حتى للألعاب قالت اخت سيمون:" مجبورين نهّوي البيت. الماما بدها ياه مثل ما هو ما بدها تنقل قشه من مكانها"

شعرت وقتها بغصه، عرفت لماذا لم أزل انا في بيروت، انا كأم سيمون لا أريد ان اترك الحاضر. أريده ان يبقى حاضرا موجوداً. لا أريده ان يصبح ماضيا رغم انه لن يترك للمستقبل سوى الجروح.

عندما قلت هذا لجواد ونحن نثني على أم سيمون كأني قمت بتحريك حجر الشطرنج في الوقت المناسب. أجابني بان الحاضر لا بد انه يبقى حياً في الذاكره من غير ان يُمس ولو احترقت هذه المعاطف. «لكن الم يدهشنا كونها معلقه في الخزانه في هذا البيت المهجور».اجابني انها مطبوعه في العقل مهما حدث حتى اننا نستطيع ان نجعل الصوره اكثر وضوحا من الحقيقه استطيع ان أسترجع رائحتها وملمسها إذ في الذاكره فقط يبقى الحاضر ابديا. وإن أمر إحيائها او موتها يكمن في عقولنا لا في وجودها وبأننا نستطيع ان ننتقل الى أى مكان ونحن في اماكننا. لكني أراه الآن يلتقط بعدسة الكاميرا وعدسة عينيه، كأنه يصل بهذه الصورة الفوتوغرافية حياته الآن بحياته الماضيه، بعد أن تبلورت له الحاسه الجديده زيادة على حواسه الخمس. احدس لماذا اصبح يتمنى هو الرحيل في هذه اللحظة. لأن الاوكسجين الذي سيتنفس منه هناك يجب ان يظل طازجاً حيويا، بينما التأخير في هذه القاعه سيفقده بعض خلاياه. انه كجمل يبلع ويبلع واعداً نفسه بلذة الإجترار بعد أن ينزوي في واحه هانئه ظليله. سيجتر ما رأته الكاميرا وسجلته في الذاكره وهو خلف مكتبه المنزوي تحت الضوء. عليه ان يسرع ويبتعد عن هنا خوفا من ان يصبح مصير هذه الصفحات الذهنيه كمصير الحوريه التي عندما انتشلت من مياهها هرت وتفتتت بلمحة بصر امام مكتشفها الذي عاد لينفس الماء بدلا من الأوكسجين.

عندما يعود الى فرنسا ويسدل الستائر ستتعذر عليه معرفة اين هو إذ يعيش في الماضي وفي الكتابه عنه، عندما يعود الى فرنسا سيسير في البرد ولا يرى سوى شموس كثيره كثيره تتدلى من عناقيد العنب وأعمدة كهربائيه ارتبطت بنقطة إرتكاز وطائرة من ورق ملون ذات ذنب طويل وشخصيات نسيها لكنها تقفز امامه كأنها البهلوان المخبأ في علبه لكن حتى ولو ان الحرب لم تقع كان سيشعر بهذا الحنين الى الماضي.« اذا لماذا العوده الى اماكنها اذا كانت هي في الذاكرة سألته. هذا ونحن في عتمه الحديقه ليجيبنى: «ازورها في الجسد حتى اكتشف كم

تبدلت هي وكم تبدلت انا لدرجة اني لو حاولت العيش بينها لما استطعت ولما هي دعتنى لكنها في الفكر تعيش معي ومع ذلك تمنعني من أن اكمل حياتي كما احب. إنها لا تجعلنى اهنأ. انها عثرة. قلت مواسيه وكلي فرح لأنه يتعذب قليلاً: " لكنها سبب نجاحك؟"

أعرف، اني أقطف ثمار الحرب المرة واكتب بلغه الغرب عن خلجات تكمن بين احرف لغتي وبين ضميري. كلما ازداد نجاحي كلماانبني ضميري. فأنا كنت بيني وبين نفسى ابتهل لدمار هذا البلد من زمان. وكأني لأول مرة أرى بيروت كما هي كره داخل كره. ذات دهاليز وطرق تؤدي الى طرق وطرق تؤدى الى دهاليز. وأرى ان كل منا لم يختر حياته كما اختارها جواد بل وجد نفسه مهرولاً في طريق سمحت له الظروف بالسير بها وبأن الصدف هي التي تمسك بالقلم وتخط لنا كيف ينزل علينا وحي تفضيل عمل على آخر. مزاج على آخر. واعي أني قد وصلت الى منتصف العمر من غير أن انتبه اذ الحرب كأنها قطار سريع لم يتوقف عند محطة ما بين العمرين. بل ظل راكضا آخذاً معه كل شيئ. سلبني تكمله وقود الماضي للعيش في الحاضر وتكمله المستقبل.

الوصول الى عمر ما فوق الثلاثين هو الوصول الى نقطة على جبل، يتأمل من فوقها صاحب السنوات هذه، الأوديه والتلال التي تركها بحنين يتوجه ببصره الى ما ينتظره ويرى النقطه البعيده التي عليه أن يصلها رغم التلال والهضاب والأوديه التي لم يرها من قبل. لكن الحرب الغت رحله الوقوف فوق قمة الجبل جعلت السنوات تتشابك والأزمات تأكل بعضها الآخر لتجعل من وجودها محطة إذا تركتها خلفي ونسيت وجودها وقد فقدت في حوزتها كل عمري.

جواد خائف من أن لا تقلع الطائرة، وانا خائفة ان اصرح حتى لنفسي أني اود ان اظل قوت الجمل، وكل ما يراه هو في عدسة اله التصوير وما يسجله في مفكرته لا أريد ان اصبح مثله اجمع الظروف والوجوه وما يقوله غيري وكل من

حولي حتى أجد معنى لشخصي أستطيع ان أهنأ بالعيش بعيداً عن هنا. لا أريد أن اخطف بلدي الى الذاكره. فالذكريات مهما كانت واضحه تصبح ذكرى. تطمرهاالايام ومن ثم تبعثرها. مجرد لفظ ذكرى. يعنى ايضا التذكر لا النسيان. بين هاتين الحالتين زوايا فارغه. أريد كل شئ كما هو وكما اصبح. لا كما كان فقط لأنى خبأته في تلافيف الذاكره خوفاً عليه مما هو الآن. أريد ان اعرضه للشمس والهواء اعيش فيه كما هو، وأعيش كما أنا. ثم وكأني أفتح عينى لأول مرة فأفكر ربماجواد يصر على أخذي معه كما اصرت حياة من قبل، حتى أكون صله الوصل بينه وبين وطنه حتى يكمشه، كأني مصاصه قنينه حليب يلتذ بها الطفل بعد ان يفارقه ثدي امه.

ولكن ماذا عن سنين الحرب هذه التي وكأني برحيلي عنها تصبح ماء تكر سدى. وإذا لم أرحل بل أصل هذه اللحظة للسنوات الماضيه. متناسيه سنوات الحرب الطويله ستهب التيارات الساخنة تلسعني سائلة:" ماذا انجزت؟ ماذا فعلت؟. كيف عشت؟" وفجأة لاعود شاهده طوال هذه السنين على التحولات التي تعرضت لها الحرب. تعني شيئا. معناه اني دخلت الجليد طوال هذه السنوات لأخرج منه مهزوزة. لا. لا أستطيع رمي هذه السنوات الطويله في مستودع للأشياء المفقودة حتى تنتظر من يتعرف عليها وإذا صدف وفتح لي الباب لن استطيع التعرف عليها بسرعه فهي كثيرة الألتواء والألوان لا تكمش بين الأصابع، انها تلصق بالسقف مختفيه وتعود فتتدلى منه. فقط الأصوات هي الثابته والباقيه. من صرخات بائعي الخضار والراديوهات الى دوي المعارك والذي لم يكن يترك الأذن ولا الرأس ابداً. كنت أسمع القذائف في المصفحة. في الضيعة. في أسبانيا. في تونس. على شواطىء بور سعيد واسكندريه. أفكر بها الآن فاسمعها من جديد كأني حمامة اعتادت على دوي صوت الرصاص حتى لم يعد الطيران ردة فعل لخوفها.

سوف يعود جواد الى حياته الأصليه هناك بعد ساعات، أكثر قناعه. فلبنان لا يُعاش فيه. سوف يكتشف من جديد أن كانت كتبه معروضه فوق رفوف المكتبات الفرنسية. يغمض عينيه اطمئناناً لهذا الواقع. ويجد نفسه اكثر سعاده مما كان عليه قبل زيارته للبنان. سيفرح لماء الدوش الساخنه وسيهلل للكهرباء التي هي كالروح لا تنقصف الا اذا نقصها مصباح. لم يعد ارتداء الملابس وخاصه الجوارب عند الصباح في العتمه انجازاً كبيراً. فانه سيجد عشرات من زجاجات الشامبو الذي يحبه في الدكاكين. وسيتجول في الليل هانئا وعلى الأرصفه الرحبه. يقترب مني ويسألني ما بي واتمتم:" لا شئ، تعبانه " ولا يبدو انه يهتم لما اشعر به إذ يسألني هل معقول أن خلف هذه التلال والهضاب المدافع والصواريخ موجهه الى المطار؟

إنه خائف من أن لا تقلع الطائرة. وانا خائفة من أن تقلع. خائفة من أن اصرح لنفسي اني اشعر بالحزن لأني أريد ان القي سنوات الحرب هذه خلفي. كأني لم أكن شاهده على اللذين جاؤوا ورحلوا أو بقوا من الموارنه والدروز والشيعه والفلسطينيين والقوات اللبنانيه والسوريين والجيش اللبناني واللواء السادس والعثمانيين والفرنسيين والصليبيين والإسرائيليين تحت شعار قوات السلام من اجل الجليل. كيف يمكن ان القي سنوات التحمل والإنتظار والخوف والدهشة ولترقب خلفي. جعلني ناصر اهلل للحرب؟مثله حينما جعلني سيمون اراها عن كثب، وها هو جواد يحاول ان يبعدني عنها. ما هو السلم. أسأل نفسي. أنقل حربي معي أينما كنت. كأن أذني لها مخيله. اسمع رشاقات من الرصاص، رغم ان الفضاء ساكن والجبال هادئة والمطار يضج والفرح اينما كان. اجدني اريد العوده الى البيت والحديقه والوجوه. الشعور الذي كان يلي المعارك. والفرح الذي كان يمتلكني لأضع ملابسي واسرح شعري. أذ احاول الآن كمش هذه اللقطة التي افرحتني. أجدني أؤنب نفسي على ريائها امسكها من كتفيها أدير

وجهها الى ما خلفته وراءها. أريها نفسها وهي تحاول ان تختبئ من اصوات المعارك من الصوت الذي كان يعبث بشرايين الدماغ. يحنقها لدرجة أنه كان ينبت لها فم وتأخذ بالنداء طالباً النجده. اجبر نفسي على رؤية نفسي وأنا في سريري والعتمه تريني الدهان الذي انقشر. الأثاث المتراص فوق بعضه بعد أن انقدته من بناية والدي. المرايا المتكسره الكتب التي تعود الى زمن بعيد. لم يعد البيت كما كان من زمان. له روح يتنفس وينتظر. لم يعد وجوده واقعا كوجود ملامح وجوهنا.

ربما عليّ ان أؤجل السفر الآن تماماً كأنني حيوان المدرع التي مع تحولها الى كرة كالدرع اثناءالخطر، فإن باستطاعتها ايضا عندما تشعر ببوادر الحمل ان تؤجل تكور جنينها لمده ولو طويلة الى ان تصادف ظروفا نفسية افضل مما هي عليه. لكن اذا بقيت هنا سأصبح مشوشة الرؤية كصديقتي ايمان التي حاولت ان تهزّ كتفيها بالامبالاه إزاء الإحتلال، لكنه تسرب اليها رغم مقاومتها له وتركها تعيش في ظل الجمله التي اصبحت هاجسها." الحق عالإحتلال " لكل شيء. حتى وان شعرت بالعطش.

أجدني اغص لمجرد فكره تصديق افكاري بانه لربما علي البقاء. انظر الى جواد، وأشعر أني أود معانقته. انظر اليه من جديد وإذا بالتفاصيل التي حفظتها عنه تزدحم حتى تعلق في حلقي، طبعه ذقنه. الشعرة البيضاء الوحيده عند آخر حاجبه، العظمة الصغيرة البارزة عند صدره. كيف سأغلق عيني بعد الآن وأنام نوما ُعميقا. كيف اصحو من غير ان يعذبني فقدانها. اجبر صوراً لأن تفد عليّ الآن عندما كنت في شوارع بيروت وعند المرافئ بعد أن اختفي ناصر ولم تته معالمه. كأنه ترك اثاراً كثيره في البنايات والشقق. ولحقت به الى مدن البحر، عندما جلس اخيراً قبالتي كنت لم أزل ابحث عنه اذ فقداني له كان قد شطرني الى شطرين وكان عليّ ان اجد الشطر الآخر حتى أومن بانه قبالتي،. تركت يدي تمر على مسامه رغم اني لم ألمسه، احدق في الشعيرات الصغيره بين حاجبيه

هذه النقطه الأرجوانيه عند رقبته هذه الرموش الكثيفه، هذا الضرس الكحلي، هذه اليد السمراء. هذا الرسغ الدقيق رغم قامته الطويله. كانت كل هذه تحفزني وكأنها يد طبيب اسنان تاهت بين السن واللحم. مع ذلك جلست انظر اليها بعيده عنها. حتى الصوت الذي كان يلامسني اصبح صداه يضرب بكأس الليموناضه، وبالذكرى. لا الصوت الذي كان يتحول الى شوق عندما يقول:" حبيبتي " ولا الى شهوه عندما يقول "مشتاق، مشتاق "

وعرفت من القلم الجديد الذي في جيب قميصه بل من لون قميصه، من تلفون اليد. من المرافق والذي صرفه من السائق الذي اوقف سيارته من مدّه لجيب بنطلونه، من كيفيه نظرته الى الفاتوره ليسددها، من وقع سؤاله عن بيروت. وعن لفظه لكلمة مشتاق. ان ما بيننا قد انتهي وكان علي ان اقر بهذا منذ أن غادر بيروت، بل منذ ان دخل الإسرئيليون واصبح لبنان آخر، وأصبح الفلسطينيون رأساً على عقب. واعترفت في قرارة نفسي اني كنت على علم بأن كل ما بيننا قد انتهى لكن اردت ان اقيم جنازه ومأتماً وأبكي على الميت حتى تنعيه نفسي وابتدىء من جديد.

يقترب جواد مني يخبرني بضيق بأن الرحله سوف تؤجل اذا لم تقلع الطائرة في خـــلال ساعتين، لان مطــار باريس لن يستقبل الطائرة بعد ساعه معينه. ولم يتسمر مثلي على المقعد ينتظر بل وكأنه قد حقن بابره ناشطه. إذ لم تعلمه الحرب كما علمتنا ان نكون اما في حالة تأهب، ننسى فيها كل شيئ ما عدا حرصنا على الروح واما في حاله استمتاع نمجد الهدوء ونستسلم له.

" تقلع الطائرة الى..." نداء الطائرة المسافره الى عمان جعله يستدك ويسأل بحماسه:"شو رأيك منطير بأى طياره تاركه لاي بلد وبعدين منسافر لباريس». اجبته:" ما عندى فيزا الا عفرنسا وصار اللبناني بحاجة الى تأشيرة لأي بلد. ثم اضفت اطمئنه:"خبروك بالغاء الرحلة حتى لاتعود تسألهم، الشركه عم تخسرولازم

يطيروا..» واعطيته يدي، اشعر براحة عندما اصبحت بين كفيه. حماوتها اخذتني من الأفكار التي كانت تتقاذفني التي من قلقها كأني وسط موجه تتدخل الريح في مدها وجزرها. سخونه يديه جعلتني لا اتمنى الآن إلا أن اكون على مقربه منه. كيف سأكون على مقربه منه في فرنسا. يتململ اسحب يدي ينهض. لو يكتب على الجبين كل ما نفكر به لقرأت الان انه يتمنى لو كان وحيداً حتى يطير مع ايه طائرة مقلعة. لن اعرف ما يدور في عقله. هكذا خلقنا حتى يبقى الإنسان الأقرب الى نفسه بدلا من ان يصبح طرياً الى درجة الإلتواء أمام الآخرين فيصاب بخيبه امل لأنه عار امامهم. يرتجف برداً من نقاط ضعفه. رغبتي أن أكون على مقربه منه لم تعد تهمني بقدر تفكيري بأن هذا الإنتظار اوجد الحصى بيني وبينه.

من انتظر؟ ماذا افعل في بيروت؟ من انتظر؟

انتظر فضيله، أن تكب على اصاصي غرسة تم السمكه «وتقطع شتله». ام انتظر زمزم حتى يبهج وجهها ما ان يزورنا رجل. ام انتظر جدتي حتى تداعبني تاره وتضيق بي تارة اخرى، ام اني انتظر روحيه حتى تطري جمالي ودلالي و وتحدثني عن الماضي. من انتظر؟ زيارات الأصدقاء الذين رحلوا ويرحلون ام التفت الى هنا وانتظر حتى تعود الحياه كما كانت. ان اعود كما كنت نضرة، أسابق الفراشات ريثما يحدث هذا ادع الأيام تتقاذفني انا والقلائل من الذين توطدت صداقتي معهم اثناءالحرب فنئن معاً من الوضع بينما اترك جسمي يهب احيانا من النبيذ واحيانا من فكره الموت. لذلك احاوره أو اتحداه اهب في سيارتي اخترق الحواجز بين الشرقيه والغربية. اترك رجل الحاجز فاغر الفم، اجيب نفسي واجيب جدتي " ان المقدر من الله ».

لكن اذ ادير نظري فيما حولي الأن وإذا التقت عيني حتى ببوز حذائي اعرف ان كل شئ يبدو طبيعيا هنا. كان حذائي يمدني بالطمأنينه. حذائي متوسط الكعب الكحلي اللون يدل على الحياة التي اصبحت هادئة هنا. مهما حاولت أن

استجلب اصوات المعارك وما ينتج عنه من خوف ووحشه ويأس اجدنى افكر بأن العنف لا يمكن ان يتجدد. وبأن الماضي قد مضى فعلاً وترك خلفه هذا الخدر اللذيذ الذب يكتنفني الآن مبتدئا بأعلى قدمي. يرافقه التثاؤب المتواصل. هل باستطاعتي وأنا في هذا الهدوء والإرتخاء الوقوف وامساك حقيبه يدي والصعود الى الباص والركوب في الطائرة. وتحمل مشقه السفر وعذابه. أجدني اتحامل على نفسي وانهض من قبالته، اتناول الكاميرا من بين يديه بهدوء واضعها الى جانبه فاسحه مكاناً لي بقربها. امسك بيديه احيطها بوجهي بعد أن اخفض رأسي غير مباليه بالمطار المكتظ وأمرّ بشفتي على باطن الكفين اقبلهما واشدها على وجهي، اترك الدموع تجد طريقها الي مهما حاولت ضبطها مهما تحاورت معها اتركها تتساقط على يديه، مسحتها قبل اَن اواجهه وأقول له اني بدلت رأيي وبأني لست مسافرة.

أرى وجهاً اخر لا يمت الى حامل الكاميرا ولا الى هذا المطار، فقط الى الذي كنت اسير معه فوق الحجاره، الذي كان يعانقني فوق ارض بيتي. عيناه تحملان العاطفه والغضب والحيره معا. ثم الغضب فقط وهما تنظران الى وتتخطيان وجهي وكل ما يكونني وهو يكتفي بترديد كلمه " شو؟ شو " يتهالك على الكرسي ياخذ رأسه بين يديه ويتمتم وكأنه طفل صغير فقد لعبته ولا يعرف سواها. يا ربي... يا ربي... ما تطلع الطياره قبل ما تقنعي "

لم اكن اتصور ردة فعل كهذه كأنه تاه عن بالي أني لم اكن اشاركه بحواري مع نفسي الذي كأنه لعبة قماش تشد من كلتا يديها، منذ ان بدأت الأحاسيس تلعب معي وكأنها ظلال للأشياء تركها الضوء على السقف لتظهر كلما اشتد الشعاع وتبهت ثم تغيب كلما مرت غيمه فوقه، وحجبته قليلا، كأن جواد طوال مدة ترددي ونقاشي مع نفسي ما هو الا كنايه عن مرافق اللذين يخافون من السفر.

يقترب مني ويمسك بيدي حتى تلامس ركبته ركبتي ويحيطني بذراعيه سائلاً« شو صار زعلانه لأني قلت هلق ست بدور بدها تجن؟ بدك ياني قرر بينك

وبينها! بدك نتزوج بس قوليلي؟.

اتملص من بين ذراعيه. خجله من الذين حولنا ومع ذلك استطيع ان افرج عن ابتسامه ثم ضحكة وان كانت عصبيه وأهمس:" مش قادره سافر، مش قادره".

" من شو خيفانه، يمكن الحق علي ما طمنتك بالنسبه لعيشتك، ما حكينا بالتفاصيل، كنا مشغولين بالفيزا و بابن فضيله وبالمطار وبالعروس. دخيلك شو صار بها الثلاث ساعات؟».

كيف الخص كل ما اشعر به. بأن باريس لا تعني لى شيئا وبأني لست متشوقة الى حضارات اخرى، وبأني لا أريد أن افتعل المهمات هناك، وبأني لم اعد أملك النشاط الكافي والإندفاع لا بتدئ حياه جديده وبأنى وبالتالي خائفه من السفر. يلتفت حوله، مرتبكا، يحاول الإنتباه الى ما كانت تذيعه شركه الطيران ليستأنف حثه لي للإجابه وفي عينيه حيرة وخوف " اذا غيرت رأيك عني معليش،ولا يهمك.. لاتخلطيه بالسفر».

لا اشعر بوطأة الحرب مثله لكني اخذت ابكي وانا الوح برأسي الى الجهتين " مش فاهم سبب البكاء.. "

ابكي لأني لا أعرف ان اتمالك نفسي، ارفع رأسي اليه لكن ما أن أرى النبض يزداد في عظام فكيه والاحظ ان شعيرات ذقنه النابته ترتجف حتى أجد نفسي لا احتمل ان اضيّع كل هذا فكيف التفاصيل الأخرى التي اعرف اني سوف اشتاق اليها واسترجعها وماذاعن صوته الذي اصبح مني ولا استطيع سلخه عني بعد الآن «بحبك كثير بس بدى ضل ببيروت.»

" بتحبيني بس بدك تبقي ببيروت، يعنى بدك انه ابقى ببيروت. يمكن احسن لى مين بيعرف؟" يبقى هنا، ويعيش في الحاله التي اعيشها. غير معقول ودائرة البيكار. تضيق بنا سيفقد هنا حتى بهجة كلامه، هكذا تفعل بيروت بالذين لم يشهدو حربها، تنزع الإبتسامه ثم تخلع طاقية الأمان. ثم تسد العينين بشاشة

سوداء مغبره ثم تدهن الأنف بمعجون اسود واللسان بطعم زيت الخروع وتترك الجسم عرضه لطيور ناهشه ثم تضيق الدائرة تصبح شساعة الأرض امتاراً.

" يمكن بدك ياني ابقى "

" لا " واخبره بما افكر به

" ليش انت بدك تتحملي...؟"

كنت قد قرأت ما كتبه في مفكرته عندما تركها ملقاه على المقعد. اكتشف ان حنيني ما هو الا الشعور بالغربة في فرنسا. كم تقت للذات التي كنت احسبها في مكان اخر كأني عكرت صفو الحلم بمجيئي أشعر الآن وكأني لم أر هذه الأرض من قبل ولم اتعرف بهذا الإنسان، لم أر الجبال بل الباطون في البلد التي كلها سوداء مثل الليل.جدراتها سواد. عساكرها سود، يرتدون اسود، وملكها اسود الكل يعيش فوق سقف تحته اكبر مخزن للسلاح في العالم.

" ببيروت شو عم تعملي غير طق الحنك وغير انه صار كل طموحك بالحياه تأمين الكهرباء والمي والخبز؟ ولتجنب القذائف كأنك غير قادره تعيشي الا بحاله بين الحرب وعدمها هالحالة مش لازم تكون هي معنى للحياه سامعه، وبعدين في دنيا واسعه. في كره ارضيه طويله عريضه مدوره».

" ما بدي صير روح واتعذب واشتاق وأقول يا ريت بعدني ببيروت. ما بدي صير مثلك بين هون وهونيك انا عارفه مش مبسوطه هون. ليش بدي صير مش مبسوطه ببلدين؟"

" ليش سلف عم تفكري. بكل هالأمور. جربي وبعدين قرري."

" اسهل للواحد يعيش ضمن اللي عم يخليه ينقهر من ان يهرب منه،وينقهر عليه عن بعيد. من بعيد كل الأمور بتتضخم».

" مش فاهم ليش عم تفكري بالقهر هون وهونيك سافري وبعدين بتشوفي كيف شعورك؟"

أعرف نفسي فانا لم استطع الإندماج بأى روتين ولا حتى بقلق المسافر كنت اجلس وأنا خارج لبنان متنقله من مقعد الى آخر وكأني عجوز استسلمت الى وحدتها وسيجت حدود اهتماماتها، كنت أشعر بالحب لمن حولي واتبادل معهم الأحاديث لفترة قصيره ثم لأجد ان همتي قد فترت فانزوي غير مباليه أمام الإقتراحات لأن أرى هذا المتحف وذلك المعرض وتلك المسرحيه وذاك الفستان والحذاء، وأعود ادخل نفسي. عندما اخذت استعيد حيويتي بعد أسابيع وانخرط في الأجواء من حولي وأفكر جدياً بالبقاء خارج لبنان، تملكني الشعور بأني في زمان خارج الزمان، وفي مكان خارج المكان. اخذت اطفو على سطح الأيام، بعيده عن المسؤوليات لم استطع لأن اقرر أو اذهب الى طبيب الأسنان رغم آلام الضرس. أكتشفت عندها أني اعيش. فانا معلقه بين السماء والأرض عندما حثثت نفسي لأن تطأ قدماي الأرض إذ عليّ انجاز الكثير. لم اهبط بل بقيت معلقه وبين الأرض والسماء الى ان ركبت الطائرة عائده الى لبنان. ولم تفاجئ جدتي بعودتي: "شو بدك تعملي بالسفر، لن تتجوزي ولن تشتغلى بهيئة الأمم."

"بيروت حجّة. هي صارت المنخل تتخبي خلفه خيفانه ان تبتدئي حياة جديده. اريد مساعدتك. حتى تفكري بغير الكهرباء والمي وترجعي تكتشفي انه في عالم غير بيروت».

بيروت مطار الدولي. بيروت، وكأني اسمع هذه الكلمه لأول مره ورددتها اكثر من مره بيروت، رأيتها مكتوبه، رأيتها على الخريطة رأيتها في البطاقات، الزيتونه، المعرض، ساحه الشهداء. رياض الصلح، رأيتها في الصور المأخوذه من المطارات، ومن اعالي البنايات ومن الجبال صور في الكتب الأجنبيه القديمه، رأيتها مكتوبه كأنها عربه أطفال ذات عجله مستديره عاليه من حرف الباء الى الواو بينما التاء كانها ياقة زي المدارس.

بيروت كانها مدموغه في ذهني، أبان الحرب فقط. عندها تأخذ حجماً، شكلاً. أستطيع أن امسك به. بينما ابان ايام السلم كانت الحياه مرآبا لا استطيع ان امد حتى اظافر أناملي إليه. تبدو لي بيروت الآن وكأنها حفره كبيرة فيها الأخاديد والتجاوييف الصغيرة والحفر الأصغر، جرداء إلا من أعشاب صغيرة خضراء ثابتة على أطراف الحفره، بدأت رسائلي بأني مخطوفه وانا الآن احاول أن أرى هذه الأعشاب الصغيرة فهي كل ما تنتجه ارضي. هنا حياتي ولكل بلد حياته.

" بتعرفي. انت صرت مدمنه على الحرب "

انت خايفه اذا سافرت ما تبقي ملكه» مثل ما انت بييروت، بين الجيران وفضيله وريكاردو انت ناسية انه تجربتك اهم من أي واحد قاعد بفرنسا وترك من زمان."

ربما أريد ان ابقى قلعه او وتداً حديداً راسخاً ركز في جوف الأرض حتى أصبح من تكوينها. ربما أنا خائفة، من أن لا اعود الأعجوبة التي بقيت وهي تعيش في بيروت. فانا اصبحت املكها امام اصدقائي الذين رحلوا.. فهم يتعكزون عليّ كلما ارادوا دخولها بعد ان اصبحت بالنسبه لهم بحراً لا يسبح فيه سوى اسماك القرش كيف اتركها وداخلها اتصل بداخلي. وانفي انغمس في مجاريها. ويت احمل مفتاحها. "

"ردي، قولي. شو عم تفكري؟"

" المثل بقول: السفر هو القليل من الموت.على كل لا فضول عندي لاعيش في باريس»

" ليش ما عندك فضول لأنك كسلانه. خيفانه "

" يمكن لو سافرت قبل الان كنت فكرت بطريقة اخرى. لكن لكل بلد حياته وانا حياتي ببيروت ".

" وأنا، وين انا بحياتك؟"

أجمع كل شعري الى جهة واحده وأعض شفتي، كأنهما اخذتا قلبي بينهما واطبقتا عليه.

" سؤالي سخيف اناني ربما ليس وقته.. "

رغم ان الحرب حولت معظم من بقي منها الى مجموعة متشابكه من النبض والإنفعال الا انها في الوقت نفسه علقته بشعور من اللامبالاة ايضا. حيال كل من يحط في هذه البقاع. كل همي الآن أن اعصر نفسي لاستخرج سر تعلقي في البقاء وإذا بي أرى حديقة بيتنا. ربما من يترعرع ويدب فوق الأرض والتراب كأنه يتعرف على ثدي امه ويتعلق به. بينما لو نشأ في شقه منخفضه الجدران لكان الرحيل عنها سهلاً اشعر بأني متأصلة في الأرض اصبح الافتراق عند تراب الحديقة الذي عاش بين يدي والذي لعبت به ونثرته صعباً، جذوره تشد قدمي كلما حاولت التحليق عنه.

وأخذ يبدو لي الأن كل ما تركته في بيروت مغلفاً بالشوق. ربما لأني في المطار حيث هو صلة المسافر بالمدينه التي على وشك ان افقدها ورغم معرفتي انه لحظة ما احط نظري فوقها من جديد ستبدو لي كم هي متآكله، تحوم حولها اطياف من البهلونات في ملابس ملونه.

كلما إزداد نبض يده، كلما شعرت بذرات من العرق تحاول أن تجد طريقها بين مسامها وتنفذ الي مختلطه برائحته التي اخذت اتمكش بها افكر ان ما أقوله له وما أفكر به هباء وأن علي ان أرمي قلبي امامي والحق به أتلقفه.

يتوقف جواد عن اقناعي ويكتفي بتأملي ثم بتقبيل يدي بين وقت وآخر يهز رأسه ويعصر شفتيه على يدي. لا يستطيع مفارقتها يلمس وجنتي ويقول انه يشتاق لي وان شوقه يزيد كلما نظر الى يهزّ رأسه وكأنه يبعد عنه فكره ما ثم لا يتمالك الا ان يعود فيأخذ يدي بين يديه ويداي تنتظرانه بحرقه وهما تبدوان لي

يتيمتين مستلمتين كأنها ليست للأكل والأستعمال انهما فقط لتلمس شفتيه ولتسري الرغبه بين غضروفها ولحمها واذ يقول بشبه توسل بانه لا بد اني سوف الحق به في الغد او بعد الغد.

أفكر باني سوف الحق به الآن، سأنهض معه ما ان يعلن عن الطائره. فانا لست في موقف استطيع ان أرى نفسي وحيده أو أن أراه يسير وحيدا من دوني:"

وجدتني افرح لهذا القرار وأود مفاجأته فآخذ كفه هذه المرة وادنيها من وجنتي كأني اخبره ما عزمت عليه. لكنه وهو يحاول ان يتسعيد نفسه، يسأل:" شو بتوصيني«: كل شي كهرباء لكن عالبطاريه حتى سشوار شعرك. شو رأيك. ربما اذا صار عندك كل هالأشياء بتلاقي حالك بلا هدف.."

التحدث بهذه الأشياء جلعنا كلينا نفكر ونهتف في آن:" الشنطة "

" شنطك؟ شو بدك تعملي فيها."

وأجد نفسي لا اخبره بأنى سأسافر معه بل وجدتني اشعر بالراحه لأنه اخذ امر بقائي واقعاً وكأنه هو الذي اتخذ هذا القرار.

" بتركها .. والا انتظاري لن ينتهي "

" عال بتتركي غراضك معي حتى تسافري من اجل الشنطة."

ثم كأن صوره لمعت في آله تصويره:" ياالله شو بدي اعمل بثيابك. بدي اخلطها مع ثيابي، بجيبه بنطلوني بين كتبي."

تضايقني فرحته بأغراضي كأنها بديلتي، عدا ان الشنطه قد بدأت تحرضني لأن افعل شيئا . اشرق وجهه من جديد لفكره أخذ شنطتي معه بينما احاول اخفاء قلقي وندمي وأنا استعرض متاعي وأغراضي.

أجدني اصمت على مضض واستسلم ، هذا هو مصيرها الآن. ربما عليها ان تكون همزة الوصل بيننا. سوف ترى تأثير هذه الأشياء الصامته علينا ثم كأن الكلام مات بيننا فجأة. أرى نفسي صغيره في غرفة جدتي في الضيعه وقد

البستنى جدتي فستانا جديداً وحذاء ملتمع الجلد. وقد سرحت شعري طويلاً قبل أن تضع وردة اصطناعيه فوق أذنى لطالما رأيتها تنتقل من فستان الى آخر ثم ولدهشتي مررت يدها على شفتيها تأخذ قليلاً من حمرة شفاهها لتضعها على وجنتي، رشتني بكولونيا اتت به من صندوقها الخشبى ثم صفقت بيديها وقالت:" هلق اطلعي عليهم مثل البدر "

وخرجت الى البنات الصغيرات والصبيان الذين توافدوا من انحاء الضيعه لرؤيتي وقد اكتفوا بتأملي بينما لم يجرؤ احدهم الإقتراب من المصطبه. بل وقفوا ينظرون الى من بعيد. أعرف ما افكر بهم ولا اعرف ما يفكّرون بي. وعندما أطلت جدتي تشجعهم بابتسامتها تفرقوا، وعندما نادتهم اقتربوا بحذر، ومع ذلك لم نتبادل الحديث بل اكتفينا بالنظرات لمدة رغم انني شككت اذ هم يبصرون. فنظرتهم كانت جامده وأعينهم لم تكن ترمش، حدقت في اقدام بعضهم الحافيه وفي الحبوب التي تناثرت على الأرجل ، تأملت شعورهم غير المسرحه. أرى ايضاً جواد الذي خرج مع ابن المنجد من قهوه الضيعه وكنت انتظرهما عند الباب واجيبه عندما سألني ماذا تريد روحيه منه:" بدها تقلك حتى تتجوزني " .

كل من احبه يرحل. حتى الذين لا احبهم. حتى المخطوفون سوف يرحلون واحدا خلف الآخر، يطلب جواد ان يقبّلني على فمي وأرفض لكنه ينهض من مكانه ويقرب وجهه ويقبّلني على فمي قبله طائرة تجعلني ألوم نفسى كيف اترك رجلاً كهذا يمضي لكن تركته يقف في الصف وحيداً مع الكاميرا وشنطة يده عندما اعلن عن قيام الطائرة. وكان النشاط قد دب بأوصالي من جديد. وعاد الدم يتدفق بى ويصل حتى اظافري. فأنا سأواجه من جديد، المدينه التي جعلت حربها تموت من التعب.

رقم الايداع : ٧٥٧٢ / ١٩٩٢
I . S . B . N
977 - 07 - 0201 - 3



وضعت (حكاية زهرة) و (مسك الغزال) حنان الشيخ في طليعة كاتبات الرواية العربية الجديدة وكتابها؛ وأسهمتا في توسيع أفق الحساسية الأدبية الحديثة. وها هي حنان تواصل مغامرتها الروائية في (بريد بيروت) وتخلق عبرها بنية قصصية جديدة ينطوي معمارها الفني نفسه على ما أصاب المدينة وأهلها من تشتت وتفتت ودمار. كما استطاعت أن تجعل الشكل الروائي معادلاً لحالة الحرب وصدى لصدوعها وللتمزقات التي يعاني منها سكانها. فخطاب أسمهان /المرأة/ لبنان الذي يتجسد في رسائلها هو خطاب وحدة وعزلة وحصار، وهو في الآن نفسه صرخة استغاثة تتغيا الهرب من عالم مجنون، وبحث مضن عن منطق في واقع عصف بما تبقى فيه من عقل، وتشبث بالذكريات يطرح المخيلة الإنسانية والذاكرة في مواجهة الدمار والاجتياح، ويسعى إلى أن تقتنص الكتابة في شبكتها المغوية تفاصيل تلك السجادة العجمية الباذخة الثراء التي كانتها لبنان، والتي أخذت الحرب تسحب خيوطها من تحت أقدام أسمهان خيطاً خيطاً. فتعيد أسمهان عبر رسائلها نسج هذه الخيوط واستنقاذ أنماطها وأشكالها وتوارخها المستباحة في عمل إبداعي يجسد لنا ما دار في لبنان أثناء سنوات الحرب الدامية من خلال تقطيعه الجميل لأوصال عملية الكتابة نفسها. فكتابة الحرب لا تتأتى بدون الحرب على الكتابة القديمة والأشكال التقليدية، وتمزيق أشلائها.

لكن عين المرأة الحساسة تجمع هذه المزق المقطعة وتضم أشلاءها - كما جمعت إيزيس مزق أوزوريس المتناثرة - عبر منظورها المانح للحياة، لتنهض من رماد هذا الخراب الجميل عنقاء جديدة. فقد أصبحت الكتابة الروائية في (بريد بيروت) معادلاً للحالة التي عاشتها المدينة، واستحالت الكلمات إلى ندف من ذكريات وحيوات ووقائع وأحداث، قطع من شظايا لامعة تنعكس على صفحتها الصقيلة مرة المطفأة أخرى صور رائقة العتامة لتجليات أهوال الت
استدارت فيه الذات على نفسها تدمر أجمل ما فيها في طقس عبثي رهيب.
الخراب الجميل تتفتق عن القصص وتتفتح عليها في بناء متراكب يعتمد عل
الأشخاص والأحداث والحالات، وتندغم فيه العلاقة بالأرض والذكريات و
الفلسطينيين والسياسة والمهاجرين والرهائن وبكل تفاصيل الحرب الدامية.
الرسائل تطل علينا صورة أسمهان /المرأة/ الجوهر اللبناني/ الإنساني الذي
شيء من حولها، بدلت المصائر وقلبت المكانات، لكنها لم تستطع أبداً أن تجهز
الإنساني في داخلها.

